مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

لابن فضل الله العمري
شهاب الدين أحمد بن يحيى
المتوفى سنة ٧٤٩ هجرية

أشرف على تحقيق الموسوعة
وحقق هذا السفر
كامل سلمان الجبوري

الجزء الثامن

مشاهير الفقراء والصوفية



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title : MASĀLIK AL-ʾABṢĀR FĪ MAMĀLIK AL-ʾAMṢĀR

Classification: Lexicons

Author : Šahābuddin Ibn faḍlullah al-ʿUmari

Editor : Kāmil Salmān al-Jubūri and: Mahdi al-Najm

Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Pages : 10240 (15 Volumes)

Size : 17*24

Year : 2010

Printed in : Lebanon

Edition : 1st

الكتاب : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

التصنيف : موسوعات

المؤلف : شهاب الدين ابن فضل الله العمري

المحقق : كامل سلمان الجبوري ومهدي النجم

الناشر : دار الكتب العلميــة – بيروت

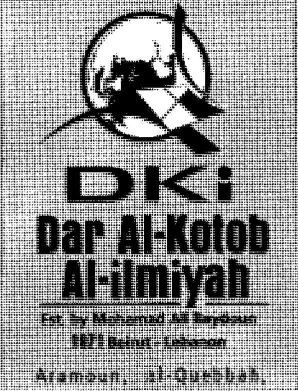
عدد الصفحات : 10240 (27 جزءاً في 15 مجلداً)

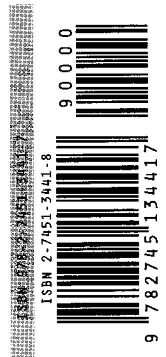
قياس الصفحات: 17*24

سنة الطباعة : 2010

بلد الطباعة : لبنــان

الطبعة : الأولى





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين، سيدنا محمد، وآله الطيبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين.

وبعد:

فهذا هو السفر الثامن من كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لشهاب الدين، أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري الدمشقي، المتوفى بها سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م.

وقد ترجم فيه المؤلف لعدد كبير من مشاهير الفقراء والمتصّوفين.

وقد اعتمدت في تحقيق هذا السفر على نسختين هما:

١ـ نسخة أحمد الثالث ـ طوبقبوسراي ـ استانبول برقم ٢٧٩٧/ ٥ ص١ـ ٢٧٧.

وقدْ كتبت في الأصل برسم خزانة السلطان المملوكي، الملك المؤيد، شيخ ابن عبد الله المحمودي (ت ٨٢٤هـ/ ١٤٢١هـ) ووقّفها الملك المؤيد على طلبة العلم بجامعه (المؤيدي) في القاهرة.

والتي قام بنشرها مصوّرة العلامة الدكتور فؤاد سزكين ـ معهد تأريخ العلوم العربية والإسلامية ـ فرانكفورت ـ ألمانيا الإتحادية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

وقد جعلتها الأصل في عملي.

٢ـ نسخة مكتبة أيا صوفيا ـ مكتبة السليمانية ـ استانبول برقم ٣٤٢١ المحفوظة نسختها المصوّرة في مكتبة الكونغرس الأمريكي.

وقد استفدت منها بواسطة الميكروفلم المحفوظ في مكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت برقم 41, V.8. C1

أما منهجي في تحقيقه فهو كما ذكرته في مقدمتي للسفر الأول من الموسوعة.

هذا ما استطعت عمله، وحسبي أني كنت مخلصاً فيه. والله من وراء القصد. وهو حسبي ونعم الوكيل.

جمهورية العراق ـ الكوفة

كامل سلمان الجبوري



صفحة العنوان ـ مخطوط أحمد الثالث ـ طوبقبوسراي ـ استانبول رقم ٢٧٩٧/ ٥

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد
فأما طوائف الفقراء خلاصة ذوي القلوب وخاصة المحبوب
فقد ذكرت منهم من أمكن في زماننا إذ كانت الأرض لا تخلو من قائم
لله بحجة ومهيمن على اتباع شرائع رسله وقليل ما هم ونعرفهم بسيماهم
كما قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أشخاصهم مفقودة وأمثلتهم
في القلوب موجودة فأما من سلك ضلالا لا استماه طريقه وانتحل باطلا
دعاه الحقيقة فلي أوليك العنا وقد قال رجل القوم الجنيد رحمة الله عليه
كل حقيقة لا تصدقها الشريعة فهي كفر وقد ذكرتهم من أهل الجانبان
جريا على العادة وبالله التوفيق. فمنهم أويس القرني
وهو أويس بن عامر بن جزء بن مالك المرادي القرني خير التابعين
أشرقت لياليه المقمرات ورشفت إليه القلوب رشف الحجيج الجمرات
أزهر من تلك التربات وظهر من تلك النفوس المطهرات وقد ذهب
بعض من تكلم على الحديث الشريف أنه المعني بقوله صلى الله عليه وسلم إني
لأجد ريح الرحمن من قبل اليمن وكان وجهه نورا وإشراقا وظهورا أسمى
فما شبه به أحد ولا اقترن وسبق سبق الجواد فما لزه سابق في قرن وكان
سراج ذلك الصدر وبدرا في التمام وعلو القدر. وروى مسلم في صحيحه
أن عمر بن الخطاب كان إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم أفيكم
أويس فقال أنت أويس بن عامر فقال نعم قال من مراد ثم من قرن قال
نعم قال فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم قال نعم
قال لك والدة قال نعم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن
كان به برص فبرئ منه إلا موضع درهم له والدة هو بها بر لو أقسم على الله
لأبره فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل فاستغفر لي فاستغفر له فقال

الصفحة الأولى ـ مخطوطة أحمد الثالث ـ طوبقبوسراي ـ استانبول رقم ٢٧٩٧/ ٥

ثم حدثوا السلطان فيه فاستشاط غضبا وامر بضربه بالمقارع فكاد
فارقه لا يستدرك فقيض له من بلغ السلطان الغضبة واوصل اليه
الخبر على جليته وعرفه بمكانة الشيخ وما هو عليه من العلم
والدين فحركه الله له وطلب تلطيف غيظه عليه بردا وسلاما له
وبعث الى الحكام بالتمهل في امره ثم طلبه السلطان وادعى
عليه لديه وسأله عما قال فاعترف فحكم بصحة اسلامه وقبول
دوله وابقائه على ماله وزوجه وعدالته ومناصبه بعد
استيفاء الشرائط الشرعية وفعل كما يجب شرعا ثم عقد له مجلس
بالمدرسة الصالحية عند قاضي القضاة جلال الدين القزويني
فطلبه فنزل من القلعة اليه والناس حوله وقد ملأ سواد الناس
ما بين القلعة والمدرسة فلما حضر مجلس الحكم العزيز ادعى عليه بما جاء
بما حكم به السلطان واوصل حكم السلطان بالقاضي القزويني
وصدر حكما اخر مستقلا للشيخ مثل ذلك وامتنع من الكلام في
المجالس العامة ثم تكلم وهو رجل فتح الله عليه من القلوب
وجمع له من اشتات ما لا هو في طرظان هذا الى حسن الشكل
ونور الوجه والصورة وجمال الذات والهمة وجودة الخط وحسن
اللفظ وبراعة اللسان وذرابة الفن وجميل الثناء فانما لدهر
وزق جنا وتيه وزمان ابعد المدى عنه وله نظر ثاقب في الادب

الصفحة الأخيرة ـ مخطوط أحمد الثالث ـ طوبقبوسراي ـ استانبول رقم ٢٧٩٧/ ٥



صفحة العنوان ـ مخطوط أيا صوفيا ـ مكتبة السليمانية ـ استانبول رقم ٣٤٢١

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد واله

[illegible] الفقرا خلاصة ذوي العلوم وخاصة

المحبوب فقد ذكرت منهم من امكن الى زماننا اذ كانت الارض

لا تخلوا من قايم لله بحجة وهم على اتباع شرايع رسله

[illegible] وتعرفهم بسيماهم كما قال امير المومنين علي رضي الله

عنه اشخاصهم مفقودة وامثلتهم في القلوب موجودة فاما من

سلك [illegible] لا سماء الطريقة وانتحل بالادعاء الحقيقة

على اولئك العفا وقد قال رجل القوم الجنيد رحمه الله عليه

كل حقيقة لا تصدقها الشريعة فهي كفر وقد ذكرتهم من

اهل [illegible] على [illegible] وبالله التوفيق

[illegible] الداراني الزاهد سيد التابعين

بالشام الذي صنو المعجزات وحاز الكرامات المنجزات [illegible]

باقتحام الضرام [illegible] للالتهام والالتقام اوقدت له النار

خاض [illegible] ومن فيها ملك اوساقه ويقينه

يدفع عنه [illegible] يقول بالنار كوني بردا وسلاما فاض لاجل

موقوت [illegible] الطف والياقوت ياقوت [illegible] احسن

وبه [illegible] في كل افق ثوبه اختلف في اسمه

الصفحة الأولى ـ مخطوط آيا صوفيا ـ مكتبة السليمانية ـ استانبول رقم ٣٤٢١

[illegible]

عليه الله [illegible] بحمد الله سبحانه

سلامه وقوله [illegible] ويقتا به على ما الدعوه وحسن

وعد إليه ومناصبه بعد استيفاء الشرائط الشرعية

وعمل كلما يجب شرعا ثم عقد له مجلس بالمدرسة

الصالحية عند قاضي القضاة جلال الدين القزويني

فنزل إليه من القلعة [illegible] إليه والناس حوله

وقد ملأ سواد الناس ما بين القلعة والمدرسة

فلما حضر مجلس الحكم العزيز ادعى عليه فأجاب

بما حكم به السلطان وأوصل حكم السلطان بالقاضي

القزويني وحكم حكما آخر مستقلا للشيخ بمثل

ذلك وامتنع من الكلام في المجالس العامة ثم تكلم

وهو ذو حظ قد جمع الله عليه من القلوب وجمع له من

أسباب ما لا هو في ظن [illegible] هذا إلى حسن الشكل

وحسن الوجه والصورة وجمال الذات والهيئة

وجودة الخط وحسن اللفظ وبراعة الإشارة وكرم

النفس وحمل السجايا فاهتدا الدهر [illegible] وليته

الصفحة ما قبل الأخيرة ـ مخطوط أيا صوفيا ـ مكتبة السليمانية ـ استانبول رقم ٣٤٢١

وَزمانٍ ابعَد المدَى عندهُ وله نظَرٌ ناقِدٌ في الادَبِ ونظمٌ بديعٌ

الصفحة الأخيرة ـ مخطوط أيا صوفيا ـ مكتبة السليمانية ـ استانبول رقم ٣٤٢١



مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

لابن فضل الله العمري

شهاب الدين أحمد بن يحيى

المتوفى سنة ٧٤٩ هجرية

أشرف على تحقيق الموسوعة

وحققه هذا السفر

كامل سلمان الجبوري

الجزء الثامن

مشاهير الفقراء والصوفية

/٢/ بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد

فأما طوائف الفقراء، خلاصة ذوي القلوب، وخاصة المحبوب، فقد ذكرت منهم من أمكن إلى زماننا، إذ كانت الأرض لا تخلو من قائم لله بحجة، ومهيمن على أتباع شرائع رسله، وقليلٌ ما هم، وتعرفهم بسيماهم، كما قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: «أشخاصهم مفقودة، وأمثلتهم في القلوب موجودة». فأما من سلك ضلالاً سماه طريقة، وانتحل باطلاً دعاه حقيقة، فعلى الدنيا العفاء.

وقد قال رجل القوم الجنيد رحمة الله عليه: «كل حقيقة لا تصدقها الشريعة، فهي كفر». وقد ذكرتهم من أهل الجانبين جرياً على العادة، وبالله التوفيق.

* * *

[مشاهير الفقراء والمتصوفين من أهل المشرق]

فمنهم:

[١]

أُوَيسُ القَرَنِيُّ(١)

وهو أويس بن عامر بن جَزء بن مالك المرادي القَرَني، خير التابعين.

أشرقت لياليه المقمرات، ورشقت إليه القلوب رشق الحجيج الجمرات، أزهر بين تلك النيرات، وظهر بين تلك النفوس المطهرات، وقد ذهب بعض من تكلم على الحديث؛ أنه المعني بقوله ﷺ: «إني لأجد ريح الرحمن من قِبَلِ اليمن». وكان وضحه نوراً وإشراقاً وظهوراً، سمق فيما شبه به أحد، ولا أقرن وسَبَقَ سِبْقَ الجواد، فما لزَّ به سابق في قرن، وكان سراء ذلك الصدر، وبدراً في التمام وعلو القدر.

روى مسلم في صحيحه: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن، سألهم: أفيكم أويس؟ [حتى أتى على أويس]، فقال: أنت أويس بن

---

(١) ترجمته في: طبقات ابن سعد ٦/ ١٦١ـ ١٦٥، الزهد لابن المبارك ٢/ ٢٩٣، الزهد لابن حنبل ٤١١ـ ٤١٦، طبقات خليفة ١٤٦، التاريخ لابن معين ٢/ ٤٥، ٤٦، التاريخ الكبير ٢/ ٥٥ رقم ١٦٦٦، ترتيب الثقات للعجلي ٧٤ رقم ١٢٤، المعرفة والتاريخ ٢/ ١٠٧ و٧٨٠ و٣/ ١٠٥، العقد الفريد ٣/ ١٧١ و٣٩٨، الجرح والتعديل ٢/ ٣٢٦ رقم ١٢٤٥، حلية الأولياء ٢/ ٧٩ـ ٨٧ رقم ١٦٢، الضعفاء الكبير للعقيلي ١/ ١٣٥ـ ١٣٧ رقم ١٦٧، جمهرة أنساب العرب ٤٠٧، ربيع الأبرار ٤/ ١٩٨ و٣٨٥، مشاهير علماء الأمصار ١٠٠ رقم ٧٤٣، الثقات لابن حبّان ٤/ ٥٢، المستدرك ٣/ ٤٠٢ـ ٤٠٨، الكامل في ضعفاء الرجال لابن عديّ ١/ ٤٠٣، ٤٠٤، تهذيب تاريخ دمشق ٣/ ١٦٠ـ ١٧٧ وهو باسم «أوس»، الأنساب للسمعاني ١٠/ ١١٤، التذكرة الحمدونية ١/ ١٣٥ و١٣٦ و١٤٠، اللباب ٣/ ٢٩، أسد الغابة ١/ ١٥١، ١٥٢، الكامل في التاريخ ٣/ ٣٢٥، المعين في طبقات المحدّثين ٣٢ رقم ١٨٦، ميزان الاعتدال ١/ ٢٧٨ـ ٢٨٢ رقم ١٠٤٨، تلخيص المستدرك ٣/ ٤٠٢ـ ٤٠٨، سير أعلام النبلاء ٤/ ١٩ـ ٣٣ رقم ٥، الوافي بالوفيات ٩/ ٤٥٦، ٤٥٧ رقم ٤٤١١، مرآة الجنان ١/ ١٠٢، الإصابة ١/ ١١٥ـ ١١٧ رقم ٥٠٠، تهذيب التهذيب ١/ ٣٨٦ رقم ٧٠٧، تقريب التهذيب ١/ ٨٦ رقم ٦٦١، لسان الميزان ١/ ٤٧١ـ ٤٧٥ رقم ١٤٤٩، شرح المقامات الحريرية ٢/ ٢١٧، خلاصة تذهيب التهذيب ٤١، تاج العروس (أوس)، تاريخ الإسلام (السنوات ١١ـ ٤٠هـ) ص٥٥٥.

عامر؟. قال: نعم. قال: من مراد ثم من قرن؟. قال: نعم. قال: فكان بك برص، فبرأت منه إلا موضع درهم؟. قال: نعم. قال: لك والدة؟ قال: نعم. قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مراد، ثم من قَرَن، كان به برصٌ فبرىء منه إلا موضع درهم. له والدة هو بها بَرٌّ. لو أقسم على الله لأبرَّه. فإن استطعت أن يستغفرُ لك فافعلْ». فاستغفرْ لي. فاستغفرَ له. فقال /٣/ له عمر: أين تريد؟. قال: الكوفة. قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟. قال: أكون في غبراء الناس أحبُّ إليَّ.

فلما كان في العام المقبل، حجَّ رجلٌ من أشرافهم، فوافقَ عمرَ، فسأله عن أويس؟. قال: تركته رثَّ البيت، قليل المتاع. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يأتي عليكم أويس بن عامر، مع أمداد أهل اليمن، من مراد، ثم من قرن. كان به بَرَصٌ، فبرىء منه، إلا موضع درهم. له والدة هو بها بَرٌّ. لو أقسم على الله لأبرَّه. فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل». فأتى أويساً؛ فقال: استغفر لي. قال: أنت أحدث عهداً بسفر صالح. فاستغفر لي. قال: استغفر لي. قال: أنت أحدث عهداً بسفر صالح، فاستغفرْ لي. قال: لقيت عمر؟. قال: نعم. فاستغفرْ لي. ففطن له الناس، فانطلق على وجهه.

وروى مسلم أيضاً: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن خير التابعين رجلٌ يقال له أويس، وله والدةٌ. وكان به بياض؛ فمروه فليستغفر لكم».

قال ابن الكلبي: قتل أويس مع علي رضي الله عنه يوم صفين، وكانت صِفِّين سنة سبع وثلاثين للهجرة. وليس لأويس حديث مسند.

ومنهم:

[٢]

أبو مسلم الخولاني الداراني[(١)]

الزاهد، سيد التابعين بالشام، أتى بصنو المعجزات، وجاء بالكرامات

---

(١) ترجمته في: التاريخ لابن معين ٢/ ٧٢٥، والزهد لابن المبارك ١٥٨ و٣٣٨ و٥٢٨، والملحق به ٢١٥، وتاريخ الطبري ٤/ ٣٥٢، وطبقات ابن سعد ٧/ ٤٤٨، وطبقات خليفة ٣٠٧، ومشاهير علماء الأمصار ١١٢ رقم ٨٥٦، والمعارف ٤٣٩، والأخبار الموفقيّات ٢٩٩، ٣٠٠، والتاريخ الصغير ٦٧ و٧٠، والتاريخ الكبير ٥/ ٥٨، ٥٩ رقم ١٣٣، وأنساب الأشراف ق٤ج١/ ٣٥٤، وتاريخ الثقات ٥١١ رقم ٢٠٤٣، والجرح والتعديل ٥/ ٢٠ رقم ٩٠، وتاريخ داريا ٥٩، وحلية =

المنجزات، ولم يبال باقتحام الضرام، وفتح فمها للإلتهام والإلتقام، أوقدت له النار فخاضها مشمراً عن ساقه، ومحملاً من قرونها ملْ أوساقه، ويقينه يدفع عنه آلاماً، ويقول: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا﴾(١) فاض لأجلٍ موقوت، وخاض النار حتى انطفأت، والياقوت ياقوت، فآب أحسن أوبة، وجاء بآية خليلية يضرب لها في كل أفق نوبة.

اختلِف في اسمه على أقوال، أصحها: عبدالله بن ثُوَب. قدم من اليمن، وأسلم في حياة النبي ﷺ، وقدم المدينة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وروى عن عمر، /٤/ ومعاذ بن جبل، وأبي عبيدة، وأبي ذر، وعبادة بن الصامت. وروى عن جماعة من التابعين. وحديثه في صحيح مسلم، والسنن الأربعة.

قال إسماعيل بن عياش: حدثنا شرحبيل بن مسلم، قال: أتى أبو مسلم الخولاني المدينة وقد قبض رسول الله ﷺ، واستخلِف أبو بكر. ولما تنبَّأ الأسود باليمن، بعث إلى أبي مسلم؛ فأتاه بنار عظيمة، ثم إنه ألقى أبا مسلم فيها، فلم تضرّه، فقيل للأسود: إن لم تَنْفِ هذا عنك أفسد عليك من اتَّبعك. فأمره بالرحيل، فقدم المدينة، فأناخ راحلته ودخل المسجد يصلي، فبصُر به عمرُ رضي الله عنه، فقام إليه، فقال: ممَّن الرجل؟. قال: من اليمن. فقال: ما فعل الذي حرقه الكذَّاب بالنار؟. قال: ذاك عبد

= الأولياء ٢/ ١٢٢ـ ١٣١ رقم ١٦٨، والإكمال ١/ ٥٦٨، وجمهرة أنساب العرب ٤١٨ (وفيه أبو مسلم الخولاني عبد الله بن أيوب) وهو تصحيف، والأخبار الطوال ١٦٢، ١٦٣، والعقد الفريد ١/ ٢٤٧ و٣/ ١٧١، والمعرفة والتاريخ ٢/ ٣٠٨ و٣٨٢ و٣٨٤ و٤٧٨ و٧٧٢ و٣/ ١٩٩، وثمار القلوب ٦٨٨، وعيون الأخبار ٢/ ١١٧، وتاريخ أبي زرعة ١/ ٢٢٦ و٢٢٧ و٣٨٦ و٢/ ٦٩٠، والاستيعاب ٢/ ٢٧٢، وتاريخ دمشق (تراجم عبادة بن أوفى ـ عبد الله بن ثُوَّب) ٤٨٣ـ ٥٤٥ رقم ٢٠٦، وتهذيب تاريخ دمشق ٧/ ٣١٤ـ ٣٢٢، وأسد الغابة ٣/ ٣٩٥، وصفة الصفوة ٤/ ١٧٩ـ ١٨٥ و٥/ ٢٩٧، ٢٩٨، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٧ـ ١٤ رقم٢، وتذكرة الحفاظ ١/ ٤٦، والكاشف ٣/ ٣٣٣ رقم ٣٨٥، والوفيات لابن قنفذ ٩٧ رقم٦٣، وجامع التحصيل ٢٥٢ رقم ٣٤١، وفوات الوفيات ٢/ ١٦٩ رقم ٢١٧، والبداية والنهاية ٨/ ١٤٦، ومرآة الجنان ١/ ١٣٨، والوافي بالوفيات ١٧/ ٩٩، ١٠٠ رقم ٨١، وتهذيب الكمال ١٧٠ و١٦٥٤، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٢٣٥، ٢٣٦ رقم ١٠٦٨، وتقريب التهذيب ٢/ ٤٧٣ رقم ٧١، والإصابة ٣/ ٨٧ رقم ٦٣٠٢ و٤/ ١٩٠ رقم ١١١٧، والتذكرة الحمدونية ١/ ١٩٥، وربيع الأبرار ١/ ٣٩٨، والبيان والتبيين ٣/ ١٢٧، والبصائر والذخائر ٢/ ٢٠١، والعزلة لأبي سليمان الخطابي ـ القاهرة ١٣٥٢ ـ ص٨٥، والإيجاز والإعجاز ٩، وطبقات الحفاظ ١٣، وشذرات الذهب ١/ ٧٠، تاريخ الإسلام (السنوات ٦١ـ ٨٠هـ) ص٢٩٢ رقم١٣٣.

(١) سورة الأنبياء: الآية ٦٩.

الله بن ثُوَب. قال: فنشدتك بالله أنت هو؟. قال: اللهم نعم. فاعتنقه عمر وبكى، ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين الصِّدِّيق، وقال: الحمد لله الذي لم يُمِتني حتى أراني في أمَّة محمد ﷺ من صُنِعَ به كما صُنِعَ بإبراهيم الخليل.

قال ابن عياش: عن شرحبيل بن مسلم، عن سعيد بن هانيء قال: قال معاوية: إنما المصيبة كل المصيبة بموت أبي مسلم الخَولاني، وكُرَيْبِ بنِ سيف الأنصاري. قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي: هذا حديث حسن الإسناد، يعطي أن أبا مسلم توفي قبل معاوية.

وقال المفضَّل بن غسان: توفي أبو مسلم سنة اثنتين وستين، ومعاوية توفي في قول أبي معشر وغيره سنة ستين.

ومنهم:

[٣]

رَابِعَةُ بنتُ إسماعيلَ العَدَوِيَّة البصريّة، مولاة آل عتيك، الصالحة، المشهورة[١]

كانت أية للمبصر، وغاية لم تقصر، سبقت فحول الرجال، وبسقت عند حلول الآجال، وأُغرِمَتْ بحب السهر، وملكت نفسها ملك من قَهَر، فأصبحت لها شكيمتها، وأصبحت مثل الصباح شيمها، ودامت في أوديتها هائمة، وفوق ألويتها حائمة، إلى أن دعيت فأجابت، وجالت المهامه وجابت، فتمت إرادتها، وختمت بالخير سعادتها، وبوأت الأرض المقدسة / ٥/ مدفناً، وحققت أن رأي سواها كان يفنى.

كانت [رضي الله عنها] من أعيان عصرها، وأخبارها في الصلاح مشهورة، وذكر أبو القاسم القشيري في «الرسالة» أنها كانت تقول في مناجاتها: «إلهي! أتحرق بالنار قلباً يحبك؟» فهتف بها مرة هاتف: «ما كنا نفعل هذا، فلا تظنِّي بنا ظنَّ السوء».

وقال سفيان الثوري رضي الله عنه عندها يوماً: واحزناه!. فقالت: لا تكذب بل قل: وا قلَّة حزناه، لو كنت محزوناً لم يتهيَّأ لك أن تتنفس.

وكانت رضي الله عنها تقول: «ما ظهر من أعمالي فلا أعدُّه شيئاً».

---

(١) ترجمتها في: وفيات الأعيان ٢/ ٢٨٥- ٢٨٨، الوافي بالوفيات ١٤/ ٥١- ٥٢ رقم ٥٠، مرآة الجنان ١/ ٣٧٨، صفة الصفوة ٤/ ٢٧- ٣١ رقم ٥٨٨، النجوم الزاهرة ١/ ٣٣، جامع كرامات الأولياء ٢/ ١٠، شذرات الذهب ١/ ١٩٣، سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٤١ رقم ٥٣، الأعلام ٣/ ١٠.

ومن وصاياها: «اكتموا حسناتكم كما تكتموا سيئاتكم».

وقالت عبدة بنت أبي شوَّال ـ وكانت تخدم رابعة ـ: كانت رابعة تصلي الليل كلَّه، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاَّها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهي فزعة: «يا نفس كم تنامين؟! يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور». وكان هذا دأبها حتى ماتت.

ولما حضرتها الوفاة، دعتني وقالت: يا عبدة! لا تُؤْذِني بموتي أحداً، وكفِّنيني في جبتي هذه، وهي جبة من شَعَر، [كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون. قالت: فكفَّنَّاها في تلك الجبة]. وفي خمار صوف كانت تلبسه، ثم رأيتها بعد ذلك بسنة أو نحوها في منامي عليها حلقة إستبرق خضراء، وخمار من سندس أخضر، لم أر شيئاً قط أحسن منه، فقلت: يا رابعة! ما فعلتِ بالجبة التي كفَّنَّاكِ فيها والخمار الصوف؟. قالت: إنه والله! نزع عني، وأبدلت به ما ترينه عليَّ، وطويت أكفانيَ، وختم عليها، ورفعت في علِّيِّين ليكمل لي بها ثوابها يوم القيامة. فقلت لها: لهذا كنت تعملين أيام الدنيا. فقالت: وما هذا عند ما رأيتُ من كرامة الله عزَّ وجلَّ لأوليائه؟. فقلت لها: فما فعلت عبيدة بنت أبي كلاب؟ فقالت: هيهات، هيهات! سبقتنا واللهإلى الدرجات العلى، فقلت: وبمَ؟ وقد كنت عند الناس، ـ أي أكبر منها ـ؟. قالت: إنها لم تكن تبالي على أي حال أصبحت من الدنيا وأمست، فقلت لها: فما فعل /٦/ أبو مالك، أعني ضيغماً؟ قالت: يزور الله عز وجلَّ متى شاء. قلت: فما فعل بشر بن منصور؟. قالت: بخٍ بخٍ، أعطي واللهفوق ما كان يؤمِّل. قلت: فمريني بأمر أتقرَّب به إلى الله عز وجلَّ، قالت:

«عليك بكثرة ذكره، يوشك أن تغتبطي بذلك في قبرك». رحمها الله تعالى.

وقال بعضهم: كنت أدعو لرابعة العدوية، فرأيتها في المنام تقول: هداياك تأتينا على أطباق من نور، مخمَّرة بمناديل من نور.

قال ابن الجوزي في «شذور العقود»: توفيت سنة خمس وثلاثين ومائة.

وقال غيره: سنة خمس وثمانين [ومائة]. وقبرها على رأس جبل يسمى «الطور» يطل على القدس، من شرقيه. وأغرب ما في هذا الجبل ما سمعناه بالقدس الشريف في ذي الحجة سنة خمس وأربعين وسبعمائة، أن الناس احتاجوا إلى استسقاء الغيث من الله عزَّ وجلَّ قال: فصعد المسلمون واليهود، والنصارى، والسامرة هذا الجبل، فاستقبل المسلمون الكعبة الحرام، واستقبل اليهود الصخرة المعظَّمة، واستقبل النصارى الشرق، واستقبل السامرة جهة نابلس، فصارت كل طائفة إلى ظهور سائر الطوائف، وهذا لا يتفق في مكان آخر. حكى ذلك الحافظ العلاَّمة أبو سعيد العلائي.

وأورد السهروردي في «عوارف المعارف» لرابعة رحمها الله تعالى[١]: [من الكامل]

إنِّي جَعَلْتُكَ في الفؤادِ مُحَدِّثي ... وأَبَحْتُ جسمي من أراد جُلوسي

فالجسمُ مني للجليسِ مُؤانسٌ ... وحبيبُ قلبي في الفؤادِ أنيسي

ومنهم:

[٤]

حَبِيبُ العَجَمِيُّ[٢]

أتى بخوارق مثل الإعجاز، وتدفق كالسحاب في الإنجاز، وأتى من قاصية بلاد، وجزَّ ناصية الليالي والآباد، حتى جال في كل مجال، ووصل إلى حيث حصَّل ما حصَّل، وأتى من أرض بعيد مداها، بديع هداها، لا تفهم ألسنتها الأعاجم، ولا تفهم الحُدَّاث عنها إلا التراجم، فجاد لها مسعى، وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى، / ٧/ فلم يغلق دونه الباب، وكم تعلَّق بغباره ذوو الألباب.

روي أنه كان يقول: «كل عمل لا يكون سرُّه آثر عندك من علنه، فهو رياء».

قال بعضهم: صحبت في طريق الحجِّ رجالاً منهم حبيب العجمي، فكنت أظنُّه غلامهم لقيامه بخدمتهم، فسألتهم عنه؟ فإذا هو سيدهم.

وقال عبد الله القاشاني: بقيت أياماً أحدِّث نفسي: أي الرجال أفضل درجة؟ ـ أعني من رجال القوم ـ؟ فبينا أنا نائم ليلة من الليالي، وإذا أنا أنظر إلى السماء وهي كالصحيفة، وفيها مكتوب بخط من نور، سطر من المشرق إلى المغرب، فقرأته فإذا هو: «حبيب، حبيب، حبيب» مكرَّرةً ثلاث مرات.

وحكي عنه قال: كان حبيب بين جماعة في يوم شديد الحر في ذروة جبل مقفر، من أرض سجستان، فقالوا: لقد أضرَّت بنا هذه الظهيرة، وقد حانت الصلاة، فكيف

---

(١) عوارف المعارف ١/ ٢٣٨.

(٢) حبيب العجمي، أبو محمد الزاهد البصري.
ترجمته في: الوافي بالوفيات ١١/ ٢٩٩، صفة الصفوة ٣/ ١٨٥، حلية الأولياء ٦/ ١٤٩، سير أعلام النبلاء ٦/ ١٤٣، مشاهير علماء الأمصار ١٥٢، اللباب لابن الأثير ٢/ ٣٢٦، ميزان الاعتدال ١/ ٤٥٧، تهذيب التهذيب ٢/ ١٨٩، تاريخ دمشق ١٢/ ٤٥، الخلاصة ٧١، تهذيب تاريخ دمشق ٤/ ٣٢، الجرح والتعديل ٣/ ١١٢، تاريخ الإسلام (السنوات ١٢١ـ ١٤٠هـ) ص٣٩٣ـ ٣٩٥.

نقوم بها ونحن نكاد نتساقط؟. قال: فدمعت عين حبيب ثم قال: «اللهم إنهم عبادك يريدون طاعتك، اللهم فاسقهم». قال: فكأنما فتحت أبواب السماء بالمطر، وأتاهم عارض من بَرَد، فابتردوا به وشربوا، وتوضؤوا. ثم قاموا فصلّوا، فلما فرغوا أمسكت السماء.

وحكي عنه قال: حججتُ مرة، فلما كان يوم عرفة، صعدت الجبل حتى كنت بأعلاه، فنظرت بعيني؛ فإذا بالسهل والجبل قد فرشها الحُجَّاج، وكانت سنة جامعة، فاستكثرت أهل الموقف، فقلت في نفسي: «لعلَّ في هؤلاء من لا يغفر له!» فسمعت قائلاً يقول بصوت ملأ ما بين الجبلين: «هو أكرم من هذا».

قلت: ويقرب من هذا ما حكاه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي في ترجمة سليمان بن داود المباركي عن التتائي قال: «أفضت من عرفات وقد مضى الناس، فبينما أنا أسير وحدي، إذا أنا برجلين يقول أحدهما لصاحبه: يا حبيب!. فقال الآخر: لبيك!. قال: أترى الذي تحابينا فيه يعذِّبنا؟. قال: فسمعوا صوتاً: «ليس بفاعل، ليس بفاعل».

/٨/ ومنهم:

[٥]

أَبُو إسحاقَ، إبراهيمُ بنُ أَدْهَمَ بنِ مَنصُورٍ[١] من كورة بلخ

مَلِكٌ لاقتْ بعطفيه حلل التقوى الفاخرة، ومَلَكَ الدنيا فرغب في الآخرة، بلغ ما

---

(١) إبراهيم بن أدهم بن منصور، التميمي البلخي أبو إسحاق: زاهد مشهور. كان أبوه من أهل الغنى في بلخ. فتفقه ورحل إلى بغداد. وجال في العراق والشام والحجاز. وأخذ عن كثير من علماء الأقطار الثلاثة. وكان يعيش من العمل بالحصاد وحفظ البساتين والحمل والطحن ويشترك مع الغزاة في قتال الروم. وجاءه إلى المصيصة (من أرض كيليكيا) عبد لأبيه يحمل إليه عشرة آلاف درهم ويخبره أن أباه قد مات في بلخ وخلف له مالاً عظيماً. فأعتق العبد ووهبه الدراهم ولم يعبأ بمال أبيه. وكان يلبس في الشتاء فروا لا قميص تحته ولا يتعمم في الصيف ولا يحتذي، يصوم في السفر والإقامة، وينطق بالعربية الفصحى لا يلحن. وكان إذا حضر مجلس سفيان الثوري وهو يعظ أوجز سفيان في كلامه مخافة أن يزل. أخباره كثيرة وفيها اضطراب واختلاف في نسبته ومسكنه ومتوفاه. ولعل الراجح أنه مات سنة ١٦١هـ/ ٧٧٨م. ودفن في سوفنن (حصن من بلاد الروم) كما في تاريخ ابن عساكر. وفي المكتبة الظاهرية بدمشق «سيرة السلطان إبراهيم ابن أدهم - خ» قصة عامية.

ترجمته في: التاريخ لابن معين ٢/ ٦، والورع لأحمد ٥ و١١ و٨٦ و١٨٦، والتاريخ الكبير ١/ ٢٧٣ رقم ٨٧٧، والمعرفة والتاريخ ٢/ ٤٥٥ و٣/ ٢٨، والجرح والتعديل ٢/ ٨٧ رقم ٢٠٩، =

لا يتوهم، وسبق ولا غرو له، وهو ابن أدهم، وكان أي رجل، لم تجرَّه الدنيا بحبالها، ولـم تغره الدنيا بخيالها، فأعرض عن الأعراض، وبقايا سورها، وقليل ميسورها، وزهد زهداً صار فيه مثلاً يضرب، ورجلاً حديثه يُسْتَغرَب، إلى أن قطع الأجل كما يقطع المسافر المسافة، وحطَّ رحله حيث أمن المخافة.

وكان من أبناء الملوك، فخرج يوماً متصيِّداً، فأثار ثعلباً، وقيل: أرنباً، فهتف به هاتف: يا إبراهيم! ألهذا خُلِقْتَ، أم بهذا أُمِرْتَ؟. ثم هتف به من «قربوس» سرجه:

= ومشاهير علماء الأمصار ١٨٣ رقم ١٤٥٥، والثقات لابن حبّان ٦/ ٢٤، وأخبار القضاة لوكيع ٣/ ٧٥ و٨٨، والكنى والأسماء للدولابي ١/ ٩٩، وحلية الأولياء ٧/ ٣٦٧ حتى آخر الجزء، ٨/ ٥ـ ٥٨ رقم ٣٩٤، وعيون الأخبار ٢/ ٢٨٧ و٣٦٠ و٣/ ١٨٤، وربيع الأبرار ٤/ ١٠٩ و١٤٣ و١/ ٦٩٢، ٦٩٧ و١٥٤ و١٨٩ و٣٦٠ و٣٧٣، ومجابي الدعوة لابن أبي الدنيا ٩٢، وتاريخ جرجان ٩٣ و٢٥٤ و٤٤٣، والمحاسن والمساوىء ٣٦٢، والعقد الفريد ١/ ٢٧٥ و٣/ ٢١٣، وتاريخ دمشق (مخطوطة التيمورية) ٥/ ٥٦ وما بعدها، وتهذيب تاريخ دمشق ٢/ ١٧٠ـ ١٩٩، والرسالة القشيرية، ١/ ٤٣٨ و٢/ ٦٨٤، وبغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم (المصور) ٥/ ٢٠٨ وما بعدها، والتائبين من الملوك والسلاطين لابن قدامة المقدسي ٢٩ـ ٣٣، وطبقات الصوفية للسلمي ١٣، وتقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل ١/ ٢٠٦، والكامل في التاريخ ٦/ ٥٦، والتذكرة الحمدونية ١/ ١٧١ـ ١٧٥ و١٨١ و١٨٢ و٢/ ١٣٩، وصفة الصفوة ٤/ ١٥٢ـ ١٥٨ رقم ٧٠١، والقُصّاص والمذكّرين لابن الجوزي ٢٧٤، وسراج الملوك ٢٠، والذهب المسبوك في مواعظ الملوك للحميدي ٢٧٤، والمصباح المضيء ٢/ ٢٥٩، والشفا في مواعظ الملوك والخلاء لابن الجوزي ١٠٦، وتاريخ بغداد ٦/ ٤٧، ٤٨ في ترجمته خادمه (إبراهيم بن بشار رقم ٣٠٧٠)، والإشارات إلى معرفة الزيارات ٢٣ و٢٩، والمستطرف ١/ ٧٠ و٢/ ٣١٢، ونثر الدر ٤/ ٥٧، والبصائر والذخائر ٤/ ١٠٦، والصداقة والصديق ٢٥، ووفيات الأعيان ١/ ٣١ و٣٢ رقم ٦ و٤٤٣ و٢/ ٤٧٥ و٣/ ٣٢ و٣٣ و٧/ ٣٠٧، والتوّابين ١٤٩، وشرح المقامات ٢/ ٨٢، وتهذيب الكمال ٢/ ٢٧ـ ٣٩ رقم ١٤٤، وآثار البلاد وأخبار العباد ١٩٦ و٢٨٨ و٣٣٢ و٣٣٣ و٤٨٢ والعبر ١/ ٢٣٨، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٣٨٧ـ ٣٩٦ رقم ١٤٢، والمعين في طبقات المحدّثين ٥٩ رقم ٥٦٢، والكاشف ١/ ٣٢ رقم ١١١، والبداية والنهاية ١٠/ ١٣٥، ومرآة الجنان ١/ ٣٤٩، ٣٥٠، والوافي بالوفيات ٥/ ٣١٨، ٣١٩ رقم ٢٣٩٠، وفوات الوفيات ١/ ١٣، ١٤ رقم١، وخلاصة الذهب المسبوك ٩٥، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ٤١، ٤٢ رقم ٣١، ومهذب رحلة ابن بطوطة ١/ ٦٤، وطبقات الأولياء لابن الملقّن ٥ـ ١٥ رقم ١، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٨، وتهذيب التهذيب ١/ ١٠٢، ١٠٣ رقم ١٧٦، وتقريب التهذيب ١/ ٣١ رقم ١٦٦، وخلاصة تذهيب التهذيب ١٥، وشذرات الذهب ١/ ٢٥٥، ٢٥٦، ومعالم وأعلام لأحمد قدامة ق١ج١/ ٧١ـ طبعة دمشق ١٩٦٥، ومجلّة الرسالة الإسلامية ببغداد، مقال للدكتور رجب بيومي - ص٢٦، عدد شباط (فبراير) ١٩٧٠، وموسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي للتدمري ج١/ ٢٠٠ـ ٢١٠ رقم ٧، تاريخ الإسلام (السنوات ١٦١ـ ١٧٠هـ) ص٤٣ـ ٥٩، رقم٣.

والله ما لهذا خُلِقْتَ، ولا بهذا أُمِرْتَ؟. فنزل عن دابَّته، وصادف راعياً لأبيه، فأخذ جُبَّته، وكانت من صوف، فلبسها، وأعطاه ثيابه، وقماشه، وفرسه. ثم دخل مكة، وصحب بها سفيان الثوري، والفضيل بن عياض، ثم ارتحل إلى الشام، وأقام بها. وكان يأكل من عمل يده؛ مثل: الحصاد، وعمل البساتين، وغيرهما. وصادف في بعض البراري رجلاً علَّمه «اسم الله الأعظم» فدعا به، فرأى الخضر عليه السلام. وكان ـ رضي الله عنه ـ كبير الشأن في باب الورع: يحكى عنه أنه قال: «أطب مطعمك، ولا حرج عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار».

وكان من دعائه: «اللهمَّ! انقلني من ذلِّ معصيتك إلى عز طاعتك».

وروي أنه كان يحفظ كرماً؛ فمرَّ به جندي، فقال: أعطنا من هذا العنب. فقال: ما أمر به صاحبه. فأخذ الجندي يضربه بسوطه، فطأطأ رأسه وقال: «اضرب رأساً طالما عصى الله!!».

وقيل: مرَّ إبراهيم بن أدهم بسوق البصرة، فاجتمع إليه الناس، وقالوا: يا أبا إسحاق! إن الله يقول في كتابه: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] ونحن ندعوه فلا يستجيب لنا!. فقال: يا أهل البصرة! ماتت قلوبكم في عشرة أشياء: أولها: عرفتم الله ولم /٩/ تؤدُّوا حقه. والثانية: قرأتم كتاب الله ولم تعملوا به. والثالثة: ادَّعيتم حبَّ رسول الله ﷺ وتركتم سُنَّته!. والرابعة: ادَّعيتم عدواة الشيطان ووافقتموه!. والخامسة: قلتم: نحبُّ الجنة، وما تعملون لها!. والسادسة: قلتم: إن الموت حق، ولم تستعدوا له!. والسابعة: قلتم: نخاف النار [ووهنتم] أنفسكم!. والثامنة: اشتغلتم بعيوب إخوانكم ونبذتم عيوبكم!. والتاسعة: أكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها!. والعاشرة: دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم!.

وقال إبراهيم بن بشار: سألت إبراهيم بن أدهم عن العبادة؟ فقال: «رأس العبادة التفكر والصمت، إلا عن ذكر الله تعالى». وقد بلغني أنه قيل للقمان: ما بلغ من حكمتك؟. فقال: لا أسأل عما قد كُفِيت، ولا أتكلَّفُ ما لا يعنيني. ثم قال: يا ابن بشار ! إنما ينبغي للعبد أن يصمت، أو يتكلَّم بما ينتفع به، أو ينفع به من موعظة، أو تنبيه، أو تخويف، أو تحذير. يا ابن بشار! مثِّل لبصر قلبك حضور مَلَكِ الموت ـ عليه السلام ـ لقبض روحك، فانظر كيف تكون؟. ومثِّل هول المطلع، ومساءلة منكر ونكير. فانظر كيف تكون؟. ومثِّل القيامة وأهوالها، وأفزاعها، والعرض، والحساب،

---

(١) سورة غافر: الآية ٦٠.

والوقوف، فانظر كيف تكون؟. ثم صرخ صرخة، ووقع مغشيًّاً عليه.

وكتب عمر بن منهال القرشي إلى إبراهيم بن أدهم، وهو بالرملة: أَنْ عظني موعظة أحفظها عنك. فكتب إليه: «أما بعد... فإن الحزن على الدنيا طويل، والموت من الإنسان قريب، وللنقص منه في كل وقت نصيب، وللبلاء في جسمه دبيب، فبادر بالعمل قبل أن ينادى بالرحيل، واجتهد في العمل بدار الممر قبل الانتقال إلى دار المقر». وقال أحمد بن الفضل العكي: سمعت أبي يقول: مرَّ إبراهيم بن أدهم بقيسارية، وقد تعجَّل ديناراً من نظارة كرم، فسمع صوت امرأة تصيح، فقال: ما لهذه؟. قالوا: تلد. / ١٠/ قال: وأي شيء نعمل لها عند ولادتها؟. قالوا: نشتري لها الدقيق، والزيت، والعسل، والسمن. فصرف ديناره، واشترى زنبيلاً، وملأه من هذه الأخبية، ثم حمله على رقبته إلى بابها، وقال: خذوا!. فنظروا... وإذا هم أفقر بيت من أهل قيسارية، وأعبده لله تعالى!!.

وقال بقية بن الوليد: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: تعلَّمت المعرفة من راهب يقال له: سمعان. دخلت عليه في صومعته، فقلت له: يا سمعان! منذ كم أنت ها هنا؟. فقال: منذ سبعين سنة!. فقال: يا حنيفي! وما دعاك إلى هذا؟. فقلت: أحببت أن أعلم. ثم قلت له: ما الذي تأكل؟. قال: في كل ليلة حمّصة!. قلت: فما الذي يهيج قلبك حتى يكفيك الحمّصة؟. فقال: ترى الدير الذي بحذائك؟. قلت: نعم. قال: إنهم يأتوني في كل سنة يوماً واحداً؛ فَيُزَيِّنُونَ صومعتي، ويطوفون حولها، ويعظِّموني بذلك، فكلَّما تثاقلت نفسي عن العبادة، ذكرت تلك الساعة، فأنا أحتمل جهد سنة لعزِّ ساعة، فاحتمل أنت يا حنيفي جهد ساعة لعزِّ الأبد. فوقعت المعرفة في قلبي. ثم قال لي: حسبك أو أزيدك؟. قلت: زدني. فقال: انزل عن الصومعة، فنزلت، فأدلى إلي ركوة فيها عشرون حمصة، وقال لي: ادخل الدير، فقد رأوا ما أدليت لك، فلما دخلت الدير، اجتمع النصارى حولي، فقالوا: يا حنيفي! ما الذي أدلى لك الشيخ؟. قلت: من قُوته. قالوا: وما الذي تصنع به؟. نحن أحقُّ به، فبعناه. قلت: بعشرين ديناراً؛ فاشتروه، ثم رجعت إلى الشيخ، فقال: يا حنيفي! لو التمست منهم عشرين ألف دينار لأعطوك!. ثم قال: هذا عزُّ من لا تعبده، فكيف عزُّ من تعبده؟. يا حنيفي! أقبِلْ على ربك، ودع المجيء والذهاب.

وقال إبراهيم بن أدهم: مررت براهب في صومعته، والصومعة على عمود، والعمود على قُلَّة جبلٍ، كلما عصفت الريح تمايلت الصومعة. فقلت: يا راهب! فلم يجبني. ثم ناديته ثانياً، فلم / ١١/ يجبني. فقلت في الثالثة: بالذي حبسك في صومعتك إلا أجبتني. فأخرج رأسه من صومعته، فقال: سمَّيتني باسمٍ لم أكن له بأهل!، قلت

لي: يا راهب!، ولست براهب، إنما الراهب من رهب مِنْ ربه عزَّ وجلَّ. قلت: فما أنت؟. قال: سجنت سَبُعَاً من السباع. قلت: ما هو؟. قال: لساني سَبُعٌ ضارٍ، إن أنا أرسلته مزَّق الناس. يا حنيفي؟ إن لله عباداً سلكوا خلال دار الظالمين، واستوحشوا من مؤانسة الجاهلين، وشابوا ثمرة العلم بنور الإخلاص، هم ـ والله ـ عباد كحَّلوا أبصارهم بسهر الليل، فلو رأيتهم في ليلهم، قد نامت عيون الخلق وهم قيام على أطرافهم، يناجون من لا تأخذه سنة ولا نوم. يا حنيفي!، عليك بطريقهم. قلت: فعلى الإسلام أنت؟. قال: ما أعرف غير الإسلام ديناً، ولكن عهد إلينا المسيح (عليه السلام)، ووصف لنا آخر زمانكم، فخليت الدنيا، وإن دينكم لجديد، وقد خَلُقَ.

وقال إبراهيم: رأيت في المنام كأن جبريل ـ عليه السلام ـ نزل إلى الأرض، فقلت له: لِمَ نزلت؟. قال: لأكتب المحبين. فقلت: مثل من؟. فقال: مثل مالك بن دينار، وثابت البناني، وأيوب السختياني، وعدَّ جماعة. فقلت: أنا منهم؟. فقال: لا. فقلت: فإذا كتبتهم، فاكتب تحتهم: «محب المحبين». فقال: قد أمرني الله تعالى أن أكتبك أولهم.

وقال: «نِعْم القوم السُّؤَّالُ، فإنهم يحملون زادنا إلى الآخرة».

وروي عنه أنه قال: «ما سررت في إسلامي إلا ثلاث مرات: كنت في سفينة وفيها رجل مضحاك، كان يقول: كنا نأخذ العلج في بلاد الترك هكذا!!! وكان يأخذ بشعر لحيتي، ويهزُّني، فسرَّني ذلك؛ لأنه لم يكن في تلك السفينة أحقر في عينه مني!. والثانية: كنت عليلاً في مسجد، فدخل المؤذِّن، فقال: اخرجْ، فلم أُطِقْ، فأخذ برجلي، وجرَّني إلى خارج. والثالثة: كنت بالشام، وعليَّ فرو، فنظرت فيه فلم أميّز بين شعره / ١٢/ والقمل لكثرته، ـ وفي رواية أخرى ـ كنت يوماً جالساً، فجاء إنسان وبال عليَّ، وجاء آخر وصفعني!».

وقال أبو عبد الله بن الفرج: اطَّلعت على إبراهيم بن أدهم بالشام وهو نائم، وعند رأسه أفعى في فمها باقة نرجس تذبُّ عنه حتى انتبه!.

ومنهم:

[٦]

الفُضَيْلُ بنُ عِيَاض، أبو علي الخراساني[١]

رجلٌ رأى بعين البصيرة واطَّلع، وتمثَّل بصفاء السريرة هول المطلَع، أسمعه

---

(١) ترجمته في: تهذيب الكمال (المصوّر) ٢/ ١١٠٥، ميزان الاعتدال ٣/ ٣٦٢ رقم ٦٧٧٠، تهذيب =

النذير، وأسرعه النفير، وزجره واعظ القرآن فازدجر، وألان قلبه ـ وكان من حديد أو حجر ـ وقد مضت عليه سنون كان سائحاً في سَنَتِها، طافحاً بسمتها، وشبابه مقتبل، وشأنه أنه لغُرَّة العمر مهتبل، فردَّ سيله قبل بلوغ القرآن، وأنام سيفه بعد ما فقد غراره، وذلك حين آن له المتاب، وسبق له الكتاب، فعمل بعمل أهل الجنة، وأظهر الله له من سرِّه ما أجنَّه.

وروى أبو القاسم القشيري بسنده قال: كان الفضيل شاطراً يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس. وكان سبب توبته: إنَّهُ عشق جارية، فبينا هو يرتقي الجدران إليها، سمع تالياً يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1] فقال: يا رب! قد آن. فرجع، فآواه الليل إلى خَرِبَة، فإذا فيها رفقة، فقال بعضهم: نرتحل، وقال قومٌ: حتى نصبح، فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا. فتاب الفضيل، وأمَّنهم، وجاور الحرم حتى مات.

وقال الفضيل بن عياض: «إذا أحبَّ الله عبداً أكثر غمَّه، وإذا أبغض عبداً وسَّع عليه دنياه».

وقال ابن المبارك: إذا مات الفضيل ارتفع الحزن.

وقال الفضيل: «لو أن الدنيا بحذافيرها عُرِضتْ عليَّ ولا أحاسب بها لكنت أتقذَّرها، كما يتقذَّر أحدكم الجيفة إذا مرَّ بها أن تصيب ثوبه». وقال: «ترك العمل لأجل الناس /١٣/ هو الرياء، والعمل لأجل الناس هو الشرك».

وقال أبو علي الرازي: صحبت الفضيل ثلاثين سنة، ما رأيته ضاحكاً، ولا مبتسماً، إلا يوم مات ابنه علي، فقلت له في ذلك؟. فقال: «إن الله أحبَّ أمراً فأحببت ذلك».

وقال الفضيل: إني لأعصي الله، فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي».

حكى في «مناقب الأبرار» عن سفيان بن عيينة ـ رضي الله عنه قال: قال لي الرشيد: أريد أن ألقى الفضيل بن عياض، لعلَّ الله أن يحدثَ لي عظةً أنتفع بها. فقلت له: والله! إنَّ ذلك لحبيب إليَّ، ولكنه رجلٌ قد أخذ نفسه بخدمة الله تعالى، فما لأحد فيه حظ، وأكره أن تراه متصوفاً في بعض حالاته من عبادة ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ فتوهم عليه جفاء، وإن كنت والله أعرفه الرجل الكريم العِشرَة، الحسَن الخُلُق، يُوهم من شاهده من

= التهذيب ٨/ ٢٩٧ رقم ٥٤٠، تقريب التهذيب ٢٠/ ١١٣ رقم ٦٩، خلاصة تذهيب التهذيب ٣١٠، تاريخ الإسلام (حوادث سنة ١٨١ـ ١٩٠هـ) ص ٣٤٥ رقم ٢٩٥.

(١) سورة الحديد: الآية ١٦.

لينه أنه داخلٌ في حكم العامة. فقال لي: ما عزمت على لقائه حتى وطَّنت نفسي على احتمال مشاهدتي أخلاقه. ثم قال: ويحك يا سفيان! إن شَرَف التقوى شرفٌ لا يزاحم عليه بإمرةٍ ولا خلافة!. فأدَّيتُ ذلك إلى الفضيل، فقال: إنه لحسن العقل، لولا ما ضُربَ به من فتنة هذه العاجلة!. ويسوؤني أيضاً، فأما ما يسوؤني منه فلم أرَ مثله يرفل في سوابغ النعم عرياناً من الشكر، ثم قطَّب بين عينيه، وقال: ما قدرُ من كان لله عاصياً؟. لا حاجة لي في لقائه. فلم أزل أرفق به حتى أذن، فرجعت إلى الرشيد فأعلمته، وقلت له: ليس يطمع فيه إلا وقت إفطاره، وكان إفطاره كاختطاف الطائر حبَّهُ. فركب الرشيد، ولبس مبطنة، وطيلساناً، وغطاء رأسه، ومعه مسرور الخادم، وأنا؛ فدققت الباب؛ فنزل وفتح، ودخل، ودخلت معه، ووقف مسرور على الباب، فسلَّم عليه الرشيد قائماً، فتشمَّم منه / ١٤/ رائحة المسك، فقال الفضيل: «اللهمَّ! إني أسألك رائحة الخلد التي أعددتها لأوليائك المتقين في جنات النعيم». ثم تبادرت دموعه على لحيته، فقلت: يا أبا علي! هذا أمير المؤمنين واقفٌ يسلِّم عليك، فرفع رأسه، وقال: وإنك لهو يا حسن الوجه؟. ونظر إلى الرشيد وهو يبكي، فقال له: اعلم أن الأحكام قد سلبت فضيلة العدل وظهر في الملة والذمة عدوان الأمرين، وهو في صحيفتك يدرج معك في كفنك ليوم النشور، وقد بدا إليك سرعة نفاذ ما أنت فيه من تقدَّمك من آبائك، ثم نهض، وقال: «الله أكبر». فقلت له: يا أمير المؤمنين! أما إذا افتتح الصلاة فليس فيه حيلة. وانصرفنا. فقال الرشيد: وهو خارج: لولا خجلي منك لقبَّلتُ ما بين عينيه، فقلت له: واللهلوددت أن فعلت!.

ولد الفضيل بسمرقند، ونشأ بأبيورد، وتوفي بمكة سنة سبع وثمانين ومائة.

ومنهم:

[٧]

دَاوُدُ بنُ نُصَير الطَّائيّ[١]

وصل إلى الغاية وبلغها، وتجنَّب الغواية ومبلغها، تفقَّه ثم اعتزل، وتنبَّه ثم لم

---

(١) داور بن نصير الطائي، أبو سليمان: من أئمة المتصوفين. كان في أيام المهدي العباسي. أصله من خراسان، ومولده بالكوفة. رحل إلى بغداد، فأخذ عن أبي حنيفة وغيره، وعاد إلى الكوفة، فاعتزل الناس، ولزم العبادة إلى أن مات فيها. قال أحد معاصريه: لو كان داود في الأمم الماضية لقص الله تعالى شيئاً من خبره. وله أخبار مع أمراء عصره وعلمائه.

ترجمته في: الطبقات الكبرى لابن سعد ٦/ ٣٦٧، ومعرفة الرجال لابن معين ٢/ ٢١٩ رقم ٧٤٣، =

يَزِلْ، وقطع مدة البقاء على فردْ قدم، وفرَّ من الدنيا ولم يداخله ندم، وكان وشبابه غربيب، وجلبابه ما علق بريح حبيبة ولا حبيب، مُجِدٌّ في العلم وطَلَبِه، مجدد بما يعلم دواعي طربه، يسعى إليه ولا يتكبَّر، ويرعى ما يرد عليه ويتدَّبر، ثم لما اضطلع من ذلك البحر الرواء، انخلع من ذلك الرداء، ولبس رتق الفقراء المبَّرأ من الرياء، وطمَّ طمعه فانفطم، وأحب الخلوة فكان لا يفارق ظلَّ أطم.

قال أبو علي الدقاق: كان سبب زهد داود: أنه كان يمرُّ ببغداد يوماً، فنحَّاه المطرِّقون بين يدي حميد الطوسي، فالتفت داود، فرأى حميداً، فقال داود: أفٍّ لدنيا سبقك بها حميد!. فلزم البيت، وأخذ في الجهد والعبادة.

وقال /١٥/ القشيري: سمعت ببغداد بعض الفقراء يقول: إن سبب زهده أنه سمع نائحة تنوح وتقول: [من السريع]

بأي خدَّيك تبدَّى البِلى وأيِّ عينيكَ إذا سالا

وقيل: كان سبب زهده: إنه كان يجالس أبا حنيفة رضي الله عنه، فقال له أبو حنيفة يوماً: يا أبا سليمان! أما الأداة فقد أحكمناها. فقال له داود: فأي شيء بقي؟. فقال: العمل به. قال داود: فنازعتني نفسي إلى العُزلة، فقلت لنفسي: حتى تجالسهم

= والعلل ومعرفة الرجال لأحمد ٣/ ٤٨٤ رقم ٠٦٧٢، والتاريخ الكبير ٣/ ٢٤٠ رقم ٨١٩، والتاريخ الصغير ١٢٩، والكنى والأسماء لمسلم، ورقة ٤٥، وتاريخ الثقات للعجلي ١٤٨، ١٤٨ رقم ٤٠٢، وعيون الأخبار ٢/ ٢٩١ و٢/٣٠٢ و٣١٥، ٣١٦، والمعارف ٥١٥، والجرح والتعديل ٣/ ٤٢٦ رقم ١٩٣٩، وأخبار القضاة لوكيع ٢/ ٥٢ و٣/ ١٧٩، والثقات لابن حبّان ٦/ ٢٨٢، ومشاهير علماء الأمصار له ١٦٨، ١٨٩ رقم ١٣٤٢، وحلية الأولياء ٧/ ٣٣٥ـ ٣٦٧ رقم ٣٩٣، وطبقات الصوفية للسلمي ٨٥، والعقد الفريد ٣/ ٢٣٨ و٢٣٩، وربيع الأبرار ١/ ٥٧ و٤/ ٦٤ و٣٧٢ و٣٨٠، ورجال الطوسي ١٨٩ رقم ٣، والزهد الكبير للبيهقي رقم ٢٩ و٤٥ و١٤٩ و١٦٤ و٢٨٢ و٣٣٧ و٣٣٨ و٤٢٣ و٤٩٤ و٥٢٥ و٥٤١ و٦٧٧ و٩٠٤، وتاريخ بغداد ٨/ ٣٤٧ـ ٣٥٥ رقم ٤٤٥٥، وطبقات الفقهاء للشيرازي ١٣٥، والأنساب لابن السمعاني ٨/ ٣٠٦، والتذكرة الحمدونية ١/ ١٦٩ و١٧٠ و١٧١ و٢/ ٣٤٦، والكامل في التاريخ ٦/ ٥٠، وصفة الصفوة ٣/ ١٣١ـ ١٤٦ رقم ٤٤٢، ووفيات الأعيان ٢/ ١٤ و(٢٥٦ـ ٣٦٣) و٥/ ٢٣٢، وتهذيب الكمال ٨/ ٤٥٥ـ ٤٦١ رقم ١٧٨٩، والمعين في طبقات المحدّثين ٦٠ رقم ٥٧٦، والكاشف ١/ ٢٢٤، ٢٢٥ رقم ١٤٧٨، وميزان الاعتدال ٢/ ٢١ رقم ٢٦٥١، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٤٢٢ـ ٤٢٥ رقم ١٥٨، والعبر ١/ ٢٣٨، ومرآة الجنان ١/ ٣٥٠، والوافي بالوفيات ١٣/ ٤٩٥، ٤٩٦ رقم ٥٩٢، وطبقات الأولياء لابن الملقّن ٢٠٠ـ ٢٠٣ و٤٩٣ و٥٠٤ و٥٢١ و٥٢٧ و٥٢٨، والجواهر المضيّة ٢/ ١٩٤، ١٩٥ رقم ٥٨٣، وتهذيب التهذيب ٣/ ٢٠٣ رقم ٣٨٧، وتقريب التهذيب ١/ ٢٣٤ رقم ٤٤، وخلاصة تذهيب التهذيب ١١١، وشذرات الذهب ١/ ٢٨٦، والطبقات السنيّة، رقم ٨٦٩، الأعلام ٢/ ٣٣٥، تاريخ الإسلام (السنوات ١٦١ـ ١٧٠هـ) ص١٧٦ـ ١٨٧ رقم١٠٨ .

ولا تتكلم في مسألة. قال: فجالستهم سنة لا أتكلم في مسألة، وكانت المسألة تمرُّ بي، وأنا إلى الكلام فيها اشدُّ نزاعاً من العطشان إلى الماء البارد ولا أتكلم. ثم صار أمره إلى ما صار.

وقيل: حَجَمَ «جنيدُ الحجام» داود الطائي، فأعطاه ديناراً، فقيل له: هذا إسراف. فقال: «لا عبادة لمن لا مروءة له».

وكان يقول بالليل: «إلهي! همُّك عطَّل علي الهموم الدنيوية، وحالَ بيني وبين الرقاد».

وقالت داية داود الطائي له: أما تشتهي الخبز؟. فقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية!.

ولما توفي، رآه بعض الصالحين في المنام، وهو يعدو، فقال له: ما لك؟. فقال: «الساعة تخلَّصت من السجن». فاستيقظ الرجل [من منامه]، وارتفع الصِّياح: مات داود الطَّائي.

وقال له رجلٌ: أوصني. فقال له: «عسكر الموت ينتظرونك».

ودخل عليه بعضهم، فرأى جرَّة ماء انبسطت عليها الشمس، فقال له: ألا تحملها إلى الظلِّ؟. فقال: «حين وضعتها لم يكن شمس، وأنا أستحي أن يراني الله أمشي لما فيه حظُّ نفسي».

ودخل عليه بعضهم، فجعل ينظر إليه، فقال: أما علمت أنهم كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام؟.

وقال أبو الربيع الواسطي: قلت لداود الطائي: أوصني. فقال: «صُمْ عن الدنيا، واجعل فِطركَ الموت، وفرَّ من الناس كفرارك من الأسد».

قال ابن خُبَيق: ورث داود الطائي عشرين ديناراً، فأكلها /١٦/ في عشرين سنة.

وقال ـ رضي الله عنه ـ: «صاحبْ أهل التقوى فإنهم أقلُّ مؤونة، وأكثر معونة».

وقيل له يوماً: لو تنحَّيت عن الشمس إلى الظل؟. فقال: هذه خطى لا أدري كيف تكتب؟.

توفي داود الطائي ـ رضي الله عنه ـ سنة ستين ومائة.

ومنهم:

[٨]

شَقِيق بنُ إبراهيمَ البَلْخي[١]

من مشايخ خراسان، وقف على الحقيقة، ورتع في حضرة القرب والحديقة، فأعرق في شيمه، وأغدق من شيمه، بعدما قضى في طلب الدنيا زمانا، وعمره خضر، وعوده نَضِر، وليل شبابه ما صاح فيه نهار المشيب، وناعم جلبابه ما طاح عنه رداؤه القشيب. وأول كراماته، وما عرف من مقاماته، ردُّ سيل غرامه، وقد تحدَّر وأطفأ وَقْدَ ضِرامه. وقد قيل: إنه عليه لا يقدر، فقدر واحتكم، وكان شقيق النفس وإن لم يكن من حكم.

وهو أول من تكلم في علوم الأحوال بكور خراسان، وله لسان في التوكل. صحب إبراهيم وأخذ عنه الطريقة، وهو أستاذ حاتم الأصم. وسبب توبته: أنه كان من أبناء الأغنياء خرج للتجارة إلى أرض الترك، وهو حَدَثٌ، فدخل بيتاً للأصنام، فرأى خادمها، قد حلق رأسه ولحيته، ولبس ثياباً أرجوانية، فقال شقيق للخادم: إن لك صانعاً، حياً، عالماً، قادراً، فاعبده ولا تعبد هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع!!. فقال: إن كان كما تقول، فهو قادر على أن يرزقك ببلدك، فلمَ تعنَّيتَ إلى ههنا للتجارة؟ فانتبه شقيق، وأخذ في طريق الزهد بعد التوبة.

---

(١) ترجمته في: الزهد لابن المبارك ٣٤٩ رقم ٩٨٢، وعيون الأخبار ٢/ ١٤٠، والجرح والتعديل ٤/ ٣٧٣ رقم ١٦٢٣، وطبقات الصوفية للسلمي ٦١ـ ٦٦ رقم ٧، وحلية الأولياء ٨/ ٥٨ـ ٧٣ رقم ٣٩٥، والزهد الكبير للبيهقي ٢١١ رقم ٥٣٠، وصفة الصفوة ٤/ ١٥٩، ١٦٠ رقم ٧٠٣، والرسالة القشيرية ١٣، والتذكرة الحمدونية ١/ ١٧٤ و١٨١ و١٨٢، وربيع الأبرار ١/ ٦٩٦، ٦٩٧، والمستطرف ١/ ٧٠، وتهذيب تاريخ دمشق ٦/ ٣٢٩ـ ٣٣٥، ووفيات الأعيان ١/ ٣٢ و٢/ ٢٦ و(٤٧٥ و٤٧٦) و٧/ ٣١٨، والعبر ١/ ٣١٥، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٣١٣ـ ٣١٦ رقم ٩٨، ودول الإسلام ١/ ١٢٣، وميزان الاعتدال ٢/ ٢٧٩ رقم ٣٧٤١، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ١٩، وآثار البلاد وأخبار العباد للقزويني ٣٦٢، ومرآة الجنان ١/ ٤٤٥، ونزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء لابن رسول الغساني ٤٨، ٤٩، وفوات الوفيات ٢/ ١٠٥، والجواهر المضيّة ٢/ ٢٥٤، ٢٥٥ رقم ٦٤٧، والكامل في التاريخ ٦/ ٢٣٧، والوافي بالوفيات ١٦/ ١٧٣، ١٧٤ رقم ٢٠٦، والمغني في الضعفاء ١/ ٣٠٠ رقم ٢٧٨٩، وطبقات الأولياء ٨/ ٩ و١١ـ ١٥ و١٧٨ و٢٤٤ و٤٠١ و٤٦٨ و٤٩٤، والنجوم الزاهرة ٢/ ٢١ و١٤٦، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٧٦، وذيل الجواهر المضيّة ٢/ ٥٥٥، والطبقات السنيّة، رقم ٩٧٥، وشذرات الذهب ١/ ٣٤١، والكواكب الدرّية للمناوي ١/ ١٢١، ١٢٢، وجامع كرامات الأولياء للنبهاني ٢/ ٤٢، ولسان الميزان ٣/ ١٥١، ١٥٢ رقم ٥٤٤، الأعلام ٣/ ١٧١، تاريخ الإسلام (السنوات ١٩١ـ ٢٠٠هـ) ص٢٢٧ـ ٢٣٢ رقم ١٣٣.

وقال: «احذر أن لا تهلك بالدُّنيا. ولا تهتم! فإن رزقك لا يعطى لأحدٍ سواك».

وقال: «التوكل أن يطمئن قلبك بموعود الله».

وقال: «تُعرف تقوى الرجل في ثلاثة أشياء: في أخذه، ومنعه، وكلامه».

وقال: «الفقير هو الذي يخشى الغنى، ويغتنم الفقر».

وقال: «عملت في القرآن عشرين سنة، حتى /١٧/ ميَّزت الدنيا من الآخرة، فأصبته في حرفين، وهو قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[١]».

وقال: «الزاهد الذي يقيم زهده بفعله، والمتزهِّد الذي يقيم زهده بلسانه».

وقال: «إن حفظ الفقر أن ترى الفقر منَّةً من الله عليك، حيث لم يُضَمِّنْكَ رزق غيرك، ولم يُنْقِصْكَ مما قسم لك».

وقال: «ليس شيء أحبَّ إليَّ من الضيف؛ لأن رزقه ومؤونته على الله، ولي الأجر».

وقال حاتم الأصم: كان شقيق البلخي موسراً، وكان يتفتَّى، ويعاشر الفتيان، وكان علي بن عيسى بن ماهان أمير بلخ، وكان يحب كلاب الصيد، ففقد كلباً من كلابه، فسعي برجل أنه عنده، وكان الرجل في جوار شقيق، فطلب الرجل، فهرب... فدخل دار شقيق مستجيراً، فمضى شقيق إلى الأمير، وقال: خلّوا سبيله، فإن الكلب عندي، أردُّه إليكم إلى ثلاثة أيام. فخلّوا سبيله، وانصرف شقيق مهتمَّاً لما صنع. فلما كان اليوم الثالث، كان رجل من أصدقاء شقيق غائباً عن بلخ، فرجع إليها، فوجد في الطريق كلباً عليه قلادة، فأخذه، وقال: أهديه إلى شقيق، فإنه يشتغل بالتفتِّي. فحمله إليه، فنظر شقيق؛ فإذا هو كلب الأمير!. فسُرَّ به، وحمله إلى الأمير، وتخلَّص من الضمان، فرزقه الله الانتباه، وتاب مما كان فيه، وسلك طريق الزهد.

وقال شقيق: لقيت إبراهيم بن أدهم بمكة في سوق الليل، وهو جالس في ناحية من الطريق يبكي، فعدلت إليه، وسلَّمت عليه، وقلت له: أيش هذا البكاء يا أبا إسحاق!؟. فقال: حين عاودته مرة، أو اثنتين، أو ثلاثة، فلما أكثرت عليه قال: يا شقيق! أنا أخبرك [بحديث فلا تحدِّث به أو استره علي]. فقلت: يا أخي! قلْ ما شئت. فقال: اشتهت نفسي السكباج منذ ثلاثين سنة، وأنا أمنعها جهدي، فلما كان البارحة، كنت جالساً وقد غلبني النعاس، إذا أنا بفتى شاب، وبيده قدح أخضر يعلو منه بخار،

---

(١) سورة القصص: الآية ٦٠.

ورائحة سكباج، /١٨/ قال: فاجتمعت بهمتي عنه، فقرب مني، وقال: يا إبراهيم! كُلْ. فقلت: ما آكل شيئاً قد تركته لله تعالى: فقال: وإن أطعمك الله فما تأكل؟. فما كان لي جواب إلا أنني بكيت. فقال لي: كُلْ يرحمك الله. فقال إبراهيم: قد أُمِرْنا أن لا نطرح في وعائنا إلا من حيث نعلم. فقال: كُلْ عافاك الله! فإنما أعطيت، وقيل لي: يا خضر! اذهب بهذا، وأطعم نفس إبراهيم بن أدهم، فقد رحمها الله من طول صبرها على ما يحملها من حين منعها.

توفي شقيق رحمه الله تعالى سنة أربع وتسعين ومائة.

ومنهم:

[٩]

مَعْرُوف بن فَيرُوز الكَرْخِي؛ أبو محفوظ[١]

أيُّ رجلٍ وَفِيّ، وذي عملٍ خفيّ، علق بأسباب النبوة فنجا، وأشرق له شهاب الإيمان فرجا، فلم يتمسك بعصم الكوافر، ولا ضلَّ بعد الأيام النوافر، فوافى مسلماً، وجفا ديناً كان كقطع الليل مظلماً، فبرىء من الآية الممحوة، وربِّي في الحنيفية البيضاء لا سواداً ولا حوَّة، فصدَّ وجهه عن دين أبويه، وأسلم وسلم إليه، فسعد بالدين، وصعد إلى علِّيِّين، فسَرَتْ في أبويه أنفاسه فأسلما، وأشركا في دحض الشرك معه وأسهما، وقد كانا جهدا على قتله، وتجرَّدا لمحنته، ثم زال عن عيونهما العشاء، والله يهدي من

---

(١) ترجمته في: طبقات الصوفية للسُلمي ٨٣ـ ٩٠، وحلية الأولياء ٨/ ٣٦٠ـ ٣٦٨ رقم ٤٣٦، والثقات لابن حبّان ٩/ ٢٠٦، والزهد الكبير للبيهقي، رقم ٤٧٠ و٥٢٦، والرسالة القشيرية ١/ ٧٩، وربيع الأبرار ٤/ ٣٨١، والأنساب ١٠/ ٣٨٩، وتاريخ بغداد ١٣/ ١٩٩ـ ٢٠٩ رقم ٧١٧٧، والأنساب المتفقة ١/ ١٢، والكامل في التاريخ ٦/ ٣٢٠ و٩/ ٤١٥ و١٠/ ٥٥ و١٥٦ و١٥٩ و١٢/ ٣٠٨، وصفة الصفوة ٢/ ٣١٨ـ ٨٢٤ رقم ٢٦٠، والتذكرة الحمدونية ١/ ١٨٩ و١٩٠ و٢٢٤، ونثر الدرّ ٧/ ٨٦ رقم ١٦٢، ومعجم البلدان ٤/ ٤٤٨، ٤٤٩، واللباب ٣/ ٩١، ووفيات الأعيان ٢/ ٣٥٧ و٣/ ٢٩٨ و٤/ ٣٣٠ و(٥/ ٢٣١ـ ٢٣٣) و٦/ ٥٠ و٥٤ و٦١ و٢٣٩، وطبقات الحنابلة ١/ ٣٨١ـ ٣٨٩ رقم ١١١، وخلاصة الذهب المسبوك ١٩٩، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٢، ومرآة الجنان ١/ ٤٦٠ـ ٤٦٣، وآثار البلاد في أخبار العباد ٣٢٣ و٤٤٥، وطبقات الأولياء لابن الملقّن ٨٤ـ ٨٦ و١٦٠ و٢٣٣ و٢٨٠ و٢٨٥ و٣٥٠ و٤٩٣ و٤٩٦ و٥٠٤ و٥٢٨، وشذرات الذهب ١/ ٣٦٠، والإشارات للهروي ٧٤، وثمرات الأوراق لابن حجة ٢٩٥ـ ٢٩٧، والفرق بين الفِرَق للبغدادي ٥١، تاريخ الإسلام (السنوات ١٩١ـ ٢٠٠هـ) ص٣٩٩ـ ٤٠٥، رقم ٣١٣.
وانظر: مناقب معروف الكرخي وأخباره، لابن الجوزي، بتحقيق الدكتور عبد الله الجبوري - طبعة دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

يشاء. كان من المشايخ الكبار، مجاب الدعوة، يُستشفى بقبره. يقول البغداديون: قبر معروف ترياق مجرَّب. وهو من موالي علي بن موسى الرِّضا، رضي الله عنه، وكان أستاذ السري السقطي، وقد قال له يوماً: «إذا كانت لك إلى الله حاجة فأقسم عليه بي». قال أبو علي الدقاق ـ رحمه الله تعالى ـ: كان معروف الكرخي أبواه نصرانيان، فسلَّموا معروفاً إلى المؤدَّب [وهو صبي]، فكان المؤدِّب يقول له: قل: «ثالث ثلاثة» ويقول معروف: بل هو واحد!. فضربه المعلم يوماً ضرباً مبرحاً، فهرب معروف، فكان أبواه يقولان: ليته يرجع إلينا على أيِّ دينٍ يشاء، فنوافقه عليه. ثم إنه أسلم علي يدي علي بن موسى الرضا، ورجع إلى /١٩/ منزله، ودقَّ الباب، فقيل: من بالباب؟. فقال: معروف. فقالوا: علي أيِّ دين جئت؟. فقال: على الدين الحنيفي؛ فأسلم أبواه.

وقال سريُّ السقطي: رأيت معروفاً الكرخيَّ في النوم بعد موته، فقلت: ما فعل الله بك؟. فقال: غفر لي. فقلت: بزهدك وورعك؟. قال: لا، بقبولي موعظة ابن السَّمَّاك، ولزوم الفقر، ومحبتي الفقراء. وموعظة ابن السَّمَّاك: ما قاله معروف: «كنت مارّاً بالكوفة، فوقفت على رجلٍ يقال له: «ابن السمَّاك» وهو يعظ الناس؛ فقال في خلال كلامه: من أعرض عن الله بكلِّيَّته، أعرض الله عنه جملة، ومن أقبل على الله بقلبه، أقبل الله برحمته إليه، وأقبل بجميع وجوه الخلق إليه، ومن كان مرَّةً ومرَّة، فالله يرحمه وقتاً ما». فوقع كلامه في قلبي، فأقبلت على الله تعالى، وتركت جميع ما كنت عليه، إلا خدمة مولاي علي بن موسى الرضا. وذكرت هذا الكلام لمولاي، فقال: يكفيك بهذا موعظة إن اتَّعظت.

وقيل لمعروف في مرض موته: أوصِ. فقال: «إن متُّ فتصدَّقوا بقميصي، فإني أريد أن أخرج من الدنيا عرياناً كما دخلتها عرياناً».

ومرَّ بسقَّاء يقول: رحم الله من يشرب! ـ وكان رضي الله عنه صائماً؛ فتقدَّم فشرب، فقيل له: ألم تكن صائماً؟. فقال: بلى، ولكني رجوت دعاءه.

توفي سنة مائتين، وقيل: سنة إحدى ومائتين.

ومنهم:

[١٠]

أَبُو مُحَمَّد، الفَتْحُ بنُ سَعِيدٍ المَوصِلِيُّ(١)

ويُعرف بلده بـ «فتح الكاري»، وهي قرية بشرقي دجلة. من أقران بشر الحافي.

---

(١) ترجمته في: حلية الأولياء لأبي نعيم ٨/ ٢٩٢ـ ٢٩٤ رقم ٤١٥، والفهرست لابن النديم ٢٦٣، =

رجلٌ نفض من الدنيا يدا، وأعرض عن السُّحُب وهي تفيض نَدًى، وكان لأهل الطريقة منه فتح قريب، ومَنْحٌ منه غير غريب، وكانت له الأقضية مسخّرة، والأيام المزدهية به مفتخرة، وكان لو أومأ إلى الصخر لانفلق، أو إلى الليل لأتلق. إلى حِكَم تتفجَّر منابعها، وسفوحٍ تُفرِح السُّحُبَ مرابعُهَا، وجواهر كَلِمِهِ عند القوم في مخبّآتِ الصُّدُور مخزونة، وبحبَّاتِ القلوب موزونة.

قال إبراهيم / ٢٠/ بن عبد الله: صدع فتح الموصلي؛ ففرح بذلك.

وقال: يا رب! ابتليتني ببلاء الأنبياء؟!؛ فشُكْرُ هذا أن أصلي الليلة أربع مائة ركعة!.

وقال فتح: «أهل المعرفة: الذين إذا نطقوا فبه ينطقون، وإذا عملوا فله يعملون، وإذا طَلَبُوا فمنه يطلبون، وإذا رغبوا فإليه يرغبون، أولئك خواصُّ الله، السابقون المقرَّبون». وكان ـ رضي الله عنه ـ في وقت ليالي الشتاء يجمع عياله، ويمدُّ كساءه، ثم يقول: «[اللهم!] أفقرتنيَ وأفقرت عيالي!، وجوَّعتني، وجوَّعت عيالي!، وأعريتني وأعريت عيالي!، [بأي] وسيلة أتوسَّلُ إليك؟، وإنما تفعل هذا بأوليائك وأحبابك، فتُرى هل أنا منهم حتى أفرح؟.»

وسئل فتح الموصلي عن الصدق ما هو؟. فأدخل يده في كير حداد، وأخرج الحديدة المحمَّاة، ثم وضعها على كفِّه، وقال: «هذا هو الصدق».

وقال: «صحبت ثلاثين شيخاً كانوا يُعَدُّون جميعهم من الأبدال، وكلُّهم أوصوني عند فراقي لهم، فقالوا: «إياك ومعاشرة الأحداث».

وقال أبو عبد الله بن الجلاَّء: كنا في غرفة سَرِيٍّ السَّقَطِي ببغداد، فلما ذهب بعض الليل، لبس قميصاً نظيفاً، وسروالاً، ورداءً، وقام ليخرج، فقلت: إلى أين في هذا الوقت؟. فقال: أعود فتحاً. فلما مشى في طرقات بغداد، أخذه العسس، وحبسوه، فلما أصبح أمروا بضربه مع المحبوسين، فلما رفع الجلاَّد يده، وقفت فلم يقدرْ أن

= وربيع الأبرار للزمخشري ٤/ ٣٨٥، وتاريخ بغداد ١٢/ ٣٨١ـ ٣٨٣ رقم ٦٨٤١، والرسالة القشيرية للقشيري ٢٢١، واللباب لابن الأثير ٣/ ٢٠، والكامل في التاريخ له ٦/ ٤٥٤، ٤٥٥، وصفة الصفوة لابن الجوزي ٤/ ١٨٣ـ ١٨٩ رقم ٧٢٤، واللُّمَع ١٨٤ و١٨٥ و٢٠٠ و٤٢٤، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٨٣، ٤٨٤ رقم ١٥٩، وآثار البلاد وأخبار العباد للقزويني ٤٦٣، والنجوم الزاهرة ٢/ ٢٣٥، وطبقات الأولياء لابن الملقّن ٢٧٦ـ ٢٧٩ رقم ٥٧، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٩٣، والكواكب الدريّة ١/ ١٥١، وجامع كرامات الأولياء للنبهاني ٢/ ٢٣٣، تاريخ الإسلام (السنوات ٢١١ـ ٢٢٠هـ) ص٢٣٨ـ ٢٣٩ رقم ٣١٨ .

يحرِّكها!، فقيل: للجلاَّد: اضرب. فقال: حذائي شيخ واقف يقول: لا تضربه!!. فتقف يدي لا تتحرك!!. فنظروا؛ من الرجل؟. فإذا هو «فتح الموصلي» فأطلقوه، واعتذروا إليه؛ لأنهم لم يعرفوه.

وقال إبراهيم بن نوح الموصلي: رجع فتح الموصلي إلى أهله بعد العتمة، وكان صائماً، فقال: عشُّوني!. فقالوا: ما عندنا شيء نعشِّيك به. قال: فما لكم جلوس في الظُّلْمة؟. قالوا: ما عندنا شيء نُسرِجُ به!. فجلس يبكي من الفرح، وقال: «إلهي! مثلي يترك بلا عشاء؟!. ولا سراج!!، /٢١/ فأيّ يدٍ كانت مني؟». فما زال يبكي حتى الصباح.

وقال شعيب بن حرب: دخلت على فتح الموصلي أعوده، وهو مريض، فقلت له: يا أبا محمد! أوصني. فقال: أليس الإنسان إذا منع من الطعام والشراب يموت؟ قلت: نعم. قال: «فكذلك القلب إذا منع من الذكر مات».

وروي: إنه دخل على بشر الحافي فقال له: يا أبا نصر! ابعثْ إلى السوق واشتر لنا خبزاً جيداً، وتمراً جيداً. ففعل بشر ذلك. فأكل الفتح منه، وأكثر، وحمل الباقي، فقال بشر لمن كان عنده: أتدرون لم قال: اشترِ خبزاً جيداً، وتمراً جيِّداً؟. فقالوا: لا. قال: لأن الطعام الصافي الجيِّد يصفو لصاحبه عليه الشكر. ثم قال لهم: أتدرون لِمَ أَكثَرَ الأكلَ؟. قالوا: لا. قال: لأنه علم أني أفرح بأكله، فأراد أن يزيدني سروراً وفرحاً. قال: أتدرون لِمَ حمل الباقي؟. قالوا: لا. قال: لأن التوكُّل إذا صحَّ لم يضرَّ صاحبَه الحملُ معه.

وروي أن رجلاً قال للمعافى بن عمران: هل كان للفتح الموصلي كبير عمل؟. فقال: كفاك بعمله تركه للدنيا!.

ومنهم:

[١١]

أبو سُلَيمَانَ، عَبدُ الرَّحمنِ بنُ عَطِيَّةَ الدَّارانيّ[١]

عابدٌ، شقَّت به الليالي جُنَحَ ظُلُماتها، وأشرقت أعماله البدور في سمائها، وله

---

(١) وقيل عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني.
توفي سنة ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م.
ترجمته في: تاريخ دمشق ٢٤/ ١٢٢، الرسالة القشيرية ٤٠، الجرح والتعديل ٥/ ٢١٤ رقم ١٠٠٥، والثقات لابن حبّان ٨/ ٣٨٦، وتاريخ داريا للقاضي عبد الجبار الخولاني ٥١، وطبقات =

بداريا مشهد له في السنة أيام تعدُّ مواسم، وليالٍ بالوفود بواسم، يُقصد بالزيارة من كل فجّ، ويؤتى بكل ناضجٍ وفج، وتُقذف له أبحر سواكب، وتقف حوله زُمَرٌ ومواكب، وترتج تلك الساحات، وتثج هنالك السماحات، في كلٍّ ظلماء تحاكي سناء الليلة القمراء، وتجاوب تسبيح الملائكة أصوات القرَّاء.

ولأهل دمشق بإقامة مواسم هذه الليالي ولوع، ولأقمار أهلها مشارق ثم طلوع، لا يزال لهم هذا دأباً كل عام يأتي، وفعلاً يخالف قول من يفتي. قال أبو سليمان الداراني: «كنت ليلة باردةً في المحراب، فأقلقني البرد، فخبَّأت / ٢٢/ إحدى يديَّ من البرد، وبقيت الأخرى ممدودة. فغلبتني عيناي، فهتف بي هاتف: يا أبا سليمان! قد وضعنا في هذه ما أصابها، ولو كانت الأخرى لوضعنا فيها. فآليت على نفسي أن لا أدعو إلا ويداي خارجتان، حرّاً كان الزمن أو برداً. وقال أيضا: «نمت [الليلة] عن وردي، فإذا أنا بحوراء تقول لي: تنام وأنا أُرَبَّى لك منذ خمسمائة عام!؟».

وقال: «أفضل الأعمال خلاف هوى النفس».

وقال: «لكلِّ شيءٍ عَلَم، وعَلَم الخُذلان ترك البكاء».

وقال: «لكلِّ شيء صدأ، وصدأ نور القلب شبع البطن».

وقال: «كلُّ ما شغلَكَ عن الله تعالى من مالٍ، أو أهلٍ، أو ولدٍ، فهو عليك مشوم».

وقال: «من أحسن في نهاره كُوفيء في ليله، ومن أحسن في ليله كوفيء في نهاره، ومن صدق في ترك شهوة، ذهب الله بها من قلبه، والله أكرم من أن يعذِّبَ قلباً بشهوةٍ تُرِكَتْ له».

= الصوفية للسلمي ٧٥ـ ٨٢ رقم ٩، وحلية الأولياء ٩/ ٢٥٧ـ ٢٨٠ رقم ٤٤٨، والزهد الكبير للبيهقي، رقم ٤ و٤٠ و٥٤ و٦٢ و٧٣ و٧٩ و١٧٦ و٢٤٦ و٢٥٣ و٢٧٣ و٤٠٩ و٩١٧ و٤٢٤ و٦٣٤ و٧٢٧ و٧٢٨ و٨٣٣ و٩٢٢، وربيع الأبرار للزمخشري ٤/ ٣٣٩، وتاريخ بغداد ١٠/ ٢٤٨ـ ٢٥٠ رقم ٥٣٦٧، والرسالة القشيرية ١٥، والأنساب لابن السمعاني ٥/ ٢٤٣، وصفة الصفوة لابن الجوزي ٤/ ٢٢٣ـ ٢٣٤، ومعجم البلدان ٢/ ٤٣١، واللباب لابن الأثير ١/ ٤٨٢، ووفيات الأعيان ١/ ٣٢ و٢/ ٢٥٩ و٣/ ١٣١، والعبر ١/ ٣٤٧، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ١٨٢ـ ١٨٦ رقم ٣٤، وفوات الوفيات ٢/ ٢٦٥، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٣٠، ومرآة الجنان ٢/ ٢٩، ٣٠، والبداية والنهاية ١٠/ ٢٥٥ـ ٢٥٩، وطبقات الأولياء لابن الملقّن ٣١ و٣٣ و٤٦ و٢٨٠ و٣٨٦ و٣٩٧ و٤٣٨، والنجوم الزاهرة ٢/ ١٧٩، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٩٢، وشذرات الذهب ٢/ ١٣، وموسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي ٣/ ٤٦، ٤٧ رقم ٧٥١، تاريخ الإسلام (السنوات ٢١١ـ ٢٢٠هـ) ص٢٥٢ـ ٢٥٥ رقم ٢٢٦ .

وقال: «إذا سكنت الدنيا في قلبٍ ترحَّلَت منه الآخرة».

وقال: «ربَّما يقع في قلبي النكتة من نُكَتِ القوم أياماً، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب، والسنَّة».

وقال أحمد بن أبي الحواري: دخلت على أبي سليمان يوماً، وهو يبكي، فقلت له: ما يبكيك؟. فقال: يا أحمد! ولِمَ لا أبكي؟. إذا جنَّ الليل، ونامت العيون، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه، افترش أهل المحبَّة أقدامهم، وجرتْ دموعهم على خدودهم، وتقطَّرت في محاريبهم، وأشرف الجليل ـ سبحانه وتعالى ـ فنادى: يا جبريل! بِعَيني مَن تلذَّذ بكلامي، واستراح إلى ذكري، وإنِّي لمُطَّلِعٌ عليهم في خلواتهم، أسمع أنينهم، وأرى بكاءهم، فلِمَ لا تنادي فيهم يا جبريل!: ما هذا البكاء.؟. هل رأيتم حبيباً يُعَذِّبُ أحباءه؟!، أم كيف يجمُلُ بي أن آخذ قوماً إذا جنَّهم الليلُ تملَّقُوا إلي؟ فبي حلفت: أنهم إذا وردوا عليَّ يوم القيامة، لأكشفنَّ لهم عن وجهي الكريم، حتى ينظروا إليَّ، وأنظر إليهم».

توفي ـ رضي الله عنه ـ سنة خمس عشرة ومائتين، وقبره بقرية داريًّا، /٢٣/ من قرى دمشق.

ومنهم:

[١٢]

بِشْر بنُ الحَارِثِ الحَافِيّ(١)، أبو نصر

زاد على الوسمي، وزان مدارعه زينة الكَمِيِّ، وتحلَّق بمشهد الشفق بشرى،

---

(١) توفي سنة ٢٢٧هـ/ ٨٤١م.
ترجمته في: الطبقات الكبرى لابن سعد ٧/ ٣٤٢، والتاريخ لابن معين برواية الدوري ٢/ ٥٨، والمعارف لابن قتيبة ٣٩٢، وعيون الأخبار له ٢/ ٣٦٠، والكنى والأسماء للدولابي ٢/ ١٤١، وتاريخ الطبري ٩/ ١١٨، والجرح والتعديل ٢/ ٣٥٦ رقم ١٣٥٤، والثقات لابن حبّان ٨/ ١٤٣، وحلية الأولياء ٦/ ٣٥٧، ٣٨٧ و٧/ ٣٦ و٨/ ٢٨ و١٤٠ و٢٨٨ و٢٩٢ و٣٣٧ـ ٣٧٠، و٣٧٣ـ ٣٥٦ و٩/ ٨٣، ٨٤، ١١١، ١٧٠، ١٩٢ و١٠/ ٣١٦، والسابق واللاحق للخطيب ١٤٠ وتاريخ بغداد للخطيب ٧/ ٦٧ـ ٨٠ رقم ٣٥١٧، والرسالة القشيرية ١١، ١٢، وطبقات الصوفية للسلمي ١٢، ٧٦، ١٣٧، ١٥٠، ٢٢٨٨، ٢٤٩، ٢٥٢، ٢٩٥، والزهد الكبير للبيهقي، رقم ٤٠ و٥١ و٨٢ و٨٥ و١٤٧ و١٥٩ و١٦٠ و٢٤٦ و٢٤٧ و٢٧٢ و٢٨٧ و٣١١ و٣٧٨ و٤٠٧ و٤٠٨ و٥٥٧ و٥٥٩ و٥٨٩ و٧٦٨ و٩١٧ و٩٢٠، الأنساب لابن السمعاني ١١/ ٥٤٤، والتذكرة الحمدونية لابن حمدون ١/ ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، وتهذيب تاريخ دمشق ٣/ ٢٣١ـ ٢٤٥، وتاريخ حلب للعظيمي =

وتألَّق يوم مولده الصباح فكان بشرا، طفىء به كل مشتعل، وحفي كلُّ حافٍ ومنتعل، ووقعت دونه القوادم والخوافي، واتبعت آثاره، وأثر الحافي غير خافي. سار ذكره فأوجف، وسكن باطن الأرض فاقشعرَّ ظاهرها وأرجف، وشفع بأختٍ كانت هي وأخواتها على الخير أعواناً، وإذا ذكر أهله أعيانا، وكان لمن صحَّف نسرا، ولمن صحَّح ما في طيِّ الطِّيب نشرا.

أصله من «مرو» وسكن بغداد، وكان كبير الشان. وسبب توبته: أنه أصاب في الطريق «كاغدة» مكتوباً عليها اسم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد وطئتها الأقدام، فأخذها واشترى بدرهم كان معه «غاليةً»، فطيَّب بها «الكاغدة»، وجعلها في شق الحائط، فرأى فيما يرى النائم: كأنَّ قائلاً يقول له: «يا بشر طيَّبْتَ اسمي، لأطيِّبَنَّ اسمك في الدنيا والآخرة».

قال أبو علي الدقاق: مرَّ بشر ببعض الناس، فقالوا: هذا الرجل لا ينام الليل كله!، ولا يفطر إلا في كلِّ ثلاثة أيَّام مرة؛ فبكى بِشْر، فقيل له في ذلك؟. فقال: إني لا أذكر أني سهرت ليلة كاملة، ولا أني صُمتُ يوماً لم أُفطِرْ من ليلته، ولكن الله سبحانه وتعالى يلقي في القلوب أكثر مما يفعله العبد لطفاً منه ـ سبحانه ـ وكرماً.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: بلغني أن بشرَ بنَ الحارث الحافيَّ قال: «رأيت

= ٢٥٢ وفيه (بشر بن محمد الحافي) وهو وهم، ونزهة الألبّاء لابن الأنباري ١١٣، والكامل في التاريخ ٦/ ٥٢٩، واللباب ١/ ٣٣١، ٣٣٢، وصفة الصفوة لابن الجوزي ٢/ ٣٢٥ـ ٣٣٦ رقم٢٦١، ووفيات الأعيان ١/ ٣٢، ٦٥، ٩٣ (٢٧٤ـ ٢٧٧، ٤٦٨ و٢/ ٢٣٢، ٣٨٦ و/ ٤/ ٢٨٤، ٣٤٩، والمستطرف للأبشيهي ١/ ١٤٣، وتهذيب الكمال للمزّي ٤/ ٩٩ـ ١١٠ رقم ٦٨٢، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٦٩ـ ٤٧٧ رقم ١٥٣، والعبر ١/ ٣٩٩، ودول الإسلام ١/ ١٣٧، والمعين في طبقات المحدّثين ٨٣ رقم ٩٠٤، ومرآة الجنان ٢/ ٩٢ـ ٩٤، والبداية والنهاية ١٠/ ٢٩٧ـ ٢٩٩، وآثار البلاد للقزويني ٣٢١، ٣٢٢، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٣٥، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٢٢٢، والوافي بالوفيات ١٠/ ١٤٦ـ ١٤٨ رقم ٤٦٠٤، والروض المعطار ١٩٣، وتاريخ الخميس ٢/ ٣٧٦، وذيل الكاشف ٥١ رقم ١٢٥، والوفيات لابن قنفذ ١٦٩ رقم ٢٢٧، وطبقات الأولياء لابن الملقّن ١٠٩ـ ١١٨، وتهذيب التهذيب ١/ ٤٤، ٤٤٥ رقم ٨١٨، وتقريب التهذيب ١/ ٩٨ رقم ٤٩، والنجوم الزاهرة ٢/ ٢٤٩، ٢٥٠، وخلاصة تذهيب التهذيب ٤٨، وشذرات الذهب ٢/ ٦٠ـ ٦٢، وطبقات الشعراني ١/ ٨٤ـ ٨٩، ونفحات الأنس ٢٧، وهدية العارفين ١/ ٢٣٢، ومعجم المؤلّفين ٣/ ٤٦، ولواقح الأنوار ١/ ٧٢ـ ٧٤، وموسوعة علماء المسلمين في تايخ لبنان الإسلامي ٢/ ١٢ـ ١٧ رقم ٣٣٩، ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور ٣/ ٢٣٩ و٥/ ١٩٣، ٢٠٢، والكواكب الدرّية ١/ ٢٩، وتاريخ وفاة الشيوخ للبغوي ٤٧ رقم٨، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٤١ـ ٢٥٠هـ) ص١٠٥ـ ١١٣ رقم٧٩.

النبي ﷺ في المنام، فقال لي: يا بشر! أتدري لِمَ رفعكَ الله من بين أقرانك؟. قلت: لا، يا رسول الله!. قال: باتِّباعك لسنَّتي، وخدمتك للصالحين، ونصيحتك لإخوانك، ومحبَّتِك لأصحابي، وأهل بيتي، وهو الذي بلَّغك منازل الأبرار.

وقال بلالٌ الخوَّاص: كنت في تيه بني إسرائيل، فإذا رجل يماشيني، فتعجَّبتُ منه، ثم ألهمتُ أنه الخضر عليه السلام، فقلت له: بحقِّ الحقِّ من أنت؟. فقال: أخوك الخضر؛ فقلت له: أريد أن / ٢٤/ أسألك، فقال: سل. فقلت: ما تقول في الشافعي - رحمه الله -؟. فقال: هو من الأوتاد.

فقلت: ما تقول في أحمد بن حنبل - رضي الله عنه -؟. قال: رجلٌ صِدِّيق.

قال: فما تقول في بشر بن الحارث الحافي؟.

قال: لم يخلق بعده مثله!!.

فقلت: بأي وسيلةٍ رأيتك؟. فقال: ببرِّك لأمِّك.

وقال أبو عليّ الدَّقَّاق: أتى بشر باب المعافى بن عمران، فدقَّ الحافي عليه الباب، فقيل: مَن؟. فقال: بشر الحافي. فقالت له بُنَيَّةٌ من داخل الدار: لو اشتريت لك نَعْلاً بدانقين، لذهب عنك اسم الحافي.

وقال أبو عبد الله [بن] الجلاَّء: رأيت ذا النون، وكانت له العبارة، ورأيت سهلاً، وكانت له الإشارة، ورأيت بشر بن الحارث، وكان له الورع. فقيل له: فإلى مَنْ كنت تميل؟ فقال: لبشر بن الحارث أستاذنا.

وقيل: إنه اشتهى الباقلاء سنين، فلم يأكلْه، فرؤي في المنام بعد وفاته، فقيل له: ما فعل الله بك؟. فقال: غفر لي، وقال: كُلْ يا من لم يأكلْ، واشربْ يا من لم يشربْ!

وقال بشر: «إني أشتهي الشواء منذ أربعين سنة ما صفا لي ثمنه!!» وقيل لبشر: بأي شيء تأكل الخبز؟. فقال: أذكر العافية، وأجعلها إداماً. وقال بشر: لا يحتمل الحلال السرف.

ورئي بشر في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟. فقال: غفر لي، وأباح لي نصف الجنة، وقال لي: يا بشر! لو سجدت لي على الجمر ما أدَّيت شكر ما جعلته لك في قلوب عبادي.

وقال بشر: «لا يجد حلاوة الآخرة رجلٌ يحب أن يعرفه الناس».

ومن دعائه: «اللهم إن كنت شهرتني في الدنيا لتفضحني في الآخرة، فاسلبه عني».

وقال: «عقوبة العالم في الدنيا أن يعمي بصر قلبه».

وقال: «من طلب الدنيا فليتهيَّا للذُّل».

وقال بشر لأصحاب الحديث: «أدُّوا زكاة هذا الحديث، قالوا: وما زكاته؟. قال: اعملوا من كل مائتي حديث بخمسة أحاديث».

وكان لبشر ثلاث أخوات، وهنَّ: «مضغة» و«مخَّة» و«زبدة»، وكنَّ زاهدات عابدات، ورعات. وأكبرهنَّ «مضغة»، ماتت قبل موت أخيها بشر، فحزن عليها /٢٥/ حزناً شديداً، وبكى بكاءً كثيراً، فقيل له في ذلك؟. فقال: قرأت في بعض الكتب: إن العبد إذا قصَّر في خدمة ربه سلبه أنيسه. وهذه أختي «مضغة» كانت أنيستي في الدنيا».

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: دخلتِ امرأةٌ على أبي، فقالت له: يا أبا عبد الله!، إني امرأة أغزل في الليل على ضوء السراج، وربما طفىء السراج، فأغزل على ضوء القمر، فهل عليَّ أن أبيِّن غزل السراج من غزل القمر؟. فقال لها أبي: إن كان عندك بينهما فرقٌ، فعليكِ أن تبيِّني ذلك. فقالت له: يا أبا عبد الله! أنين المريض هل هو شكوى؟. فقال لها: إني أرجو أن لا يكون شكوى، ولكن هو اشتكاء إلى الله تعالى. ثم انصرفت؛ قال عبد الله: فقال لي أبي: يا بني! ما سمعت إنساناً قط يسأل عن مثل ما سألت هذه المرأة!، اتبعها.

قال عبد الله: فتبعتها إلى أن دخلت دار بشر الحافي، فعرفت أنها أخته، فأتيت أبي فقلت له: إن المرأة أخت بشر الحافي، فقال أبي: هذا والله! هو الصحيح، مُحالٌ أن تكون هذه المرأة إلا أخت بشر الحافي!!!

وقال عبد الله أيضاً: جاءت «مُخَّةُ» أخت بشر الحافي إلى أبي فقالت: يا أبا عبد الله! رأس مالي دانقان، أشتري بهما قطناً فأغزله، وأبيعه بنصف درهم، فأنفق دانقاً من الجمعة إلى الجمعة، وقد مرَّ الطائف ليلة ومعه مِشعَل، فاغتنمت ضوء المشعل، وغزلت طاقين في ضوئه، فعلمت أن الله سبحانه وتعالى يطالبني، فخلِّصْني من هذا خلَّصك الله تعالى فقال أبي: تخرجين الدانقين، ثم تبقين بلا رأس مال حتى يعوِّضك الله خيراً منه.

قال عبد الله: فقلت لأبي: لو قلت لها حتى تُخرجَ رأس مالها، فقال: يا بني! سؤالها لا يحتمل التأويل، فَمَن هذه المرأة؟. فقلت: هي «مُخَّة» أخت بشر الحافي. فقال أبي: من هنا أتيت.

وقال بشر: «تعلَّمت الورع من أختي، فإنها كانت تجتهد أن لا تأكل ما لمخلوق فيه صنع».

توفي - رضي الله عنه - في شهر ربيع الآخر، سنة ست وعشرين، وقيل: سنة سبع

/ ٢٦/ وعشرين ومائتين. وقيل: في عاشر المحرم، وقيل: في رمضان، ببغداد. وقيل: بمرو.

وإنما لُقِّب بـ «الحافي» لأنه جاء إلى إسكاف يطلب منه شسعاً لأجل نعليه، وكان قد انقطع، فقال له الإسكافي: ما أكثر كلفتكم على الناس؟!. فألقى النعل من يده، والآخر من رجله، وحلف لا يلبس نعلاً.

ومنهم:

[١٣]

أَحمَدُ بنُ أَبِي الحَوَارِي[١] المعروف بـ «ريحانة الشام»

قطبٌ من الأقطاب، ورجل طار ذِكرُه وطاب، تفرَّد في الجميع، وهبَّ طيبه فقيل: أمن ريحانة الداعي السميع، فعبقت بطيبه الأردان، وعلقت من نصيبه الأخدان، وهطلت له سوافح أغرقت في يمها، ونوافح عرفت، وما تُمْدَحُ ريحانةٌ قبلَ شمِّها. رسا مقصراً، بانَ عن إبانته، وقصَّ قوادم النسيم، فعلق طيباً من ريحانته. هو من أهل دمشق. صحب أبا سليمان الداراني.

---

(١) أحمد بن أبي الحوراي عبد الله بن ميمون .ترجمته في: المراسيل لأبي داود، رقم ٢٥ و٢١٩ و٤٨٧، والجرح والتعديل ٢/ ٤٧ و٥٦ و٤/ ٩٥، ومعجم الشيوخ لابن جُميع (بتحقيق التدمري) ٢٢٦، ٢٢٧ رقم ١٨٦، والسنن الكبرى للبيهقي ٧/ ١٤٢، والزهد الكبير، له رقم ٤٠ و٢٥٠ و٢٧٤ و٣٨٧ و٤٤٠ و٤٤٨ و٩١٢، والرسالة القشيرية ٢١، والإكمال لابن ماكولا ٤/ ٥٧٣، والفقيه والمتفقّه للخطيب ٢/ ١٦٨، وطبقات الصوفية للسلمي ٩٨ـ ١٠٢ رقم، والأنساب لابن السمعاني ٨/ ١٠٥، واللباب لابن الأثير ٣/ ٢١٧، وتاريخ دمشق (المخطوط بالخزانة التيمورية) ١٠/ ٨ و١٥/ ٢٢٨ و٣٧/ ٢١٣، و٣٩/ ٣٤٢ و٤٤/ ١٨٣، ومعجم البلدان ٥/ ١٣٤، ٢٣٧، ٢٣٨، وتهذيب تاريخ دمشق ٦/ ٩٢، وتاريخ دمشق (مصوّرة المجمع العلمي بدمشق) ٣٩٧، وصفة الصفوة لابن الجوزي ٤/رقم ٧٦٤، وحلية الأولياء لأبي نعيم ١٠/ ٥ـ ٣٣ رقم ٤٥٧، والعقد الفريد ١٢٢٨، ٢/ ٢٣٥ و٣/ ١٧٨ و٦/ ٣٧٧، وربيع الأبرار للزمخشري ٤/ ١١٧، والمعجم المشتمل لابن عساكر ٥٠ رقم ٥١، وذم الهوى لابن الجوزي ٢٩، ٣٠، والإشارات إلى معرفة الزيارات ٢٨، ولباب الآداب لابن منقذ ٢٨٣، والتذكار في فضل الأذكار للقرطبي ٨٤، وتهذيب الكمال للمزّي ٢/ ٣٦٩ـ ٣٧٥ رقم٦٢، والعبر ١/ ٤٤٦، وطبقات الحنابلة ١/ ٧٨، ومرآة الجنان ٢/ ١٥٣، ١٥٤، والبداية والنهاية ١٠/ ٣٤٨، ٣٤٩، وتهذيب التهذيب ١/ ٤٩ رقم ٧٨٤ وتقريب التهذيب ١/ ١٨ رقم ٧٢، وطبقات الأولياء لابن الملقّن ٣١ـ ٣٦ رقم٨، ومختصر طبقات الحنابلة ٤٣، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٩٦، وخلاصة تذهيب التهذيب ٨، وشذرات الذهب ٢/ ١١٠، وتاج العروس ٨/ ٤٢،وموسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي (للتدمري) ١/ ٢٧٨، ٢٧٩ رقم ٨٥، والمغني في ضبط أسماء الرجال ٨٣، تاريخ الإسلام (السنوات ٢١٤ـ ٢٥٠هـ) ص٥٢ـ ٥٥ رقم٢٦.

وكان أبو القاسم الجنيد يقول: «أحمد بن أبي الحواري ريحانة الشام».

وقال أحمد بن أبي الحواري: «من نظر إلى الدنيا نظرة إرادة وحبٍّ لها أخرج الله نور اليقين والزهد من قلبه». وقال: «من عمل بلا اتباع سنة رسول الله ﷺ؛ فباطلٌ عملُه». وقال: «ما ابتلى الله عبداً بشيء أشدَّ من الغفلة والقسوة».

توفي ـ رحمه الله تعالى ـ سنة ثلاثين ومائتين(١).

ومنهم:

[١٤]

أَبُو عَبدِ الرَّحمنِ، حَاتِمُ بنُ عُنْوان الأَصَم(٢)

ويقال: حاتم بن يوسف. ويقال: حاتم بن عنوان بن يوسف [الأصم]. صاحب مقالات، وساحب ذيل في مقامات، وكان لأغطية الصدور كاشفا، ولتجلية البدور كاسفا، رُفِع له الحجاب، وصدع به الدجى فانجاب، وطالما غفر الزلل، وظفر بما لم يزل. حكي أنه ستر، فستر الله عليه، وتصامم فسرَّ الله مسمعيه، وكان له جميل صنع لم يزل إليه مصروفاً، ومنعٌ كان لا يراه من أنكره إلا معروفا، مع جود أضفى ذيله وأطاله.

وكان من قدماء مشايخ /٢٧/ خراسان، من أهل بلخ، صحب شقيق بن إبراهيم البلخي، وكان أستاذ أحمد بن خضرويه، وهو مولى للمثنى بن يحيى المحاربي، وله ابنٌ يقال له: «خشنام بن حاتم». قيل: إنه لم يكن أصمَّ، وإنما تصامم مرة؛ فسمي به.

جاءته امرأة تسأله عن مسألة، فاتَّفق أن خرج منها في تلك الحالة صوت، فخجلت، فقال حاتم: ارفعي صوتك! فأرى من نفسه أنه أصم!، فَسُرَّت المرأة من ذلك،

---

(١) وفي تاريخ الإسلام توفي سنة ٢٥٠هـ.

(٢) ترجمته في: الجرح والتعديل ٣/ ٢٦٠، وحلية الأولياء ٨/ ٦٤، ٧٣ـ ٨٣ و١٠/ ٤٦ـ ٥٠، ٧٣، ٢٢٠، ٢٢١، وطبقات الصوفية للسلمي ٩١، والزهد الكبير للبيهقي، رقم ٣٥٥، ٣٥١، ٣٥٢، ٧٤١، ٧٦٠، وصفة الصفوة ٤/ ١٦١، وتاريخ بغداد ٨/ ٢٤١، واللباب ١/ ٥٧، ووفيات الأعيان ٢/ ٢٦ـ ٢٩ رقم ١٤٨، والعبر ١/ ٤٢٤، ومشارع الأشواق ٢٩٨، ودول الإسلام ١/ ١٤٤، ومرآة الجنان ٢/ ١١٨، والبداية والنهاية ١٠/ ٣١٧، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٣٨، والرسالة القشيرية ١/ ٨٩، والأنساب لابن السمعاني ٨٤٣أ (الأصمّ)، واللباب ١/ ٥٧، وسير أعلام النبلاء ١١/ ٤٨٤ـ ٤٨٧ رقم ١٢٨، والعبر ١/ ٤٢٤، ومرآة الجنان ٢/ ١١٨، والوافي بالوفيات ١١/ ٢٣٣، ٢٣٤ رقم ٣٣١، والنجوم الزاهرة ٢/ ٢٩٠، وشذرات الذهب ٢/ ٨٧، والأعلام للزركلي ٢/ ١٥، وطبقات الشعراني ١/ ٩٣، وطبقات الأولياء لابن الملقن ١٧٨ـ ١٨١ رقم٣٣، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٣١ـ ٢٤٠هـ) ص١١٨ـ ١٢٠ رقم ٨٩.

وقالت في نفسها: إنه لم يسمع الصوت، فغلب عليه اسم الأصم. وقال: «من دخل في مذهبنا هذا فليجعل في نفسه أربع خصال من الموت: موت أبيض، وهو: الجوع. وموت أسود، وهو: احتمال الأذى من الخلق. وموت أحمر، وهو: العمل الخالص من الشوب في مخالفة الهوى. وموت أخضر، وهو: طرح الرقاع بعضها على بعض.

وقال: «العجلة من الشيطان إلا في خمس: إطعام الطعام إذا حضر ضيفٌ، وتجهيز الميِّت إذا مات، وتزويج البكر إذا أدركت، وقضاء الدين إذا وجب، والتوبة من الذنب إذا أذنب».

وقال: «من أصبح وهو مستقيم في أربعة أشياء فهو يتقلَّب في رضا الله تعالى: أولها: الثقة بالله، ثم التوكل، ثم الإخلاص، ثم المعرفة. والأشياء كلها تتم بالمعرفة».

[وقال:] «الواثق من رزقه من لا يفرح بالغنى، ولا يهتم بالفقر، ولا يبالي أصبح في عسر أو يسر».

وقال: «أصل الطاعة ثلاثة أشياء: الخوف، والرجاء، والحب. وأصل المعصية ثلاثة أشياء: الكبر، والحرص، والحسد. فما يأخذه المنافق يأخذه بالحرص، ويمنعه بالشك، وينفقه بالرياء. والمؤمن يأخذ بالخوف، ويمسك بالشدة، وينفق في الطاعة خالصاً لله تعالى».

وقال: «الجهاد ثلاثة: جهادٌ في سرِّك؛ مع الشيطان حتى تكسره؛ وجهادٌ في العلانية، في أداء الفرائض حتى تؤديها، كما أمر الله تعالى؛ وجهادٌ مع أعداء الله تعالى، في غزو الإسلام».

و[قال:] «الشهوة ثلاثة: شهوةٌ في الأكل، وشهوةٌ في الكلام، وشهوةٌ في النظر. فاحفظ الأكل بالثقة، /٢٨/ واللسان بالصدق، والنظر بالعبرة».

وقال: «اطلبْ نفسك في أربعة أشياء: العملِ الصالح بغير رياء، والأخذ بغير طمع، والعطاء بغير منَّة، والإمساك بغير بخل».

وقال: «ما من صباح إلا والشيطان يقول لي: ما تأكلُ؟. وما تلبسُ؟. وأين تسكنُ؟. فأقول: آكل الموتَ، وألبس الكفنَ، وأسكن القبرَ».

وقال: «الزم خدمة مولاك، تأتك الدنيا راغمة، والجنة عاشقة».

وقال: «تعهَّد نفسك في ثلاثة مواضع: إذا عملت، فاذكر نظر الله إليك، وإذا تكلَّمت، فاذكر سمع الله تعالى إليك، وإذا سكنت فاذكر علم الله تعالى فيك».

وقال: «من ادَّعى ثلاثاً بغير ثلاث، فهو كذَّاب: من ادَّعى حبَّ الله، من غير ورعٍ عن محارمه، فهو كذَّاب. ومن ادَّعى حبَّ الجنة، من غير إنفاق ماله، فهو كذَّاب. ومن ادَّعى حبَّ النبي ﷺ، من غير محبَّة الفقر، فهو كذَّاب».

وقيل له: على ماذا بنيت أمرك في هذا الأمر؟. فقال: على أربع خصال: «علمت أن رزقي لا يأكله غيري، فاطمأنَّتْ به نفسي. وعلمت أن عملي لا يعمله غيري، فأنا مشغولٌ به. وعلمت أن الموت يأتيني، فأنا أبادره. وعلمت أني لا أخلو من عين الله حيث كنت، فأنا مستحيي منه».

توفي ـ رحمه الله تعالى ـ بواشجرد سنة سبع وثلاثين ومائتين، عند رباط يقال له: «رأس سروند» على جبل فوق «واشجرد».

ومنهم:

[١٥]

أَحمدُ بنُ خَضْرَوَيه البَلْخِيُّ(١)

من كبار مشايخ خراسان. رسا رسوَّ أبان، وأظهر العجائب وأبان، أرضى الخليل، ورضي بالقليل، ورمى بباع ممتد، وساعدٍ مشتد، حتى تردَّى رداء الصلاح، وورد حيث يتفجَّر معين الصباح، فوطىء العلا وأكنافها، وكان منهج نُسَّاك، وجدّ إنفاق وإمساك، على أنه أفاض المواهب، وأغاض البحور والعصور الذواهب، وكان على هذا مقتصدا، وللموت ساعة فساعة مترصدا. صحب أبا تراب النخشبي. وقدم نيسابور، وزار أبا حفص، وخرج /٢٩/ إلى بسطام في زيارة أبي يزيد البسطامي، وكان كبيراً في الفتوة.

---

(١) ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي ٣/ ١٠٦ رقم ١٣، وحلية الأولياء ١٠/ ٤٢، ٤٣ رقم ٤٥٩ (أحمد بن الخضر)، والرسالة القشيرية ٢١، والأذكياء لابن الجوزي ٣٧، ٣٩٨، وصفة الصفوة له ٤/ ١٦٣ـ ١٦٥ رقم ٧٠٥٤، وسير أعلام النبلاء ١١/ ٤٨٧ـ ٤٨٩ رقم ١٢٩، والوافي بالوفيات ٦/ ٣٧٣ رقم ٢٨٧٤، ونفحات الأنس ٣٩، وكشف المحجوب ٣٣٨، ونتائج الأفكار القدسية ١/ ١٢٤، وجامع كرامات الأولياء ٢/ ٢٩٠، وطبقات المناوي ١/ ١٢٤.

وقد أضاف محقق «سير أعلام النبلاء» السيد صالح السمر، بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط (١١/ ٤٨٧) (بالحاشية) كتاب «تاريخ بغداد» إلى مصادر ترجمة «أحمد بن خضرويه»، وكذلك فعل السيد نور الدين شريبه في «طبقات الأولياء» لابن الملقّن (٣٧ بالحاشية)، فوهما بذلك، لأن الذي في «تاريخ بغداد» (٤/ ١٣٧، ١٣٨) هو: أحمد بن الخضر بن محمد بن أبي عمرو، أبو العباس المروزي. قدم بغداد وحدّث بها عن محمد بن عبدة المروزي، روى عنه سعيد بن أحمد بن العراد، وأبو بكر النقاش المقريء، وأبو القاسم الطبراني، وغيرهم. روايات أحمد بن الخضر هذا عند أهل خراسان كثيرة منتشرة. مات في سنة خمس عشرة وثلاثمائة».

فبين وفاة «أحمد بن خضرويه» صاحب الترجمة و«أحمد بن الخضر المروزي» الذي في تاريخ بغداد نحو ٧٥ سنة، فليُراجع ويُحرَّر. «التدمري».

تاريخ الإسلام (السنوات ٢٣١ـ ٢٤٠هـ) ص٢٩ـ ٤٠ رقم١٣.

قال أبو حفص: «ما رأيت أحداً أكبر همَّةً ولا أصدقَ حالاً من أحمد بن خضرويه».

وكان أبو يزيد يقول: «أستاذنا أحمد».

وقال محمد بن حامد: «كنت جالساً عند أحمد بن خضرويه، وهو في النزع، وكان قد أتى عليه خمس وتسعون سنة، فسأله بعض أصحابه عن مسألة، فدمعت عيناه، وقال: «يا بني! بابٌ كنت أدقُّه منذ خمس وتسعين سنة، وهو ذا يُفْتَحُ لي الساعة، لا أدري أبالسعادة يفتح أم بالشقاوة؟ أنَّى لي أوان الجواب؟. قال: وكان عليه سبعمائة دينار، وغرماؤه عنده، فنظر إليهم، وقال: اللهم إنك جعلت الرهون وثيقة لأرباب الأموال، وأنت تأخذ عنهم وثيقتهم، فادِّ عنيِّ». قال: فدقَّ داقٌّ الباب، وقال: أين غرماء أحمد؟. فقضى عنه، ثم خرجت روحه.

وقال أحمد بن خضرويه: «لا نوم أثقل من الغفلة، ولا رقَّ أملك من الشهوة، ولولا ثقل الغفلة عليك، لما ظفرت بك الشهوة».

ومنهم:

[١٦]
الحَارِثُ بنُ أَسَدٍ المُحَاسِبِيُّ(١)

البصريُّ، أبو عبد الله. رجلٌ كان عن متاع الدنيا متنزِّها، وباتباع الأُلى متشبها،

---

(١) الحارث بن أسد المحاسبي. أبو عبد الله: من أكابر الصوفية. كان عالماً بالأصول والمعاملات. واعظاً مُبكياً. وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم. ولد ونشأ بالبصرة. ومات ببغداد سنة ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م. وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره. من كتبه «آداب النفوس ـ خ» صغير. و«شرح المعرفة ـ خ» تصوف. و«المسائل في أعمال القلوب والجوارح ـ ط» رسالة، و«المسائل في الزهد وغيره ـ خ» رسالة، و«البعث والنشور ـ خ» رسالة، و«ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه ـ خ» و«الرعاية لحقوق الناس فيه ـ خ» و«الرعاية لحقوق الله عز وجل ـ ط» و«الخلوة والتنقل في العبادة ـ ط» و«معاتبة النفس ـ خ» في الأزهرية، و«كتاب التوهم ـ ط» و«رسالة المسترشدين ـ ط». ومن كلامه: خيار هذه الأمة الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم ولا دنياهم عن آخرتهم.

ترجمته في: أدب القاضي للماوردي ١/ ٤٨٣، ٤٨٤، وتاريخ بغداد ٨/ ٢١١ـ ٢١٦ رقم ٤٣٣٠، والزهد الكبير للبيهقي ١٤٩ رقم ٣١٢، وذمّ الهوى لابن الجوزي ٥٤، والأنساب لابن السمعاني ١١/ ١٥١، واللباب لابن الأثير ٣/ ١٧١، والكامل في التاريخ ٧/ ٨٤، ووفيات الأعيان ١/ ٣٧٣ و٢/ ٥٧، ٥٨ و٧/ ٢١٣، وحلية الأولياء ١٠/ ٧٣ـ ١١٠، والوفيات لابن قنفذ ١٧٨ رقم ٢٤٣، وتهذيب الكمال للمزّي ٥/ ٢٠٨ـ ٢١٢ رقم ١٠٠٧ وذكره للتمييز، والفهرست لابن النديم ٢٣٦، =

لم تصبه الأيام بهزَّتها، ولم تصبه الليالي منها بِتِرَتِهَا، فخصم أطماعه من طلب متاعها، وفطم آماله من حلب رضاعها، وقنع منها بالقوت الذي ألجىء إلى أكله، ووكل أباه بطول حزنه ونكله، وترك نفسه فيما لا يطيق من شجونها، وضيق سجونها؛ لذنب أخرجه ليكون غرضاً لنابلها، وأخرجه من الجنة بحبة من سنابلها.

كان عديم النظير في زمانه، علماً، وورعاً، ومعاملةً، وحالاً. قيل: إنه ورث من أبيه سبعين ألف درهم، فلم يأخذ منها شيئاً. قيل: لأن أباه كان يقول بالقدر. فرأى من الورع أن لا يأخذ من ميراثه شيئاً؛ وقال: «صحَّت الرواية عن النبي ﷺ أنه قال: / ٣٠/ (لا يتوارث أهل ملَّتين).

قال أحمد بن مسروق: مات الحارث بن أسد المحاسبي، وهو محتاج إلى درهم، وخلَّف أبوه ضياعاً وعقاراً، فلم يأخذ منه شيئاً.

وقال أبو علي الدَّقَّاق: كان الحارث المحاسبي إذا مدَّ يده إلى طعام فيه شبهة، تحرَّك على إصبعه عِرْقٌ؛ فكان يمتنع منه.

وقال [أبو] عبد الله بن خفيف: اقتدوا بخمسة من شيوخنا، والباقون سلِّموا لهم حالهم: الحارث بن أسد المحاسبي، والجنيد بن محمد، وأبو محمد رويم، وأبو العباس بن عطاء، وعمرو بن عثمان المكي؛ لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق.

وقال الحارث: «من صحَّح باطنه بالمراقبة والإخلاص، زيَّن الله ظاهره بالمجاهدة، واتِّباع السنة».

ويحكى عن الجنيد أنه قال: مرَّ بي يوماً الحارث المحاسبي، فرأيت فيه أثر الجوع، فقلت: يا عم!، تدخل الدار، وتتناول شيئاً؟. فقال: نعم. فدخلت الدار،

= وطبقات الصوفية للسلمي ٥٦ـ ٦٠، والرسالة القشيرية ١٢، وصفة الصفوة لابن الجوزي ٢/ ٣٦٧ـ ٣٦٩، رقم ٢٧٠، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ١١٠، ودول الإسلام ١/ ١٤٧، والعبر ١/ ٤٤٠، وميزان الاعتدال ١/ ٤٣٠، ٤٣١، رقم ١٦٠٦، والوافي بالوفيات رقم ٣٧٧، ١١/ ٢٥٧، ٢٥٨، ومرآة الجنان لليافعي ٢/ ١٤٢، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٢/ ٣٧ـ ٤١، وطبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٢٦، وتهذيب التهذيب رقم ٢٢٦، ٢/ ١٣٤ـ ١٣٦، وتقريب التهذيب ١/ ١٣٩ رقم ١٨، والنجوم الزاهرة ٢/ ٣١٦، وحسن المحاضرة ١/ ٢٩٢، وخلاصة تذهيب التهذيب ٦٧، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٦٤، وشذرات الذهب ١/ ١٠٣، والكواكب الدرّية ١/ ٢١٨، ٢١٩، ومرآة الجنان ٢/ ١٤٢، ١٤٣، والبداية والنهاية ١٠/ ٣٤٥، وطبقات الأولياء لابن الملقّن ١٧٥ـ ١٧٧، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٤٠، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٢٢٧، ٢٢٨، والإشارات للهروي ٧٤، وآثار البلاد وأخبار العباد ٣٢٢، والأعلام ٢/ ١٥٣، ومعجم المؤلفين ٣/ ١٧٤، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٤١ـ ٢٥٠هـ) ص٢٠٥ـ ٢١٠ رقم١٢٠.

وطلبت شيئاً أقدِّمه إليه، فكان في البيت شيء من طعام حُمِلَ إليَّ من عرس قوم، فقدَّمته إليه، فأخذ لقمة وأدارها في فمه مرَّات، ثم إنه قام وألقاها في الدهليز، ومرّ!. فلمَّا رأيته بعد ذلك بأيَّام، قلت له في ذلك؟. فقال: إني كنت جائعاً، وأردت أن أسرَّك بأكلي، وأحفظ قلبك، ولكن بيني وبين الله سبحانه وتعالى علامة: أن لا يسوّغني طعاماً فيه شبهة، فلم يمكنّي من ابتلاعه، فمن أين كان ذلك الطعام؟. فقلت: إنه حُمِلَ إليَّ من دار قريب لي من العرس. ثم قلت: تدخل اليوم؟. فقال: نعم. فقدَّمت إليه كِسَراً يابسة كانت لنا، فأكل وقال: إذا قدَّمت إلى فقير شيئاً، فقدِّم إليه مثل هذا.

وسئل الحارث عن العقل ما هو؟. فقال: «نور الغريزة مع التجارب، يزيد ويقوى بالعلم والحلم». وكان يقول: «فقدنا ثلاثة أشياء: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الأمانة، وحسن الإخاء مع الوفاء».

وقال السمعاني: كان أحمد بن حنبل يكرهه لنظره في علم الكلام، وتصنيفه فيه؛ وهجره، فاستخفى من العامة، فلما مات لم يصل عليه إلا أربعة نفر.

قال: وعرف بالمحاسبي؛ لأنه كان يحاسب نفسه.

قال ابن خلِّكان: وهو أحد رجال الحقيقة، / ٣١/ وهو ممن اجتمع له علم الظاهر والباطن، وله كتب في الزهد والأصول، وكتاب «الرعاية» له.

توفي سنة ثلاث وأربعين ومائتين.

ومنهم:

[١٧]

أَبُو تُرَاب، عَسْكَر بنُ حُصَين النَّخْشَبِيّ(١)

صحب حاتم الأصم، وأبي حاتم العطار البصري. اعتدَّ لمسيره واعتنى، وشده

(١) ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي ١٤٦ـ ١٥١ رقم ٢٠، وحلية الأوليا ١٠/ ٢١٩ـ ٢٢٢ رقم ٥٥٠، والرسالة القشيرية ٢٢، وتاريخ بغداد ١٢/ ٣١٥ـ ٣١٨ رقم ٦٧٥٨، والأنساب ١٢/ ٦٠، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٢/ ٥٥، ٥٦، واللباب ٣/ ٣٠٣، والكامل في التاريخ ٧/ ٩٢، وطبقات الحنابلة ١/ ٢٤٨، ٢٤٩ رقم ٣٤٩، وآثار البلاد وأخبار العباد ٣٣٤، ٤٦٦، ودول الإسلام ١/ ١٤٨، وسير أعلام النبلاء ١١/ ٥٤٥، ٥٤٦ رقم ١٦١، والعبر ١/ ٤٤٥، والبداية والنهاية ١٠/ ٣٤٦، والنجوم الزاهرة ٢/ ٣٢١، ومفتاح السعادة ٢/ ١٧٤، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٩٦، والكواكب الدرّية ١/ ٢٠٢، ودائرة المعارف البستاني ٢/ ٥٤، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٤١ـ ٢٥٠هـ) ص٣٤٩ـ ٣٥١ رقم ٣٠٩.

لمصيره البيت وابتنى، فلم تجذبه الدنيا بخطامها، ولم تسلبه بحطامها، فما زال يفرُّ من دناياها، ولا يقرُّ خوفاً من طروق مناياها، وطالما ظنَّت أنها تسوِّل له لبس ردائها المعار، وتحمل دائها والعار، والعناية قد أحاطت به من كل جانب، وأماطت رُدنه من كلِّ جاذب، فشرف مقاما، وشرق عدوه ملاما، ولم يرمق الدنيا بمؤخر عين ولا مقدَّم، ولا علق بمال معاهد، ولا مسلم.

قال ابن الجلاَّء: صحبت ستمائة شيخ، ما لقيت فيهم مثل أربعة: أولهم: أبو تراب النخشبي.

قال أبو تراب: «الفقير قُوتُه ما وجده، ولباسه ما ستره، ومسكنه حيث نزل».

وقال أيضاً: «إذا صدق العبد في العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله، فإذا أخلص فيه، وجد حلاوته ولذَّته وقت مباشرة الفعل».

وقال: «ما تمنَّت نفسي عليَّ شيئاً قطُّ إلا مرَّة واحدة: تمنَّت عليَّ خبزاً وبيضاً، وأنا في سفري، فعدلت عن الطريق إلى قرية، فوثب رجل وتعلَّق بي، وقال: كان هذا مع اللصوص!. فبطحوني، وضربوني سبعين خشبة، قال: فوقف علينا رجلٌ صوفي، فصرخ، وقال: ويحكم!! هذا أبو تراب النخشبي، فخلّوني، واعتذروا إليّ، وأدخلني الرجل منزله، وقدَّم لي خبزاً وبيضاً، فقلت: كلُها بعد سبعين جلدة!!.

وقال يوماً لأصحابه: «من لبس منكم مرقَّعة، فقد سأل، ومن قعد في خانقاه أو مسجد، فقد سأل، ومن قرأ القرآن من المصحف، أو كيما يسمع الناس، فقد سأل.

ونظر يوماً إلى صوفيّ من تلامذته قد مدَّ يده إلى قشر بطِّيخ، وقد طوى ثلاثة أيام، فقال له أبو تراب: «تمدُّ يدك إلى قشر البطيخ!؟ أنت لا يصلح لك التصوف، الزم السوق».

وكان / ٣٢/ أبو تراب يقول: «بيني وبين الله عهد أن لا أمدَّ يدي إلى حرام إلا قصرت يدي عنه». وكان ـ رضي الله عنه ـ إذا رأى من أصحابه ما يكره، زاد في اجتهاده، وجدَّد توبته، ويقول: «بشؤمي دُفِعُوا إلى ما دفعُوا إليَّه، لأن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[1].

وحكى ابن الجلاَّء، قال: دخل أبو تراب مكة طيِّب النفس، فقلت: أين أكلت أيها الأستاذ؟. فقال: أكلةً بالبصرة، وأكلة بالنباج، وأكلة ههنا.

توفي سنة خمس وأربعين ومائتين. قيل: مات بالبادية، نهشته السباع.

---

(١) سورة الرعد: الآية ١١.

ومنهم:

[١٨]

السَّري بنُ مُغَلِّس السَّقَطِيّ[(١)]، خال الجنيد، وأستاذه

رمى يده من الدنيا ونفضها، وأعطى الله عهوداً ما نقضها، لم يرضَ بمتاع معار، ولا برضاع آخره إثم وعار، فتجنَّب الزخارف، وتجلبب غير ما ألبسته من المطارف، فأماط تلك الأردية، وحلَّ تلك العُقد المردية، حتى خبت لديه مواقدها، وهبَّت إليه بالإنابة مراقدها، والزهد يصفي له الموارد، ويصلي سواه كلَّ وارد. وكم اتَّجه أمثاله إلى ذلك الينبوع واشتبه حاله، حتى فضح التطبّع شيمة المطبوع. كان تلميذ معروف الكرخي، وأوحد زمانه في الورع، والاحوال السنية، وعلوم التوحيد. وكان يتَّجر في السوق، فجاءه معروفٌ يوماً، ومعه صبيٌّ يتيم، فقال: أُكسُ هذا اليتيم. قال سري: فكسوته، ففرح معروف، وقال: بغَّض الله إليك الدنيا، وأراحك مما أنت فيه. فقمت من الحانوت، وليس شيءٌ أبغض إليَّ من الدنيا، وكل ما أنا فيه من بركات معروف.

وقال الجنيد: ما رأيت أعبد من السَّريّ، أتت عليه ثمان وتسعون سنة، ما رئي مضطجعاً إلا في علَّة الموت.

وقال السَّريُّ: «التصوف اسمٌ لثلاثة معان: وهو الذي لا يطفىء نورُ معرفته نورَ ورعه. ولا يتكلَّم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة. ولا تحمله الكرامات

---

(١) ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي ٤٨ـ ٥٥، وعيون الأخبار ٢/ ٣٥٩، وحلية الأولياء ١٠/ ١١٦ـ ١٢٨، وتاريخ بغداد ٩، ٩/ ١٨٧ـ ١٩٢، والرسالة القشيرية ١٢، ومعجم الشيوخ لابن جُمَيع ١٩١، والهفوات النادرة ٥٥، والزهد الكبير للبيهقي، رقم ٣٣ و٤٧ و٦١ و١٤٦ و١٧٤ و٢٦١ و٢٧١ و٢٨٤ و٣٥٠ و٣٥١ و٣٥٢ و٣٥٣ و٤١٤ و٤١٨ و٤٢١ و٤٢٢ و٤٣٠ و٤٩٢ و٤٩٥ و٦٨١ و٧٦٦ و٨٥١ و٨٥٨ و٩٢٧ و٩٢٨ و٩٣٥ و٩٤٦ و٩٤٧ و٩٦٨ و٩٦٩، والتذكرة الحمدونية ١/ ١٩٢، وتاريخ حلب للعظيمي ٢٦٣ وفيه «المغسل» وهو غلط، وصفة الصفوة ٢/ ٣٨١ـ ٣٨٦ رقم ٢٧٢، والكامل في التاريخ ٧/ ١٦٦، والإشارات إلى معرفة الزيارات ٧٥، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٤٣، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ١٨٥ـ ١٨٧ رقم ٦٥، والعبر ٢/ ٥، ودول الإسلام ١/ ١٥٢، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٢٣٠، ومرآة الجنان ٢/ ١٥٨، ١٥٩، والبداية والنهاية ١١/ ١٣، ١٤، وتاريخ الخميس ٢/ ٣٨٠، ولسان الميزان ٣/ ١٣، ١٤، ولواقح الأنوار للشعراني ١/ ٨٦، ٨٧، والنجوم الزاهرة ٢/ ٣٣٩، ٣٤٠، وشذرات الذهب ٢/ ١٢٧، ١٢٨، وتاريخ الخلفاء ٣٦٠، وطبقات الأولياء لابن الملقّن (أنظر فهرس الأعلام ٥٩٧)، والأعلام ٣/ ١٢٩، وآثار البلاد وأخبار العباد ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٦، ٤٢٢، ٤٤٤، وتاريخ الإسلام(السنوات ٢٥١ـ ٢٦٠هـ) ص١٥٠ـ ١٥٢ رقم٢٢٤.

/ ٣٣/ على هتك أستار محارم الله.

وقال الجنيد: سألني السَّريُّ يوماً عن المحبة، فقلت: قال قومٌ: هي الموافقة، وقال قوم: الإيثار، وقال قومٌ: كذا وكذا..، فأخذ سريّ جلدة ذراعه، ومدَّها، فلم تمتدَّ، ثم قال: «وعزَّته تعالى، لو قلت: إن هذه الجلدة يبست على هذا العظم من محبَّته لصدقت!» ثم غشِّي عليه، فدار وجهه كأنه قمرٌ مشرق. وكان السري به أدمة.

ويحكى عن السريِّ أنه قال: منذ ثلاثين سنة أنا في الاستغفار من قولي: الحمد لله، مرة. قيل: فكيف ذلك؟. فقال: وقع ببغداد حريق، فاستقبلني رجلٌ، فقال لي: نجا حانوتك !. فقلت: «الحمد لله، فمنذ ثلاثين سنة أنا نادم على ما قلت، حيث أردت لنفسي خيراً مما حصل للمسلمين!!!.

وقال السَّريّ: صلِّيت وردي ليلة، ومددت رجلي في المحراب، فنوديت: يا سريّ!! كذا تجالس الملوك؟. قال: فضممت إليَّ رجلي، ثم قلت: وعزَّتك لا مددتُ رجلي أبداً، فما مددتها بعد ذلك.

ويحكى عن السَّري أنه قال: «أنا أنظر في أنفي في اليوم كذا وكذا مرة، مخافة أن يكون قد اسودَّ، خوفاً من الله تعالى أن يسوِّد صورتي لما أتعاطاه».

وقال السريُّ: أعرف طريقاً مختصراً قصداً إلى الجنة. فقلت: ما هو؟. فقال: لا تسأل من أحدٍ شيئاً، ولا تأخذ من أحدٍ شيئاً، ولا يكن معك شيءٌ تعطي منه أحداً.

وقال: «أشتهي أن أموت ببلدٍ غير بغداد. فقيل له: ولم ذلك؟. فقال: أخاف أن لا يقبلني قبري فأفتضح!»!.

وقال الجنيد: دخلت يوماً على السري السقطي، وهو يبكي، فقلت له: ما يبكيك؟. فقال: جاءتني البارحة الصبيَّة، فقالت: يا أبت! هذه ليلةٌ حارَّة، وهذا الكوز أعلِّقه ههنا. ثم إني حملتني عيناي، فنمت، فرأيت جارية من أحسن الخلق، قد نزلت من السماء، فقلت: لمن أنتِ؟. فقالت: لمن لا يشرب الماء المبرَّد في الكيزان. فتناولت الكوز؛ فضربت به الأرض فكسرته. قال الجنيد: فرأيت الخزف المكسور لم يرفعه ولم يمسَّه، حتى عفا عليه التراب.

قال: / ٣٤/ وسمعته يقول: «اللهم مهما عذَّبتني بشيء، فلا تعذِّبني بذلِّ الحجاب».

وقال السَّريُّ: غزونا أرض الروم؛ فمررت بأرض خضراء، فيها الخُبَّازَى، وحجر منقور فيه ماء المطر، فقلت في نفسي: لئن كنت أكلت يوماً حلالاً فاليوم!.

فنزلت عن دابَّتي، وجعلت آكل من ذلك الخُبَّازَى، وشربت من ذلك الماء، وإذا بهاتف يهتف بي: يا سري! فالنفقة التي بلغت بها إلى هذا الموضع، من أين؟.

وقال: «أحبُّ أن آكل أكلة ليس لله عليَّ فيها تبعة، ولا لمخلوق علي فيها منَّة، فما أجد إلى تلك سبيلاً».

ودخل عليه رجلٌ في مرضه يعوده، فقال له: كيف تجدك؟. فقال: [من الحفيف]

كَيْفَ أَشكو إلى طَبيبيَ ما بي   والذي بيْ أصابنيْ مِنْ طَبيبي

فأخذ الرجل المروحة يروِّح عليه، فقال له السَّريُّ: كيف يجد رَوح المروحة مَن جوفُه يحترق من داخل؟. ثم أنشأ يقول: [من البسيط]

القلبُ محترقٌ، والدمعُ مُستبقٌ   والكَربُ مُجتمعٌ والصبرُ مفترقُ
كيفَ القَرارَ على مَنْ لا قرارَ لَهَ   ممَّا جَناهُ الهوى والشوقُ والقَلَقُ
يا ربِّ إنْ كانَ شيءٌ فيهِ لي فرجٌ   فامنُنْ عليَّ بهِ ما دامَ بيْ رَمَقُ

ودخل عليه رجلٌ، وهو يجود بنفسه، فجلس عند رأسه وبكى، فسقط عليه من دموعه، ففتح عينيه، ونظر إليه، فقال له الرجل: أوصني. فقال: لا تصحب الأشرار، ولا تُشْغَلَنَّ عن الله بمجالسة الأخيار.

توفي السَّريُّ رضي الله عنه سنة سبع وخمسين ومائتين. وقيل: سنة إحدى وخمسين، وقيل: في رمضان سنة خمسين. وكانت وفاته في بغداد. وكان كثيراً ما ينشد: [من الطويل]

إذا ما شكوتُ الحبَّ قالتْ كَذبْتَني   فما ليْ أَرى الأعضاءَ منكَ كَواسيا
فلا حُبَّ حتى تُلصِقَ الجِلدَ بالحَشا   وتُذهَلَ حتى لا تُجيبَ المُناديا
وتَنحَلَ حتى لا يُبقِّي لَكَ الهَوى   سِوى مُقلةٍ تبكي بها وتَناجيا

ومنهم:

[١٩]

أَبُو زَكَرِيَّا، يَحيَى بنُ مُعَاذ الرَّازِي الوَاعِظُ(١)

ترك الدنيا أنكاثا، ومرَّ فيها عابر سبيل لا إمكاثا، فما حطَّ عن قلاصه، ولا حلَّ

---

(١) ترجمته في: حلية الأولياء ١٠/٥١ـ ٧٠ رقم ٤٦٣، وطبقات الصوفية للسلمي ١٠٧ـ ١١٤، والرسالة القشيرية ٢١، والفرج بعد الشدّة للتنوخي ٣/١٤٣، وربيع الأبرار ٤/١٣٨، وتاريخ بغداد ١٤/٢٠٨ رقم ٧٤٩٧، والمنتظم ٥/١٦، ١٧ رقم ٣٢، والإشارات إلى معرفة الزيارات للهروي ٩٩، والكامل في التاريخ ٧/٢٥٨، وفهرست ابن خير ٥١٩، وآثار البلاد وأخبار العباد =

حباله لخلاصه، فلم يعلق لها بدنس، ولا خنس فيها نجمه ولا كنس، /٣٥/ ولم ير محاطَّ الرجال إلا على ذنابي الأفاعي، وزباني العقارب السواعي، فشدَّ وانطلق، وردَّ الغيث في طلق، فلم يتَّخذ في هذه الدار مقيلا، ولا خال نفسه فيها مقيماً ولا نزيلا. وكان نسيج وحده في وقته، وله لسان في الرجاء خصوصاً، وكلام في المعرفة. خرج إلى بلخ، فأقام بها مدة، ورجع إلى نيسابور.

قال يحيى بن معاذ: «كيف يكون زاهداً من لا ورع له؟ تورَّعْ عما ليس لك، ثم ازهدْ فيما لك».

وقال: «جوع التوَّابين تجربة، وجوع الزاهدين سياسة، وجوع الصِّدِّيقين تكرمة».

وقال يحيى: «الفوت أشدُّ من الموت، لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق».

وقال: «الزهد ثلاثة أشياء: القلَّة، والجوع، والخلوة». وقال: «لا تُرْبِح على نفسك بشيء أجلّ من أن تشغلها في كل وقت بما هو أولى بها».

وقيل: «إن يحيى بن معاذ تكلَّم ببلخ في تفضيل الغنى على الفقر، فأعطي ثلاثين ألف درهم، فقال بعض المشايخ: لا بارك الله له في هذا المال؛ فخرج إلى نيسابور، فوقع عليه اللص، وأخذ ذلك المال منه.

وقال أيضاً: «من خان الله في السر، هتك الله ستره في العلانية».

وقال: «تزكية الأشرار لك هجنة بك، وحبُّهم لك عيبٌ عليك، وهانَ [عليك] من احتاج إليك».

وقال أبو بكر الخطيب: قدم يحيى بن معاذ بغداد، واجتمع إليه بها مشايخ الصوفية والنسَّاك، ونصبوا له منصَّة، وأقعدوه عليها، وقعدوا بين يديه يتحاورون،

= للقزويني ٣٨١، ٣٨٢، ودول الإسلام ١/ ١٥٦، ومرآة الجنان ٢/ ١٦٩، ١٧٠، والبداية والنهاية ١١/ ٣١، وصفة الصفوة ٤/ ٩٠ـ ٨، رقم ٦٧٤، والزهد الكبير للبيهقي، رقم ٢٤ و٤٨ و٥٧ و٧٥ و١٨٤ و٣٦٤ و٣٨٩ و٤٨١ و٤٨٣ و٤٨٥ و٥٦٩ و٧٧٨ و٨٤٨ و٨٥٥ و٨٥٦ و٨٥٨، ووفيات الأعيان ٦/ ١٦٥ـ ١٦٨ رقم ٧٩٤، والفهرست لابن النديم ١٨٤، ومعجم البلدان ١/ ٧٥٥، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ١٥، ١٦ رقم ٨، ولواقح الأنوار للشعراني ١/ ٩٤، ونتائج الأفكار القدسية ١/ ١١٩ـ ١٢٣، وشذرات الذهب ٢/ ١٣٨، والكواكب الدرّية ١/ ٢٧٢، ٢٧٣، وكشف المحجوب ١٢٢، ١٢٣، والنجوم الزاهرة ٣/ ٣٠، ونفحات الأنس ٤٠، وهدية العارفين ٢/ ٤٥٦، والأعلام ٩/ ٢١٨، ومعجم المؤلفين ١٣/ ٢٣٢، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٥١ـ ٢٦٠هـ) ص٣٧٣ـ ٣٧٥ رقم٥٧٩.

فتكلَّم الجنيد، فقال له يحيى: اسكت يا خروف!، ما لك وللكلام إذا تكلَّم الناس؟.

وكانت له إشارات وعبارات حسنة؛ فمن كلامه:

«الكلام الحسن حسن، وأحسن من الكلام معناه، وأحسن من معناه استعماله، وأحسن من استعماله ثوابه، وأحسن من ثوابه رضا من تعمل له».

وقال: «حقيقة المحبة أن لا تزيد بالبر، ولا تنقص بالجفاء».

وكان يقول: «من لم يكن /٣٦/ ظاهره مع العوام فضة، ومع المريدين ذهباً، ومع العارفين دُرَّاً، وياقوتاً، فليس من حكماء الله المؤيَّدين».

وكان يقول: «أحسن شيء كلام صحيح من لسان فصيح، في وجه صبيح، كلام دقيق يستخرج من بحر عميق، على لسان رجلٍ رفيق».

وكان يقول: «إلهي! كيف أنساك وليس لي ربٌّ سواك؟».

«إلهي! لا أقول: لا أعود؛ لأني أعرف من نفسي نقض العهود، ولكني أقول: لا أعود، لعلِّي أموت قبل أن أعود».

ومن دعائه: اللهم إن كان ذنبي قد أخافني فإن حسن ظني بك قد إجارني.

اللهمّ! سترتَ عليَّ ذنوباً في الدنيا، أنا إلى سترها في القيامة أحوج، وقد أحسنت بي إذ لم تظهرها بعصابة من المسلمين، فلا تفضحني في ذلك اليوم على رؤوس العالمين، يا أرحم الراحمين!».

ودخل على علويٍّ ببلخ زائراً له، ومسلِّماً عليه، فقال له العلوي: أيَّد الله الأستاذ، ما تقول فينا أهل البيت؟. قال: «ما أقول في طينٍ عُجنَ بماء الوحي، وغُرسَ بماء الرسالة، فهل يفوح منهما إلا مسك الهدٰى، وعنبر التقى؟. فحشٰى العلويُّ فاه بالدُّرّ. ثم زاره من الغد، فقال يحيى: إن زرتنا فبفضلك، وإن زرناك فلفضلك، فلك الفضل زائراً ومزوراً».

ومن كلامه: «ما بَعُدَ طريقٌ إلى صديق، ولا استوحَشَ في طريقٍ من سَلَكَ فيه إلى حبيب».

ومن كلامه: «مسكين ابن آدم! لو خاف النار كما يخاف الفقرَ لدخل الجنة».

وقال: «ما صحَّتْ إرادة أحدٍ قط [فمات] حتى حنَّ إلى الموت، واشتهاه اشتهاء الجائع إلى الطعام، لارتداف الآفات، واستيحاشه من الأهل والإخوان، ووقوعه فيما يتحيَّر فيه صريح عقله».

وقال: «من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء».

وقال: «ليكن حظُّ المؤمن منك ثلاث خصال: إن لم تنفعه فلا تضرُّه، وإن لم تسرُّه فلا تغمُّه، وإن لم تمدحه فلا تذمُّه».

وقال: «عمل كالسراب، وقلبٌ من التقوى خراب، وذنوب /٣٧/ بعدد الرمل والتراب، ثم تطمع في الكواعب الأتراب، هيهات!!، هيهات!!، أنت سكران بغير شراب، ما أكملك لو بادرت أملك!، ما أجلَّك لو بادرت أجلَك!!، ما أقواك لو خالفت هواك!!.

توفي ـ رضي الله عنه ـ يوم الاثنين لست عشرة خلت من جمادى الأولى، سنة ثمان وخمسين ومائتين، بنيسابور، رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[٢٠]

أَبُو يِزِيد، طَيْفُورُ بنُ عِيسَى بنِ آدَمَ البَسْطَامِي[١]

بطلٌ جاهد نفسه في الله حقَّ جهاده، وأحيا ليلَه ونهاره باجتهاده، وزهد حذراً من دنيا صِدْقُها كَذِب، وحقُّها بيد الباطِل منجذب، فكان لا يُسيم إبله في وخيم مرعاها، ولا يطلق أمله في ذميم مسعاها إذا كره شميمها، وجبهه أن لا يكنفه إلا هشيمها وأبكاه منها الجؤار، وأشجاه فيها سوء الجوار، فلم ينغب من صفوها إلاّ رفقا، ولم يرَ من أخلاصها إلا مذقا، ففرَّ منها الفرار من المجذوم، وقطع منها الفروع والجذوم.

---

(١) البَسطامي: نسبة إلى بَسطام وهي بلدة بقومس مشهورة «الأنساب ٢/ ٢١٣».
ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي ٦٧ـ ٧٤ رقم ٨، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٣ـ ٤٢ رقم ٤٥٨، والرسالة القشيرية ١/ ١٠٠، والزهد الكبير للبيهقي، رقم ٧٨٨، والمنتظم ٥/ ٢٨، ٢٩ رقم ٦٤، وتاريخ حلب للعظيمي ٢٦٥، وصفة الصفوة ٤/ ٨٩ـ ٩٤، ومعجم البلدان ١/ ٦٢٣، واللباب ١/ ١٥٢ـ ١٥٣، ووفيات الأعيان ٢/ ٥٣١ رقم ٣١٢، والعبر ٢/ ٣٣، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٨٦ ـ ٨٩ رقم ٤٩، وميزان الاعتدال ٢/ ٣٤٦ـ ٣٤٧ رقم ٤٠٣٥، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٢٣٧، ومرآة الجنان ٢/ ٢٧٣، والوافي بالوفيات ١٦/ ٥١٤ـ ٥١٦ رقم ٥٦٣، والبداية والنهاية ١١/ ٣٥، وطبقات الأولياء لابن الملقّن ٢٤٥، ٣٩٨ـ ٤٠٢، والنجوم الزاهرة ٣/ ٣٥، وشذرات الذهب ٢/ ١٤٣ـ ١٤٤، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٨٩، ٩٠، ونتائج الأفكار القدسية ١/ ١٠٤، والكواكب الدرّية ١/ ٢٤١، ودرر الأبكار ١٢٠، ١٢١، وجامع كرامات الأولياء ٢/ ٤٠، والأنوار القدسية ٩٧ـ ١٠٥، وكشف المحجوب ١٦ـ ٨، ١٨٤ـ ١٨٨، وتوضيح المشتبه ١/ ٥٠٦، والأنساب ٢/ ٢١٣، وروضات الجنات ٣٠٤، وهدية العارفين ١١/ ٤٣٤، وديوان الإسلام ١/ ٣٠٦ رقم ٤٧٩، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٦١ـ ٢٨٠هـ) ص١١٠ـ ١١٢ رقم٧٧.

كانوا ثلاثة إخوة، آدم، وطيفور، وعلي، وكلُّهم كانوا زُهَّاداً، عُبَّادا، وأبو يزيد كان أجلَّهم [حالاً].

سئل أبو يزيد: بأيِّ شيءٍ وجدتَ هذه المعرفة؟. فقال: ببطنٍ جائع، وبدنٍ عارٍ. وقال أبو يزيد: «عملت في المجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدتُ شيئاً أشدَّ عليَّ من العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لبقيت، واختلاف العلماء رحمة، إلا في تجريد التوحيد».

وقال: «لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفيني مؤنة الأكل، ومؤنة النساء، ثم قلت: كيف يجوز لي أن أسأل هذا، ولم يسأله رسول الله ﷺ إياه؟، فلم أسأله. ثم إن الله سبحانه وتعالى كفاني مؤنة النساء، حتى لا أبالي استقبلتني امرأة أو حائط». وسئل عن ابتداء زهده؟. فقال: ليس للزهد منزلة. فقلت: لماذا؟. فقال: لأني كنت ثلاثة أيام في الزهد. فلما كان اليوم الرابع خرجت منه: اليوم الأول: زهدت في الدنيا وما فيها. واليوم الثاني: زهدت في الآخرة وما فيها. واليوم الثالث: /٣٨/ زهدت فيما سوى الله. فلما كان اليوم الرابع لم يبقَ لي سوى الله تعالى، فهمتُ، فسمعتُ هاتفاً يقول: يا أبا يزيد! لا تقوى معنا. فقلت: هذا الذي أريده. فسمعت قائلاً يقول: وجدتَ، وجدتَ.

وقيل لأبي يزيد: ما أشدَّ ما لقيت في سبيل الله؟. فقال: لا يمكن وصفه. فقيل له: ما أهون ما لقيتْ نفسُك منك؟. فقال: أما هذا فنعم؛ دعوتُها إلى شيء من الطاعات، فلم تجبني، فمنعتها الماء سنة.

وقال أبو يزيد: «منذ ثلاثين سنة أصلِّي، واعتقادي في نفسي عند كل صلاة أصلِّيها كأني مجوسي أريد أن أقطع زنَّاري!.

وقال أيضاً: «لو نظرتم إلى رجلٍ أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء، فلا تغترُّوا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة».

وذهب أبو يزيد ليلة إلى الرباط، ليذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ على سور الرباط، فبقي إلى الصباح لم يذكر!، فقيل له في ذلك؟. فقال: تذكَّرت كلمةً جرت على لساني في حال صباي، فاحتشمت أن أذكره سبحانه وتعالى.

وقيل: لم يخرج أبو يزيد من الدنيا حتى استظهر القرآن.

توفي سنة إحدى وستين ومائتين، وقيل: سنة أربع وثلاثين.

ومنهم:

[٢١]

أَبُو حَفْصٍ، عُمَرُ بنُ سَالِمِ الحَدَّادُ، والأصح: عمرو بن سلمة[١]

رجلٌ كان به يستغاث، ويمطر البلد الماحل ويُغاث، استقام على الطريقة، واستدام اجتناء الأعمال الوريقة، وأقبل على الله بكُلِّيَّته، وأقبل إليه بنيَّته، وقام بالتكاليف أتمَّ قيام، وشرد عن جفنيه الكرى والناس نيام، حتى تجلَّت له الحجب ورفعت، وزادت آماله حيث شاءت ورتعت، فدعي من أقرب مكان، وقرب فخضع لله واستكان. وهو من قرية يقال لها: «كور داباذ»، على باب مدينة نيسابور، على طريق بخارى. كان أحد الأئمة والسادة.

قال أبو حفص: «المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمَّى بريد الموت».

وقال: «إذا رأيت المريد /٣٩/ يحب السَّماعَ، فاعلم أنَّ فيه بقيَّةً من البطالة».

وقال: «حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن».

وقال: «الفتوَّة أداء الانصاف، وترك مطالبة الانصاف».

وكان يقول: «من لم يزنْ أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتَّهم خواطره، فلا نعدُّه في ديوان الرجال».

توفي سنة نيِّف وستين ومائتين.

ومنهم:

[٢٢]

حَمْدُون بنُ أَحْمَدَ بنِ عمارةَ القَصَّارُ النَّيسَابُورِيّ[٢]، أبو صالح

خافَ من مُرِّ الفطام، وعاف من حلو الحطام، فلم يستحلَّ للدنيا ريقا، ولم يستجل لها خدَّاً شريقا، وتيقَّن أن دون طنباتها ما يذم مختبره، ودون حلالها الشبهات،

---

(١) ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي ١١٥ـ ١٢٢ رقم ١٥، وحلية الأولياء ١٠/ ٢٢٩ـ ٢٣٠ رقم ٥٦١، وصفة الصفوة ٤/ ١١٨ـ ١٢١ رقم ٦٨٤، والمنتظم ٥/ ٥٣ـ ٥٤ رقم ١٢٥، وفيه: عمرو بن مسلم، وهو تصحيف، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ٥١٠، ٥١٣ رقم ١٩٠، والعبر ٢/ ٣١، والبداية والنهاية ١١/ ٣٨، ومرآة الجنان ٢/ ١٧٩، وشرح الرسالة القشيرية ١٢٧، والنجوم الزاهرة ٣/ ٤١ و٦٦، وشذرات الذهب ٢/ ١٥٠، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٩٦، وطبقات الأولياء ٢٤٨ـ ٢٥١ رقم ٤٩، ونتائج الأفكار القدسية ١٢٧ـ ١٢٩، وكشف المحجوب ١٢٢ـ ١٢٤، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٦١ـ ٢٨٠هـ) ص١٤٢ـ ١٤٥ رقم١١٣.

(٢) ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي ١٢٣ـ ١٢٩ رقم ١٦، وحلية الأولياء ١٠/ ٢٣١ـ ٢٣٢ رقم =

فسلَّ آماله منها سلاً، وخلع طاعتها ولم يبايع يداً شلاً، وترك لقاحها لنتاجها، وانفتاحها لإرتاجها، وبقي - أي صار - حتى حلَّ ساحة المقابر. صحب سلْماً الباروسي، وأبا تراب النخشبي. وسُئِل: متى يجوز للرجل أن يتكلَّم على الناس؟. فقال: إذا تعين عليه أداء فرض من فرائض الله تعالى في علمه، أو خاف هلاك إنسان في بدعة، وهو يرجو أن ينجيه الله تعالى منها».

وقال: «من ظنَّ أنَّ نفسه خيرٌ من نفسِ فرعون فقد أظهر الكبر». وقال: «منذ علمت أن للسلطان فراسةً في الأشرار، ما خرج خوف السلطان من قلبي». وقال: «إذا رأيت سكراناً فتمايل، لئلاً تبغي عليه، فتبتلي بمثل ذلك».

وقيل له: أوصني. فقال: «إن استطعت أن لا تغضب لشيء من الدنيا فافعل».

ومات صديق له وهو عند رأسه، فلما مات، أطفأ حمدون السراج، فقالوا له: في مثل هذا الوقت يزاد في السراج الدهن!. فقال لهم: إلى هذا الوقت كان الدهن له، ومن هذا الوقت صار الدهن للورثة.

وقال حمدون: «من نظر في سيرة السلف عرف تقصيره، وتخلُّفَه / ٤٠/ عن درك درجات الرجال».

وقال: «لا تفشي على أحد ما تحبُّ أن يكون مستوراً منك».

توفي سنة إحدى وسبعين ومائتين.

ومنهم:

[٢٣]

أَبُو الُحسَين، أَحمدُ بنُ مُحَمَّد النُّورِيُّ البغوي الأصل، البغدادي المولد والمنشأ[1]

ذو تحقيق، لم يكن أمره فرطا، ولا عقده منفرطا. ودام مرتدياً بهذا الجلباب،

=

٥٦٢، والزهد الكبير للبيهقي، رقم ٢٩٣، والمنتظم ٥/ ٨٢ رقم ١٧٥، وصفة الصفوة ٤/ ١٠٠، والرسالة القشيرية ٢٤، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٥٠، ٥١ رقم ٣٧، وطبقات الأولياء لابن الملقّن ٣٥٩ـ ٣٦٠ رقم ١١، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٩٨، ودائرة معارف البستاني ٧/ ١٧٣، ومعجم البلدان ١/ ٤٦٥، وكشف المحجوب ١٢٥، ١٢٦، والكواكب الدرية ١/ ٢٢٠، ونتائج الأفكار القدسية ١/ ١٣٧، ونفحات الأنس ٦٠، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٦١ـ ٢٨٠هـ) ص٣٤٠ـ ٣٤١ رقم٣٥٤.

(١) في كتاب الأنساب للسمعاني ١٢/ ١٥٥: «قيل إنما سمي النوري لحسن وجهه ونورٍ فيه».

=

مهتدياً حيث تضلُّ الألباب، واستوثق بعقل الصبر، واستوسق من زاده المحمل إلى القبر، وغرس للاجتناء، وتحمل قبل اشتمال الهدم على البناء، وخاف من كيد البهتان، وغثاء الدنيا الهتان، فضرَّ إلى الحقائق بالالتجاء، وقطع من الخلائق حبل الرجاء. صحب السري السقطي، وابن أبي الحواري، وكان من أقران الجنيد رحمه الله تعالى. كبير الشأن، حسن المعاملة واللسان.

قال الجنيد: منذ مات النوري لم يخبر عن حقيقة الصدق أحد.

وقال أبو أحمد المغازلي: ما رأيت أعبد من النوري، قيل: ولا الجنيد؟.

قال: ولا الجنيد. وقال أبو الحسين النوري: «التصوف: ترك كلِّ حظٍّ للنَّفس».

وقال: أعزُّ الأشياء في زماننا شيئان: عالم يعمل بعلمه، وعارف ينطق عن حقيقة».

وقال: «من رأيته يدَّعي مع الله حالةً تخرجه عن حدِّ العلم الشرعي، فلا تقربنَّ منه».

وقال: «كانت المراقع غطاءً على الدّر، فصارت اليوم مزابل على جيف».

وقيل: كان رحمه الله تعالى يخرج من داره كل يوم، ويحمل الخبز معه، ثم يتصدَّقُ به في الطريق، ويدخل مسجداً يصلي فيه إلى قريب من الظهر، ثم يخرج منه، ويفتح باب حانوته، ويصوم. فكان أهله يتوهَّمون أنه يأكل في السوق، وأهل السوق يتوهَّمون أنه يأكل في بيته. وبقي على هذا في ابتدائه عشرين سنة!!.

توفي رحمه الله تعالى سنة خمس وسبعين ومائتين.

ومنهم:

= **ترجمته في**: طبقات الصوفية للسُلمي ١٦٤- ١٦٩ رقم٢، وحلية الأولياء ١٠/ ٢٤٩- ٢٥٥ رقم ٥٧٠، وتاريخ بغداد ٥/ ١٣٠- ١٣٦ رقم ٢٥٥٨، وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/ ٦٣- ٦٤ رقم ٥١، وصفة الصفوة لابن الجوزي ٢/ ٤٣٩- ٤٤٠ رقم ٣٠٤، وفيه: «أبو الحسين النووي»!، والمنتظم، له ٦/ ٧٧ رقم ١٠١، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٧٠- ٧٧ رقم ٣٥، والعبر ٢/ ١٣٨، والرسالة القشيرية ٢٠، والأنساب ١٢/ ١٥٥، واللباب ٣/ ٣٣٠ والكامل في التاريخ ٨/ ١٣، والبداية والنهاية ١١/ ١٠٦، وطبقات الأولياء ٦٢- ٧٠ رقم ١٥، والنجوم الزاهرة ٣/ ١٦٣، والأفكار القدسية ١/ ١٤٨، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٠٢، والكواكب الدريّة ١/ ١٩٤- ١٩٦، وتاريخ الإسلام (السنوات ٢٩١- ٣٠٠هـ) ص٦٦- ٧٢ رقم ٦٢.

[٢٤]

سَهْلُ بنُ عَبدِ الله التُّسْتَرِيُّ(١)

أحد أئمة القوم، جهد لنفسه حتى خلَّصها، وزهد فأبرها بالمعارف وخصَّصها، فحلَّ البحبوحة، وحصَّل العطايا الممنوحة، وكان لله في أمره سرٌّ ومعنى /٤١/ فيما يعلن ويسر، فلم تتقاذف به البحار، ولا استخرجته المهامه فحار، بل كان إذا اتسعت له الفجاج سلكها، وإذا امتنعت عليه ملكها، فقاد نفسه بأعنَّتها، وقال بها في جنَّتها، فنعم بالثناء، وفني بالخلد في دار البقاء. لم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع.

وكان صاحب كرامات. لقي ذا النون المصري بمكة، سنة خروجه إلى الحج. وقال سهل: «كنت ابن ثلاث سنين، وكنت أقوم بالليل أنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار، وكان يقوم بالليل، فربما كان يقول لي: يا سهل! اِذهب فنم، فقد شغلت قلبي.

قال سهل: قال لي خالي يوماً: ألا تذكر الله الذي خلقك؟. فقلت: كيف أذكره؟. فقال لي: قل بقلبك عند تقلُّبِكَ في ثيابك ثلاث مرات، من غير أن تحرِّك به لسانك: «الله معي. الله ناظرٌ إليّ. الله شاهدٌ عليّ». فقلت ذلك ثلاث ليال، ثم أعلمته، فقال لي: قل في كل ليلة سبع مرات، فقلت ذلك ثم أعلمته، فقال لي: قل في كل ليلة إحدى عشرة مرة، فقلت ذلك، فوقع في قلبي له حلاوة. فلما كان بعد سنة، قال لي خالي: احفظ ما علَّمتك، ودُم عليه إلى أن تدخلَ القبر، فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة. فلم أزل على ذلك سنين، فوجدت لها حلاوة في سرِّي. ثم قال لي خالي يوماً: يا سهل!، من كان الله معه، وهو ناظرٌ إليه، وشاهده، أيعصيه؟. إيَّاك والمعصية.

---

(١) ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي ٢٠٦- ٢١١، رقم ١٠، وحلية الأولياء ١٠/ ١٨٩- ٢١٢ رقم ٥٤٦، والفهرست لابن النديم، مقالة ٥، الفن ٥، والرسالة القشيرية ١٨، والزهد الكبير للبيهقي، رقم ٣٢٢ و٣٢٣ و٥١٥ و٦٤٧ و٨٩٨ و٩١٨ و٩٤٢ و٩٧٥، وصفة الصفوة ٤/ ٦٤- ٦٦ رقم ٦٤٥، والمنتظم لابن الجوزي ٥/ ١٦٣ رقم ٣٠٦، ومعجم البلدان ج٢ (مادّة: تُسْتَر)، واللباب لابن الأثير ١/ ٢١٦، والكامل في التاريخ ٧/ ٤٨٣، وفيه: سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع السري، وهو غلط، ووفيات الأعيان ٢/ ٤٢٩- ٤٣٠ رقم ٢٨١، والعبر ٢/ ٧٠، ودول الإسلام ١/ ١٧١، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٣٠- ٣٣ رقم ١٥١، ومرآة الجنان ٢/ ٢٠٠- ٢٠١، والبداية والنهاية ١١/ ٧٤، والوافي بالوفيات ١٦/ ١٦- ١٧ رقم ١٩، وطبقات الأولياء لابن الملقّن ٢٣٢- ٢٣٦ رقم ٤٣، والنجوم الزاهرة ٣/ ٩٨، وطبقات المفسّرين للداودي ١/ ٢١٠، وشذرات الذهب ٢/ ١٨٢- ١٨٤، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٩٠، ونتائج الأفكار القدسية ١/ ١٠٩- ١١٣، وتاريخ الخميس ٢/ ٣٨٤، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٨١- ٢٩٠هـ) ص١٨٦- ١٨٩ رقم٢٨٠.

فكنت أخلو، فبعثوا بي إلى الكُتَّاب، فقلت: إني لأخشى أن يتفرَّق عليَّ همِّي، ولكن شارطوا المعلِّم: أني أذهب إليه ساعة، فأتعلَّم، ثم أرجع. فمضيت إلى الكُتَّاب، وحفظت القرآن، وأنا ابن ست سنين، أو سبع، وكنت أصوم الدَّهر، وقُوتي خبز الشعير، إلى أن بلغت اثنتي عشرة سنة، فوقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة، فسألت أهلي أن يبعثوني إلى البصرة أسأل عنها، فجئت البصرة، وسألت / ٤٢/ علماءها، فلم يشْفِ أحدٌ منهم عني شيئاً!!.

فخرجت إلى عبادان، إلى رجلٍ يُعرفُ بأبي حبيب، حمزة بن عبد الله العباداني، فسألته عنها، فأجابني، وأقمت عنده مدة أنتفع بكلامه، وأتأدَّب بآدابه، ثم رجعت إلى «تُسْتَر»، فجعلت قُوتي اقتصاراً على أن يشترى لي بدرهم من الشعير «الفرق» فيطحن، ويخبز لي، فأفطر عند السَّحر، كل ليلة على أوقيَّةٍ واحدةٍ بحتاً، بغير ملح ولا إدام، فكان يكفيني ذلك الدرهم سنة!!. ثم عزمت على أن أطوي ثلاث ليالٍ، ثم أفطر ليلة، ثم خمساً، ثم سبعاً، ثم خمساً وعشرين ليلة، وكنت عليه عشرين سنة، ثم خرجت أسيح في الأرض سنين، ثم رجعت إلى تُستَر، وكنت أقوم الليل كلَّه.

وقال سهلٌ: «كلِ فعلٍ يفعله العبد بغير اقتداء، طاعةً كان أو معصية، فهو عيش النفس، وكل فعلٍ يفعله بالاقتداء، فهو عذاب النفس».

توفي ـ رضي الله عنه ـ سنة ثلاث وثمانين ومائتين بالبصرة، في المحرَّم. وقيل: سنة ثلاث وسبعين. ومولده سنة مائتين. وقيل: سنة إحدى ومائتين، بتُسْتَر.

ومنهم:

[٢٥]

أَبُو إسْحَاقَ، إبرَاهِيمُ بنُ أحمدَ بنِ إسماعِيل الخَوَّاصُ[١]

عَلَم إيمان وعدم شك، ما له على القلوب إيذان من شية ذلك الطّراز، وحلية ذلك السيف الجراز. دنا شبهاً بأهل إخائه، وأهلة سمائه، وأفقه لا يعد النجوم من إمائه، فأهلَّ من تلك المواقيت، وتملك، فعُدَّ جوهره من تلك اليواقيت. وكان خالصاً

(١) ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي ٢٨٤ـ ٢٨٧ رقم ٧، وتاريخ بغداد ٦/ ٧ـ ١٠ رقم ٣٠٣٦، والمنتظم لابن الجوزي ٦/ ٤٥ رقم ٦٤، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٢٥ـ ٣٣١، وصفة الصفوة ٤/ ٨٠ـ ٨٤، والرسالة القشيرية ٣١، والبداية والنهاية ١١/ ١٢٠، والوافي بالوفيات ٥/ ٣٠٣، ٣٠٤ رقم ٢٣٦٨، ونتائج الأفكار القدسية ١/ ١٧٥، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١١٣ـ ١١٥، وطبقات الصوفية للمناوي ١/ ١٨٤ـ ١٨٨، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٩١ـ ٣٠٠هـ) ص٩١ـ ٩٢ رقم ٨٩.

من الأنضار، وخلاصاً من ذلك الذهب النضار، حتى نزل في جدثه، ونزح الشبه مما يلقى على جثثه، ولم يدر بموته من فقد، ولا علم مدرج الكفن عليه علي أي شيء عقد. وهيهات.. الكواكب لا تقبر، والتراب لا يكون فيه النيِّر الأكبر. وهو آخر من سلك طريق التوكل، ودقَّقَ فيها.

وكان أوحد المشايخ في وقته، وكان من أقران الجنيد والنوري، وله في الرياضات، والسياحات /٤٣/ مقامات يطول شرحها.

ومات في المسجد الجامع، بالري سنة إحدى وتسعين ومائتين، وكان مبطوناً، وكان به علة القيام، وكان إذا قام يدخل الماء، ويغتسل، ويعود إلى المسجد، ويصلي ركعتين، فدخل الماء مرة ليغتسل، فخرجت روحه، وهو في وسط الماء، رحمه الله تعالى. وتولى أمر غسله ودفنه يوسف بن الحسين.

ومن كلامه - رضي الله عنه -: «من لم يصبر لم يظفر».

وقال: «من لم تبك الدنيا عليه، لم تضحك الآخرة إليه».

وقال جعفر بن محمد: بِتُّ ليلةً مع إبراهيم، فانتبهت، فإذا هو يناجي إلى الصباح، ويقول: [من الكامل]

بَرِحَ الخَفاء، وفي التلاقي راحةٌ هلْ يَشتفي خِلٌّ بغيرِ خَليلِهِ

وقال: «العلم كله في كلمتين: لا تتكلف ما كفيت، ولا تضيع ما استكفيت».

وقال: «ليكن لك قلب ساكن، وكفٌّ فارغة، وتذهب النفس حيث شاءت».

وقال: «دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين».

وقال: «من صفة الفقير أن تكون أوقاته مستوية الانبساط، صابراً على فقره، لا يظهر عليه فاقة، ولا تبدو منه حاجة، وأقلُّ أخلاقه الصبر والقناعة، مستوحشاً من الرفاهات، متنعماً بالخشونات، فهو بضد ما عليه الخليقة، بريء مما هي عليه معتمدة، وإليه مستريحة، ليس له وقت معلوم، ولا سبب معروف، فلا تراه إلا مسروراً بفقره، فرحاً بصبره، مؤونته على نفسه ثقيلة، وعلى غيره خفيفة، يعز الفقر ويعظمه، ويخفيه جهده ويكتمه، حتى عن أشكاله يستره، قد عظمت من الله تعالى عليه فيه المنَّة، وحلَّ في قلبه قدرها، فليس يريد لما اختار الله له بدلا، ولا يبتغي له حِولاً».

وقال: «أربع خصال عزيزة: عالم مستعمل لعلمه، وعارف ينطق عن حقيقة فعله، ورجل قائم لله تعالى بلا سبب، ومريد ذهب عنه الطمع».

وقال /٤٤/ : «الحكمة تنزل من السماء، فلا تسكن قلباً فيه أربعة أشياء: الركون إلى الدنيا، وهمُّ غدٍ، وحبُّ الفضول، وحسد أخ». وأنشد: [من الوافر]

عَليلٌ ليسَ يُبرئُهُ الدَّواءُ طَويلُ الضُّرِّ يَضنِيهِ الشِّفاءُ
سَرائرُهُ بَوادٍ ليسَ تبَدو خَفيَّاتٌ إذا بَرِحَ الخَفاءُ

وقال عمران بن سنان: اجتاز بنا إبراهيم الخواص، فقلنا: حدثنا أعجب ما رأيته في أسفارك..؟. فقال: «لقيني الخضر عليه السلام، فسألني الصحبة، فخشيت أن يفسد علي توكلي لسكوني إليه، ففارقته».

وقال: لقيت غلاماً في التيه، كأنه سبيكة فضة، فقلت: إلى أين يا غلام؟. فقال: إلى مكة. فقلت: بلا زاد، ولا راحلة، ولا نفقة؟!. فقال لي: يا ضعيف اليقين!. الذي يقدر على حفظ السماوات والأرضين، لا يقدر أن يوصلني إلى مكة بلا عاقة؟. فلما دخلت مكة إذا أنا به في الطواف، وهو يقول: [من الرجز]

يا عَين سُحِّي أَبدا يا نفسُ موتي كَمَدا
ولا تُحبِّي أَحدا إلا الجليلَ الصَّمدا

فلما رآني، قال لي: يا شيخ!، أنت بعدُ على ذلك الضعف من اليقين؟.

وقال: كنت ببغداد في جامع المدينة، وهناك جماعة من الفقراء، فأقبل شاب ظريف، حسن الوجه طيب الرائحة، فقلت لأصحابنا: يقع لي أنه يهودي!، وكلُّهم كرهوا ذلك، فخرجت، وخرج الشاب، ثم رجع إليهم، وقال: أيش قال الشيخ فيّ؟. فاحتشموه، فألحَّ عليهم، فقالوا: قال: إنك يهودي!. قال: فجاءني وأكبَّ علي يدي يقبِّلها، وأسلمّ!. فقيل له: ما السبب؟. قال: نجد في كتابنا أن الصِّدِّيق لا تخطىء فراسته، فقلت: أمتحن المسلمين، فتأمَّلتهم. فقلت: إن كان فيهم صِدِّيق؛ ففي هذه الطائفة، فلبَّست عليكم؛ فلما اطَّلع هذا الشيخ عليَّ، وتفرَّس فيَّ، علمت أنه صِدِّيق، وصار ذلك الشاب من كبار الصوفية.

وقال الخوَّاص: تهت /٤٥/ في البادية أياماً، فجاءني شخص، وسلَّم عليّ، وقال لي: تهتَ؟. فقلت: نعم. فقال: ألا أدلُّك على الطريق؟. ومشى بين يدي خطوات، ثم غاب عن عيني، وإذا أنا على الجادة، فبعد ذلك ما تهت، ولا أصابني في سفري جوع ولا عطش.

وقال بعض الصالحين: كنت في جماعة بمدينة الرسول ﷺ نتجارى الآيات،

ورجل ضرير بقرب منا يسمع، فتقدَّم إلينا، وقال: قد أنست بكلامكم، اعلموا أنه كان لي صبية وعيال، وكنت أخرج إلى البقيع أحتطب، فخرجت يوماً، فرأيت شاباً عليه قميص كتان، ونعله في إصبعه، فتوهَّمت أنه تائه، فقصدته لأسلب ثوبه، فقلت: انزع ما عليك. فقال: مُرّ في حفظ الله، فقلت له ثانياً، وثالثاً. فقال: لا بد؟ فقلت: لا بد. فأشار بإصبعه من بعيد إلى عينيَّ، فسقطتا!. فقلت: باللهعليك من أنت؟. فقال: إبراهيم الخوَّاص.

وقال الخواص: دخلت البادية مرة، فرأيت نصرانياً على وسطه زنار، فسألني الصحبة، فمشينا سبعة أيام، فقال لي: يا راهب الحنفية!، هات ما عندك من الانبساط؛ فقد جُعنا. فقلت: إلهي! لا تفضحني مع هذا الكافر. فرأيت طبقاً عليه خبز وشواء، ورطب، وكوز ماء؛ فأكلنا، وشربنا، ومشينا سبعة أيام. ثم بادرت، وقلت: يا راهب النصرانية! هات ما معك من الانبساط، فقد انتهت النوبة إليك. فاتكأ على عصاه، ودعا؛ فإذا بطبقين عليهما أضعاف ما كان على طبقي، فتحيَّرت، وتغيَّرت، وأبيت أن آكل فألحَّ عليّ، فلم أجبه، فقال لي: كل..، فإني مبشرك ببشارتين: إحداهما: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. وحلَّ الزنار. والأخرى: أني قلت: «اللهم! إن كان لهذا العبد خطراً عندك فافتح لي بهذا..»؛ ففتح!. فأكلنا، ومشينا، /٤٦/ وحجَّ، وأقمنا بمكة سنة، ثم مات، ودفن بالبطحاء.

وقال: «دخلت البادية مرة، فأصابتني فاقة شديدة، فلما دخلت مكة، داخلني العجب...، فنادتني امرأة عجوز، وقالت: ياإبراهيم! كنت معك في البادية، ولم أكلمك، خوفاً أن أشغل سرَّك، أخرج عنك هذا الوسواس».

وقال حامد الأسود: كنت مع إبراهيم الخوَّاص في البِّريَّة، فبينا نحن تحت شجرة، فجاء سبع، فصعدت الشجرة إلى الصباح، لا يأخذني النوم، ونام إبراهيم الخوَّاص، والسَّبعُ يشمُّ من رأسه إلى قدمه، ثم مضى، فلما كانت الليلة الثانية، بتنا في مسجد بقرية فوقع على وجهه بقة، فأنَّ أنَّة!. فقلت: هذا عجب!، البارحة لم تجزع من الأسد، والليلة تصبح من البق..!. فقال: أما البارحة فتلك حالة كنت فيها مع الله، وأما الليلة فهذه حالة أنا فيها مع نفسي.

وقال حامد أيضاً: وكنت معه في البادية سبعة أيام على حالة واحدة، فلما كان في اليوم السابع، ضعفت، فجلست، فالتفت إلي وقال: ما لك؟. فقلت: ضعفت. فقال: أيما أغلب عليك: الماء أو الطعام؟ فقلت: الماء. فقال: الماء وراءك. فالتفت، فإذا عين ماء كاللبن الحليب، فشربت وتطهّرت، وإبراهيم ينظر، ولم يقربه، فلما أردت

القيام، هممت بأن أحمل منه. فقال: أمسك... فإنه ليس مما يتزوَّد منه.

وقال الخوَّاص: عطشت في بعض أسفاري، وسقطت من العطش، فإذا أنا بماء قد رشَّ علي وجهي، ففتحت عيني، فإذا أنا برجل حسن الوجه راكباً دابة شهباء، فسقاني الماء، فقال لي: كن رديفي. وكنت بالحجاز، فما لبثت إلا يسيرا، فقال: ما ترى؟. فقلت: أرى المدينة!. فقال: انزل وأقرىء رسول الله ﷺ مني السلام!، وقل له: أخوك الخضر يقرئك السلام. وقال الكتاني، سمعت الخواص يقول: /٤٧/ كنت في البادية مرة، فسرت في وسط النهار، فوصلت إلى شجرة بقرب ماء، فنزلت، وإذا سبع عظيم قد أقبل، فاستسلمت، فلما قرب مني إذا هو يعرج، فحمحم، وبرك بين يدي، ووضع يده في حجري، فنظرت، فإذا يده منتفخة فيها قيح ودم، فأخذت خشبة، وشققت الموضع الذي فيه القيح والدم، وشددت عليه خرقة، فمضى به، وإذا به، بعد ساعة قد عاد، ومعه شبلان يبصبصان إليّ، وحملا إليّ رغيفاً!. وقيل له: ما بال الإنسان يتحرك عند سماع غير القرآن، ما لا يجد في غير سماع القرآن؟. فقال: «لأن سماع القرآن صدمة لا يمكن أحد أن يتحرك فيها لشدة غلبتها، وسماع القول ترويح يتحرك فيه».

وسئل عن العافية، فقال: العافِية أربعة أشياء: دين بلا بدعة، وعمل بلا آفة، وقلب بلا شغل، ونفس بلا شهوة.

• وقال علي بن محمد: كنت جالساً مع إبراهيم الخوَّاص، وهو يتكلم في العلم، وحوله جماعة، إلى أن طلعت عليه الشمس، وحميت، حتى وجدتّ حرَّها، وهو جالس لا يعبأ بها، فلما اشتدت قلت له: يا سيدي! ألا تقوم إلى الفيء، فهو أرفق بك؟. فقال لي: ويلك، ما تدلني إلا على الشرك!. ثم أنشأ يقول: [من الوافر]

لَقَدْ وَضَحَ الطريقُ إليكَ قَصْداً ... فما أحدٌ أرادَكَ يستدلُّ
فإنْ وَرَدَ الشتاءُ فأنتَ صيفٌ ... وإنْ ورد المَصيفُ فأنتَ ظِلُّ

وقال: «آفة المريد ثلاث خصال: حب الدرهم، وحب النساء، وحب الرياسة. فتدفع آفة حب الدرهم: باستعمال الورع. وتدفع آفة حب النساء بترك الشهوات، ومداومة الصوم، فإنما تتولد هذه الشهوة من الشبع، وفراغ القلب. وتدفع آفة حب الرياسة: بإيثار الخمول. والمريد الصادق الله تعالى مراده وقصده، والصِّدِّيقون إخوانه، والخلوة بيته، والوحدة أنسه، والنهار غمُّهُ، والليل فرحه، /٤٨/ ودليله قلبه، والقرآن معينه، والبكاء والجوع أدمه، والعبادة رياضة نفسه، والمعرفة قياده، والحياة سفره، والأيام مراحله، والورع طريقه، والزهد قرينه، والأحوال منازله، والصبر شعاره،

والسكون دثاره، والصدق مطيته، والعبادة مركبه، وخوف الفوت مستحثه. وأنشد: [من البسيط]

إنَّ الذينَ بخيرٍ كنتَ تعهدُهمْ   مَضَوا عليكَ، وعنهمْ كنتُ أَنهاكا
لا تَطلبَنَّ حياةً عِنْدَ غيرِهِمُ   فليسَ يُحييكَ إلاّ مَن تَوفَّاكَا

ومنهم:

[٢٦]

أَبُو القَاسِمِ، الجُنَيدُ بنُ مُحَمَّد(١)

سيد الطائفة، وإمامهم. أفعم أودية المعارف وأفاضها، ولبس منها أسنى المطارف وفضفاضها، إلى علومٍ تُحَقَّق. وعلوِّ مراتب عليها أرديةُ النفوس تشقق، جمع بين الطريقتين، وتصدَّر في جميع الفريقين، ولم يكن فيهم منكراً أنه حامل لوائهم، وحامي سرحهم عند لأوائهم، فكان هو بينهم المنادى المفرد العلم، والواحد الفرد. حلَّ حيث حلَّ من العظم، فاض منه بحرٌ لم يبق منه جدولٌ إلا اختطفه في تياره، واقتطفه ورق النّصال ببتّاره.

---

(١) ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي ١٥٥ـ ١٦٣ رقم ١، وحلية الأولياء ١٠/ ٢٥٥ـ ٢٨٧ رقم ٥٧١، والزهد الكبير للبيهقي، رقم ١٩ و٢٠ و٩٧ و١٧٥ و١٨٣ و٣٢٤ و٤١٦ و٤٢٩ و٤٤٦ و٤٩١ و٦٩٧ و٧٣١ و٧٤٨ و٧٥٣ و٧٧٠ و٧٧١ و٧٦١ و٧٦٩ و٧٨٥ و٩٤٥ و٩٤٩، والرسالة القشيرية ١٨، ١٩، وتاريخ بغداد ٧/ ٢٤١ـ ٢٤٩ رقم ٣٧٢٩، والمنتظم لابن الجوزي ٦/ ١٠٥ـ ١٠٦ رقم ١٣٩، والأنساب ٤٦٤أ، ووفيات الأعيان ١/ ٣٧٣ـ ٣٧٥ رقم ١٤٤، والكامل في التاريخ ٨/ ٦٢، وصفة الصفوة ٢/ ٤١٦ـ ٤٢٤ رقم ٢٩٦، وطبقات الحنابلة ١/ ١٢٧، ١٢٩ رقم ١٥٧، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٢/ ٢٨ـ ٣٧، وطبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٣٣٤، ٣٣٥ رقم ٣٠٢، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٦٦ـ ٧٠ رقم ٣٤، والعبر ٢/ ١١٠، ١١١، ودول الإسلام ١/ ١٨١، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٦٦، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٢٥٣، ومرآة الجنان ٢/ ٢٣١ـ ٢٣٥، والبداية والنهاية ١١/ ١١٣ـ ١١٥، والوفيات لابن قنفذ ١٩٦ رقم ٢٩٧، وطبقات الأولياء لابن الملقّن ١٢٦ـ ١٣٩ رقم ٣١، والتعرف ١١، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٩٨ـ ١٠١، والنجوم الزاهرة ٣/ ١٦٨ـ ١٧٠، وشذرات الذهب ٢/ ٢٢٨ـ ٢٣٠، وطبقات الشافعية لابن هداية الله ٣٩، وروضات الجنات للخوانساري ١٦٤ـ ١٦٦، وكشف المحجوب ١٢٨ـ ١٣٠، والكواكب الدرّية ١/ ٢٢، ونتائج الأفكار القدسية ١/ ١٢٩ـ ١٤٤، ودائرة المعارف البستاني ٦/ ٥٦٧، وزاد المسير ١/ ٢٣٣، ولواقح الأنوار ١/ ٨٤ـ ٨٦، وآثار البلاد ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٩، ٣٣٠، والروض المعطار ١١٤، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٩١ـ ٣٠٠هـ) ص١١٨ـ ١٢٢ رقم١٤٣.

ويحكى أنه كان لا يرى إلا في زي مريد، وزيادة تواضع ما عليه مزيد. أصله من نهاوند، ومنشؤه ومولده بالعراق، وأبوه كان يبيع الزجاج فلذلك يقال له «القواريري».

وكان أبو القاسم يبيع الخزّ، فقيل له: «الخزاز» وكان فقيها على مذهب «أبي ثور». صحب السري، والحارث المحاسبي، ومحمد بن علي القصاب، وغيرهم.

توفي سنة سبع وتسعين ومائتين.

وقال الجنيد: «ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع؛ وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات».

وقال لرجل ذكر المعرفة: «أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر، والتقرب إلى الله عزَّ وجلّ». فقال /٤٩/ الجنيد: «إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندي عظيم، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا، فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى، وإليه رجعوا فيها، ولو بقيتُ ألف عالم لم أنقص من أعمال البرِّ ذرَّة، إلا أن يحال بي دونها».

وقال: «إن أمكنك أن لا تكون آلة في بيتك إلا خزفاً، فافعل».

وقال: «الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ».

وقال: «لو أقبل صادق على الله تعالى ألف ألف سنة، ثم أعرض عنه لحظة، كان ما فاته أكثر مما ناله».

وقال: «من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر؛ لأن علمنا هذا مقيَّدٌ بالكتاب والسنة».

وقال: «مذهبنا هذا مقيد بالأصول؛ الكتاب والسنة».

وقال: «علمنا هذا مشبَّكٌ بحديث رسول الله ﷺ».

وقال أبو الحسين علي بن إبراهيم الحداد: حضرت مجلس القاضي أبي العباس بن جريج [الفقيه الشافعي]، فتكلّم في الفروع والأصول بكلام حسن أعجبت منه، فلما رأى إعجابي قال: «أتدري من أين هذا؟». قلت: يقول به القاضي. فقال: «هذا ببركة مجالستي أبي القاسم الجنيد».

وقيل للجنيد: ممن استفدت هذا العلم؟. فقال: من جلوسي بين يدي الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة، وأومأ إلى درجة في داره.

ورؤي في يد الجنيد سبحة، فقيل له: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة؟. فقال: طريق به وصلت إلى ربي لا أفارقه.

وكان الجنيد يدخل كل يوم حانوته، ويسبل الستر، ويصلي أربعمائة ركعة، ثم يعود إلى بيته.

وقال أبو بكر العطوي: كنت عند الجنيد حين مات، فرأيته ختم القرآن... ثم ابتدأ من البقرة، وقرأ سبعين آية، ثم مات رحمه الله تعالى.

وقال الجنيد: «قال لي خالي سَرِيٌّ السَّقَطِيُّ رحمه الله تعالى: «تكلَّم على الناس» و[كان] في قلبي حشمة من الكلام على الناس، فإني كنت أتَّهم نفسي في استحقاق ذلك، /٥٠/ فرأيت ليلة في المنام رسول الله ﷺ ـ وكانت ليلة جمعة ـ فقال لي: «تكلم على الناس!»، فانتبهت، وأتيت باب السَّرِيِّ قبل أن أصبح، فدققت الباب، فقال: «لم تصدِّقنا حتى قيل لك؟!». فقعدت في غدٍ للناس بالجامع، وانتشر في الناس أن الجنيد قعد يتكلم على الناس. فوقف عليَّ غلام نصراني متنكراً، وقال: «أيها الشيخ! ما معنى قول رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤمِنِ فإنه ينظرُ بِنُورِ الله»؟. فأطرقت، ثم رفعت رأسي، وقلت: أسلِمْ!، فقد حان وقت إسلامك!. فأسلم الغلام.

وقال الجنيد: «ما انتفعت بشيء انتفاعي بأبيات سمعتها». قيل له: وما هي؟. قال: مررت بدرب القراطيس، فسمعت جارية تغني من دار، فأنصتُّ لها، فسمعتها تقول: [من الطويل]

إذا قلتُ: أَهدى الهجرُ لي حُلَلَ البِلى ... تَقُولينَ: لولا الهَجرُ لَمْ يَطِبِ الحُبُّ
وإنْ قلتُ: هذا الحبَّ أَحرقَهُ الهَوَى ... تقُولي: بنيرانِ الهَوَى شَرُفَ القَلبُ
وإن قلتُ: ما أذنبتُ. قلتِ مُجيبة ... حياتُك ذَنْبٌ لا يُقاس به ذَنْبُ

فصعقت، وصحت...!. فبينا أنا كذلك، إذا بصاحب الدار قد خرج، فقال: ما هذا يا سيدي؟!. فقلت له: مما سمعت. فقال: أشهدك أنها هبة مني إليك. فقلت: قد قبلتها، وهي حرة لوجه الله تعالى. ثم دفعتها لبعض أصحابنا بالرباط، فولدت له ولداً نبيلاً، ونشأ أحسن نشوء، وحجَّ على قدميه ثلاثين حجة على الوحدة.

«عن الحلية» الصوفية، أنها حكت بسندها إلى الجنيد، قال: «كنت لهجاً بزيارة الرهبان، والمنقطعين إلى العبادة من سائر الأديان، فحكي لي: إن في أقصى بلاد الروم جارية فتيَّة السن، قد اتخذت وتداً من حديد وعارضة، وغلَّت يدها وعنقها إليه، وتعلَّقت بين السماء والأرض، لا تقرُّ من العبادة!، فاجتهدتُ إلى أن وصلتُ إلى ذلك الموضع، ورفعتُ /٥١/ رأسي إليها، فحين بَصُرَتْ بي قالت لي: يا أبا القاسم! إن لم يكن حقاً فهو حقيقة!!!.

و[قال أبو محمد الجريري]: كان في جوار الجنيد رجل مصاب [في خربة]، فلما

مات الجنيد [ودفنَّاه، تقدّمنا ذلك المصاب، وصعد موضعاً رفيعاً وقال لي: «يا أبا محمد! تُراني أرع إلى تلك الخربة بعد أن فقدت ذلك السيد؟!». ثم] أنشأ يقول: [من مخلع البسيط]

واأسفا من فِراقِ قَوم هُمُ المصابيحُ والحُصونُ
والمُدنُ والمُزنُ والرَّواسي والحبرُ والأمنُ والسُّكُونُ
لمْ تتغَّرْ لنا الليالي حتَّى توفَّتْهمُ المَنونُ
فَكُلُّ جَمْرٍ لنا قُلوبٌ وكلُّ ماءٍ لنا عُيونُ

ثم غاب عنا، فكان ذلك آخر العهد منه].

ومنهم:

[٢٧]

أَبُو عُثْمَانَ، سَعِيدُ بنُ إسماعِيلَ الحِيريُّ(١)، المقيم بنيسابور

عارفٌ زجر نفسه ووعظها، ورأى نفسه في مرمى كل نظرة لحظها، فحلَّ رموز آماله، والتمس كنوز القرآن في أمثاله، وصحب قوماً اتخذوا نفوساً، وشهدوا في العلياء شموسا، في فيئه قطعوا أودية الأعمار هياما، وطاولوا ألوية الليل قياما، ولم يخدع أحداً منهم متاع الدنيا ولا استجرّه، ولا حام إلا على زهر الثريا ونهر المجرة، وأمسى وتربه يستهدي طيبا، ويندى عنبراً وعوداً رطيبا.

كان من الري، وصحب شاه الكرماني، ويحيى بن معاذ. ثم ورد نيسابور مع شاه الكرماني على أبي حفص الحداد، وأقام عنده، وتخرَّج به، وزوَّجه أبو حفص ابنته.

ومات سنة ثمان وتسعين ومائتين، وعاش بعد أبي حفص نيفاً وثلاثين سنة.

(١) ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي ١٧٠- ١٧٥ رقم ٣، وحلية الأولياء ١٠/ ٢٤٤- ٢٤٦ رقم ٥٦٨، وتاريخ بغداد ٩/ ٩٩- ١٠٢ رقم ٤٦٩٠، والزهد الكبير للبيهقي رقم ٣١١، ٣٣٣، ٧٧٩، والرسالة القشيرية ٢٥، والمنتظم ٦/ ١٠٦- ١٠٨ رقم ١٤١، وصفة الصفوة ٤/ ١٠٣- ١٠٧ رقم ٦٧٧، ووفيات الأعيان ٢/ ٣٦٩، ٣٧٠ رقم ٢٦٠، والأنساب ١٨٤أ، والعبر ٢/ ١١١، ودول الإسلام ١/ ١٨١، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٦٢- ٦٦ رقم ٣٣، والوافي بالوفيات ١٥/ ٢٠٠، ومرآة الجنان ٢/ ٢٣٦، والبداية والنهاية ١١/ ١١٥، والنجوم الزاهرة ٣/ ١٧٧، وشذرات الذهب ٢/ ٢٣٠، وطبقات الأولياء لابن الملقّن ٢٣٩- ٢٤١ رقم ٤٥، والتعرف ١٢، ٧٠، ١١١- ١١٣، وكشف المحجوب ١٣٢- ١٣٤، والكواكب الدرّية ١/ ٢٣٣، ونفحات الأنس ٧٦، ونتائج الأفكار القدسية ١/ ١٤٤- ١٤٨، وجامع كرامات الأولياء ٢/ ٢٦، والطبقات الكبرى للشعراني ١٠١، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٩١- ٣٠٠هـ) ص١٤٩- ١٥٣ رقم٢٠٣.

ومن كلامه: «لا يكمل إيمان الرجل حتى يستوي في قلبه أربعة أشياء: المنع، والإعطاء، والعزّ، والذل».

وقال: «الصحبة مع الله: بحسن الأدب، ودوام الهيبة، والمراقبة. والصحبة مع رسول الله ﷺ: باتباع سنته، ولزوم ظاهر العلم. والصحبة مع أولياء الله تعالى بالاحترام والخدمة. والصحبة مع الأهل بحسن الخلق. والصحبة مع الإخوان: بدوام / ٥٢/ البشر ما لم يكن إثماً. والصحبة مع الجهَّال: بالدعاء لهم، والرحمة عليهم».

وقال: «من أمَّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾[1].

وقال أبو عثمان: «صحبت أبا حفص وأنا شاب، فطردني مرة، وقال: «لا تجلس عندي!» فقمت ولم أُوَلِّه ظهري، وانصرفت إلى ورائي، ووجهي إلى وجهه، حتى غبتُ عن عينيه، وجعلت على نفسي أن أحفر على بابه حفرة لا أخرج منها إلا بأمره!. فلما رأى مني ذلك أدناني، وجعلني من خواص أصحابه. وكان يقال: في الدنيا ثلاثة لا رابع لهم: «أبو عثمان: بنيسابور، والجنيد: ببغداد، وأبو عبد الله بن الجلاَّء: بالشام».

وقال أبو عثمان: «منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في حال فكرهته، ولا نقلني إلى غيره فسخطته».

ولما تغير على أبي عثمان الحال، مزَّق ابنه أبو بكر قميصاً على نفسه، ففتح أبو عثمان عينيه،

وقال: «خلاف السنة يا بني في الظاهر علامة رياء في الباطن».

وقال: «أصل العداوة من ثلاثة أشياء: ـ «من الطمع في المال، والطمع في إكرام الناس، والطمع في قبول الناس».

وقال: «صلاح القلب في أربع خصال: «في التواضع لله، والفقر إلى الله؛ والخوف من الله، والرجاء في الله».

وقال: «الخوف من الله يوصلك إلى الله، والكِبْرُ والعُجْبُ في نفسك يقطعك عن الله، واحتقارُ الناس في نفسك مرضٌ عظيم لا يداوى».

وقال: «من جلَّ مقداره في نفسه، جلَّ أقدار الناس عنده؛ ومن صغر مقداره في نفسه، صغر أقدار الناس عنده».

---

(١) سورة النور: الآية ٥٤.

وقال: «تعزَّزوا بعزِّ الله كي لا تذلوا».

وقال: «العاقل من تأهَّب للمخاوف قبل وقوعها».

وقال: «التفويض ردُّ ما جهلتَ علمَه إلى عالِمِه، والتفويض مقدِّمة الرضا؛ والرضا باب الله الأعظم».

وقال: «الفراسة ظنٌّ وافق الصواب، /٥٣/ والظن يخطىء ويصيب؛ فإذا تحقق في الفراسة، تحقق في حكمها، لأنه إذ ذاك يحكم بنور الله تعالى لا بنفسه».

وسئل عن التوكل فقال: «هو الاكتفاء باللهتعالى مع الاعتماد عليه. والشكر: معرفة العجز عن الشكر. وشكر العوام: على المطعم والمشرب والملبس. وشكر الخواص: على ما يرد على قلوبهم من المعاني. واليقين: قلة الإهتمام لغد».

وسئل عن قول النبي ﷺ: «أسألك الرضاء بعد القضاء»؟. قال: «لأن الرضاء قبل القضاء عزمٌ على الرضاء، والرضاء بعد القضاء هو الرضاء». وقال: «من أضرَّ به الرجاء حتى قارب الأمن فالخوف له أفضل، ومن أضرَّ به الخوف حتى قارب الإياس، فالرجاء له أفضل وأنشد في هذا المعنى: [من الطويل]

أسأتُ ولمْ أُحسنْ وجئتُكَ هاربا ... وأينَ لعبدٍ مِنْ مَواليهِ مَهْرَبُ؟
يؤمِّلُ غُفراناً فإنْ خابَ ظَنُّهُ ... فما أحدُ منهُ على الأرضِ أَخيبُ

ومنهم:

[٢٨]
مُمْشاذُ الدِّينَوَرِيُّ[(١)]

زاهد قنع عفافا، وقمع هواه ليصبح ويمسي من الدنيا معافى، وتقرَّب إلى الله بالنوافل حتى أحبَّه، وملَّكه قلوب الناس فلم تدع حبَّه، وعبر مدة العمر لا تردُّ له دعوة، ولا يعدّ معه لذي قوم حظوة، وترقَّى بتجريد سرى به في الملكوت، وسما به والنجوم سكوت، ثم انتقل إلى ربه الكريم، ووُسِّد في تربه ميتاً ميتة الكليم، وطاب قبرٌ جنّه،

(١) ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي ٣١٦ـ ٣١٨ رقم ٢٥، وحلية الأولياء ١٠/ ٢٥٣ـ ٣٥٤ رقم ٦٢٥، وصفة الصفوة ٤/ ٧٨ رقم ٦٥٩، والرسالة القشيرية ٣٣، ونتائج الأفكار القدسية ١/ ١٨٣، وطبقات الأولياء لابن الملقّن ١٨، (٢٨٨ـ ٢٨٩)، رقم ٦٠، ٤٩٣، ٤٩٥، والنجوم الزاهرة ٣/ ١٧٩، ٢٠٤، واللمع ١٩٢، ٢٠٣، ٢٣٣، ٢٩٣، والكواكب الدرّية ١/ ٢٦٩، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٢٠، وجامع كرامات الأولياء ٢/ ٢٦٨، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٩١ـ ٣٠٠هـ) ص٣١٢ـ ٣١٣ رقم٥٢٠.

وقربٌ نودي منه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾[1]. صحب يحيى بن الجلاء، ومن فوقه من المشايخ، وكان من كبار المشايخ، عظيم المرمى في هذه العلوم، كبير الحال، [أحد فتيان الجبال]، ظاهر الفتوّة.

مات سنة تسع وتسعين ومائتين.

ومن كلامه: قال: «طريق الحق بعيد، والصبر مع الحق شديد».

وقال: «ما أقبح الغفلة عن طاعة من لا يغفل عن برِّك؛ وما أقبح الغفلةَ عن ذكر من لا يغفل عن ذكرك».

وقال: «ما دخلت قط على أحد من شيوخي، إلا وأنا /٥٤/ خالٍ من جميع مالي؛ أنظر بركات ما يرد عليّ من رؤيته أو كلامه؛ فإنّ من دخل على شيخ بحظِّه، انقطع بحظِّه عن بركات رؤيته، ومجالسته، وأدبه، وكلامه».

وقال: «أدب المريد في أشياء أربعة: التزام حرمات المشايخ؛ وخدمة الإخوان؛ والخروج عن الأسباب؛ وحفظ آداب الشرع على نفسه».

وقال: «صحبة أهل الصلاح تورث في القلب الصلاح، وصحبة أهل الفساد تورث فيه الفساد».

وسئل عن التوكل؟ فقال: «التوكل: حَسْمُ الطمع عن كل ما يميل إليه قلبك ونفسك».

وقال أبو بكر الرازي: كنت عند ممشاذ الدينوري، فجرى حديث الدَّين، فقال لي: كان عليّ دين، فاشتغل قلبي، فرأيت في المنام كأن قائلاً يقول لي: يا بخيلاً!، أخذت علينا هذا المقدار؟.. خذ! عليك الأخذ، وعلينا العطاء. فما حاسبت بعد ذلك بقالاً، ولا قصابا، ولا غيرهما.

وقال: «منذ علمت أن أحوال الفقراء جِدّ كلها لم أمازح فقيراً، وسبب ذلك: إن فقيراً جاءني قادماً علي، فقال لي: أيها الشيخ! أريد أن تتخذ لي عصيدة، فجرى على لساني: «إرادة وعصيدة.!»، فتأخر الفقير ولم أشعر، ثم أمرت باتخاذ عصيدة، وطلبت الفقير، فلم أجده، فتعرفت خبره، فقيل لي: انصرف من فوره، وكان يقول في نفسه: «إرادة وعصيدة؟!»، وهام على وجهه حتى دخل البادية، ولم يزل يقول هذه الكلمة حتى مات.

---

(١) سورة الفجر: الآية ٢٧.

وسئل عن التصوف؟. فقال: «صفاء الأسرار، والعمل بما يرضي الجبار، وصحبة الناس بلا اختيار».

وقال بعضهم: كنت عند ممشاذ عند وفاته، فقيل له: كيف تجد العلَّة؟. فقال: سلوا العلَّة عني. فقيل له: قل: «لا إله إلا هو»، فحوَّل وجهه إلى الجدار، وقال: [من المجتث]

أَفْــنَــيْــتُ كُــلِّــي بِــكُــلِّــكْ   هــذا جَــزَا مَــنْ يُــجِــلُّــكْ

/ ٥٥/ لا إله إلا هو، أحد، أحد.

وقيل [له]: إذا جاع الفقير أيش يعمل؟. فقال: «يصلي. قال: فإن لم يقدر؟. قال: ينام. قال: فإن لم يقدر؟. فقال: إن الله تعالى لا يخلي الفقير عن إحدى ثلاث: إما قوى، وإما غذى، وإما أخذ».

وقال فارس الدينوري: خرج ممشاذ الدينوري يوماً من باب الدار، فنبح عليه كلب، فقال ممشاذ: «لا إله إلا الله». فمات الكلب مكانه!.

وروي أنه كان إذا رأى فقيراً قدم من البادية، يقول له: تعال يا كعب يا مكسورا!، من أي بركة شربت؟، وعلى أي بدوي نزلت؟، وطعام من أكلت؟.

حكى بعض أصحابه، قال: اشتدّ به المرض، فاستثقله. فقيل له: مثلك يكره الموت؟!. فقال: «أخاف لقاء الحبيب قبل الإكثار مما يرضيه»؛ فدخل عليه داخل لا يعرفه منا أحد، فناوله تفاحة لا يعرف مثلها في الدنيا، فأخذها، فشمَّها، فمات...!. ثم نظرنا فلم نر الرجل ولا التفاحة، وإنما سمعنا قائلاً يقول: «موتة موسوية والله» رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[٢٩]

أبو محمد، رُوَيمُ بنُ أحمدَ بنِ يزيدَ بنِ رُوَيمِ بنِ يزيدَ البَغْدَادِيُّ(١)

إمام به الابتداء في الترتيب، والاقتداء للمستتيب. عَلَمٌ من الأعلام، وكرم

---

(١) ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي ١٨٠ـ ١٨٤ رقم٥، وحلية الأولياء ١٠/ ٢٩٦ـ ٣٠٢ رقم ٥٧٤، وتاريخ بغداد ٨/ ٤٣٠ـ ٤٣٢ رقم ٤٥٣٧، والرسالة القشيرية ٢/ ٢١، والمنتظم ٦/ ١٣٦، ١٣٧ رقم ٢٠٣، وصفة الصفوة ٢/ ٤٤٢، ٤٤٣، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٣٤، ٢٣٥ رقم ١٣٨، والبداية والنهاية ١١/ ١٢٥، وطبقات الأولياء ٢٢٨ـ ٢٣١ رقم ٤٢، والنجوم الزاهرة ٣/ ١٨٩، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٠٣، ونتائج الأفكار القدسية ١/ ١٥٢ـ ١٥٥، وآثار البلاد وأخبار العباد ٣٢٦، وتاريخ الإسلام (السنوات ٣٠١ـ ٣٢٠هـ) ص١٢٠ـ ١٢١ رقم١٤٠.

للأخوال والأعمام. رفل من جلابيب الجنود وأنجادها، ورف ذيله على أغوار النجوم وأبجادها، وطالما تلفع بالظلماء، وتشفع برب السماء، ودام على طريقه اللاحب، حتى سقاه الموت السمام المنقع، وأتاه الحِمام بما يتوقع، على أنه كان استدرك لمصيره، وتأهب لمسيره، وسبق حتى وارته حفرته، ولم يفت، وأرته عين اليقين قبره وهو حي لم يمت. كان فقيهاً على مذهب داود الأصفهاني. مُقرِئاً على إدريس بن عبد الكريم الحداد. قال أبو عبد الله بن /٥٦/ خفيف: قلت لرويم: أوصني. فقال: «ما هذا الأمر إلا ببذل الروح، فإن أمكنك الدخول فيه مع هذا، وإلا فلا تشتغل بترَّهات الصوفية».

وقال رويم: «قعودك مع كل طبقة من الناس أسلم من قعودك مع الصوفية، فإن كل الخلق قعدوا على الرسوم، وقعدت هذه الطائفة على الحقائق، وطالبَ الخلقُ كلُّهم أنفسَهم بظواهر الشرع، وطالبَ هؤلاء أنفسَهم بحقيقة الورع، ومداومة الصدق، فمن قعد معهم وخالفهم في شيء مما يتحققون، نزع الله نور الإيمان من قلبه».

وقال رضي الله عنه: «اجتزت ببغداد وقت الهاجرة ببعض السكك، وأنا عطشان، فاستقيت من دار، ففتحت صبية بابها، ومعها كوز، فلما رأتني قالت: صوفي يشرب بالنهار!!!. فما أفطرت بعد ذلك اليوم قط.

وقال: «قف على البساط، وإياك والانبساط، واصبر على ضرب السياط، حتى تجوز الصراط».

وسئل عن الفتوة؟ فقال: «أن تعذِرَ إخوانك في زلاتهم، ولا تعاملهم بما تحتاج أن تعتذر منه».

وقال: «إن الله غيَّب أشياء في أشياء: غيَّب مكرَهُ في حِلمه، وغيَّب خِداعه في لُطفه، وغيَّب عقابه في كرامته».

وقيل له: هل ينفع الولد صلاح الوالدين؟ فقال: «من لم يكن بنفسه لا يكون بغيره، بل من لم يكن بربه لا يكون بنفسه».

ثم أنشد لابن الرومي: [من الطويل]

إذا العُوُد لَمْ يُثْمِر وإنْ كانَ شُعبةً من المُثمراتِ اعتدَّهُ الناسُ في الحَطَبْ

وسئل عن حقيقة الفقر؟. فقال: «أخذ الشيء من جهته، واختيار القليل على الكثير عند الحاجة».

وقال: «الصبر: ترك الشكوى، والرضا: استلذاذ البلوى، واليقين: هو المشاهدة».

وقال: «يعاتَب الخلقُ بالإرفاق، ويعاتب المحب بالغلظة». وأنشد على أثره لغيره: [من الكامل]

/٥٧/ لو كنتِ عاتبةً لسكَّن عَبرتي أَملي رضاكِ، وزُرتُ غيرَ مُراقَبِ
لكن مَلِلْتِ، فلمْ تكنْ ليَ حِيلةٌ صدُّ المَلولِ خلافُ صدِّ العاتبِ

وسئل عن المحبة؟؛ فقال: «الموافقة في جميع الأحوال». وأنشد: [من الطويل]

ولوْ قُلتِ لي: مُتْ مُتُّ سَمعاً وطاعةً وقُلتُ لداعي الموتِ أهلاً ومَرحَبا

وسئل عن وَجْدِ الصوفية عند السماع؟. فقال: «يشهدون المعاني التي تعزب عن غيرهم، فتشير إليه: إليّ، إليّ. فيتنعَّمون بذلك من الفرح، ثم يقع الحجاب، فيعود ذلك الفرح بكاء، فمنهم من يخرق ثيابه، ومنهم من يصيح، ومنهم من يبكي، وكل إنسان على قدره».

وقال: «التصوف مبني على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالعدل والإيثار، وترك التعرض والاختيار».

ودخل رويم في شيء من أمور السلطان، فدخل عليه الجنيد ومعه رجل خراساني، فلما خرج، قال الجنيد: كيف رأيته يا خراساني؟!. قلت: لا أدري. قال: إن الناس يتوهمون أن هذا نقصان في حاله ووقته، وما كان رويم أعمر وقتاً منه هذه الأيام.

وقال السلمي: سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت أبا العباس بن عطاء يقول: «رويم أتم حالاً من أن تغيره تصاريف الأحوال».

وذكر الخطيب البغدادي رويماً. وذكر من كلامه قوله: «السكون إلى الحال اغترار». وقوله: «رياء العارفين خير من إخلاص المريدين». وقوله: «الفتوة أن تعذر إخوانك في زللهم، ولا تعاملهم بما يحوجك إلى الاعتذار إليهم».

وقال ابن خفيف: لما دخلت بغداد قصدت رويماً، وكان قد تولى القضاء، فلما دخلت عليه رحَّب بي وأدناني، وقال لي: من أين أنت؟. فقلت: من فارس. فقال: لمن صحبت؟. قلت: جعفر الحذَّاء. فقال: ما تقول الصوفيةُ فيّ؟. قلت: لا شيء. قال: بلى، يقولون: إنه رجع إلى الدنيا!. فبينا هو يحدِّثني إذ جاء طفل /٥٨/ صغير، فقعد في حجره، فقال رويم: لو كنت أرى منهم من يكفيني مؤنة هذا الطفل، لما تعلَّقتُ بهذا الأمر، ولا بشيء من أسباب الدنيا، ولكن شغل قلبي بهذا أوقعني فيما أنا فيه!

توفي ـ رحمه الله تعالى ـ ببغداد، سنة ثلاث وثلاثمائة.

ومنهم:

[٣٠]

أَبُو مُغِيث، الحُسِينُ بنُ مَنْصُورٍ الحَلاَّجُ(١)

بحر لا يلجه إلا معذر، وأسد لا يخرجه إلا متضرر، شرب بقية الزجاجة، وطرب فوق قدر الحاجة، فانقلب سكراناً طافحا، وغلب عليه فما طامحا، وكان ممن كتب الكتب وقراها، وبرى الكتب ودرأها، فكان يجني ثمر الغيوب، ويجري تارة مجرى المحاسن، وتارة مجرى العيوب، فلا يزال يأتي بالحكمة الصائبة، ويحدِّث بالكلمة الغائبة، بكشف لا يحجب، ولا يأتي بنادرة فيتعجب، لكثرة ما كان يأتي به شيئاً بعد شيء، ويمد من تخييلاتها فيا بُعْدَ فَيْ، فكان لو شاء أنه أو هَمَّ شق البحر فخاض منه طريقاً يبسا، وشبّ الماء فأوقد منه شهاباً قبسا، وأومأ إلى الغوادي فأجابت سماؤها، وإلى الليالي فانجابت ظلماؤها، فخلب العقول أو سحرها، وخيّل أوقات الظهيرة عشيات الليالي أو سحرها، حتى أضلَّ جبلا، وأضاع جملا، وأصبح مثلا، وأمسى وأمثال عقد النجوم عليه منتثلا، وكاد العراق يميد لساكنه، ويميل بمساكنه، حتى كادت بغداد تخرج في ذمامها، ويخرج من يد أيامها، والناس عليه مؤتلفون، وفيه

---

(١) ترجمته في: صلة تاريخ الطبري لعُريب ٧٩ـ ٩٤، وتكملة تاريخ الطبري للهمداني ٢٣ـ ٢٨، والوزراء للصابي ٢٣١، وطبقات الصوفية للسلمي ٣٠٧ـ ٣١١، والتنبيه والإشراف ٣٨٧، ونشوار المحاضرة ١/ ١٥٩ـ ١٦٩ و٦/ ٧٦ـ ٩٢، وتجارب الأمم ١/ ٧٦ـ ٨٢، والفهرست لابن النديم ٢٦٩ـ ٢٧٢، وتاريخ بغداد ١/ ١١٢ـ ١٤١ رقم ٤٢٣٢، والأنساب لابن السمعاني ١٨١أ، وتاريخ حلب للعظيمي ٢٧٩، والمنتظم ٦/ ١٦٠ـ ١٦٤ رقم٢٦٥، والكامل في التاريخ ٨/ ١٢٦ـ ١٢٩، ووفيات الأعيان ٢/ ١٤٠ـ ١٤٦ رقم ١٨٩، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٧٠، ٧١، وتاريخ ابن الوردي ٩/ ٢٥٦، ٢٥٧، والعبر ٢/ ١٣٨ـ ١٤٤، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٣١٣، ٣٤٥ رقم ٢٠٥، وميزان الاعتدال ١/ ٥٤٨ رقم ٢٠٥٩، ودول الإسلام ١/ ١٨٧، ومرآة الجنان ٢/ ٢٥٣ـ ٢٦١، والبداية والنهاية ١١/ ١٣٢ـ ١٤٤، وتاريخ الخميس ٢/ ٣٨٧ـ ٣٨٩، وملء العيبة ٢/ ٣٥٤، والفخري ٢٣٤، وطبقات الأولياء ١٨٧، ١٨٨ رقم ٣٥، ولسان الميزان ٢/ ٣١٤، ٣١٥ رقم ١٢٨٦، والنجوم الزاهرة ٣/ ١٨٢ و٢٠٢، ٢٠٣، وتاريخ الخلفاء ٣٨٠، ٣٨٢، وشذرات الذهب ٢/ ٢٥٣ـ ٢٥٧، وروضات الجنات ٢٢٦ـ ٢٣٧، وهدية العارفين ١/ ٣٠٤، وديوان الإسلام ٢/ ١٨٠ رقم ٨٠٣، وآثار البلاد وأخبار العباد ١٦٥ـ ١٦٨، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٢٦ـ ١٢٨، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٠١ـ ٣٢٠هـ) ص٢٥٢ـ ٢٥٣ رقم ٤٢٥.

وقد نشر ماسينيون «أخبار الحلاّج» في باريس سنة ١٩٥٧، و«ديوان الحلاّج» في المجلّة الآسيوية، باريس ١٩٣١.

مختلفون، وهم به لا يقصرون، ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾[(١)] ثم قتل بسيف الشرع، وسقي بسيل دمه منابت الزرع، فقرَّ الدرُّ في الضرع، واستقرَّ في ثأره الأصل والفرع، هذا بعد أن صُبَّ عليه سوط عذاب، وقتل والناس قسمان: قسم مدح، وقسم عاب، إلا أنه حكي أنه لم يحضر واقعته إلا من أصيب، وأخذ من البلوى بنصيب.

وهو من بيضاء فارس، ونشأ بواسط، والعراق. /٥٩/ وصحب الجنيد، والنوري، وعَمْراً المكي، وغيرهم.

واختلف المشايخ في أمره: فردَّه أكثرهم ونفوه، وأبوا أن يكون له قدمٌ في التصوف. وقَبِلَهُ [بعضهم]. من جملتهم أبو العباس بن عطاء، وأبو عبد الله محمد بن خفيف، وأبو القاسم إبراهيم بن محمد النصراباذي، وأثنوا عليه، وصححوا له حاله، وحكوا عنه كلامه، وجعلوه أحد المحققين، حتى قال محمد بن خفيف: «الحسين بن منصور: عالمٌ ربَّانيّ». قتل بباب الطاق من بغداد، يوم الثلاثاء لست بقين من ذي القعدة، سنة تسع وثلاثمائة.

وقال الحلاج: «حجبهم بالاسم فعاشوا؛ ولو أبرز لهم علوم القدرة لطاشوا؛ ولو كشف لهم الحجاب عن الحقيقة لماتوا».

وقال: «من أسكرته أنوار التوحيد، حجبته عن عبارة التجريد، بل من أسكرته أنوار التجريد، نطق عن حقائق التوحيد؛ لأن السكران هو الذي ينطق بكل مكتوم».

وقال: «من التمس الحق بنور الإيمان، كان كمن طلب الشمس بنور الكواكب».

وقال أبو العباس الرازي: كان أخي خادماً للحسين بن منصور، فسمعته يقول: لما كانت الليلة التي وعد من الغد لقتله، قلت له: يا سيدي أوصني. فقال لي: «عليك بنفسك، إن لم تشغلها شغلتك». فلما كان من الغد، وأُخرِجَ للقتل، قال: «حسب الواحد إفراد الواحد». ثم خرج يتبختر في قيده ويقول[(٢)]: [من الهزج]

نديمي غيرُ مَنسُوبِ ... إلى شيءٍ مِنَ الحَيفِ
سَقَاني مثلَ ما يَشرَ ... بُ فِعْلَ الضيفِ بالضيفِ
فلما دارتِ الكأسُ ... دَعَا بالنطْعِ والسيفِ
كذا مَنْ يشربُ الكأسَ ... مِنَ التِّنِّينِ في الصيفِ

ثم قال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا

---

(١) سورة الطور: الآية١٥.

(٢) ديوان الحلاج ٧٣.

ٱلۡحَقُّ﴾[(١)]. ثم ما نطق بعد ذلك حتى فعل به ما فعل. وقال القنّاد: لقيت الحلاج يوماً في حالة رثَّةٍ، فقلت له: كيف حالك؟. فأنشأ يقول[(٢)]: [من الوافر]

لئنْ أمسيتُ في ثَوبي عَديم ... لقدْ بَليا على حُرٍّ كريمِ
/٦٠/ فلا يُحزنْكَ أنْ أبصرتَ حالاً ... مغيَّرةً عَنِ الحالِ القديمِ
فلي نفسٌ ستتلفُ أو سَترقى ... لعَمْرُكَ - بي إلى أمرٍ جَسيمِ

وأنشد ابن فاتك للحسين بن منصور[(٣)]: [من الخفيف]

أنت بَينَ الشَّغافِ والقلبِ تَجري ... مثلَ جَري الدموعِ مِنْ أَجفاني
ويحلُّ الضميرُ جوفَ فؤادي ... كحُلولِ الأرواحِ في الأبدانِ
ليسَ مِنْ ساكنٍ يَحرَّكَ إلا ... أنتَ حرَّكتَهُ خفيَ المكانِ

وأنشد لنفسه[(٤)]: [من الطويل]

مَواجيدُ حَقٍ، أوجدَ الحقُّ كلَّها ... وإنْ عجزتْ عنها فُهومُ الأكابرِ
وما الوجدُ إلا خطرةٌ ثمَّ نظرةٌ ... تُثيرُ لَهيباً بينَ تلكَ السَّرائرِ
إذا سكنَ الحقُّ السريرةَ ضُوعفتْ ... ثلاثةَ أحوالٍ، لأهلِ البصائرِ
فحالٌ يبيدُ السرّ عَنْ كُنْهِ وجْدِهِ ... ويُحضِرهُ للوجدِ، في حالِ حائرِ
وحالٌ بهِ زُمَّتْ ذُرى السرِّ فانثنتْ ... إلى منظرٍ أفناهُ عَنْ كلِّ ناظرِ

وأنشد أيضاً لنفسه[(٥)]: [من الطويل]

متى سَهِرتْ عيني لغيركَ أوْ بكتْ ... فلا أُعطيَتْ ما مُنِّيَتْ وتمنَّتِ
وإنْ أضمرتْ يوماً سواكَ فلا رَعتْ ... رياضَ المُنى مِنْ وجنتيكَ وجِنَّة

وأنشد لنفسه[(٦)]: [من الرمل]

جُبلتْ روحُكَ في رُوحي كما ... يُجبلُ العنبرُ بالمسكِ الفَتِقْ
فإذا مسَّكَ شيءٌ مَسَّني ... فإذا أنتَ أنا لا نفترقْ

وأنشد لنفسه[(٧)]: [من الوافر]

دلالٌ يا خليلي مستعارُ ... دلالٌ بعدَ أنْ شابَ العِذارُ؟
ملكتَ - وحُرمَةِ الخلواتِ - قلباً ... لعبتَ بهِ وقرَّ بهِ القَرارُ

---

(١) سورة الشورى: الآية ١٨.
(٢) ديوان الحلاج ١١٧ـ ١١٨.
(٣) ديوان الحلاج ٩٦ـ ٩٧.
(٤) ديوان الحلاج للشيبي ٣٤.
(٥) ديوان الحلاج لضناوي ٨٤.
(٦) ديوان الحلاج للشيبي ٤٧.
(٧) ديوان الحلاج للشيبي ٣٢.

فـلا عَـيـنٌ يُـؤرِّقـهـا اشـتـيـاقٌ ولا قـلـبٌ يُـقـلـقـلـهُ ادِّكـارُ
نـزلـتَ بـمـنـزلِ الأعـداءِ مـنِّـي وبِـنْـتَ، فـلا تَـزورُ، ولا تُـزارُ
(كـمـا ذهـبَ الـحـمـارُ بـأمِّ عـمـروٍ فـلا رجـعـتْ ولا رجـعَ الـحِـمـارُ)

وأنشد عبد الرحيم بن أحمد الحلي قال: أنشدني الحلاج لنفسه، وقد ذكرت لديه الدنيا وأحوالها[1]: [مجزوء الكامل]

/٦١/ دنـيـا تُـغـالـطُـنـي كـأنِّـي لـسـتُ أعـرفُ حـالـهـا
حَـظَـرَ الـمَـلـيـكُ حَـرامَـهـا وأنَـا ٱحـتـمـيـتُ حـلالَـهـا
فـوجـدتُـهـا مُـحـتـاجـةً فـوهـبـتُ لـذَّتَـهـا لـهـا

وقد حكي عنه، أنه لما خرج ليُقتل، خرج غير جازع، ولا أَسِف، وجعل يقول: «آن لقاء الحبايب».

وحكى السُّلمي عن العطوفي، قال: كنت أقرب الناس من الحلاج، فضرب كذا وكذا سوطاً، وقطعت يداه ورجلاه... فما نطق!. وحكي عنه: أنه لما قُدِّمَ للقتل، أسفر وجهه، ثم اربدَّ، وهمهم بشفتيه، ثم أنشد[2]: [مبحر الوافر]

طـلـبـتُ الـمُـسـتـقـرَّ بـكـلِّ أرضٍ فـلـم أرَ لـي بـأرضٍ مـسـتـقـرّا
وذُقـتُ مِـنَ الـزمـانِ وذاقَ مـنـي وكـانَ مـذاقُـهُ حُـلـواً ومُـرّا
أطـعـتَ مـطـامـعي فـاسـتـعـبـدَتـنـي ولـوْ أنـي قـنـعـتُ لـكـنـتُ حُـرَّا

وقد ذكر الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي: أنه قال ـ وهو مصلوب: «إلهي! أصبحت في دار الرغائب أنظر إلى العجائب. إلهي! إنك تتودَّد إلى من يؤذيك، فكيف لا تتودد إلى من يؤذى فيك؟!».

ومنهم:

[٣١]

أَبُو عَبدِ الله، أَحمدُ بنُ يَحيى الجَلاَّءُ

ويقال: محمد بن يحيى، والاصح أحمد، البغدادي[3]

سابقٌ بلغ المدى، وقتل أطماعه ببتِّ العلائق وودى، وكان بَطَلَ كتيبة، ورجلاً له

(١) أخل بها ديوان الحلاج. (٢) أخل بها ديوان الحلاج.

(٣) ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي ١٧٦ـ ١٧٩ رقم ٤، وحلية الأولياء ١٠/ ٣١٤ـ ٣١٥ رقم ٥٨٥، وتاريخ بغداد ٥/ ٢١٣ـ ٢١٥ رقم ٢٦٨٧، والرسالة القشيرية ٢٠، وتاريخ دمشق ط دار الفكر ٦/ ٨١ـ ٩٣ رقم ٣١٧، وتهذيب تاريخ دمشق ٢/ ١١١ـ ١١٥، والمنتظم ٦/ ١٤٨، ١٤٩ =

كراماتٌ عجيبة، وأخا غرائبَ لا تؤاخى، ولا يأتي بها الزمان وإن تراخى، طالما بهر العيون وملأها، وأظهر ما عجب الظنون وملاها، ولم يزل تبارح به غرف العرفان، ويتبلج صبح الحق حتى أدرج في الأكفان، فروَّض ثرًى حلَّه، وسقى الله دياره غير مفسدها، وساق إليها مثل أخلاق موسّدها، وطاب حياً للأتراب، وميتاً في التراب مضطجعا.

أقام بالرملة، ودمشق، وكان من جِلَّة مشايخ الشام. صحب أباه، يحيى [الجلاء]، وأبا تراب النخشبي، وذا النون المصري، وأبا عبيد البسري وكان / ٦٢/ عالماً ورعاً، وهو أستاذ محمد بن داود الرقي.

روي عنه أنه قال لأبيه وأمه: «أحبُّ أن تهباني لله عزَّ وجلَّ» فقالا: قد وهبناك لله. فغبت عنهما مدَّة، فلما رجعت كانت ليلة مطيرة، فدققت الباب، فقال لي أبي: من ذا؟. قلت: ولدك أحمد. فقال: كان لنا ولد، فوهبناه لله تعالى، ونحن من العرب، لا نسترجع ما وهبناه، ولم يفتح لي. وقال له رجل: على أي شيء أصحب الخلق؟. فقال: «إن لم تبرَّهم فلا تؤذهم، وإن لم تسُرَّهم فلا تسؤهم». وقال: «الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال، لتصغر في عينك، فيسهل عليك الإعراض».

وقال محمد بن ياسين: سألت ابن الجلاء عن الفقر؟. فسكت، ثم ذهب، ورجع عن قريب، ثم قال: كان عندي أربعة دوانيق، فاستحييت من الله تعالى أن أتكلم في الفقر، فأخرجتها..!. ثم قعد وتكلم في الفقر.

وقيل له: ما معنى الصوفي؟. فقال: «ليس نعرفه في شرط العلم، ولكن نعرف فقيراً مجرداً من الأسباب، كان مع الله تعالى بلا مكان، ولا يمنعه العلم من علم كل مكان، يسمى صوفياً». وقال: اشتهت والدتي على والدي يوماً سمكة، فمضى والدي إلى السوق وأنا معه، فاشترى سمكة ووقف ينظر من يحملها؟. فرآى صبياً واقفاً حذاءه، فقال: يا عم!... تريد من يحملها؟. قال: نعم. فحملها ومشى معنا، فسمعنا الأذان. فقال الصبي: أذَّن المؤذن، وأحتاج أن أتوضأ وأصلي. فإن رضيت وإلا فاحمل السمكة!؛ ووضعها الصبي ومضى. فقال أبي: نحن أولى من أن نتوكل بالسمكة. فدخلنا

= رقم ٢٢٧، وصفة الصفوة ٢/ ٤٤٣، ٤٤٤ رقم ٣٠٧، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٥١، ٢٥٢ رقم ١٥٤، والعبر ٢/ ١٣٢، ودول الإسلام ١/ ١٨٦، والبداية والنهاية ١١/ ١٢٩، وفيه: «الجلاد»، ومرآة الجنان ٢/ ٢٤٩، وطبقات الأولياء ٨١ـ ٨٣ رقم ١٩، والنجوم الزاهرة ٣/ ١٧٠ و١٩٤، وشذرات ٢/ ٢٤٨ـ ٢٤٩، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٥٢، وتاريخ الإسلام (السنوات ٣٠١ـ ٣٢٠هـ) ص١٨١ـ ١٨٣ رقم ٢٧٣.

المسجد وصلينا جميعاً، وخرجنا من المسجد. وإذا السمكة موضوعة على حالها، فحملها، ومضى معنا إلى دارنا. فذكر والدي ذاك لوالدتي، فقالت: يقيم عندنا حتى يأكل معنا. فقلنا له. فقال: إني صائم. /٦٣/ قلنا: فتعود إلينا بالعشي؟. فقال: إذا حملت في اليوم مرة، فلا أحمل ثانياً. فأدخل المسجد إلى المساء، ثم أدخل عليكم بالعشي. فلما أمسينا دخل الصبي علينا فأكلنا، فلما فرغنا، دللناه على موضع الطهارة، ورأيناه يؤثر الخلوة، فتركناه في بيت.

وكان لقريب لنا ابنة زَمِنة، فلما كان في بعض الليل، وإذا بها قد جاءت تمشي!. فسألناها عن حالها؟. فقالت: قلت: «يا رب! بحرمة ضيفنا إلا ما عافيتني... فقمت!». قال: فمضينا نطلب الصبي؛ فإذا الأبواب مغلقة كما كانت، ولم نجده. فقال أبي: منهم كبير وصغير.

وقال: دخلت المدينة، وبي فاقة، فتقدَّمت إلى القبر، وقلت: «ضيفك يا رسول الله!، ثم غفوت، فرأيت النبي ﷺ وقد أعطاني رغيفاً، فأكلت نصفه، وانتبهت، وبيدي النصف الآخر».

وقال: كنت واقفاً أنظر إلى غلام نصراني حسن الوجه، فمر بي أبو عبد الله البلخي، فقال: أيش وقوفك؟. فقلت: ياعم! ما ترى؟ هذه الصورة الحسنة تعذَّب بالنار؟. فضرب بيده بين كتفي، وقال: لتجدنَّ غِبَّ هذا ولو بعد حين. قال ابن الجلاء: فوجدت غبَّها، وذلك أني نسيت القرآن بعد أربعين سنة!

وقيل: لما مات أبو عبد الله بن الجلاء، نظروا إليه وهو يضحك، فقال الطبيب: إنه حي!. ثم نظر إلى مجسَّته، فقال: إنه ميت!. ثم كشف عن وجهه، فقال: لا أدري أهو ميت أم حي؟!! حتى دخل عليه بعض اخوانه فغسله، وكان في داخل جلده عرق على شكل كتابةِ ﴿ٱللَّهُ﴾.

ومنهم:

[٣٢]

أَبُو عَبدِ الله، مُحَمَّدُ بنُ الفَضْلِ البَلْخِيُّ[١]

أعلقته مصايد الأيام فأفلت أشراكها، ورأى الراحة في تجنب الأيام فطلب

---

(١) ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي ٢١٢ـ ٢١٦ رقم ١١، وحلية الأولياء ١٠/ ٢٣٢ـ ٢٣٣ رقم ٥٦٣، والرسالة القشيرية ٢١، والمنتظم ٦/ ٢٣٩ـ ٢٤٠ رقم ٣٨٧، في وفيات سنة ٣١٩هـ، =

إدراكها، فلم يسكن إلى سكن، ولا تقيد بموضع سكن، وكانت الأفلاك له مكان الاستقلال، فجانب الدنيا فلم يرمقها / ٦٤/ إلا شزرا، ولم يرم منها إلا نزرا، وألقى أثقالها تخفيفاً لمحمله، وتخليصاً له عند عرض عمله، فخلّصها مما كادها، وخفف عنها [ما] مادها، ولم يزل على قدم ما سالها، وحول دِيَم ما يفارق أوشالها، إلى أن دعاه الداعي، وأصم به الناعي.

أصله من «بَلْخ»، لكنه أخرج منه بسبب المذهب، فرحل إلى سمرقند، واستوطنها، ومات بها سنة تسع عشرة وثلاثمائة. صحب أحمد بن خضرويه وغيره من المشايخ.

وكان من كبار مشايخ خراسان وجلّتهم، ولم يكن أبو عثمان يميل إلى أحد من المشايخ ميله إليه.

وكان يقول: لو وجدت في نفسي قوة لرحلت إلى أخي محمد بن الفضل، فأستروح سري برؤيته.

وكان أبو عثمان يقول: محمد بن الفضل سمسار الرجال.

ومن كلامه: «أعرف الناس باللهأشدهم مجاهدة في أوامره، وأتبعهم لسنة نبيه ﷺ».

وقال: «العلم حرزٌ، والجهل غَرَر، والصديق مؤنة، والعدوّ همّ، والصلة بقاء، والقطيعة مصيبة، والصبر قوة، والجرأة عجز، والكذب ضعف، والصدق قوة، والمعرفة صداقة، والعقل تجربة».

وقال: «ست خصال يعرف بها الجاهل: الغضب في غير شيء، والكلام في غير نفع، والعطية في غير موضعها، وإفشاء السر، والثقة بكل أحد، وألا يعرف صديقه من عدوه».

= وصفة الصفوة ٤/ ١٦٥ رقم ٧٠٦، والعبر ٢/ ١٧٦، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٥٢٣-٥٢٦ رقم ٢٩٨، والوافي بالوفيات ٤/ ٣٢٢ رقم ١٨٧٣، ومرآة الجنان ٢/ ٢٧٨، في وفيات سنة ٣١٩هـ، والبداية والنهاية ١١/ ١٦٧، وطبقات الأولياء ٣٠٠-٣٠١ رقم ٦٥، والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٣١، وشذرات الذهب ٢/ ٢٨٢-٢٨٣، والرسالة المستطرفة ٢١، وكشف الظنون ٢٠٧٩، ٥٧٦٥، وهدية العارفين ٢/ ٣١، وديوان الإسلام ١/ ٣٢٢ رقم ٥٠٥، ومعجم المؤلفين ١١/ ١٢٨، والأعلام ٧/ ٢٢١، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٠٣، ونتائج الأفكار القدسية ١/ ١٥٥-١٥٧، والكواكب الدرّية ٢/ ٥٢، وكشف المحجوب ١٤٠-١٤١، ونفحات الأنس ١١٩، ومشايخ بلخ من الحنفية ١/ ١٣٧، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٠١-٣٢٠هـ) ص٥٤٩-٥٥١ رقم٣٣٤.

وقال: «خطأ العالم أضرُّ من عمد الجاهل».

وقال: «من ذاق حلاوة العلم لا يصبر عنه».

وقال: «من ذاق حلاوة المعاملة أنس بها».

وقال: «من عرف الله تعالى اكتفى به، بعد قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١]».

وقال: «العلوم ثلاثة: علمٌ بالله، وعلم من الله، وعلم مع الله: فالعلم بالله: معرفة صفاته ونعوته. والعلم من الله: علم الظاهر والباطن، والحلال والحرام، والأمر والنهي في الأحكام. والعلم مع الله: علم الخوف والرجاء، والمحبة والشوق». /٦٥/

وقال: «ثمرة الشكر: الحب لله تعالى، والخوف منه».

وقال: «ذكر اللسان: كفارات ودرجات؛ وذكر القلب: زُلَفٌ وقُرُبات».

وقال: «من استوى عنده ما دون الله، نال المعرفة بالله تعالى».

وقال: «الفتوة: حفظ السرِّ مع الله على الموافقة، وحفظ الظاهر مع الخلق بحسن العشرة، واستعمال الخُلُق».

وقال: «الزهد: النظر إلى الدنيا بعين النقص، والإعراض عنها تعزُّزاً وتظرُّفاً، فمن استحسن من الدنيا شيئاً فقد نبَّه على قدرها».

وقال: «علامة الشقاوة ثلاثة أشياء: يرزق العلم ويحرم العمل، ويرزق العمل، ويحرم الإخلاص، ويرزق صحبة الصالحين ولا يحترمهم».

وقال: «إيثار الزهَّاد عند الاستغناء، وإيثار الفتيان عند الحاجة، قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٢]».

وقال: «المحبة: سقوط كل محبة من القلب إلا محبة الحبيب».

وروي أنه لما نفى أهل بلخ محمد بن الفضل من البلد، دعا عليهم وقال: «اللهم امنعهم الصدق»، فلم يخرج من بلخ بعده صِدِّيق.

وقال: «عجبت لمن يقطع البوادي والمفاوز حتى يصل إلى بيته وحرمه، فيرى آثار النبوة، كيف لا يقطع نفسه وهواه، ليصل إلى قلبه فيرى آثار ربه عزَّ وجلَّ!».

قال: فمات أربع نفر ممن سمعوا كلامه هذا. وأنشد في هذا المعنى: [من الكامل]

---

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٢) سورة الحشر: الآية ٩.

ومِنَ البلاءِ وللبلاءِ علامةٌ ألا يُرَى لكَ عَنْ هَواكَ نُزُوعُ
العبدُ عبدُ النفسِ في شهواتِها والحُرُّ يشبعُ تارةً ويجوعُ

ومنهم:

[٣٣]
أَبُو عَمرٍو الدِّمَشْقِيّ(١)

أحد مشايخ الشام، بل واحدها. زاهد كره الدنيا ولجاجها، وضاقت عليه على سعة فجاجها. بطلٌ من أبطال الرجال، ورجل يكشف له الحجاب والحجال، صدق في مقاله، فأسمع، وسبق في مجاله، فلم يكن في اللحاق به مَطْمَع، /٦٦/ وكان ذا قدم يقوم عليها الليل، وكرم لا تحمل النجوم منه إلا غثاء السيل، وفضل يعرف منه في لحن القول إذا قال، وفي أثناء الطول وكم استطال، ومدّ معه ذيل الفجر فما طال، إلى تحقيق للتحقيق، وطريق أهل الطريق، وعلم كان منه ناهلاً، وعلم أن الله لم يتخذ ولياً جاهلاً.

صحب أبا عبد الله الجلاء، وأصحاب ذي النون المصري. وهو من أفتى المشايخ. ردَّ على من تكلم في تقدُّم الأرواح والشواهد.

مات سنة عشرين وثلاثمائة.

قال رضي الله عنه: «كما فرض الله على الأنبياء - عليهم السلام - إظهار الآيات والمعجزات، كذلك فرض على الأولياء كتمان الكرامات، حتى لا يفتتن الخلق بها».

وقال: «خواص خصال العارفين أربعة أشياء: السياسة، والرياضة، والحراسة، والرعاية، فالسياسة، والرياضة: ظاهران؛ والرعاية، والحراسة: باطنان. فبالسياسة يصل العبد إلى التطهير. وبالرياضة: يصل إلى التحقيق. والسياسة: حفظ النفس، ومعرفتها. والرياضة: مخالفة النفس ومعاداتها. والحراسة: معاينة بِرِّ الله في الضمائر، والرعاية: مراعاة حقوق المولى بالسرائر. وميراث السياسة: القيام على الوفاء بالعبودية. وميراث الرياضة: الرضا عن الحكم. وميراث الحراسة: الصفوة والمشاهدة، وميراث الرعاية: المحبة والهيبة. ثم الوفاء متصل بالصفاء، والرضا متصل بالمحبة،

---

(١) ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي ٢٧٧- ٢٧٩ رقم٥، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٤٦- ٣٤٧ رقم ٦١٤، وشذرات الذهب ٢/ ٢٨٧، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١١٨، وطبقات الأولياء ٨٣ رقم ٨، والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٣٥، وكشف المحجوب ٣٨، ونفحات الأنس ٣٨، والكواكب الدرّية ٢/ ١٨، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٠١- ٣٢٠هـ) ص٦١٨- ٦١٩ رقم٤٩٢ .

عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَه، وجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَه».

وقال: «التصوف: رؤية الكون بعين النقص، بل غضُّ الطرف عن كل ناقص، ليشاهد من هو منزَّه عن كل نقص».

وقال: «حقيقة الخوف ألا تخاف مع الله أحداً، والخائف الذي يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان».

وقال: «الرضا ارتفاع الجزع في أي حكم كان».

ومنهم:

[٣٤]

أَبُو عَلِيٍّ الرُّوذَبارِيُّ(١)

واسمه أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور [ابن شهريار بن مُهْرذاذار بن فُرْغُدُدَ بن كسرى].

/ ٦٧/ وهو من أهل بغداد، أحيا طريقة السلف وأنعشها، وأرعد الفرائص هيبة وأرعشها، وكان يقابل منه ليث عرين، وغيث دنيا ودين، لا يقتحم عليه غاب، ولا يؤمن له رقيب حضر أو غاب، إلى دماثة خلق، وأمانة ذكر له في طرق. هذا وقد أطرح نفسه لمن يلومها، وتركها على غاية يرومها، فألحف كل طريد فضل ظله، وآوى كل شريد من محل محله، فكان عالا، وكان فوق حمام الصالح جاهاً ومالا، ولم يعدم مستجير به احتماءه واحتماله. وهو من أهل بغداد، سكن مصر، وكان شيخَها، وبها مات سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

صحب الجنيد، والنوري، وأبا حمزة البغدادي، وحسناً المسوحي، ومن في طبقتهم من مشايخ بغداد، وصحب بالشام عبد الله بن الجلاَّء. وكان عالماً، فقيهاً،

---

(١) ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي ٣٥٤ـ ٣٦٠، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٥٦ـ ٣٥٧ رقم ٦٣٠، والزهد الكبير للبيهقي، رقم ٤٠٠، وتاريخ بغداد ١/ ٣٢٩ـ ٣٣٣، والرسالة القشيرية ٢٦، والأنساب ٢٦٦ب، والمنتظم ٦/ ٢٧٢، وصفة الصفوة ٢/ ٤٥٤ـ ٤٥٥، والكامل في التاريخ ٨/ ٢٩٦، وفيه: «محمد بن أحمد بن القاسم»، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٨١، ودول الإسلام ١/ ١٩٨، والعبر ٢/ ١٩٥، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٥٣٥ـ ٥٣٦ رقم ٣٠٨، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٢٦٧، والبداية والنهاية ١١/ ١٨٠ـ ١٨١، ومرآة الجنان ٢/ ٢٨٦، وطبقات الأولياء ٥٠ـ ٥٣، والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٤٦، وحسن المحاضرة ١/ ٤٠٠، ٤٠١، وشذرات الذهب ٢/ ٢٩٦ـ ٢٩٧ وفيه إسمه: «محمد بن أحمد بن القاسم...»، موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي ٤/ ٨١ـ ٨٤ رقم ١٢٩٥، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٢١ـ ٣٣٠هـ) ص ١١٩ـ ١٢١ رقم ١٠٩.

حافظاً للأحاديث، ظريفاً، عارفاً بالطريقة وكان يفتخر بمشايخه ويقول: «شيخي في التصوف: الجنيد، وفي الفقه: أبو العباس بن سريج، وأستاذي في الأدب: ثعلب، وأستاذي في الحديث: إبراهيم الحربي».

وسئل عن الإشارة؟. فقال: «الإشارة: الإبانة عما يتضمنَّه الوَجْدُ من المشار إليه، لا غير. وفي الحقيقة، إن الإشارة تصحبها العِلَل، والعِلَل بعيدةٌ من عين الحقائق».

وسئل عن التصوف؟. فقال: «هذا مذهب كله جدٌّ، فلا تخلطوه بشيء من الهزل».

وقال: «لا رضا لمن لا يصبر؛ ولا كمال لمن لا يشكر؛ وبالله وصل العارفون إلى محبته، وشكروه على نعمته».

وقال: «لو تكلم أهل التوحيد بلسان التجريد، لما بقي محبٌّ إلا مات».

وسئل عن التوبة؟. فقال: «الاعتراف، والندم، والإقلاع». وأنشد لنفسه: [من الكامل]

رُوحِي إليكَ بكلِّها قدْ أجْمعتْ ... لوْ أنَّ فيكَ هلاكَها ما أقلعتْ
تبكي إليكَ بكلِّها عَنْ كلِّها ... حتى يقالَ: مِنَ البكاءِ تقطَّعتْ
/٦٨/ فانظرْ إليها نظرةً بتعطُّفٍ ... فلطالما متَّعتَها فتمتَّعتْ

وقال: «من رزق ثلاثة أشياء، فقد سلم من الآفات: بطنٌ جائعٌ مع قلب قانع، وفقرٌ دائمٌ مع زهد حاضر، وصبرٌ كاملٌ مع قناعة دائمة».

وقال: «في اكتساب الدنيا مذلَّةٌ للنفوس، وفي اكتساب الآخرة عزُّها، فيا عجباً لمن يختار المذلَّة في طلب ما يفنى على العزِّ في طلب ما يبقى!».

وقال: «إذا قال الصوفي بعد خمسة أيام: أنا جائع!، فألزموه السوق، ومروه بالكسب».

وقال: «كان أربعة في زمانهم: واحد: لا يقبل من الإخوان، ولا من السلطان، وهو: يوسف بن أسباط؛ ورث سبعين ألف درهم فما أخذ منها شيئاً، وكان يعمل الخوص بيده. والثاني: كان يقبل من الإخوان والسلطان جميعاً، وهو: أبو إسحاق الفزاري؛ فكان ما يأخذه من الإخوان ينفقه في المستورين الذين لا يتحركون، والذي يأخذه من السلطان يخرجه إلى أهل طرسوس. والثالث: كان يقبل من الإخوان، ولا يقبل من السلطان، وهو: عبد الله بن المبارك. والرابع: كان يقبل من السلطان ولا يأخذ من الإخوان، وهو: مخلد بن الحسين، وكان يقول: السلطان لا يمنّ، والإخوان يمنُّون!».

وقالت فاطمة أخت أبي علي الروذباري: «لما قربت وفاة أخي كانت رأسه في حِجْري، ففتح عينيه، وقال: «هذه أبواب السماء قد فتحت، وهذه الجنان قد زُيِّنَتْ، وهذا قائلٌ يقول: يا أبا علي! قد بلَّغناك الرتبة القصوى وإن لم تسألها، وأعطيناك درجة الأكابر وإن لم تردها»، ثم أنشأ يقول: [من الوافر]

وحَقِّكَ لا نَظرتُ إلى سِواكا ... بعينِ مَودَّةٍ حتى أراكا
أراكَ مُعذِّبي بفُتورِ لَحظٍ ... وبالخَدِّ المورَّدِ مِنْ حَياكا

ثم قال لي: «يا فاطمة! الأول ظاهر، والثاني إشكال».

وروي أن جماعة تذاكروا شيئاً في القناعة عند أبي بكر الكتاني، وأبو علي /٦٩/ الروذباري حاضر، فأنشأ أبو علي يقول: [من البسيط]

حَدُّ القناعة محْوُ الكُلِّ منكَ إذا ... لاحَ المَزيدُ بحدّ عندَ مُطَّلِعِ
فإنْ تحقَّقَ صَفْوُ الوُدِّ مُشتملاً ... على الإشاراتِ لمْ يلوِ على طَمَعِ

وقال: «التفكر على أربعة أوجه: ففكرة في آيات الله تعالى؛ وعلامتها: تولُّد المحبة في الله عزَّ وجلَّ منها. وفكرة في الوعد بثواب الله تعالى؛ وعلامتها: تولُّد الرغبة فيه. وفكرة في وعيد الله في العذاب؛ وعلامتها: تولُّد الهيبة من الله تعالى. وفكرة في جفاء النفس مع إحسان الله تعالى؛ وعلامتها: تولُّد الحياء من الله تعالى. وأنشد: [من الطويل]

تَشاغلتمُ عني فكُلِّي أفكّرُ ... لأنكمُ مِنِّي بما بيَ أَخْبَرُ
فإن شِئتمُ وَصلي فذاكَ أُريدُهُ ... وإنْ شِئتمُ هجَري فذلكَ أُوثِرُ
فلستُ أُرى إلا بحالٍ يسرُّكمْ ... بذلكَ أزهو ما حَييتُ وأفخَرُ

ومنهم:

[٣٥]

أَبُو بَكرٍ، مُحَمَّدُ بنُ عَلِيٍّ بنِ جَعْفَرَ الكَتَّانِيُّ(١)

مَلَكٌ في زي بشر، وفلك لا ينكر نجومه ذو بصر، فردٌ رأى الدنيا تشيح عارضها،

(١) ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي ٣٧٣ـ ٣٧٧، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٥٧، ٣٥٨، رقم ٦٣١، والرسالة القشيرية ١/ ١٩٠ و٢/ ٧٢٨، والزهد الكبير للبيهقي، رقم ٨٣ و٩٠٣، وتاريخ بغداد ٣/ ٧٤ـ ٧٦ رقم ١٠٤٥، والأنساب ٥/ ٣٢، وتاريخ دمشق ط دار الفكر ٥٤/ ٢٥١ـ ٢٥٩ رقم ٦٧٧٤، وصفة الصفوة ٤/ ٣٧٠ـ ٣٧١، واللباب ٣/ ٢٨، والكامل في التاريخ ٨/ ٩٧، وفيه «الكناني» وهو تحريف، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٨١، والعبر ٢/ ١٩٤ـ ١٩٥، وسير أعلام =

وتمد بأرضها، وسحبها محلولة الخيوط، وبروقها موصولة الخطوط، فخاف أن يصير القطر سيلا، والفجر ليلا، فحلَّ بذورة لا يبلغ مرقاها، ولا يصل إليها المقصر إذا انبعث أشقاها، فسلم دينه، وأوتي كتابه بيمينه، وحق له الإعتاب، وغلبه المتاب، وسُرَّ بعمله وقال: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾[(1)] .

أصله من بغداد. صحب الجنيد، والنوري، وأبا سعيد الخراز. أقام بمكة، وجاور بها إلى أن مات سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

وكان أحد الأئمة المشار إليهم في علوم الطريقة، وكان المرتعش يقول: «الكتاني سراج الحرم».

ومن كلامه: ـ «إن للهِ تعالى ريحاً تسمى الصبيحة، مخزونةً تحت العرش، تهبُّ عند الأسحار، تحمل الأنين والاستغفار، / ٧٠/ إلى عند الملك الجبار».

وقال: «إذا سألت الله التوفيق، فابتدىء بالعمل».

وروي: إنه نظر إلى شيخ كبير أبيض الرأس واللحية، يسأل الناس!، فقال: «هذا رجل أضاع أمر الله في صغره، فضيَّعه الله في كبره».

وقال: «الشهوة زمام الشيطان؛ فمن أخذ بزمامه كان عبده».

وقال: «الغافلون يعيشون في حِلم الله، والذاكرون يعيشون في رحمة الله، والصادقون يعيشون في قرب الله».

وقال: «من حكم المريد أن يكون فيه ثلاثة أشياء: نومه غلبة؛ وأكله فاقة؛ وكلامه ضرورة».

وقال: «لولا أن ذكره فرض عليّ ما ذكرته، إجلالاً له؛ مثلي يذكره، ولم يغسل فاه بألف توبة متقبلة عند ذكره؟!».

وأنشد ـ في المعنى ـ: [من البسيط]

مَا إنْ ذكرتُكَ إلاّ هَمّ يغلُبني ... قَلْبي وسِرِّي ورُوْحي عند ذكراكا

= النبلاء ١٤/ ٥٣٣ـ ٥٣٥ رقم ٣٠٧، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٢٧٦، ومرآة الجنان ٢/ ٢٨٦، والوافي بالوفيات ٤/ ١١١، ١١٢، وطبقات الأولياء ١٤٤ـ ١٤٨، والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٤٨، وشذرات الذهب ٢/ ٢٩٦، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١١٠، ونتائج الأفكار ١/ ١٩٤، وموسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي ٤/ ٢٧٠ـ ٢٧١ رقم ١٥٣٢، وتاريخ الإسلام (السنوات ٣٢١ـ ٣٣٠هـ) ص١١٦ـ ١١٧ رقم ١٠٢.

(١) سورة الأعراف: الآية ١٩٦.

حتّى كأنَّ رَقيباً منكَ يهتفُ بي: إيّاكَ ويحَكَ والتَّذكارَ إيّاكا!

وقال: «كنت في طريق، في وسط السنة، فإذا أنا بهميان ملآن يلمع دنانير، فهممت أن أحمله لأفرِّقه بمكة على الفقراء، فهتف بي هاتفٌ: إن أخذته سلبناك فقرك!. قال: فتركته».

وقال: رأيت في الشام شاباً لم أر أحسن منه، قلت: من أنت؟ قال: أنا التقوى. قلت: فأين تسكن؟. قال: في كل قلب حزين!. قال: ثم التفتُّ فإذا امرأة سوداء، كأوحش ما يكون!. فقلت: من أنتِ؟. فقالت الضحك!. قلت: فأين تسكنين؟. قالت: في كل قلبٍ فَرِحٍ مَرِحٍ. قال: فانتبهت، واعتقدت أن لا أضحك إلا غلبة.

وقال: «العبادة اثنان وسبعون باباً؛ أحد وسبعون منها في الحياء، واحد في أنواع البر».

وقال: «وجدنا دين الله مبنياً على ثلاثة أركان: الحق، والعدل، والصدق. فالحق على الجوارح، والعدل على القلوب، والصدق على العقول».

وحكى عن نفسه / ٧١/ أنه بقي عشرة أيام لم يأكل شيئاً، فشكا إلى بعض إخوانه الجوع. قال: ثم مررت ببعض الأزقّة، فنظرت إلى درهم مطروح، عليه مكتوب: أما كان الله تعالى بجوعك عالماً حتى قلت: إني جائع؟.

ومنهم:

[٣٦]

أَبُو إِسْحَاقَ، إبراهيمُ بنُ دَاودَ القَصَّارُ الرقّيُّ(١)

من كبار مشايخ الشام. قنع بقليل المعاش، ومات فقيل: عاش، ولم يرد من الدنيا رياشاً، ولم يرد سكناً منها ولا رشاشا، فحمل على النفس ضيمها، وترك لأهوائها تقشعها وغيمها، فلم يمدّ إليها يدا، ولا عدَّ فيها أصدقاء ولا عِدا، وكان يقطع الأيام مراحل، ويقذف بحر الليل ليقف على الساحل، يطلب بعنته طلاب الصائد، ويجعل تحت كل بر شركاً للمصايد، فلم يقبل معتذراً، ولا يقبِلُ إلا حَذِرا. وكان من

(١) ترجمته في: طبقات الأولياء لابن الملقن ٢٩ـ ٣٠ رقم٧، حلية الأولياء ١٠/ ٣٥٤ رقم ٢٦، الرسالة القشيرية ١/ ١٥٤، طبقات الشعراني ١/ ١١٩، صفة الصفوة ٤/ ١٦٩، طبقات المناوي ١/ ١٩٢، المنتظم ٦/ ٢٩٤، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٢١ـ ٣٣٠هـ) ص١٨٨ رقم٢٧٥.

أقران الجنيد، وابن الجلاء، إلا أنه عُمِّر طويلاً، وصحبه أكثر مشايخ الشام، وكان لازماً للفقر، مجرِّداً فيه، محبّاً لأهله.

ومات سنة ست وعشرين وثلاثمائة.

ومن كلامه: «قيمة كل إنسان بقدر هِمَّته، فإن كانت همَّتُه الدنيا، فلا قيمة له، وإن كانت همته رضاء الله تعالى، فلا يمكن استدراك غاية قيمته، ولا الوقوف عليها».

وقيل له: «هل يبدي المحبُّ حبَّه؟ أو هل ينطق به؟، أو يطيق كتمانه؟. فأنشأ يقول متمثلاً: [من الطويل]

ظفِرْتمْ بكتمانِ اللسانِ فمن لكمْ بكتمان عَينٍ دمْعها ـ الدهرَ ـ يَذْرِفُ
حملتمْ جبالَ الحُبِّ فَوقي وإنني لأعجزُ عَنْ حملِ القميصِ وأضعُفُ

وقال: «الراضي لا يسأل. وليس من شرط الرضا المبالغة في الدعاء».

وقال: «حسبك من الدنيا شيئان: صحبة فقير، وحرمة ولي».

وقال: «من اكتفى بغير الكافي افتقر من حيث استغنى».

وقال: «كفايات الفقراء هي التوكل، وكفايات الأغنياء الاستناد إلى الأملاك».

وقال: «من تعزز بشيء غير الله، فقد ذلّ في عزِّه».

وقال: «الأولياء / ٧٢/ مرتبطون بالكرامات والدرجات، والأنبياء مكشوف لهم عن حقائق الحق؛ فالكرامات والدرجات عندهم وحشة».

وقال: «الأنبياء ينبسطون على بساط الأنس، والأولياء على درجات الكرامة».

وقال إبراهيم بن المواز: دخلت يوماً على إبراهيم القصار، فقال: ادع لي فلاناً القوَّال ـ صبياً كان بالرَّقَّة ـ فدعوته له، فقال له: أعد الأبيات التي كنت تغنيها بالأمس، فأخذ الصبي يغني: [من الطويل]

إذا كنت تجفوني وأنتَ ذخَيرتي وموضعُ شكواي فما أنا صانعُ؟
نهاري نهارُ الناسِ حتى إذا بدا لي الليلُ هَزّتني إليكَ المَضاجعُ
وأُمضي نَهاري بالحديثِ وبالمُنى ويَجمعني والليلُ وللهمِّ جامِعُ

قال: فأخذ الشيخ يبكي ويصيحُ ويقول: واشوقاه...! إلى من هذا وصفه، وإلى زمان كشف لنا عن بوادي هذه الأحوال.

ومنهم:

[٣٧]
أَبُو بَكرٍ الشِّبْلِيّ(١)

واسمه: دُلَف بنُ جَحْدَر. وقيل: ابن جعفر. وقيل: جعفر بن يونس. رجلٌ كانت به الأيام هزَّة، وللأنام عزّة، وللدنيا نضارة، وللنعمى غضارة، وسم الليالي وهي بهيمة، ونسم على رياض الدنو وهي نسيمة، فحلّ بها حيث لا يدنو المحال، فجاب السماء وعَيُّوقها، وجاز زرع السنبلة وسوقها، وكان مَلَكاً في زي بشر، وواحداً إلا أنه ثاني النجم وثالث الشمس والقمر، فلما فقد عزّ عزاؤه، ووقد ضرام الأحشاء وقلّ جزاؤه، فذهب بالأجور، ومضى وكل الناس فيه مأجور، ولم نر منذ زمان أكثر من يوم موته باكيا، وباقياً لو فدي باليا.

أصله: من أسروشنة. ومولده: سُرَّ من رأى. وقيل: إنه خراساني الأصل، /٧٣/ بغدادي المولد والمنشأ. تاب في مجلس خير النسّاج. وصحب أبا القاسم الجنيد، ومن في عصره من المشايخ، وصار أوحد الوقت علماً، وحالاً، وظرفاً. وكان فقيهاً، عالماً، على مذهب مالك، وكتب الحديث الكثير [ورواه]. وعاش سبعة وثمانين سنة، ومات في ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، ودفن بمقبرة الخيزران ببغداد.

وروي أنه لما تاب في مجلس خير النساج أتى نهاوند، وقال: كنت والي بلدكم، فاجعلوني في حِلٍّ!.. ومجاهداته في بدايته فوق الحد، ومن جملة ذلك: إنه اكتحل بكذا وكذا ملح ليعتاد السهر، ولا يأخذه النوم. قال: فلما زاد الأمر حمّيت الميل فاكتحلت به.

---

(١) ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي ٣٣٧ـ ٣٤٨ رقم ١، ومعجم الشيوخ لابن جميع ٣٨٢ـ ٣٨٣، رقم ٣٧٦، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٦٦ـ ٣٧٥، وتاريخ بغداد ١٤/ ٣٨٩ـ ٣٩٧، وعقلاء المجانين ٣٢٠ رقم ٥٥٢، والرسالة القشيرية ٢٥ـ ٢٦، والزهد الكبير للبيهقي، رقم ٥٢ و١٨٠ و٢٨٨ و٢٨٩ و٢٩٥ و٥٧٤ و٧٢٣ و٧٥٦ و٨٥٧، وتحسين القبيح ١٠٠، ومعجم البلدان ٣/ ١٦٩، ٢٥٦ و٤/ ٢٠٢، والأنساب ٧/ ٣٨٢، ٣٨٤، والمنتظم ٦/ ٣٤٧ـ ٣٦٩ رقم ١٩٠، ودول الإسلام ١/ ٢٠٩، وآثار البلاد وأخبار العباد ٥٤٠ـ ٥٤١، ومرآة الجنان ٢/ ٣١٧ـ ٣١٩، والبداية والنهاية ١١/ ٢١٥ـ ٢١٦، والديباج المذهب ١١٦ـ ١١٧، وطبقات الأولياء ٢٠٤ـ ٢١٣، رقم ٤٠، والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٨٩ـ ٢٩٠، وشذرات الذهب ٢/ ٣٣٨، وديوان الإسلام ٣/ ١٦٦ـ ١٦٧ رقم ١٢٧٣، والأعلام ٢/ ٣٤١، والمستطرف ١/ ٢١٥ـ ٢١٦، ودُور الأبكار ١٢٣ـ ١٢٤، وهدية الأحباب القمّي ١٤٠، ونتائج الأفكار القدسية ١/ ١٨٧ـ ١٨٩، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٢١ـ ١٢٤، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٣١ـ ٣٥٠هـ) ص١١٦ـ ١٢٠ رقم١٥٩.
له ديوان شعر جمعه وحققه د. كامل مصطفى الشيبي ط بغداد ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.

وقال الشبلي: «اطّلع الحقُّ عليّ فقال: «من نام غفل، ومن غفل حجب». وأنشد: [من الخفيف]

عَجَباً لِلْمُحِبِّ كَيْفَ يَنَامُ كُلُّ نَومٍ عَلَى الْمُحِبِّ حَرَامُ

وقيل له: متى يكون الرجل مريداً؟. فقال: «إذا استوت حالته في السفر والحضر، والمشهد والمغيب».

وقال عبد الله بن محمد الدمشقي: «كنت يوماً واقفاً على حلْقه الشبلي، فجعل يبكي ولا يتكلم؛ فقال رجل: يا أبا بكر! ما هذا البكاء كله؟!. فأنشأ يقول[1]: [من الوافر]

إذا عاتبتُه، أو عاتبوهُ شكا فِعْلي، وعدَّدَ سيئاتي
أيا مَنْ دَهرُهُ غَضَبٌ وسُخْطٌ أَمَا أحسنتُ يوماً في حياتي؟!

وقال بعض أصحابه: «رأيت الشبلي في المنام، فقلت له: يا أبا بكر! من أسعدُ أصحابك بصحبتك؟. فقال: أعظمهم لحرمات الله، وألهجهم بذكر الله، وأقومهم بحق الله، وأسرعهم مبادرة في مرضاة الله، وأعرفهم بنقصان نفسه، وأكثرهم تعظيماً لما عظَّم الله من حرمة عباده». وقال له رجل: ادع لي. فأنشأ يقول[2]: [من الطويل]

مَضَى زمنٌ والناسُ يستشفعونَ بي فهلْ لي إلى ليلى الغَدَاةَ شَفيعُ

/٧٤/ وروي أن الجنيد قال له يوماً: لو رددت أمرك إلى الله لاسترحت. فقال الشبلي: «يا أبا القاسم! لو رد الله تعالى أمرك إليك لاسترحت». فقال الجنيد: «سيوف الشبلي تقطر دما».

وقال: «سهو طرفة عين عن الله ـ تعالى ـ لأهل المعرفة ـ شرك بالله تعالى».

وقال الشبلي: «ليس من احتجب بالخلق عن الحق كمن احتجب بالحق عن الخلق، وليس من جذبته أنوار قدسه إلى أنسه، كمن جذبته أنوار رحمته إلى مغفرته».

وكان يقول في مناجاته: «أحبَّك الخلق لنعمائك، وأنا أحبك لبلائك». وقال عبد الله بن محمد الدمشقي: «كنت واقفاً على حلقة الشبلي، في جامع المدينة، فوقف سائل على حلقته، وجعل يقول: يا الله، يا جواد!، فتأوه الشبلي وصاح، وقال كيف يمكنني أن أصف الحق بالجود؟، ومخلوق يقول في شكله: [من الطويل]

تَعوَّدَ بسطَ الكَفِّ حتَّى لوَ انَّهُ ثناها لقبضٍ لمْ تُجبْهُ أناملُهْ

---

(١) ديوان أبي بكر الشبلي ص٩٢ رقم١١.
(٢) ديوان أبي بكر الشبلي (الشعر المنسوب) ص١٦٣ رقم١٢.

تُـراهُ ـ إذا مـا جـئـتَـهُ ـ مُـتـهـلـلاً كـأنَّـكَ تُـعطيـهِ الـذي أنـتَ سـائـلُـهْ
ولـوْ لـمْ يـكـنْ فـي كـفِّـهِ غـيـرُ رُوحـهِ لـجـادَ بـهـا فـلـيـتَّـقِ اللهَ سـائـلُـهْ
هـوَ الـبـحـرُ مِـنْ أيِّ الـنـواحـي أتـيـتَـهُ فـلـجَّـتُـهُ الـمَـعـروفُ والـجُـودُ سـاحـلُـهْ

ثم بكى، وقال: بلى!! يا جواد!. فإنك أوجدت تلك الجوارح، وبسطت تلك الهمم، ثم مننت ـ بعد ذلك ـ على أقوام بعزِّ الاستغناء عنهم، وعما في أيديهم بك؛ فإنك الجواد كلُّ الجواد؛ لأنهم يعطون عن محدود، وعطاؤك لا حدَّ له ولا صفة. فيا جواد يعلو كلَّ جواد، وبه جاد كلُّ من جاد.

وقال بعضهم: كنا يوماً في بيت الشبلي، فأخَّر العصر، ونظر إلى الشمس، وقد تدلَّت للغروب، فقال: الصلاة يا سادتي!. وقام فصلى، ثم أنشأ يقول ملاعبةً، وهو يضحك: ما أحسن قول من قال: [من الوافر]

نَـسـيـتُ الـيـومَ مِـنْ عِـشـقـي صَـلاتـي فـلا أَدري عـشـائـي مِـنْ غـدائـي
فـذكـرُكَ سـيـدي أكـلـي وشُـربـي ووجـهُـكَ إنْ رأيـتُ شِـفـاءُ دائـي

/ ٧٥/ وقال له رجلٌ: إلى ماذا تستريح قلوب المشتاقين؟. قال: إلى سرور من اشتاقوا إليه، وموافقته». وأنشد(١): [من الوافر]

أُسَـرُّ بِـمَـهـلـكـي فـيـهِ، لأنِّـي أُسَـرُّ بـمـا يَـسُـرُّ الإلـفَ جِـدًّا
ولـوْ سُـئـلـتْ عـظـامـي عَـنْ بِـلاهـا لأنـكـرتِ الـبِـلـى، وسـمـعـتُ جَـحـدا
ولـوْ أُخـرجـتُ مِـنْ سُـقْـمـي لـنـادى لَـهـيـبُ الـشـوقِ بـي يَـسـألُـهُ رَدَّا

وقال عبد الله البصري: سئل الشبلي، وأنا حاضر: إلى ماذا تحِنُّ قلوب أهل المعارف؟. فقال: «إلى بدايات ما جرى لهم في الغيب، من حسن العناية في الحضرة بغيبتهم عنها». وأنشأ يقول: [من الكامل]

سـقـيـاً لـمَـعـهـدِكَ الـذي لـوْ لـمْ يـكـنْ مـا كـانَ قـلـبـي لـلـصَّـبـابـةِ مَـعـهـدا

وقيل للشبلي: لم تصفرُّ الشمس عند الغروب؟. فقال: «لأنها عزلت عن مكان التمام، فاصفرَّت لخوف المقام، وهكذا المؤمن إذا قارب خروجه من الدنيا اصفرَّ لونه؛ لأنه يخاف المقام، فإذا طلعت الشمس، طلعت مضيئة، وكذلك المؤمن إذا بعث من قبره خرج ووجهه يشرق». وقال: «أليس الله تعالى يقول: (أنا جليس من ذكرني)؟. فما الذي استفدتم من مجالسة الحق؟». وأنشد(٢): [من الطويل]

---

(١) ديوان أبي بكر الشبلي ٩٣ رقم ١٢.
(٢) ديوانه ١٢٧ رقم ٦٣.

ذكرتُكَ لا أني نَسيتُكَ لمحةً وأيسرُ ما في الذِّكْرِ ذِكرُ لساني
وكنتُ بلا وَجْدٍ أموتُ مِنَ الهوى وهامَ عليَّ القلبُ بالخَفقانِ
فلما أراني الوَجْدُ أنكَ حاضري شهدتُكَ موجوداً بكلِّ مكان
فَخاطبتُ مَوجوداً بغيرِ تكلُّم ولاحظت مَعلوماً بغيرِ عِيانِ

وقال: «أدنى علامات الفقير: لوْ كانت الدنيا بأسرها لواحد فأنفقها في يوم واحد، ثم خطر بباله أن يمسك منها قوت يوم، ما صدق في فقره!».

وقال له أبو علي المغازلي: ربما يطرقُ سمعي آية من كتاب الله تعالى، فتحدوني على ترك الأشياء، والإعراض عن الدنيا، ثم أرجع إلى أحوالي /٧٦/ وإلى الناس، [ثم لا أبقى على هذا ولا على هذا، وأرجع إلى الوطن الأول مما كنت عليه من سماعي القرآن]. فقال الشبلي: «ما [طرق سمعك من القرآن] فاجتذبك الله إليه فهو عطف منه عليك ولطف، وما رددت على نفسك، فهو شفقة منه عليك؛ لأنه لم يصح لك التبري عن الحول والقوة في التوجه إليه».

وقال أحمد بن مقاتل: كنت مع الشبلي في مسجد ليلة من رمضان، وهو يصلي خلف الإمام، فقرأ الإمام: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾[١] فزعق زعقة، قلت: طارت روحه، وهو يرتعد، ويقول: «بمثل هذا خاطب الأحباب» يردد ذلك كثيراً.

وروي أنه سمع قائلاً يقول: «الخيار عشرة بدانق» فصاح وقال: إذا كان الخيار كل عشرة بدانق، فكيف الشرار؟!.

وسمع القوّال يقول شيئاً، فصاح، وتواجد، فقيل له: يا أبا بكر! مالك من بين الجماعة؟. فقام وتواجد، وقال[٢]: [من البسيط]

ليْ سَكْرتانِ وللنَّدمانِ واحدةٌ شيءٌ خُصِصْتَ بهِ مِنْ بينهم وَحِدي

وحكي أن فقيهاً من أكابر الفقهاء يكنى بأبي عمران، كانت حلقته بجنب حلقة الشبلي في جامع المنصور، وكان كلام الشبلي يعطل على ابن عمران وأصحابه كلامهم، فسأله أصحابه يوماً عن مسألة في الحيض، وقصدوا إخجاله؟. فأجاب الشبلي عنها، وذكر مقالات الناس في تلك المسألة، والخلاف فيها. فقام أبو عمران وقبَّل رأسه، وقال: يا أبا بكر! قد استفدت في هذه المسألة عشر مقالات لم أسمعها، وكان

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٦.
(٢) ديوان ابن أبي بكر الشبلي (الشعر المنسوب) ص١٦٠ رقم٦.

عندي من جملة ما قلتَ ثلاث أقاويل!.

وقال إبراهيم الحداد: «كنت يوماً عند الشبلي جالساً وقد انصرف أكثر الناس عنه، وبقي حوله جماعة، فسألوه أن يدعو؟. فسكت ساعةً ثم قال: «اللهم اضربهم بسياط الخوف، واقتلهم بأزمَّة الشوق، وافنهم عن مؤالفات الرسوم، وأغنهم عن ملاحظات الفهوم. اغفر لهم إن انصرفوا عنك، ووفقهم إن أقبلوا عليك، خرِّبْ منازل / ٧٧/ فنائهم، واعمر منازل بقائهم، وكن لهم كما لم تزل. اشغل اللهم الكل بمفارقة الكل». ثم أنشأ يقول[١]: [من البسيط]

النـاسُ كـلُّـهـمُ بـالـعـيـدِ قـدْ فَـرحـوا   ومـا فَـرِحْـتُ بـهِ، والـواحـدِ الـصَّـمَـد
لـمَّـا تـثـبَّـتُّ أنـي لا أعـاتـبُـكُـمْ   غَـضَـضْـتُ طَرفي فلـمْ أنظرْ إلى أحد

ثم قال: «إلهي طموح الآمال قد خابت إلا لديك، وعكوف الهمم قد تعطَّلت إلا عليك، ومذاهب المعارف قد قصرت إلا إليك». وكان ابن بشار نهى الناس عن الذهاب إلى الشبلي والاستماع من كلامه، فلقيه يوماً، فجعل الشبلي يكلمه وابن بشار يقول: كم من خمس من الإبل؟ فلما أكثر، قال له الشبلي: في واجب الشرع شاة، وفيما يلزمنا: كلُّها. فقال ابن بشار: لك بهذا القول إمام؟. قال: نعم، أبو بكر الصديق رضي الله عنه، حيث أخرج ماله كله، وقال له النبي ﷺ: ما خلَّفت لعيالك؟. قال: الله ورسوله. فذهب ابن بشار ولم ينه عن مجلسه بعد ذلك.

وسئل الشبلي عن قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾[٢]؟. فقال: «أبصار الرؤوس: عما حرَّم الله. وأبصار القلوب: عما سوى الله عزَّ وجلَّ». وقال الشبلي: «كنت يوماً جالساً، فجرى بخاطري أني بخيل، فقلت: أنا بخيل!. فقاومني خاطري، وقال: بلى إنك بخيل!. فقلت: «مهما فتح علي اليوم، لأدفعنه إلى أول فقير يلقاني!». قال: فبينا أنا أتفكر إذ دخل عليّ صاحب لمؤنس الخادم، ومعه خمسون ديناراً، فقال: اجعل هذه في مصالحك. فأخذتها وخرجت. وإذا بفقير مكفوف بين يدي مزين، يحلق رأسه، فتقدَّمت إليه، وناولته الصرة، فقال لي: أعطها للمزين. فقلت: «إنها دنانير!». فقال: «أو ليس قد قلنا إنك بخيل؟!» فناولتها للمزيِّن، فقال: «من عادتنا أن الفقير إذا جلس بين أيدينا لا نأخذ منه أجراً!» قال: فرميتها في دجلة، وقلت: / ٧٨/ «ما أعزَّكِ أحد إلا أذلَّه الله».

وقال أبو محمد الحريري: مكثت عند الشبلي الليلة التي مات فيها، فكان ينشد

---

(١) ديوانه ٩٧ رقم١٩.
(٢) سورة النور: الآية ٣٠.

طول ليلته هذه الأبيات: [من المديد]

كــلُّ بـيـتٍ أنـتَ سـاكـنُـهُ غـيـرُ مُـحـتـاجٍ إلـى الـسُّـرُجِ
وجـهُـكَ الـمـأمـولُ حُـجَّـتُـنـا يـومَ يـأتـي الـنـاسُ بـالـحُـجَـجِ
لا أتـاحَ اللهُ لـي فَـرَجـاً يـومَ أدعـو مـنْـكَ بـالـفَـرَجِ

ورآه بعض الصالحين بعد موته، فقال: «ما فعل الله بك؟» فقال: «لم يطالبني بالبراهين على الدعاوى إلا على شيء واحد، وذاك أني قلت يوماً: لا خسارة أعظم من خسارة الجنة ودخول النار. فقال لي: «وأي خسارة أعظم من خسران لقائي؟»».

ورآه آخر في النوم فقال: «ما فعل الله بك؟» فقال: «ناقشني حتى أيست، فلما رأى إياسي تغمَّدني برحمته».

ومنهم:

[٣٨]

أَبُو بَكرٍ الدُّقِّيُّ وهو: محمد بن داود الدينوري(١)

أشرق كالصباح مبهجا، وطرق الفلاح منهجا، فلم يبعد به الوصول، ولم يعد إلا مخضب حكم وتصرف، وحتم على من تعزَّز وتشرّف. هذا والخوف ملأ جوانحه، وملك جوارحه، ليلة أودعها حتى خلاً كل لياليه إنَّهً حالية الترائب، وكل أيامه من ذهب سنابل ولجين ذائب، إذ ترك ذلك زهداً للأيام، وكرما يبخل به اللئام.

أقام بالشام، وكان من أقران أبي علي الروذباري، إلا عُمِّر زيادة على مائة سنة.

صحب أبا عبد الله بن الجلاء، وأبا بكر الزقّاق الكبير، وأبا بكر المصري، غير أنه كان ينتمي إلى ابن الجلاء. وكان من أجلِّ مشايخ وقته، وأقدمهم صحبة للمشايخ.

توفي بعد الخمسين وثلاثمائة.

سئل عن الفرق بين الفقر والتصوف؟. فقال: «الفقر حالٌ من أحوال التصوف». فقيل له: ما علامة الصوفي؟. فقال: «أن يكون مشغولاً بكل ما هو أولى به من غيره، ويكون معصوماً /٧٩/ عن المذمومات».

---

(١) ترجمته في: الرسالة القشيرية ١/ ١٨٠، طبقات الصوفية ٤٤٨ـ ٤٥٠ رقم٥، طبقات الأولياء لابن الملقن ٣٠٦ـ ٣١٠ رقم ٦٧، تاريخ بغداد ٥/ ٢٦٦ رقم ٢٧٥٨، الوافي بالوفيات ٣/ ٦٣، نتائج الأفكار القدسية ٢/ ٣، البداية والنهاية ١١/ ٢٧١، سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٣٨ـ ١٣٩ رقم ٩٦، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٥١ـ ٣٨٠هـ) ٩، ٢١٧ـ ٢١٩.

وقال: «علامة القرب: الانقطاع عن كل شيء سوى الله تعالى».

وقال: «من عرف ربه لم ينقطع رجاؤه. ومن عرف نفسه لم يعجب بعمله، ومن عرف الله لجأ إليه. ومن نسي الله لجأ إلى المخلوقين، والمؤمن لا يسهو حتى يغفل، فإذا تفكر حزن واستغفر».

وقال: «كنت بالبادية، فوافيت قبيلة من قبائل العرب، فأضافني رجل منهم، فرأيت غلاماً أسود، مقيداً هناك، ورأيت جِمالاً ميتة بفناء البيت. فقال الغلام: «أنت الليلة ضيف، وأنت على مولاي كريم، فتشفَّعْ لي! فإنه لا يردُّك!». فقلت لصاحب البيت: «لا آكل حتى تحلَّ هذا العبد». فقال: «هذا الغلام قد أفقرني، وأتلف مالي!». فقلت: «ما فعل!». فقال: «له صوت طيب، وكنت أعيش من ظهر هذه الجمال، فحمَّلها أحمالاً ثقيلة، وحدا لها، حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في يوم، فلما حطَّ عنها ماتت كلها!». ولكن قد وهبته لك. وأمر بالغلام فحُلَّ عنه القيد. فلما أصبحنا أحببت أن أسمع صوته، فسألته عن ذلك؟ فأمر الغلام أن يحدوا على جمل كان على بئر هناك، يسقي عليه، فحدا، فهام الجمل على وجهه، وقطع حباله، ولا أظن أني سمعت صوتاً أطيب منه، ووقعت لوجهي حتى أشار عليه بالسكوت». وأنشدوا في هذا المعنى: [من الكامل]

إنْ كُنْتَ تُنْكِرُ أَن لِلْـ ـأصواتِ فائدةً ونَفعا
فانظر إلى الإبل اللوا تِ هُنَّ أغلظُ منك طَبعا
تُصغِي إلى حَدْوِ الحُدا ةِ فتَقطعُ الفَلواتِ قَطعا

وقال: «خرجت إلى مصر، فلما دخلتها قلت: أسلِّم على الدقاق، فقصدته وسلَّمت عليه، فقال: من أين جئت يا أبا بكر!؟. قلت: من أيلة. فقال: إلى الرملة؟. قلت: لا يا سيدي إلى القلزم، وإليكم. فقال: «جزت ذلك الطريق، خذ مني حكاية: أقمت فيه ثمانية عشر يوماً /٨٠/ تائهاً ما وجدت فيه شيئاً أرتفق به، فلما كان بعد المدة، إذا أنا بسلطان قد ولي مصر يريد أيلة، فرأوا شخصي من بعيد، فأرسلوا فارساً يحملني إليه، فلما رأيت جمالاً ورفقة طمعت نفسي، فلما تبينت أنهم جند أيست أن لي فيهم فرجا. قال الشيخ: وما شيء من الطاعات لله تعالى إلا وهذا اليأس في هذا الوقت أحسن منه. فقال الوالي: «هذا رجل تائه، قدموا إليه السفرة». فقلت: «ليس إلى ذلك سبيل». فقال: ويحك أنت على حال التلف!. فقلت: «إن بيعتنا مع الله تعالى بمحل هذا لا نرضى رحلكم في المدن، ولا لكم نرضاه! وذلك أن العلم يلزمنا، ولو كنا في شدة. ففقه الأمير عني ما قلت؛ فبكى. وقال: سألتك بالله إلا ما شربت الماء؛ فإنه من النيل،

فناولني دلوه، فشربت منها شربة، وبقيت عليها إلى مصر!». رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[٣٩]

أبو عمرو، إسماعيلُ بنُ نُجَيد بنِ أَحمدَ بنِ يُوسُفَ بنِ سَالمِ بنِ خَالد السُّلَمِيُّ(١)

سحابٌ عمَّت به الرحمة، وعظمت به في الصدور الحرمة، ردَّ على الشيطان غروره، وردى بالحرمان إفكه وزوره، وطالما أراد اختلاسه فتستر له بأذيال النسيان، وكاد أن يجري منه مجرى الدم من الإنسان، إلا أنه سكّن سَورته وقمعها، وسكّت أسرته وقلعها، فخاب لديه، وخار ولم يصل إليه.

صحب أبا عثمان الحيري، وكان من كبار أصحابه؛ ولقي الجنيد. وكان من أكبر مشايخ وقته. له طريقة ينفرد بها: من تلبيس الحال، وصون الوقت. وهو آخر من مات من أصحاب أبي عثمان، في سنة ست وستين وثلاثمائة. وسمع الحديث ورواه، وكان ثقة.

ومن كلامه: «كل حال لا يكون عن نتيجة علم؛ فإن ضرره على صاحبه أكثر من نفعه».

وقال: «المتوكل الذي يرضى بحكم الله فيه».

وقال: «من أراد أن يعرف قدر معرفته / ٨١/ بالله تعالى، فلينظر قدر هيبته له، في وقت خدمته له».

وقيل له: «ما الذي لا بد للعبد منه؟. فقال: ملازمة العبودية على السنة، ودوام المراقبة».

وقال: «إذا أراد الله بعبد خيراً، رزقه خدمة الصالحين والأخيار، ووفقه لقبول ما

---

(١) ترجمته في: المنتظم ٧/ ٨٤ رقم ١٠٧، العبر ٢/ ٣٣٦، طبقات الصوفية ٤٥٤ـ ٤٥٧ وراجع فهرس الأعلام، مرآة الجنان ٢/ ٣٨١، البداية والنهاية ١١/ ٢٨٨ في وفيات سنة ٣٦٦هـ، شذرات الذهب ٣/ ٥٠، دول الإسلام ١/ ٢٢٦، طبقات الشافعية للسبكي ٢/ ١٨٩، الوافي بالوفيات ٩/ ٢٣١ رقم ٤١٣٦، الأعلام ١/ ٣٢٦، تاريخ التراث العربي ٢/ ٤٨١ رقم ٣٤ وجعل وفاته سنة ٣٦٦هـ. الرسالة القشيرية ٢٨، سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٤٦ـ ١٤٨ رقم ١٠٤، النجوم الزاهرة ٤/ ١٢٧، طبقات الشعراني ١/ ١٤١، نتائج الأفكار القدسية ٢/ ٤، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٥١ـ ٣٨٠هـ) ص٣٣٥ـ ٣٣٧.

يشيرون به عليه، وسهَّل عليه سبل الخير، وحجبه عن رؤيتها».

وقال عبد الواحد بن علي السيَّاريّ: قلت له آخر ما فارقته بمصر: «أوصني!. فقال لي: «إلزم مواجب العلم؛ واحترم لجميع المسلمين؛ ولا تضيِّعْ أيامك، فإنها أعزُّ شيءٍ لك؛ ولا تتصدَّرْ ما أمكنك؛ وكن خاملاً فيما بين الناس؛ فبقدر ما تتعرف إليهم، وتشتغل بهم، تضيِّع حظك من أوامر ربك».

وقال: «من أظهر محاسنه لمن لا يملك ضرَّه ولا نفعه، فقد أظهر جهله».

وقال: «من استقام لا يعوجّ به أحد، ومن اعوجَّ لا يستقيم به أحد».

وقال: «آفة العبد رضاه من نفسه بما هو فيه».

وقيل: «اجتمع أبو عمرو، وابن نجيد، والنصراباذي، والطائفة في موضع فقال النصراباذي: أنا أقول: إذا اجتمع القوم، فواحد يقول شيئاً، ويسكت الباقون، خير من أن يغتابوا. فقال أبو عمرو: «لأن تغتاب ثلاثين سنة، أنجى لك من أن تظهر في السماع ما لست به». رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[٤٠]

أَبُو القاسِمِ إبراهيمُ بنُ مُحَمَّد النَّصْرابَاذِيُّ(١)

شيخ خراسان في وقته. لا يفيض صدره الحفائظ، ولا يقدح أحشاءه المغائظ، علم زهد، وعلم حقيقة، أحلى من الشُّهد، نفض الرقاد عن جفنيه، وكحَّل بالسُّهاد ملء عينيه، تصور الدنيا فعاب، وتصوب كوكب الدنايا في أفقه فغاب، حتى دعاه داعي الحِمام، فأسرع البدار، وطلع كالقمر ليلة الإبدار، ففرَّ إلى الفردوس من وراء الجدار، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم /٨٢/ ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾(٢).

---

(١) ترجمته في: المنتظم ٧/ ٨٩ رقم ١١٢، تاريخ بغداد ٦/ ١٦٩ و١٧٠، تهذيب ابن عساكر ٢/ ٢٤٦ـ ٢٥٠، طبقات الصوفية للسُّلَمي ٤٨٤ـ ٤٨٨، الرسالة القشيرية ٣٩، اللباب ٣/ ٢٢٥، نتائج الأفكار القدسية ٢/ ١٣ـ ١٥، طبقات الشعراني ١/ ١٤٤، سير أعلام النبلاء ١٠ ق٢/ ٢١٢، النجوم الزاهرة ٤/ ١٢٩ـ ١٣١، شذرات الذهب ٣/ ٥٨، مرآة الجنان ٢/ ٣٨٧، دول الإسلام ١/ ٢٢٧، الوافي بالوفيات ٦/ ١١٧ رقم ٢٥٤٩، تاريخ التراث العربي ٢/ ٤٨١ـ ٤٨٢ رقم ٣٥، العبر ٢/ ٣٤٣، طبقات الأولياء ٢٦ـ ٢٨، العقد الثمين ٣/ ٢٧ـ ٢٣٩، موسوعة علماء المسلمين ١/ ٢٥٢ـ ٢٥٥ رقم ٥٢، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٥١ـ ٣٨٠هـ) ص٣٦٧ـ ٣٧١.

(٢) سورة الرعد: الآية ٢٤.

صحب أبا بكر الشبلي، وأبا علي الرُّوذباري، وأبا محمد المرتعش، وغيرهم من المشايخ. وكان أوحد المشايخ في زمانه علماً وحالا. وأقام بنيسابور، ثم خرج في آخر عمره إلى مكة، وحجَّ سنة ست وستين وثلاثمائة، وأقام بالحرم مجاوراً، ومات سنة سبع وستين وثلاثمائة. وكتب الحديث الكثير، ورواه، وكان ثقة.

ومن كلامه: «إذا بدا لك شيء من بوادي الحق، فلا تلتفت ـ معه ـ إلى جنة ولا إلى نار، ولا تُخطِرْهما ببالك؛ وإذا رجعت عن ذلك الحال فعظِّم ما عظَّمه الله تعالى».

وقال: «أهل المحبة واقفون مع الحق على مقام، إن تقدَّموا غرقوا، وإن تأخَّروا حُجبوا».

وقال: «من لزم التقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[1]».

وقال: «الزاهد غريب في الدنيا، والعارف غريب في الآخرة».

وقال: «الحق غيور، ومن غيرته أنه لم يجعل إليه طريقاً سواه»

وقال: «قيمة الزاهد بمعبوده، كما أن قيمة العارف بمعروفه».

وسئل عن المحبة؟. فقال: «محبةٌ توجب سفك الدماء، ومحبةٌ توجب حقن الدماء». ثم قال: «المحبة: مجانبة السلوِّ على كل حال». وأنشد: [من الطويل]

وَمَنْ كانَ في طُولِ الهوى ذاقَ سلوةً ... فإنيَ مِنَ ليلى لها غيرُ ذائقِ
وأكثرُ شيءٍ نلتُهُ مِنْ وِصالِها ... أمانيُّ لَمْ تَصْدقْ، كلمحةِ بارقِ

[وقال: سمعت أبا إسحاق ابن عائشة يقول: سألت أبا سعيد القرشي عن الجمع والتفرقة، فقال: الجمع عين التوحيد، والتفرقة حقيقة التجريد، وهو أن يكون العبد فانياً بالله تعالى يرى الأشياء كلها به، وله، وإليه، ومنه، كما قال عامر بن عبد قيس: ما نظرت إلى شيء إلاَّ ورأيت الله عز وجل فيه، وأنشد أبو سعيد أبياتاً لغيره في هذا المعنى: [مجزوء الرمل]

وتحققتك في سرّي فناجاك لساني ... فاجتمعنا لمعانٍ وافترقنا لمعاني
فلئن غيبك التعظيم عن لحظ عياني ... فلقد صيّرك الوجد من الأحشاءِ داني][2]

ومنهم:

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٢.
(٢) ساقطة من نسخة الأصل وأتممناها من نسخة أيا صوفيا.

[٤١]

أبو الحسن، عَليّ بن إبراهيمَ الحُصْريُّ[(١)]

وحيدٌ أيّ وحيد، وفريدٌ في شريعةٍ وتوحيد، لا يقرن إلا بالجنيد، ولا يقرب إلا من داود ذي الأيد، وكان مالكاً للظنون، وسالكاً حذاء المنون، حتى سما به كوكبه فتعالى، وزاحم منكبه النجم، ثم احتذاه نعالا، والجِدُّ دأبه والجد يحفز اجتذابه، والعمل ديدنه، والعلم لا يفنى منه معدنه، حتى أجاب للمقدار، ونقل من دار إلى دار، ثم وَجَدَ ما قدَّم وَجَد، وودَّ لو كان تقدم. وكان شيخ العراق ولسانها في وقته، لم يُرَ في زمانه من المشايخ أتمَّ حالاً منه، ولا أحسن لساناً ولا أعلى كلاما. متوحِّداً في طريقته، ظريفاً في شمائله وحاله، له لسان في التوحيد يختص به، ومقام في التجريد والتفريد لم يشاركه فيه أحد بعده. وهو أستاذ العراقيين، وبه تأدَّب من تأدَّب منهم.

صحب [أبا بكر] الشبلي، وإليه كان ينتمي، وصحب غيره من المشايخ أيضاً.

وهو بصري الأصل. سكن بغداد، ومات بها يوم الجمعة، في ذي الحجة، سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة.

وقال: «أصولنا في التوحيد خمسة أشياء: رفع الحديث، وإفراد القدم، وهجر الإخوان، ومفارقة الأوطان، ونسيان ما علم وجهل».

وقال أبو الحسين الزنجاني: كثيراً ما كنت أسمع الحصري ببغداد يقول: «عرِّضوا ولا تصرِّحوا، فإن التعريض أستر». وينشد: [من الطويل]

وأَعرِضْ إذا ما جئتَ ـ عنا بحيلةٍ وعَرِّض ببعضٍ إنَّ ذلكَ أَسْتَرُ

/٨٤/ فما زلتَ في إعمالَ طرفكَ نحونا ولحظكَ حتى كادَ ما بكَ يَظْهرُ

ومنهم:

---

(١) توفي سنة ٣٧١هـ.
ترجمته في: طبقات الصوفية ٤٨٩ـ ٤٩٣ رقم ١٥، طبقات الشعراني ١/ ١٤٥، الرسالة القشيرية ٣٨، نتائج الأفكار القدسية ٢/ ١٦، طبقات الأولياء ٢١٣ رقم ٣٠، اللباب ١/ ٣٦٩، تاريخ بغداد ١١/ ٣٤٠ رقم ٦١٧٦، المنتظم ٧/ ١١٠ رقم ١٥١، النجوم الزاهرة ٤/ ١٤٠، البداية والنهاية ١١/ ٢٩٨، الكامل في التاريخ ٩/ ١٦، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٥١ـ ٣٨٠هـ) ص٥٠٢.

[٤٢]

أبو عبدِ الله، محمدُ بنُ خَفِيفِ بنِ إسفَكْشَاذ الضَّبِّيُّ(١)

قمر جلا السدف، وجلّ أن يقاس إلا بالسلف، لم يجلس في محفل إلا خلته كوكباً في المجامع يأتلق، ونَشْرَ صَبَاً بالمسامع يعتلق، وكان حيث حضر تحُل له الحُبى، ويحل أعالي الربى، إلى أن نزل باليباب، ووسد بين أتراب، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾(٢).

أصله من إسفكشاذ، وأقام بشيراز. وكان شيخ المشايخ، وأوحدهم في وقته. عالماً بعلوم الظاهر، وعلوم الحقائق، حسن الأحوال، في المقالات والأفعال، جميل الأخلاق والأعمال.

مات سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة.

ومن كلامه: «لما خلق الله تعالى الملائكة والجنَّ والإنس، خلق العصمة والكناية والحيلة: فقال للملائكة: اختاروا. فاختاروا العصمة. ثم قال للجن: اختاروا. فاختاروا العصمة. فقال: قد سُبِقتم. فاختاروا الكفاية. ثم قال للإنس: اختاروا. فقالوا: نختار العصمة. فقال: قد سُبِقتم. فقالوا: نختار الكفاية. فقال: قد سُبِقتم. فأخذوا الحيلة. فبنوا آدم يحتالون بجهدهم».

وقال: «الخوف اضطراب القلوب بما علمت من سطوة المعبود».

وقال: «الرياضة: كسر النفوس بالخدمة، ومنعها عن الفترة».

وقال: «التقوى: مجانبة ما يبعدك عن الله تعالى».

وقال: «ليس شيء أضرَّ بالمريد من مسامحته النفس في ركوب الرخص، وقبول التأويلات».

---

(١) ترجمته في: الكامل في التاريخ ٩/ ١٦، دول الإسلام ١/ ٢٢٩، مرآة الجنان ٢/ ٣٩٧، طبقات الصوفية ١٨٣ و٤٦٢ـ ٤٦٦ رقم ٩، الوافي بالوفيات ٣/ ٤٢ رقم ٩٣٠ وفيه «اسكفشار»، طبقات الشافعية للسبكي ٢/ ١٥٠، البداية والنهاية ١١/ ٢٩٩، المنتظم ٧/ ١١٢ رقم ١٥٦، العبر ٢/ ٣٦٠ـ ٣٦١، طبقات الأولياء ٢٩٠ـ ٢٩٤ رقم ٦١، النجوم الزاهرة ٤/ ١٤١، شذرات الذهب ٣/ ٧٦، ٧٧، تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٥٠ (دون ترجمة)، حلية الأولياء ١٠/ ٣٨٥ـ ٣٨٧، الرسالة القشيرية ٣٧، نتائج الأفكار القدسية ٢/ ٦، معجم البلدان ٣/ ٣٥٠، طبقات الشعراني ١/ ١٤٢، نشوار المحاضرة ٣/ ٢٢٨، ٢٢٩ رقم ١٤٨، تبيين كذب المفتري ١٩٠ـ ١٩٢، الأنساب ٧/ ٤٥١ـ ٤٥٢، اللباب ٢/ ٢٢٢، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٤٢ـ ٣٤٧ رقم ٢٤٩، هدية العارفين ٢/ ٤٩ـ ٥٠، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٥١ـ ٣٨٠هـ) ص٥٠٦ـ ٥١١.

(٢) سورة الرعد: الآية ٢٣.

وقال: «الدَّنِفُ: من احترق في الأشجان، ومنع من بث الشكوى».

وقال: «الزهد: سُلُوُّ القلب عن الأسباب، ونفض الأيدي عن الأمال، وحقيقة / ٨٥/ الزهد: التبرم بالدنيا، ووجود الراحة في الخروج منها».

و[قال]: «القناعة: الاكتفاء بالبلغة. وحقيقة القناعة: ترك التشوق إلى المفقود، والاستغناء عن الموجود».

وقال: «الشوق: ارتياح القلوب بالوجد، ومحبة اللقاء للقرب».

وقال: «رأيت رسول الله ﷺ في المنام، وهو يقول: «من عرف طريقاً إلى الله فسلكه، ثم رجع عنه عذَّبه الله تعالى عذاباً لم يعذِّبْ به أحداً من العالمين».

وقال: «المشاهدة: اطِّلاع القلوب بصفاء اليقين إلى ما أخبر الله تعالى عنه من الغيوب».

وقال: «الرجاء: ارتياح القلوب إلى كرم الموجود».

ومنهم:

[٤٣]

ابن سمعون، مُحَمَّدُ بنُ أحمدَ بنِ إسماعيلَ بنِ عَنْبَس(١)

الإمام أبو الحسين البغدادي الواعظ. واحدٌ رُدَّ به العدو، ورجي به الهُدُوّ، ورُدَّت به النوائب شبحاً في حلوقها، وسحباً لما تدعيه من باطل حقوقها، وكانت محرجة به صدور برحائها، محرقة بلهبه صدور روائها. رامها فقصف النِّصَال على النِّصَال، وقصد الرماح، ودعم بها الآصال، حتى طال بها الأمن ودام، وطاب فحل الليل عن الشفق الفدام، بتوجه يتقهقر له الجيش المطل، ويقهر أسد الخميس المدل، ويظهر أن الله لا يحارَب له ولي، ولا يغالب له قَدَر له سيل تحدَّر من علي. وقنع مدة بالعيش الزهيد، وعمل ليوم يأتي كل نفس معها سائق وشهيد، وكان أمةً قانتاً، ونعمة لم تدع فائتاً،

---

(١) ترجمته في: تاريخ بغداد ١/ ٢٧٤- ٢٧٧ رقم ١١٦، المنتظم ٧/ ١٩٨- ٢٠٠ رقم ٣١٤، مرآة الجنان ٢/ ٤٣٢- ٤٣٥، البداية والنهاية ١١/ ٣٢٣، الكامل في التاريخ ٩/ ١٣٧، النجوم الزاهرة ٤/ ١٩٨، العبر ٣/ ٣٦- ٣٧، الوافي بالوفيات ٢/ ٥١- ٥٢ رقم ٣٣٦، وفيات الأعيان ٤/ ٣٠٤- ٣٠٥ رقم ٦٣١، تبيين كذب المفتري ٢٠٠، صفة الصفوة ٢/ ٢٦٦، طبقات الحنابلة ٢/ ١٥٥- ١٦٢ رقم ٦٢٤، الشريشي ١/ ٣٢٢، شذرات الذهب ٣/ ١٢٤، الإكمال ٤/ ٣٦٢، اللباب ٢/ ١٤٠، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٥٠٥- ٥١١ رقم ٣٧٦، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٨١- ٤٠٠هـ) ص١٥٢- ١٥٦.

فأجزلت له المواهب، وسهلت له العطايا من أصعب المذاهب، فرفع على الرؤوس مقاما، وسمع منه ما داوى للنفوس داءً عقاما، ثم كان إلى أن مات من الحلال يكتسب، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1].

قال السلمي: هو من مشايخ بغداد، له لسان عال في هذه العلوم، لا ينتمي إلى أستاذ، /٨٦/ وهو لسان الوقت، والمرجوع إليه في آداب المعاملات، ويرجع إلى فنون من العلم.

وقال أبو محمد السني ـ صاحب ابن سمعون ـ: «كان ابن سمعون في أول أمره ينسخ بالأجرة وينفق على نفسه وأمه، فقال لها يوماً: أحبُّ أن أحجَّ. قالت: وكيف يمكنك؟. فغلب عليها النوم، فنامت وانتبهت بعد ساعة، وقالت: يا ولدي! حُجَّ رأيتُ النبيّ ﷺ في النوم يقول: ـ دعيه يحجُ؛ فإنّ الخير لهُ في حجّه. ففرح وباع دفاتره، ودفع إليها من ثمنها، وخرج مع الوفد، فأخذت العربُ الوفدَ. قال: فبقيت عرياناً، ووجدت مع رجل عباءة، فقلت: هبها لي أستتر بها، فأعطانيها، قال: فجعلت إذا غلبني الجوع، ووجدت قوماً من الحاج يأكلون، وقفت أنظر إليهم، فيدفعون إليَّ كسرة، فأقتنع بها، وأحرمت في العباءة، ورجعت إلى بغداد. وكان الخليفة قد حرَّم جارية وأراد إخراجها من الدار.

قال أبو محمد السني: فقال الخليفة: اطلبوا رجلاً مستوراً يصلح [أن تزوج هذه الجارية به]؛ فقال بعضهم: قد جاء ابن سمعون من الحج. فاستصوب الخليفة قوله، فزوَّجه بها. فكان ابن سمعون يجلس على الكرسي، فيعظ ويقول: «خرجت حاجّاً، ويشرح حاله، وها أنا اليوم عليَّ من الثياب ما ترون».

قال البرقاني: «قلت له يوماً: تدعو الناس إلى الزهد، وتلبس أحسن الثياب!، وتأكل أطيب الطعام، فكيف هذا؟!. فقال: «كُلُّ ما يصلحك لله فافعله، إذا صلح حالك مع الله».

«ولما دخل عضد الدولة بغداد، وقد هلك أهلها، قتلاً وخوفاً وجوعاً، للفتن التي اتصلت فيها بين الشيعة والسنة، فقال: آفة هؤلاء: القُصَّاص. فنادى: لا يقصّ أحدٌ في الجامع، ولا الطرق، ولا يتوسَّل بأحد من الصحابة. ومن أحب التوسل قرأ القرآن، فمن خالف فقد أباح دمه. فوقع في الخبر: إن ابن سمعون جلس على كرسيه بجامع المنصور. قال أبو الثناء العضدي: فأمرني أن أطلبه؛ فأُحْضِر. /٨٧/ فدخل عليّ

---

(١) سورة الطلاق: الآية ٢ ـ ٣.

رجلٌ له هيبة وعليه نور. فلم أملك أن قمت إليه، وأجلسته إلى جنبي، فجلس غير مكترث، فقلت: إن هذا الملك جبارٌ عظيم، وما أوثر لك مخالفة أمره، وإني موصلك إليه، فقبِّلِ الأرضَ وتلطَّفْ له، واستعِنْ بالله عليه. فقال: الخَلْقُ والأمرُ لله. فمضيت به إلى حجرة وقد جلس فيها وحده، فأوقفته، ثم دخلت لأستأذن، فإذا هو إلى جانبي قد حوَّل وجهه إلى نحو دار فخر الدولة، ثم استفتح وقرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾[1]. قال: ثم حوَّل وجهه، وقرأ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[2].

[ثم أخذ في وعظه]؛ فأتى بالعجب؛ فدمعت عين الملك، وما رأيت ذلك منه قط، وترك كُمَّه على وجهه. فلما خرج أبو الحسين ـ رحمه الله تعالى ـ قال الملك: اذهب إليه بثلاثة آلاف درهم، وعشرة أثواب من الخزانة، فإن امتنع، فقل له: فرِّقها في أصحابك، وإن قبلها، فجئني برأسه، ففعلت، فقال: إن ثيابي هذه من نحو أربعين سنة، ألبسها يوم خروجي إلى الناس، وأطويها عند رجوعي، وفيها مُتْعَةٌ وبقيَّةٌ ما بقيت، ونَفَقَتي من أجرة دار خلَّفها أبي، فما أصنع بهذا؟. فقلت: فرِّقها على أصحابك. فقال: ما في أصحابي فقير. فعدت فأخبرته. فقال: الحمد لله الذي سلَّمه منا، وسلَّمنا منه.

وسئل ابن سمعون عن التصوف؟. فقال: «أما الاسم: فترك الدنيا وأهلها، وأما حقيقة التصوف: فنسيان الدنيا، ونسيان أهلها».

وقال ابن سمعون في قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾[3]، قال: «مواعيد الأحبة ـ وإن اختلفت ـ فإنها تؤنس». كنا صبياناً ندور على الشطِّ ونقول: [من مجزوء الخفيف]

مـــاطِـــلـــيـــنـــي وسَـــوِّفـــي وعِـــدْيـــنـــي ولا تَـــفِـــي
واتْـــرُكـــيـــنـــي مُـــوَلَّـــهـــا أوْ تَـــجُـــودي وتُـــعـــطـــفـــي

وذكر ابن سمعون أنه أتى بيت المقدس ومعه تمر، فطالبته نفسه /٨٨/ برطب، فلامها، فعمد إلى التمر وقت إفطاره، فوجده رطباً، فلم يأكل منه وتركه. فلما كان ثاني ليلة وجده تمراً.

وقال أبو الفتح القوَّاس: لحقتني ضائقة، فأخذت قوساً وخُفَّين، وعزمت على بيعهما، فقلت: أحضر مجلس ابن سمعون، ثم أبيعهما، فحضرت، فلما فرغ ناداني: يا أبا الفتح! لا تبع الخُفَّين والقوسَ، فإن الله سيأتيك برزق». أو كما قال.

---

(١) سورة هود: الآية ١٠٢.
(٢) سورة يونس: الآية ١٤.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٤٢.

وقال أبو طاهر العلاف: حضرت أبا الحسين يوماً وهو يعظ، وأبو الفتح القوَّاس إلى جنب الكرسي، فنعس، فأمسك أبو الحسين عن الكلام ساعة، ثم استيقظ أبو الفتح، ورفع رأسه، فقال له أبو الحسين: «رأيتَ رسولَ الله ﷺ في نومك؟. قال: نعم. فقال: لذلك أمسكتُ خوفاً من أن تنزعج».

وحكى مولى الطائع لله: أن الطائع أمره، فأحضر ابن سمعون، فرأيت الطائع غضباناً، وكان ذا حِدَّة، فأحضرت ابن سمعون، فأذِنَ له الطائع في الدخول، فدخل وسلَّم بالخلافة، ثم أخذ في وعظه، فقال: «روي عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه»، ثم روى عن أمير المؤمنين وترضَّى عنه، ووعظ حتى بكى الطائع، وسُمِعَ شهيقه، وابتلَّ منديل من دموعه، فلما انصرف، سألت الطائع عن سبب طلبه، فقال: رُفِعَ إليّ أنه ينتقص علياً رضي الله عنه، فأردت أقابله، فلما حضر افتتح بذكر علي، والصلاة عليه، وأعاد وأبدى في ذكره، فعلمت أنه وُفِّق، ولعلَّه كوشف بذلك».

توفي رضي الله عنه سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، في ذي القعدة. وولد سنة ثلاثمائة. وسمعون: هو جده إسماعيل.

قال أبو بكر الخطيب: كان بعض شيوخنا إذا حدَّثنا عنه قال: «حدَّثنا الشيخ الجليل المُنطّق بالحكمة».

سمع أبا بكر بن أبي داود، ومحمدَ بن مخلد العطار، وأبا جعفر بن البَخْتري. وبدمشق: أحمد بن سليمان بن زبَّان، ومحمد بن محمد بن أبي حذيفة، وجماعة، وأملى عنهم. وروى عنه: / ٨٩/ أبو عبد الرحمن السلمي، وعلي بن طلحة المقريء، والحسن بن محمد الخلال، وأبو طالب العشاري، [وأبو الحسين بن الأبنوسي]، وخديجة بنت محمد الشاهجانيَّة الواعظة، [وأبو بكر أحمد بن محمد بن حمَّدوه الحنبلي]، وغيرهم. وكان أوحد دهره، وفرد عصره في الكلام، على علم الخواطر والإشارات، ولسان الوعظ، دوَّن الناسُ حِكَمَه، وجمعوا كلامه. رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[٤٤]

أَبُو القَاسِم عَبدُ الكَرِيمِ بنُ هوازنَ بنِ عبدِ المَلِكِ بنِ طَلْحَةَ بنِ محمدِ القُشَيرِيُّ، الفقيه، الشافعي(١)

كان ليومه من أمسه آخذا، وبلومه من نفسه مؤاخذا، فكان لا يزال دمعه ينهل،

(١) القشيري: نسبة إلى قُشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.

=

ومدمعه محمرّاً، كأن آماقه جرحٌ لا يندمل، لم تستمله الأغصان، وقد مالت قدودها، ولا أمالت ليلى قلبه، وقد طال صدودها، فلم يشكُ جفا ودود، حتى فاء إلى صديد ودود. وإنما يعرف أكثر أحوال القوم من «رسالته»، ويعترف الفُضّل بقدمه وبسالته، وهو معدودٌ من أهل سيادتهم، وذوي حظوتهم في الدارين وسعادتهم.

وكان علاَّمة في الفقه والتفسير، والحديث، والأصول، والأدب، والشعر، والكتابة، وعلم التصوف، وجمع بين الشريعة والحقيقة. وأصله من ناحية «أُسْتوا»، من العرب الذين قدموا خراسان. توفي أبوه وهو صغير، وقرأ الأدب في صباه، وكانت له ضيعة مثقلة الخراج بنواحي «أستوا»، فرأى من الرأي أن يحضر إلى نيسابور، يتعلم طرفاً من «الاستيفاء» ويحمي الضيعة من الخراج، فحضر نيسابور على هذا العزم، فاتفق حضوره مجلس الشيخ أبي عليّ الحسين بن علي النيسابوري المعروف بـ «الدقاق» ـ وكان إمام وقته ـ فلما سمع كلامه أعجبه، ووقع في قلبه، فرجع عن ذلك العزم، وسلك طريق الإرادة، فقبله الدقاق، وأقبل عليه، وتفرّس فيه النجابة، فجذبه بهمَّته، وأشار عليه بالاشتغال / ٩٠/ بالعلم، فخرج إلى درس أبي بكر محمد بن أبي بكر

=

ترجمته في: تاريخ بغداد ١١/ ٨٣، رقم ٥٧٦٣، وتبيين كذب المفتري ٢٧١، ٢٧٦، ودمية القصر ٢/ ٢٤٣، ٢٤٥ رقم ٣٦٣، والأنساب ١٠/ ١٥٦، والمنتظم ٨/ ٢٨٠ رقم ٣٢٨ (١٦/ ١٤٨، ١٤٩ رقم ٣٤٢٣)، والكامل في التاريخ ١٠/ ٨٨، واللباب ٣/ ٣٨، والتدوين في أخبار قزوين ٣/ ٢١٠، ٢١٢، والتقييد لابن نقطة ٣٦٦ رقم ٤٦٨، وإنباه الرواة ٢/ ١٩٣، والمنتخب من السياق ٣٣٤، ٣٣٥ رقم ١١٠٤، ووفيات الأعيان ٣/ ٢٠٥ـ ٢٠٨، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ١٩٠، والعبر ٣/ ٢٥٩، ودول الإسلام ١/ ٢٧٤، والمعين في طبقات المحدّثين ١٣٤ رقم ١٤٧٥، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٢٧ـ ٢٣٣ رقم ١٠٩، والإعلام بوفيات الأعلام ١٩٢، وتلخيص ابن مكتوم ١١٤، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٣٧٧، ومرآة الجنان ٣/ ٩١ـ ٩٣، والبداية والنهاية ١٢/ ١٠٧، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣/ ٢٤٣ـ ٢٤٨، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ١/ ٢٦١ـ ٢٦٢ رقم ٢١٧، وتاريخ الخميس ٢/ ٤٠٠، والوفيات لابن قنفذ ٢٥٢ رقم ٤٦٥، وطبقات المفسّرين للسيوطي ٦١، ٦٣ رقم ٦٤، وطبقات المفسّرين للداوودي ١/ ٣٣٨ـ ٣٤٦ رقم ٣٠٢، ومفتاح السعادة ٢/ ١٠٧ـ ١٠٩، والنجوم الزاهرة ٥/ ٩١ـ ٩٢، وكشف الظنون ٥٢٠، ١٢٦٠، ١٥٥١، وشذرات الذهب ٣/ ٣١٩ـ ٣٢٢، ونفحات الأنس ٣٥٤، ودرر الأبكار ١١١، وروضات الجنات ٤٤٤، وهدية العارفين ٦٠٧ـ ٦٠٨، وديوان الإسلام ٤/ ٣٤ـ ٣٥ رقم ١٧٠٣، وإيضاح المكنون ١/ ١٩٤، والرسالة المستطرفة ١٦٦، والأعلام ٤/ ٥٧، وتاريخ الأدب العربي ١/ ٤٣٢ و٢/ ١١٧، وملحقه ١/ ٧٧١، ومعجم المؤلفين ٦/ ٦، ومعجم طبقات الحفاظ والمفسّرين ٢٥١ رقم ٣٠٢، تاريخ الإسلام (السنوات ٤٦١ـ ٤٧٠هـ) ص ١٧٠ـ ١٧٦ رقم ١٤٠.
وانظر مقدّمة كتابه «الرسالة القشيرية» للدكتور عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف.

الطوسي، وشرع في الفقه حتى فرغ من تعليقه.

ثم اختلف إلى الأستاذ أبي إسحاق الاسفرائييني، وقعد يسمع درسه أياماً، فقال الأستاذ: هذا العلم لا يحصل بالسماع، ولا بدَّ من الضبط بالكتابة، فأعاد عليه جميع ما سمعه تلك الأيام، فعجب منه، وعرف محلَّه فأكرمه، وقال له: ما تحتاج إلى درس بل يكفيك أن تطَّلع على مصنفاتي. فقعد وجمع بين طريقته، وطريقة ابن فورك. ثم نظر في كتب القاضي أبي بكر بن الطيب الباقلاني، وهو مع ذلك يحضر مجلس أبي علي الدقاق. وزوّجه ابنته، مع كثرة أقاربها.

وبعد وفاة أبي علي، سلك مسلك المجاهدة والتجريد، وأخذ في التصنيف، فصنف: «التفسير الكبير» قبل سنة عشر وأربعمائة، وسمَّاه: «التيسير في علم التفسير»، وهو من أجود التفاسير. وصنَّف: «الرسالة» في رجال الطريقة.

وخرج إلى الحج في رفقة فيها الشيخ أبو محمد الجويني، وأحمد بن حسين البيهقي، وجماعة من المشاهير؛ فسمع منهم الحديث ببغداد والحجاز. وكان له في الفروسية واستعمال السلاح يد بيضاء. وأما مجالس الوعظ والتذكير فهو إمامها.

عقد لنفسه مجلس الإملاء في الحديث سنة سبع وثلاثين وأربعمائة، وحدَّث ببغداد، وكتبنا عنه، وكان ثقة، وكان يقص، وكان حسن الموعظة، مليح الإشارة، وكان يعرف الأصول على مذهب الأشعري، والفروع على مذهب الشافعي.

وذكره أبو الحسن الباخرزي في «دمية القصر» وقال في حقّه: لو قرع الصخر بسوط تحذيره لذاب، ولو رُبِط إبليس في مجلسه لتاب.

وقال أبو عبد الله محمد بن الفضل الفراوي: أنشدنا عبد الكريم بن هوازن القشيري لنفسه: [من الطويل]

/ ٩١/ سَقى اللهُ وقتاً كنتُ أخلو بوجهِكمْ ... وثَغرُ الهَوى في رَوضةِ الأُنسِ ضاحكُ
أَقـمـنـا زَمـانـاً والـعـيـونُ قَـريـرةٌ ... وأصبحتُ يوماً والجُفونُ سَوافكُ

ومن شعره أيضاً: [من الطويل]

إذا ساعدتْكَ الحالُ فارقَبْ زَوالها ... فما هيَ إلا مثْلُ حَلبَةِ أشطرِ
وإنْ قصدتْكَ الحادثاتُ ببؤسِها ... فوسِّعْ لها ذَرعَ التَّجلُّدِ واصبرِ

وكان أبو القاسم كثيراً ما ينشد لبعضهم، وهو: ذو القرنين بن حمدان: [من الكامل]

لـوْ كـنـتَ سـاعـةَ بـيـنِـنـا مـا بـيـنَـنـا وشَـهِـدْتَ كـيـفَ نُـكـرِّرُ الـتَّـوديـعـا
أيـقـنـتَ أنَّ مِـنَ الـدمـوعِ مُـحَـدِّثـاً وعَـلِـمـتَ أنَّ مِـنَ الـحـديـثِ دُمـوعـا

ولد في ربيع الأول سنة ست وسبعين وثلاثمائة. وتوفي صبيحة يوم الأحد سادس عشر شهر ربيع الآخر، سنة خمس وستين وأربعمائة، بمدينة نيسابور. ودفن بالمدرسة تحت شيخه أبي علي الدقاق. وكان له فرسٌ أهدي إليه، فركبه نحو عشرين سنة، فلما مات الشيخ، لم يأكل الفرس شيئاً، ومات بعد أسبوع.

ومنهم:

[٤٥]

أَبُو الفُتُوح، أَحَمَد بنُ مُحَمَّدِ بنِ أَحمدَ الطُّوسِيُّ الغَزَالِيُّ[١]

مجد الدين، أخو الإمام الغزالي، الفقيه الشافعي. رُشدٌ لضُلاَّل، ورفدٌ لحلاَّل، سرت غواديه فظلت، وسرت أياديه فحلّت، وكان يتخلل بالمواعظ، ويتوصَّل إلى ما لم يبلغه كلم واعظ، فملأ أوعية القلوب تذكارا، وترك أودية الخواطر لها أوكارا، ولم يزل زينة العصر، وحلية الأيام أيام النضر، يقوم مقام الجيوش الخضارم، ويرد الأعداء وما طُليت بالدماء ظباه الصوارم.

قال ابن خَلِّكان: «كان واعظاً مليح الوعظ، حسن المنظر، صاحب كرامات وإشارات، وكان من الفقهاء، غير أنه مال إلى الوعظ فغلب عليه، ودرَّس بالمدرسة النظامية نيابة عن أخيه أبي حامد لما ترك / ٩٢/ التدريس زهادةً فيه، واختصر كتاب أخيه أبي حامد المسمى بـ: «إحياء علوم الدين»، في مجلد واحد، وسمَّاه: «لباب الإحياء»، وله تصنيف آخر سماه: «الذخيرة في علم البصيرة». وطاف البلاد، وخدم الصوفية بنفسه، وكان مائلاً إلى الإنقطاع والعزلة.

وذكره ابن النجَّار في «تاريخ بغداد» فقال: كان [قد] قرأ القاريء بحضرته: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾[٢] الآية، فقال: شرَّفهم بياء الإضافة إلى نفسه بقوله:

---

(١) ترجمته في: وفيات الأعيان ١/ ٩٧، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ٦٠، طبقات الإسنوي ٢/ ٢٤٥، طبقات ابن الصلاح ١/ ٣٩٧، الوافي بالوفيات ٨/ ١١٥، طبقات الأولياء لابن الملقن ١٠٢، مرآة الزمان ٨/ ١١٩، مرآة الجنان ٣/ ٢٢٤، النجوم الزاهرة ٥/ ٢٣٠، المنتظم ٩/ ٢٦٠، العبر ٤/ ٤٥، سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٤٣، ٤٩٦، ميزان الاعتدال ١/ ١٥٠، البداية والنهاية ١٢/ ١٩٦، لسان الميزان ١/ ٢٩٣، شذرات الذهب ٤/ ٦٠، الكامل في التاريخ ١٠/ ٢٢٨.

(٢) سورة الزمر: الآية ٥٣.

«يا عبادي!» ثم أنشد يقول: [من الطويل]

وهانَ عليَّ اللومَ في جَنْبِ حُبِّها وقولُ الأعادي: إنهُ لخليعُ
أصمُّ إذا نُوديتُ باسمي، وإنني إذا قيلَ لي: يا عبدَها! لسميعُ

قال ابن خلِّكان: ومثل هذا قول بعضهم: [من السريع]

لا تَدعُني إلا بِيا عَبْدَها فإنَّهُ أشرفُ أسمائي

وحكي: إنه اجتمع هو وأخوه أبو حامد ليلة، فأذَّن مؤذن العشاء، فتقدم الشيخ أبو حامد فصلَّى إماماً، وصلَّى الشيخ أحمد خلفه، فمرَّ بخاطر أبي حامد وهو واقف يصلي مسائل في الحيض في كتاب كان يصنفه، فلما أتمَّ الصلاة، قام الشيخ أحمد يعيد صلاته!، فقيل له في ذلك؟. فقال: كيف أصلي خلف رجل منغمس في دم الحيض إلى شحمة أذنيه؟. فسمع قوله أخوه أبو حامد، فقال: صدق والله أخي، لقد مرَّ بخاطري - وأنا قائم أصلي - مسائل في الحيض، واستغرقت في ذلك. قلت: وليس هذا بمبطل لصلاته حتى يحتاج إلى إعادتها، ولكنه تورّع عن خطرات الخواطر.

وتوفي رحمه الله تعالى بقزوين سنة عشرين وخمسمائة.

ومنهم:

[٤٦]

يُوسُفُ بنُ أَيُّوبَ بنِ يُوسُفَ بنِ الحُسَينِ بنِ وَهْرَةَ، أَبُو يعقوب الهمذاني(١)

الفقيه، الزاهد، ذو الكرامات، ليس يجحدها البهوت، ومقامات ليس يشهدها السكوت، بفمٍ كأنما طبع عليه /٩٣/ بخاتم، وكرم طمع لديه حاتم، وصلاح كان

---

(١) ترجمته في: الأنساب ٢/ ٣٣٠، والمنتظم ١٠/ ٩٤ـ ٩٥ رقم ١٢٤ (١٨/ ١٥ـ ١٦ رقم ٤٠٧٢)، والكامل في التاريخ ٧١١/ ٨٠، واللباب ١/ ١٨٦، ووفيات الأعيان ٧/ ٧٨ـ ٨١، ومرآة الزمان ج٨ق١/ ١٨٠، والإعلام بوفيات الأعلام ٢١٩، والمعين في طبقات المحدّثين ١٥٨ رقم ١٧٠٣، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٦٦ـ ٦٩ رقم ٤١، والعبر ٤/ ٩٧، ودول الإسلام ٢/ ٥٥، وعيون التواريخ ١٢/ ٣٦٢، ٣٦٣، ومرآة الجنان ٣/ ٢٦٤ و٢٦٥، وطبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٥٣١، والبداية والنهاية ١٢/ ٢١٨، وفيه: «ابن الحسن بن زهرة»، والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٦٨، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٥٩، وشذرات الذهب ٤/ ١١٠، وهدية العارفين ٢/ ٥٥٢، وجامع كرامات الأولياء للنبهاني ١/ ٢٨٩ـ ٢٩١، والأعلام ٨/ ٢٢٠، ومعجم المؤلفين ١٣/ ٢٧٩، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٢١ـ ٥٤٠هـ) ص٣٩٦ـ ٤٠٠ رقم ٢٦٣.

شقيق شقيق إخاء، وقرين القرني إذا هبَّ رخاء. له أمور تغني عن الإيضاح، وأسرار مثل الشمس في الإيضاح، فانتهى إليه السؤدد، وإلى رواق العلياء أنه على غيره لم يمدد، لتفرُّده في زمانه، وورده الروي من إيمانه.

قال أبو سعد السمعاني: يوسف بن أيوب الهمذاني: من قرية «بُوزَنْجِرد»: قرية من قرى همذان، مما يلي الري. الإمام الورع التقي، المتنسِّك، العامل بعلمه، والقائم بحقه، صاحب الأحوال والمقامات الجليلة، وإليه انتهت تربية المريدين الصادقين، واجتمع برباطه بمدينة مرو جماعة من المنقطعين إلى الله تعالى، ما لا يتصور أن يكون في غيره من الرُّبُط مثلهم. وكان من صغره إلى كبره على طريقة مرضية، وسداد واستقامة، خرج من قريته إلى بغداد، وقصد الإمام أبا إسحاق الشيرازي، وتفقَّه عليه، ولازمه مدة حتى برع في الفقه، وفاق أقرانه خصوصاً في علم النظر.

وكان الشيرازي يقدمه على جماعة كثيرة من أصحابه، مع صغر سنه، لعلمه بزهده، وحسن سيرته، واشتغاله بما يعنيه. ثم ترك كل ما كان فيه من المناظرة وخلا بنفسه، واشتغل بما هو الأهم من عبادة الله تعالى، ودعوة الخلق إليها، وإرشاد الأصحاب إلى الطريق المستقيم.

نزل مرو وسكنها، وخرج إلى هراة، وأقام بها مدة، ثم سئل الرجوع إلى مرو في آخر عمره، وخرج منها متوجهاً إلى هراة ثانياً، وعزم على الرجوع إلى مرو في آخر عمره، وخرج منها متوجهاً إلى مرو، فأدركته منيته بـ «يامَيين» بين «هراة» و«بَغْشُور»، في شهر ربيع الأول، سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، ودفن، ثم نقل بعد ذلك إلى مرو.

وقال غير السمعاني: قدم يوسف الهمذاني بغداد في سنة خمس عشرة وخمسمائة، وحدَّث بها، وعقد بها مجلس الوعظ بالمدرسة النظامية، وصادف بها قبولاً عظيماً من الناس.

قال أبو الفضل صافي بن عبد الله الصوفي الشيخ الصالح: حضرت مجلس شيخنا يوسف الهمذاني في النِّظاميَّة، / ٩٤/ وكان قد اجتمع العالم، فقام فقيه يعرف بابن السقاء، وآذاه، وسأله عن مسألة؟، فقال له الإمام يوسف: «اجلس فإني أجد من كلامك رائحة الكفر!». ولعلك تموت على غير دين الإسلام!.

قال أبو الفضل: فاتفق أنه بعد هذا القول بمدة، قدم رسول نصراني من ملك الروم إلى الخليفة، فمضى إليه ابن السقاء، وسأله أن يستصحبه، وقال له: يقع لي أن أترك دين الإسلام، وأدخل في دينكم!. فقبله النصراني، وخرج معه إلى القسطنطينية، والتحق بملك الروم، وتنصَّر ومات على النصرانية، والعياذ بالله تعالى من الضلال.

وقال ابن النجار في ترجمة يوسف المذكور: «سمعت أبا الكرم عبد السلام بن أحمد المقرىء يقول: كان ابن السقاء قارئاً للقرآن الكريم، مجوِّداً لتلاوته، حدثني من رآه بالقسطنطينية ملقى على دكة مريضاً، وبيده خلق مروحة يدفع بها الذباب عن وجهه. قال فسألته: هل القرآن باق على حفظك؟. فقال: ما أذكر منه إلا آية واحدة: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾[1]، والباقي أنسيته!. نعوذ باللهمن سوء القضاء، وزوال نعمته، وحلول نقمته، ونسأله الثبات [على دين الإسلام]، والعصمة، آمين. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[2].

ومنهم:

[٤٧]

عَدِيّ بنُ مُسافر بنِ إسماعيلَ بنِ موسى بنِ مروانَ بنِ الحَسَنِ بنِ مروانَ الهَكَّاريُّ[3] مسكناً، القرشي، الأموي من ولد معاوية بن أبي سفيان

ولي لله عرف أيامه من أمسها، وقدم له يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها، قصر جناح النسر عن تدويمه، وقصر طماح الطرف دون تحويمه، وخالف الأماني في مرادها، وخلف وراءه وكبد الآمال مرادها، فما ألهاه من الدنيا غرورها، ولا ازدهاه حزنها ولا سرورها، وشكته الأيام إذ كان من أدوائها، وجفته إذ لم يكن من أودائها، ثم جاءت إليه بالجميل منقادة، وانقادت له بالرعيل ومن قاده، وله في آل حرب / ٩٥/

---

(١) سورة الحجر: الآية ٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٨.

(٣) الهَكّاري: نسبة إلى جبل الهكارية من أعمال الموصل.

ترجمته في: الكامل في التاريخ ١١/ ٢٩٨، وتاريخ إربل ١/ ١١٤ـ ١١٥ رقم ٤١، وفيه «عديّ بن سافر»، ووفيات الأعيان ٣/ ٢٥٤ـ ٢٥٥، والحوادث الجامعة ٢٧١ـ ٢٧٤، وبهجة الأسرار ١٠٠ـ ١٠٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٠، ودول الإسلام ٢/ ٧٢، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٤٢ـ ٣٤٤ رقم ٢٣٣، والمعين في طبقات المحدّثين ١٦٧ رقم ١٧٩٦ والعبر ٤/ ١٦٣، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٢٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٠٠ـ ١٠٣، ومرآة الجنان ٣/ ٣٩، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٤٣، وروضة المناظر ١٢/ ٦٨، والكواكب الدرية ٢/ ٩٣، والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٦١، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٨١، وشذرات الذهب ٤/ ١٧٩، وجامع كرامات الأولياء للنبهاني ٢/ ١٤٧، وهدية العارفين ١/ ٦٦٢، وموسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي ق٢ ج٢/ ٣١٣، ٣١٤ رقم ٦٦٩، والأعلام ٥/ ١١، وفهرس دار الكتب المصرية ٢/ ٧٢، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٥١ـ ٥٦٠) ص٢٣٠ـ ٢٣٣ رقم ٢٤٨.

نسب سالمته القبائل، وحاكمته فلم يقض لها معه بطائل، هذا إلى كرم بدين، وفضل كان يراه على ذمته كالدين، وكان فيه أمل، وله عمل ما عليه مزيد إلا أن طائفته غلوا فيه فغووا، ونووا فيه نية فغووا، وغلب عليهم الهوى فأضلهم، ودلاهم المغرور ودلّهم، ولكل معزّ مذلّ، ومن يهد الله فما له من مضل. وسار ذكره في الآفاق، وتبعه خلق كثير، وهم «الطائفة العَدَويَّة»، وجاوز حسن اعتقادهم فيه الحدَّ، حتى جعلوه قبلتهم التي يصلُّون إليها، وذخيرتهم في الآخرة التي يعوِّلون عليها.

وكان قد صحب جماعة كثيرة من أعيان المشايخ، والصلحاء المشاهير، مثل عقيل المنبجي، وحماد الدباس، وأبي النجيب عبد القاهر السهروردي، وعبد القادر الجيلي، وأبي الوفاء الحلواني. ثم انقطع إلى جبل الهَكَّاريَّة، من أعمال الموصل، وبنى له هناك زاوية، ومال إليه أهل تلك النواحي كلها ميلاً لم يسمع لأرباب الزوايا مثله.

قلت: وقد هاجر زين الدين ابن أخي الشيخ إلى البلاد، فأكرمت ملوكنا مقدمه، وأمر إمرة كثيرة، وانقطع في قرية تعرف ببيت فار. وكان بها، وكان منغمساً في النعم والملاذ، يعيش عيش الملوك من اقتناء الغلمان والجواري والملابس، وتمد لديه أسمطة ملوكية. وحكي أن بعض نساء القياصرة كانت مغراة بالشيخ زين الدين، مطنبة في تعظيمه، متغالية في الاعتقاد لصلاحه، وأنفقت عليه أموالاً جليلة، وكانت غير مصغية إلى عَذول يعذلها في حبه، وخواصُّها يلومونها على تبذير أموالها، ويذكرون لها ما كان يتعاطاه من الأمور القبيحة، ولا يزداد إلا غياً وتماديا، فتوصلوا إلى أن حملوها في قفة، وأشرفوا بها عليه وهو عاكف على المنكرات، /٩٦/ فما زادها ذلك إلا ضلالا، وقالت: أنتم تنكرون هذا عليه، إنما الشيخ يتدلل على ربه!، وضاعفت له الإنفاق، ولم تمسك خشية الإملاق.

وحكى لي شيخنا شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي الكاتب رحمه الله تعالى، قال: بعثت مع الأمير الكبير علم الدين سنجر الدواداري، ليحلفه في أول الدول الأشرفية؛ فأتيناه وهو في قريته، مثل الملك في قلعته، للتجمل الظاهر، والحشمة الزائدة، والفرش الأطلس، وآنية الذهب والفضة، والعصار الصيني، وأشياء تفوت العد، إلى غير ذلك من الأشربة المختلفة الألوان، والأطعمة المنوعة، فلما دخلنا عليه لم يحفل بنا، وأتاه الأمير علم الدين، فقبل يده، وهو جالس لم يقم، فبقي الداواداري قائماً قدامه يحدثه، وزين الدين يسأله، لا هو يجلس، ولا زين الدين يقول له اجلس، ثم أمره بالجلوس فجلس على ركبتيه متأدباً بين يديه، ثم أنعم علينا بجملة طائلة تقارب خمسة عشر ألف درهم.

قلت: وقد كان يحلف منهم الشيخ عز الدين أميرا، وأُمِّر، وبقي مدة أميراً بدمشق، ثم بصفد، ثم بدمشق، ثم ترك الإمارة، وآثر الانقطاع، وأقام بالمزة، وكانت الأكراد تأتيه من كل قطر بصفايا أموالها، تقرباً إليه، ومنهم على ما حكي من كان يجلس بين يديه.

ثم إنه أراد الخروج على السلطان وتبعه طوائف الأكراد من كل بلد، وباعوا أموالهم بالهوان، واشتروا الخيل والسلاح، وآلات الحرب، ووعد رجالاً ممن تبعه بالنيابات الكبار، ونزل بأرض اللجون، وأتى السلطان خبرهم، وأنهم على هذا لم يؤذوا أحداً في نفس ولا مال، وإنما يبيعون أموالهم بالرخص، ويشترون الخيل والسلاح بالغالي، فأمر تنكز نائب /٩٧/ الشام بكشف أخبارهم، وقصِّ آثارهم، وأمسك السلطان من كان بالزاوية العدوية بالقرافة.

واختلفت الأخبار؛ قيل: إنهم يريدون سلطنة مصر، وقيل: بل كانوا يريدون ملك اليمن، وقلق السلطان لأمرهم، وأهمه، إلى أن أمسك تنكز نائب الشام عز الدين المذكور، وأودع الاعتقال، حتى مات، وفرق الأكراد، ولو لم يتدارك، لأوشك أن يكون لهم نوبة.

ومولد الشيخ عدي بقرية يقال لها «بيت فار» من أعمال بعلبك، والبيت الذي ولد فيه يزار إلى الآن.

وتوفي سنة سبع، وقيل: سنة خمس وخمسين وخمسمائة، في بلده بالهكارية، ودفن بزاويته، وقبره عندهم من المزارات المعدودة، والمشاهد المقصودة، وحفدته إلى الآن يقيمون إمارة، والناس معهم على ما كانوا عليه زمن الشيخ من جميل الاعتقاد، وتعظيم الحرمة. وكان مظفر الدين صاحب إربل يقول: رأيت الشيخ عدي بن مسافر، وأنا صغير بالموصل، وهو شيخ ربع، أسمر اللون، وكان يحكي عنه صلاحاً كثيراً. وعاش تسعين سنة رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[٤٨]

أحمدُ المعروف بابن الرفاعي، أبو العباس بنُ أبي الحسنِ عليِّ بنِ أحمدَ بنِ يحيى بنِ حازمِ بنِ عليِّ بنِ رفاعَةَ(١)

عرف حقه الأنام، وألفت فضله الأيام، أيُّ رجلٍ، وأيُّ بطل، مثله في الخواطر

(١) ترجمته في: الكامل في التاريخ ١١/ ٤٩٢، ووفيات الأعيان ١/ ١٧١، ومرآة الزمان ٨/ ٣٧٠. =

لم يجل، طالما اهتز في يديه كلُّ أخضر، وأهزله رداء ألقى المهابة في قلوب الخُضَّر، وكان لو من السحاب لم يعبأ بنواله، واستقر له استقرار الجبل لا يعن بزواله، وجاء في عصر مشعشع بالأولياء، وزمان مترعرع بمواليد الأتقياء، وكان دونهم مدلى اللهب، ومواطيء أقدام طائفته منها على أرض من الذهب، /٩٨/ ورأوا النار برداً وسلاماً فاقتحموها، وخاصموا ألسنتها وألجموها، إلى نهش الأفاعي وقد لفح سمومها، ونفح كالشرار سمومها، يأكلونها أكلاً لمَّا، ويحبونها حباً جمًّا. هذا وشأن أشياعه حجب العنا، وطل العنا، وغير هذا مما ابتدعوه، وابتدوه، ونسبوه إليه وشنعوه، مما لم يكن عليه، ولا يمكن أن ينسب إليه.

كان ـ رضي الله عنه ـ رجلاً صالحاً، فقيهاً، شافعي المذهب. قدم أبوه العراق، وسكن البطائح بقرية يقال لها: «أم عَبِيدةَ» ـ بفتح العين ـ، فتزوج بأخت الشيخ منصور الزاهد، ورزق منها الشيخ أحمد، وإخوته.

وكان أبو الحسن مقرئاً يؤمُّ بالشيخ منصور، فمات وزوجته حامل بالشيخ أحمد، فربَّاه خاله منصور، فقيل: إنه ولد في أول المحرم سنة خمسمائة. ونشأ أحسن نشأة، وانضم إليه خلق عظيم من الفقراء، وأحسنوا الاعتقاد فيه وتبعوه. والطائفة المعروفة بالرفاعية، والبطائحية من الفقراء منسوبة إليه. ولأتباعه أحوال عجيبة، من أكل الحيَّات وهي حيَّةً، والنزول في التنانير، وهي تتضرم بالنار فيطفئونها، ويقال: إنهم في بلادهم يركبون الأسود، ومثل هذا وأشباهه، ولهم مواسم يجتمع عندهم من الفقراء عالَمٌ لا يُعَدُّ، ولا يُحصَى، ويقومون بكفاية الكل.

= ٣٧١، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٥ـ ٦٦، ودول الإسلام ٢/ ٩٠، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٧٧ـ ٨٠ رقم ٢٨، والعبر ٤/ ٢٣٣، والمعين في طبقات المحدّثين ١٧٧ رقم ١٨٨٤، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٣٨، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٢، والبداية والنهاية ١٢/ ٣١٢، ومرآة الجنان ٣/ ٤٠٩ـ ٤١٢، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٤/ ٤٠، وطبقات الشافعية الوسطى، له (مخطوط) ورقة ١٣٠أ، والوافي بالوفيات ٧/ ٢١٩، رقم ٣١٧٧، ومختصر تاريخ ابن الساعي ١١٢، والعسجد المسبوك ٢/ ١٨٧، والنجوم الزاهرة ٦/ ٩٢، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٦٣، وشذرات الذهب ٤/ ٢٥٩ـ ٢٦٢، وطبقات الأولياء لابن الملقن ٩٣ـ ١٠١ رقم ٢٢، وتاريخ الخلفاء ٤٥٧، وبدائع الزهور ج١ق١/ ٢٢٤، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٦٤، والكواكب الدرّية في تراجم السادة الصوفية للمناوي ٢/ ٧٥، وذيل تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١/ ٨٧، ومعجم المطبوعات العربية والمعرَّبة ٩٤٧ـ ٩٤٨، والأعلام ١/ ١٦٩، ومعجم المؤلفين ٢/ ٢٥، وديوان الإسلام ٢/ ٣٣١ رقم ٩٩٥، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٧١ـ ٥٨٠هـ) ص٢٤٨ـ ٢٥٥ رقم ٢٦٦.

ولم يكن له عقب، وإنما العقب لأخيه، وأولاده يتوارثون المشيخة والولاية على تلك الناحية إلى الآن، وأمورهم مشهورة. وله شعر، فمنه على ما قيل: ـ [من الطويل]

إذا جَنَّ ليلي هامَ قلبي بذكركمْ ... أنوحُ كما ناحَ الحَمامُ المُطوَّقُ
وفَوقي سَحابٌ يُمطُر الهمَّ والأسى ... وتحتي بحارٌ بالأسى تَتَدفقُ
سلوا أمَّ عَمروٍ كيفَ باتَ أسيرُها ... تُفَكُّ الأُسارى دِونَهُ وهوَ مُوثَقُ
«فلا هوَ مقتولٌ، ففي القَتلِ راحةٌ ... ولا هوَ مَمنُونٌ عليهِ فيُطلَقُ»

/ ٩٩/ قيل: إنه أقسم على أصحابه: إن كان فيه عيبٌ ينبهونه عليه. فقال الشيخ عمر الفاروثي: يا سيدي! أنا أعلم فيك عيباً!. قال: ما هو؟. قال: يا سيدي! عيبك أننا من أصحابك. فبكى الشيخ والفقراء، وقال: أي عمر! إن سلم المركب حمل من فيه.

قيل: إن هرة نامت على كُمِّ الشيخ أحمد، وقامت الصلاة، فقصَّ كمَّه، ولم يزعجها، ثم قعد فوصله، وقال: ما تغير شيء!.

وقيل: توضأ، فنزلت بعوضة على يده، فوقف لها حتى طارت.

وعنه قال: أقرب الطرق الانكسار، والذلّ، والافتقار، وتُعَظِّمُ أمرَ الله، وتشفقُ على خلق الله، وتقتدي بسنة سيدك رسول الله ﷺ.

وقيل: كان يجمع الحطب، ويجيء به إلى بيوت الأرامل، ويملأ لهم الجرة. قيل له: أيش أنت يا سيدي؟. فبكى فقال: يافقير!، ومن أنا في البين، ثبِّتْ نسب واطلب ميراث.

وقال: لما اجتمع القوم وطلب كلٌّ واحد شيئاً، دارت النوبة إلى هذا اللاشيء أحمد!. وقيل: أي أحمدُ! اطلبْ. قلت: أي ربِّ! علمك محيط بطلبي، فكرر عليّ القول، قلت: أي مولاي! أريد أن لا أريد، وأختار أن لا يكون لي اختيار، فأجابني، وصار الأمر له وعليه.

وقيل: إنه رأى فقيراً يقتل قملة، فقال: لا واخذك الله، شفيت غيظك؟!؟. وعنه أنه قال: لو أن عن يميني خمسمائة يروِّحوني بمراوح الندّ والطيب، وهم من أقرب الناس إليّ، وعن يساري مثلهم من أبغض الناس إلي، معهم مقاريض يقرضون بها لحمي، ما زاد هؤلاء عندي، ولا نقص هؤلاء عندي بما فعلوه، ثم قرأ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1].

وقيل: أتي إليه بطبق تمر، فبقي ينقي لنفسه الحشف يأكله، ويقول: «أنا أحقُّ

---

(١) سورة الحديد: الآية ٢٣.

بالدون من غيري، فإني مثله دون»!. وكان ـ رضي الله عنه ـ لا يجمع بين لبس قميصين لا في شتاء، ولا في صيف، ولا يأكل إلا بعد يومين أو ثلاثة أكلة، وإذا غسل ثوبه ينزل في الشطِّ كما هو قائم يفركه، ثم يقف في الشمس حتى ينشف. /١٠٠/ وإذا ورد عليه ضيفٌ، يدور على بيوت أصحابه يجمع الطعام في مئزر.

وقال: «الفقير المتمكِّن إذا سأل حاجة، وقضيت له، نقص من تمكنه درجة».

وتوفي رضي الله عنه، يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، بأم عَبيدَة، وهو في عشر السبعين. وكان لا يقوم للرؤساء، ويقول: «النظر إلى وجوههم يقسي القلب».

ومنهم:

[٤٩]

الشَّيخُ عبدُ القَادرِ بنُ أَبي صَالح عبدِ الله بنِ جَنكِي دوست الجيلي الحنبلي(١)

علم الأولياء، محيي الدين، سيد طائفة كانوا بالنهار لا يفترون، وبالأسحار هم يستغفرون، طلع من هاشم بن عبد مناف في الذوائب، وكرع منه في غدير لم يرفق بالشوائب، وكان من الشرف في شامخ قلاله، وراسخ النسب العلوي في كرم خلاله، وكان له مجلس يوالي فيه الانتحاب، ويحرك فيه الأصحاب، ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾(٢) فما برح اجتهاده محدودا، وجهاده يقول: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ

---

(١) ترجمته في: الأنساب ٣/ ٤١٥، والمنتظم ١٠/ ٢١٩ رقم ٣٠٩ (١٨/ ١٧٣ رقم ٤٢٥٩)، والكامل في التاريخ ١١/ ٣٢٣، ومرآة الزمان ٨/ ٢٦٤ـ ٢٦٦، وبهجة الأسرار في مناقب سيدي عبد القادر، للشطنوفي، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٣، والعبر ٤/ ١٧٥، ١٧٦، والمعين في طبقات المحدّثين ١٦٩ رقم ١٨١٠، ودول الإسلام ٢/ ٧٥، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٣١، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ رقم ٢٨٦، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٠٧ـ ١١١، وفوات الوفيات ٢/ ٣٧٣، ٣٧٤، ومرآة الجنان ٣/ ٣٤٧ـ ٣٦٦، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٥٢، والذيل على طبقات الحنابلة ١/ ٢٩٠ـ ٣١٠، وتاريخ الخميس للديار بكري ٢/ ٤٠٨، والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٧١، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٠٨، وشذرات الذهب ٤/ ١٩٨ـ ٢٠٢، والأعلام ٤/ ٤٧، وديوان الإسلام ٣/ ٢٨٥، ٢٨٦ رقم ١٤٣٨، وكشف الظنون ٦٦٢، وإيضاح المكنون ١/ ٢٥٧، وهدية العارفين ١/ ٥٩٦، ومعجم المؤلفين ٥/ ٣٠٧، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٦١ـ ٥٧٠هـ) ص٨٦ـ ١٠٠ رقم ٢٣.

(٢) سورة النمل: الآية ٨٨.

﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[1]. وكان مخلصاً دون أشكاله، ومخلصاً توكل على الله حق اتكاله، على أنه من بقية قوم يرجعون كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وصلوا الليالي بالأسحار، وركبوا ثبج الفيافي وقفار البحار، فحمدوا ما كانوا يعملون، وعلى ربهم كانوا يتوكلون.

مولده بجيلان، سنة إحدى وسبعين وأربعمائة. وقدم بغداد، شاباً، فتفقه على أبي سعيد المخرِّمي. وسمع الحديث من جماعة، وحدَّث عن طائفة من الكبار.

قال السمعاني: «كان عبد القادر من أهل جيلان إمام الحنابلة، وشيخهم في عصره. فقيهٌ صالحٌ، دَيِّنٌ خيِّرٌ، كثير الذكر، دائم /١٠١/ الفكر، سريع الدمعة، تفقَّه على المخرِّمي، وصحب الشيخ حمَّاداً الدباس. قال: وكان يسكن بباب الأَزَجِ في مدرسة بنيت له. مضينا لزيارته، فخرج وقعد بين أصحابه، وختموا القرآن، فألقى درساً ما فهمتُ منه شيئاً، وأعجبُ من ذا أن أصحابه قاموا وأعادوا الدرس، فلعلَّهم فهموا، لإلفهم بكلامه وعبارته.

وقال ابن الجوزي: «كان أبو سعد المخرِّمي قد بنى مدرسة لطيفة بباب الأزج، ففوِّضت إلى عبد القادر، فتكلم على الناس بلسان الوعظ، وظهر له صيت بالزهد، وكان له سمتٌ وصمتٌ، وضاقت المدرسة بالناس، فكان يجلس عند سور بغداد مستنداً إلى الرباط، ويتوب عنده في المجلس خلقٌ كثير، فعُمِّرت المدرسة، ووُسِّعت، وتعصَّب في ذلك العوام، وأقام فيها يدرِّس، ويعظ إلى أن توفي.

وقال الشيخ أبو بكر العماد ـ رحمه الله تعالى ـ: كنت قرأت في أصول الدين، فأوقع عندي شكاً، فقلت: حتى أمضي إلى مجلس الشيخ عبد القادر، فقد ذكر أنه يتكلم على الخواطر، فمضيت وهو يتكلم، فقال: اعتقادنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة. فقلت في نفسي: هذا قاله اتفاقاً. فتكلم، ثم التفت إلى ناحيتي، فأعاده، فقلت: الواعظ قد يلتفت!. فالتفت إليّ ثالثة، وقال: يا أبا بكر!، فأعاد القول، ثم قال: قم قد جاء أبوك، وكان غائباً، فقمت مبادراً، وإذا أبي قد جاء.

وقال أبو البقاء النحوي: حضرت مجلس الشيخ عبد القادر، فقرؤوا بين يديه بالألحان، فقلت في نفسي: تُرى لأي شيء ما ينكر الشيخ هذا؟. فقال: يجيء واحد قد قرأ أبواباً من الفقه ينكر!. فقلت في نفسي: لعل أنه قصد غيري. فقال: إياك نعني بالقول، فتبت في نفسي من اعتراضي، فقال: قد قبل الله توبتك.

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٩.

وقال السهروردي: عزمت على الاشتغال بأصول الدين، فقلت /١٠٢/ في نفسي: أستشير الشيخ عبد القادر؛ فأتيته، فقال قبل أن أنطق: يا عمر، ما هو من عُدَّة القبر، يا عمر، ما هو من عدَّة القبر!!.

وقال الشيخ عبد القادر: طالبتني نفسي يوماً بشهوة، فكنت أضاجرها، وأدخل في درب، وأخرج من آخر أطلب الصحراء، فرأيت رقعةً ملقاةً، فإذا فيها: ما للأقوياء والشهوات، وإنما خلقت الشهوات للضعفاء؟! فخرجت الشهوة من قلبي. قال: وكنت أقتات بخرُّوب الشوك، وورق الخس، من جانب النهر.

وحكى ابن النجار عن الشيخ عبد القادر قال: «بلغت بي الضائقة في الغلاء إلى أن بقيت أياماً لا آكل طعاماً، بل أتبع المنبوذات، فخرجت يوماً إلى الشط، فوجدت قد سبقني الفقراء، فضعُفت، وعجزت عن التماسك، فدخلت مسجداً، وقعدتُ، وكدت أصافح الموت، ودخل شاب أعجميّ ومعه خبز وشواء، وجلس يأكل، فكنت أكاد كلما رفع لقمة إلى فمه أن أفتح فمي، فالتفت فرآني، فقال: بسم الله، فأبيت، فأقسم علي، فأكلت مقصراً، وأخذ يسألني، ما شغلك؟ ومن أين أنت؟. فقلت: متفقِّه من جيلان، قال: وأنا من جيلان، فهل تعرف لي شاباً جيلانياً اسمه عبد القادر يُعرف بسبط أبي عبد الله الزاهد؟. فقلت: أنا هو!. فاضطرب لذلك، وتغير وجهه، وقال: واللهيا أخي، لقد وصلت إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي، فسألت عنك، فلم يرشدني أحد إلى أن نفدت نفقتي، وبقيت بعدها ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلا من مالك، فلما كان هذا اليوم الرابع، قلت: قد تجاوزَتْني ثلاثةُ أيام، وحلَّت لي الميتة، فأخذت من وديعتك ثمن هذا الخبز والشواء، فكُلْ طيباً، فإنما هو لك، وأنا ضيفك الآن. فقلت: وما ذاك؟. قال: أمُّك وجَّهت /١٠٣/ معي ثمانية دنانير، واللهما خُنتُك فيها إلى اليوم، فسكَّنتُه، وطيَّبتُ نفسه، ودفعتُ إليه شيئاً منها.

وحكي عنه أيضاً أنه قال: «كنت في الصحراء أكرر في الفقه وأنا في فاقة، فقال لي قائل ـ لم أر شخصه ـ: اقترِضْ ما تستعين به على طلب الفقه. فقلتُ: كيف أقترض وأنا فقيرٌ ولا وفاء لي؟. قال: اقترض وعلينا الوفاء. فأتيت بقالاً، فقلت: تعاملني بشرط: إذا سهَّل الله أعطيتك، وإن مُتُّ تجعلني في حلٍّ؟. تعطيني كل يوم رغيفاً ورشاداً. فبكى وقال: أنا بحكمك. فأخذت منه مدَّةً، فضاق صدري، فقيل لي: اِمضِ إلى موضع كذا، فأيَّ شيءٍ رأيت على الدكَّة، فخذه، وادفعه إلى البقال. فلما جئت رأيت قطعة ذهبٍ كبيرة، فأعطيتها البقلي. ولحقني الجنون مرة، وحملت إلى المارستان، فطرقتني الأحوال حتى حسبوا أني متُّ، وجاؤوا بالكفن، وجعلوني على

المغتسل، ثم سُرِّي عني، وقمتُ، ثم وقع في نفسي أن أخرج من بغداد لكثرة الفتن، فخرجت إلى باب الحلبة، فقال لي قائل: إلى أين تمشي؟!، ودفعني دفعة خررت منها، وقال: ارجعْ فإن للناس فيك منفعة. قلت: أريد سلامة ديني. قال: لك ذاك، ولم أرَ شخصه.

ثم بعد ذلك طرقتني الأحوال، فكنت أتمنى من يكشفها لي، فاجتزت بالظَّفَرِيَّة، ففتح رجلٌ داره، وقال: يا عبد القادر!، أيش طلبت البارحة؟. فنسيتُ، فسكتُّ، فاغتاظ، ودفع الباب في وجهي دفعة عظيمة، فلما مشيت ذكرتُ فرجعتُ أطلبُ الباب، فلم أجده. قال: وكان حماد الدباس، ثم عرفته بعدُ، وكشف لي جميع ما كان يشكل علي، وكنت إذا غبتُ عنه لطلب العلم وجئت، يقول: أيش جاء بك إلينا؟ أنت فقيه، مُرَّ إلى الفقهاء، وأنا أسكت، فلما كان يوم جمعة، خرجت مع الجماعة في شدة البرد، فدفعني ألقاني في الماء، فقلت: غُسلَ الجمعة، /١٠٤/ بسم الله، وكان عليَّ جبَّةُ صوف، وفي كمي أجزاء، فرفعُت كُمِّي لئلا تهلك الأجزاء، وخلَّوني ومشَوا، فعصرتُ الجبَّة وتبعتُهم، وتأذَّيت بالبرد كثيراً، وكان الشيخ يؤذيني ويضربني، وإذا جئت يقول: جاءنا اليوم الخبزُ الكثير والفالوذج، وأكلنا وما خبَّأنا لك وحشةً عليك!. فطمع فيَّ أصحابُه، وقالوا: أنت فقيه، أيش تعمل معنا؟، فلما رآهم يؤذونني، غارَ علي، وقال: يا كلاب! لم تؤذونه؟ والله ما فيكم مثله!، وإنما أوذيه لأمتحنه، فأراه جبلاً لا يتحرك، ثم بعد مدة قدم رجل من همذان، يقال له: يوسف الهمذاني، وكان يقال: إنه القطب، ونزل في رباط، فمشيت إليه ولم أرهُ، وقيل لي: هو في السرداب، فنزلت إليه، فلما رآني قام، وأجلسني، ففرشني، وذكر لي جميع أحوالي، وحلَّ لي المشكل عليَّ، ثم قال لي: تكلَّم على الناس. فقلت: يا سيدي! أنا رجل أعجميّ، قُح، أخرس، أتكلّم على فصحاء بغداد؟!. فقال لي: أنت حفظت الفقه وأصوله، والخلاف والنحو، واللغة، وتفسير القرآن، لا يصلح لك أن تتكلم؟. اصعد على الكرسي وتكلَّم، فإني أرى فيك عِذقاً سيصير نخلة.

قال: وكنت أُومر وأُنهى في النوم واليقظة، وكان يغلب عليَّ الكلام، ويزدحم على قلبي إن لم أتكلم به حتى أكاد أختنق، ولا أقدر أسكت، وكان يجلس عندي رجلان وثلاثة، ثم تسامع الناس بي، وازدحم الخلق عليَّ، حتى صار يحضر مجلسي [نحو من] سبعين ألفاً.

وقال: فتَّشتُ الأعمال كلها فما وجدت فيها أفضل من إطعام الطعام، أودُّ لو أن الدنيا بيدي فأطعمها الجياع، كفِّي مثقوبة لا تضبط شيئاً!. لو جاءني ألف دينار لم

أبيِّتها، وكان إذا جاءه أحدٌ بذهب، يقول: ضعه تحت السجادة.

وقال: «أتمنى أن أكون في الصحارى والبراري كما كنت في الأول /١٠٥/ لا أرى الخلق ولا يروني». ثم قال: «أراد الله مني منفعة الخلق، فقد أسلم على يديَّ أكثر من خمسمائة، وتاب على يديّ أكثر من مائة ألف. وهذا خير كثير، وتردُ عليَّ الأثقال التي لو وَضِعَتْ على الجبال تفسَّخَتْ، فأضع جنبي على الأرض، وأقول: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1]، ثم أرفع رأسي وقد انفرجت عني».

وقال الجبَّائي: كنت أسمع في «الحلية» على ابن ناصر، فرقَّ قلبي، وقلت، اشتهيت لو انقطعت، وأشتغل بالعبادة، ومضيت، فصلَّيتُ خلف الشيخ عبد القادر، فلما جلسنا، نظر إليَّ، وقال: «إذا أردت الانقطاع، فلا تنقطع حتى تتفقه وتجالس الشيوخ وتتأدَّب، وإلا فتنقطع وأنت فُريخ ما ريَّشت».

وعن أبي الثناء النهر ملكي قال: تحدَّثنا أن الذباب ما يقع على الشيخ عبد القادر، فأتيته، فالتفت إليَّ، وقال: أيش يعمل عندي الذباب؟ لا دبس الدنيا، ولا عَسَل الآخرة!؟.

وقال أبو البقاء العكبري: سمعت يحيى بن نجاح الأديب يقول: قلت في نفسي: أريد أن أحصي كم يقُصُّ الشيخ عبد القادر شعرَ تائب؟. فحضرتُ المجلس ومعي خيط، فلما قصَّ شعراً، عقدتُ عقدةً تحت ثيابي في الخيط، وأنا في آخر الناس، وإذا به يقول: «أنا أحلُّ وأنت تعقد.؟».

وحكى ابن النجار عنه: إنه كان في وسط الشتاء وبرده، وعليه قميص واحد، وعلى رأسه طاقية، وحوله من يروِّحه بالمروحة. قال: والعرق يخرج من جسده كما يكون في شدَّة الحر!.

وقال أحمد بن ظَفَر بن هبيرة: سألت جدي أن أزور الشيخ عبد القادر، فأعطاني مبلغاً من الذهب لأعطيه، فلما نزل عن المنبر سلَّمت عليه، وتحرَّجتُ من دفع الذهب إليه في ذلك الجمع، فقال: هات ما معك، ولا عليك من الناس!. وسلِّم على الوزير.

وقال صاحب «مرآة الزمان»: كان سكوت الشيخ /١٠٦/ عبد القادر أكثر من كلامه، وكان يتكلَّم على الخواطر، وظهر له صيتٌ عظيم، وقبول تام، وما كان يخرجُ من مدرسته إلا يوم الجمعة أو إلى الرباط. وتاب على يده معظم أهل بغداد، وأسلم خلق، وكان يصدع بالحق على المنبر، وكان له كرامات ظاهرة.

---

(١) سورة الإنشراح: الآيتان ٥ـ٦.

وحكى أبو الحسن علي بن قاسم الهكَّاري قال: حضرت مجلس الشيخ عبد القادر الجيلي، فوجدت بين يديه غلاماً ينشد: [من البسيط]

بانتْ سُعادُ فقلبي اليومَ مَتبولُ

القصيدة، ثم رأيته ثاني ذلك اليوم، ينشدها بين يديه، فتفكرت في سبب تكرارها، وسألت الشيخ عبد القادر عن ذلك؟. فقال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله! أمرتَ أن تُحفظَ عنك هذه القصيدة؟. قال: نعم. فقلت: يا رسول الله، وهي مدحٌ فيك؟. قال: نعم، ومن قالها ثلاث مرات غفر الله له، فأحببت بعد ذلك أن أسمعها كل يوم، أو كما قال.

انتقل إلى رحمة الله تعالى في عاشر ربيع الآخر سنة إحدى وستين وخمسمائة، وشيَّعه خلقٌ لا يحصون، ودفن بمدرسته، رحمه الله تعالى.

وولد له تسعة وأربعون ولداً، سبعة وعشرون ذكراناً، والباقون إناثاً.

وقال: إذا ولد لي ولدٌ أخذته على يدي وقلت: هذا ميِّت، فأخرجه من قلبي، فإذا مات لم يؤثِّر عندي موته شيئاً.

ومنهم:

[٥٠]

قَضِيبُ البَان(١)

قال ابن عدي: سمعت شيخي أبا يوسف يقول: ما دفن ولي لله تعالى في زمان

---

(١) الحسين بن عيسى بن يحيى، قضيب البان بن علي، أبو عبد الله: متصوف، فقيه حنبلي. ذكر مترجموه: أن ينتهي نسبه من جهة أبيه بالإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام. ومن جهة امه السيدة أم الخير زهرة بنت أبي الرضا يحيى بالإمام محمد الجواد بن علي الرضا عليهما السلام. ولد بالموصل سنة ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م. حفظ القرآن الكريم في التاسعة من عمره. درس التجويد والعلوم العربية. توفي والده وله من العمر (١٢) سنة فكفله عمه عبد الله الحسني. لقب بقضيب البان لحسن شكله ورشاقته. أخذ علوم الفقه والحديث عن الشيخ أبي الحسن علي بن إدريس وغيره. وأخذ مذهب التصوف على أعلامه في عصره، واشهرهم أجناد (أو حياة) بن قيس الحراني وعدي بن مسافر الأموي وعبد القادر الكيلاني الذي لازمه مدة عشرين سنة فأجازه الطريقة القادرية، ولبس منه الخرقة. وكان يصلي بالكيلاني إماماً. وصهر إليه بابنتيه. وصلى عليه. وبعد موت شيخه الكيلاني، عاد قضيب البان إلى الموصل. ثم سافر إلى الشام، واتصل بشيوخها، وأدى فريضة الحج وعاد إلى الموصل. ولزم داره منقطعاً للتدريس والإرشاد. اجمع من ترجم له بأنه كان مهيباً، إذا دخل السوق هدأت الحركة والأصوات، وقام الناس احتراماً له والتماس لبركته. كان جواداً، طلق المحيّا. مات معمراً سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م ودفن بالموصل في =

قضيب البان إلا وكان قضيب البان هو الذي يحفر قبره بيده. وكان اجتمع به في جنازة أحدهم وأخبره بذلك.

قال أبو يوسف: وما سئل قضيب البان عن مسألة من لدن آدم عليه السلام / ١٠٧/ إلى زمانه إلا مسح وجهه، ثم نظر في كفه، وأخبر بجوابها، وبتاريخها.

قلت: ويحكى أن ابن يونس الفقيه، كان يستنقص بقضيب البان، ويقول: عجباً لمن يعتقد فيه خيراً، وهو لا يتوقى النجاسات!، ويطلق لسانه فيه فبينما ابن يونس يوماً، وهو على باب مدرسته، وقد جلس لانتظار الفقهاء، ليدخل بهم، ويذكر الدرس، وإذا بقضيب البان قد جاء، وجلس تلقاء وجهه، وأخذ هُدمة له، وقعد يخيطها، ثم طلع إلى ابن يونس، وقال: يا قاضي! خيَّطتُك!، يا قاضي خيَّطتك!. وجعل يكررها؛ فجاءت الفقهاء، وجلس ابن يونس لذكر الدرس، فلم يفتح عليه بكلمة، حتى ولا التحميد، وخرس!. فذكر كلمة قضيب البان، ونهض إليه، فقال: يا سيدي! أنا استغفر الله، فضحك، وفتق بعض ما كان خيَّطَ في تلك الهدمة!. ثم جعل يقول: فتقت لسانك يا قاضي! فتقت لسانك يا قاضي!. فقام ابن يونس ودخل المدرسة، وجلس للدرس، ففتح عليه بكل عجب، وأتى بكل بديع، حتى قيل: إنه لم يذكر درساً في عمره أكثر تحريراً وتحقيقاً ونقلاً، وفائدة من ذلك اليوم. قالوا: فكان ابن يونس إذا رآه بعدها قبَّل

= قبر بقي شاخصاً لقرون، كان يزار تبركاً وكانت منطقة ضريحه من متنزهات الموصل.
ويبدو أن هذه الشخصية السامية المهيبة قد اختلطت، عند العامة، أثر هذا الخلط على الخاصة أيضاً، بشخصية أو أكثر حملت لقب قضيب البان، فقد ذكر ابن الفوطي (معجم ٤/ ٣/ ٥٩٧-٥٩٨) عمر بن محمد الموصلي الكردي وقال أنه «كان من العابدين المجذوبين الذين يتكلمون على الخواطر». وذكر ابن المستوفي في (تاريخ اربل ١/ ٣٧١- ٣٧٢) شخصية باسم أبي عبد الله الحسين بن أبي القاسم بن الحسين لا يعرف إلا بقضيب البان وأورد له أوصافاً زرية تتنافى مع الأوصاف التي وصلتنا عن الشخصية الأولى، وتكاد تقترب من الشخصية الثانية. ومع أن محمد أمين بن خير الله الخطيب العمري يعرف تماماً شخصية قضيب البان الحقيقية، وأورد وقائع تتفق مع المصادر الأخرى، إلا أنه اشغل معظم مساحة ترجمته الطويلة بإيراد «الكرامات» الغريبة العجيبة التي نسبت إلى قضيب البان .

ترجمته في: ابن كثير ١٣/ ٦٢ (أورد قصة لقاء قضيب البان مع الفقيه عماد الدين بن محمد بن يونس بن منعة ـ ت ٦٠٨هـ)، ابن الوردي ٢/ ١٣٠ (لم يسمه بل قال: قضيب البان الموصلي. وجعل وفاته سنة ٥٧٠هـ)، الاشارات (للهروي) ص ٧١، الأعلام ٢/ ٢٥١ تاريخ إربل ١/ ٣٧١- ٣٧٢، ٢/ ٥٧٦- ٥٧٧، ترجمة الأولياء ٧٠- ٧٩، جوامع الموصل ٢٦١- ٢٦٢ وفي ص ٢٦٦ نسبه الكامل، شمامة العنبر ١٠٦هـ-٢، منهل الأولياء ٢/ ١١٦- ١٢٨، المنية ١١١، و١، وموسوعة أعلام الموصل ١/ ٢٢٧- ٢٢٨.

يده، وقال: هذا ولي الله.

وحدثني علي بن عبد الله المعروف بالبديع أنه سمع محمد بن يونس بن محمد بن مالك القاضي بالموصل يحكي عن أبيه أن أحد المؤذنين بجامع الموصل حدَّثه، قال: خرجت يوماً لأتقضى خارج البلد، فرأيت قضيب البان ماشياً في همَّةٍ، فقلت: والله لأتبعنه اليوم، فمشيت وراءه نحو ساعة، وأنا لاهٍ، ثم نظرت فأنكرت الطريق التي نحن بها، والأرض التي نحن فيها، وإذا نحن في أرض لا أعرفها، وإذا أمامنا نهر يصغر دجلة عنده، وحوله أشجار ليست بأرضنا، فبهتُّ، وحرتُ، ولم أجسر على خطابه، فأتى قضيب البان /١٠٨/ النهر، فجلس، وجلست ناحية منه، فنزع ثيابه ونزل النهر، فاغتسل ثم خرج، فقام يصلي، واشتدَّتْ عليَّ الهاجرة، ولم يكن ذلك زمان حر، فأتيت شجرة ذات ظل، فنمت، فلما قمتُ لم أرَ قضيب البان!، ولا من أسترشدُ به، فبينما أنا في ذلك وإذا براعٍ يرعى معزى، فقمتُ إليه، فحدَّثته، فإذا هو أعجميّ لا يعرف العربية، فصبرت واستعنتُ، فأقبل رجلٌ كهلٌ، فقمت إليه، وسألته عن ذلك الموضع؟ فقال: بأرض الهند! في مكان كذا، وهو نهر كذا!. فقلت له: فكم بيني وبين الموصل؟. فقال: وأين الموصل؟. وذكر شهراً!. فصحتُ صيحةً كاد ينفطر معها قلبي، فقال لي الشيخ: ويحك ما لك؟!. فحكيت له حالي، وأنني خرجت في يومي هذا من الموصل؛ لأتقضى، فرأيت مولَّهاً عندنا ماشياً، فتبعته، لأبصر أين يذهب؟، فأتى بي إلى هنا، ونزل فاغتسل، وقام يصلي إلى تلك الشجرة، واشتدَّ عليّ الحر فنمتُ، فلما قمت لم أجده، فقال: اعلم أنِّي مارٌّ، في هذه الأرض، ولست منها، وسأل الراعي، قال: فحدَّث الراعي بالهندية، وكان رجلاً هندياً، فقال له: هذا رجلٌ يأتي كل يوم إلى هنا، فيغتسل ويقوم هنا، فيتعبَّدُ عباداتٍ يدين بها، مما لا نعرفه نحن، ثم يذهب كما يأتي!. قال: فبتُّ بأصعبِ ليلةٍ مرَّتْ بي، فلما كان في اليوم الثاني، جاء قضيب البان ففعل مثل ما فعله، وأُلقيَ عليَّ النوم، فجعلتُ أغالبه، فلما قضى صلاته، قمت إليه، وشكوتُ إليه حالي، فضحك، وقال: امشِ خلفي، ولا تعود تكلِّف نفسك ما لا يعنيك، ولا تكثر فضولاً!. فقلت: يا سيدي! السمع والطاعة، فأقبل عليَّ يحدِّثني أحاديث العقلاء ذوي العلم، فلم يكن إلا ساعة، ونحن بالموصل!، فودَّعني وانصرف، رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[٥١]

أبو علي، الحَسَنُ بنُ مُسَلَّم بنِ أبي الحَسَنِ بنِ أَبي الجُود[١]: الزاهد الفارسي

/١٠٩/ عارفٌ أحرزَ الحليفة إحرازا، وحرس الحقيقة فلم يدع لها إبرازا، فاستطار هُياما، واستطاب سهراً قطع عليه ليالي وأياما، وحُبِّبَتْ إليه الوحدة، وطُيِّبَتْ له الخلوة، فأنس بالله وحده، ولم تزل الأبصار به معقودة، والأمصار عليه محدودة، وكان لا يزال يأوي البرَّ المقفر، ويهوى الفقر المفقر، إلى أن ترقَّت روحه، وأشرقت في أوجها نوحه.

أصله من قرية بنهر عيسى يقال لها: الفارسية. وكان من الأبدال، لازماً لطريقة السلف، أقام أربعين سنة لم يكلِّم أحداً، وكان صائم الدهر، قائمَ الليل، يقرأ كل يوم وليلة ختمة.

ذكره أبو الفرج في «صفة الصفوة» وقال: كان زاهد زمانه، وكانت السباع تأوي إلى زيارته، وكان الخليفة وأرباب الدولة يمشون إلى زيارته. وحكى عنه جماعة من أهل القرية: إن السباع كانت تنام طول الليل جوار زاويته، وإذا خرج أحدٌ من القرية في الليل إلى نهر عيسى، لم تتعرضْ له. وأنَّ فقيراً نام في الزاوية في ليلة باردة فاحتلم، ونزل إلى النهر ليغتسل، فجاء السَّبُعُ فنام على جُبَّته، فكاد الفقير أن يموت من البرد والخوف، فخرج الشيخُ وجاء إلى السبع وضربه بكُمِّه وقال: يا مبارك! قد قلنا لك: لا تتعرَّضْ لأضيافنا!، فقام السَّبُعُ يهرول!.

---

(١) الفارسي: نسبة إلى الفارسية وهي قرية من قرى نهر عيسى، وفي ذيل الروضتين ص ١٣: القادسي نسبة إلى القادسية وهي قرية بنهر عيسى.

ترجمته في: معجم البلدان ٢/ ٣٥٩ و٣/ ٨٣٨، والكامل في التاريخ ١٢/ ١٣٨، ١٣٩، ومرآة الزمان ج٨ق٢/ ٤٥٦، ٤٥٧، وذيل الروضتين ١٣، والتكملة لوفيات النقلة ١/ ٣٠٠ـ ٣٠١، رقم ٤٢٤، والمختصر المحتاج إليه ٢/ ٢٦، رقم ٥٩١، والعبر ٤/ ٢٨٣، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٠٩، ودول الإسلام ٢/ ٧٧، والمشتبه ٢/ ٤٩٢، وذيل طبقات الحنابلة ١/ ٣٩٥، والوافي بالوفيات ١٢/ ٢٧٠ رقم ٢٤٢، وشذرات الذهب ٤/ ٣١٦، والعسجد المسبوك ٢/ ٢٤٧، وذيل تاريخ بغداد لابن الدبيثي (باريس ٥٩٢٢) ورقة ١٨، وأخبار الزهّاد لابن الساعي، ورقة ٤٩، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٠١ـ ٣٠٢ رقم ١٥٧، وعقد الجمان ١٧/ ورقة ٢٢٢، وشذرات الذهب ٤/ ٣١٦، والتاج المكلّل ٢١٣، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٩١ـ ٦٠٠هـ) ص ١٥٨ـ ١٥٩ رقم ١٨٣.

توفي يوم عاشوراء، سنة أربع وتسعين وخمسمائة، ودفن برباطه بـ «الفارسية».
ومنهم:

[٥٢]

أَبُو الحَسَنِ، عَليُّ بنُ مُحَمَّدٍ بنِ غُلَيْس، اليماني، الزاهد(١)

رجلٌ كان ملاذاً، وملجأ في النوائب ومعاذا، يصرخ صراخ السيوف، ويطل إطلال الضراغم تحت السجوف، بسهام لا تُرَدّ، وسمام كأنه من أنياب الأساود يستمد، إذا رمى رمية أنفذها، وإذا أرشف بريقه عضة أكيلة وقذها، فكان في انطلاقه لا /١١٠/ يفادى، وفي أهل صداقته لا يعادى، يمدُّ يداً له ما رُدَّتْ خائبة، ولا مدّت إلا إلى إجابة غير غائبة. كان مقيماً بكلاَّسة دمشق.

وحكى عنه العلامة أبو الحسن السخاوي قال: سمعت ابن غليس يقول: كنت مسافراً مع قافلة، فرأيت في المنام كأنَّ سَبُعاً اعترضهم، فقطع الطريقَ عليهم، فوقفوا حائرين، فتقدَّمت إليه وقلت: يا كلب الله!، أنت كلب الله، وأنا عبد الله، فاخضع، واخنع لمن سكن له ما في السماوات والأرض، وهو السميع العليم. فذهب، وانفتحت الطريق، ثم انتبهتُ، فسرنا قليلاً، وإذا بالقافلة قد وقفت، فسألت: ما الخبر؟ فقيل: السَّبُع على الطريق. فتقدَّمت إليه، وهو مُقعٍ على ذَنبه، فقلت ذلك الكلام، وتقدَّمت إليه، فأدخلتُ يدي في فمه، وقلبت أسنانه!، وشممتُ منه رائحة كريهة.

قال السخاوي: فقلت له: إنه يأكل اللحم ولا يتخلل!. قال: وأدخلت يدي بين أفخاذه، فقلبت خصيتيه وإذا هي مثل خصي القط.

وقال الشيخ ميمون الضرير: أخبرني صاحب لابن غُلَيس قال: أمرني ابن غُلَيس بإيقاد السراج، ولم يكن به زيت، فأوقدت الفتيلة، فوقدت!. ثم أمرني في الليلة الثانية، فأوقدتها، فوقدت!. ثم أمرني في الليلة الثالثة بإيقادها، فقلت له: لا زيت في السراج!. قال: وأيش فضولك في هذا؟، لو سكتَّ لكان يَقِدها أبدا!.

وقال أبو القاسم الفضل: مات فرسٌ لابن غُلَيس، فحزنَ عليه كثيراً، فقيل له: كم تحزن عليه؟، غيره يقوم مقامه!. فقال: إنه فرسٌ صالح، كان معي في سفري بالعراق، فآواني الليل مع جماعة إلى قرية، وكانت ليلة باردة، ذات ريح، ومطر، فلم

---

(١) ترجمته في: الوافي بالوفيات ٢٢/ ١١١- ١١٢ رقم ٦٤، التكملة لوفيات النقلة ١/ ٤٣٣ رقم ٦٧٨، عقد الجمان/ ورقة ١٧، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٩١- ٦٠٠هـ) ص ٣٦١ رقم ٤٦١.

يُقَدَّرْ لنا مكانٌ نأوي إليه، إلا موضع صغير. فقلت لأصحابي: إن تركنا الفرس خارج البيت هلك / ١١١/ بالبرد، وخفنا عليه، وإن أدخلناه معنا، خفنا من بوله وتلويثه الجماعة لصغر المكان!. فتقدَّمتُ إليه وقلت له: نحن ندخلك معنا بشرط أن لا تفعل ما يتأذى به الجماعة من بول وغيره!. ثم أدخلناه، فبات ليلته لم يتحرك بحركة يُتَأَذَّى منها، ولم يَبُلْ. فلما أصبحنا، أخرجناه معنا، فلما صار خارج الباب، بالَ نحو قربة ماء.

وكان ابن غُلِيس يقول عن نفسه: «ابن غُلَيس ما يسوى فُلِيس!».

وتوفي رضي الله عنه يوم الاثنين سابع عشر شهر رمضان سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، ودفن قبلي قبر معاوية ـ رضي الله عنه ـ بغرب مقبرة الباب الصغير. رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[٥٣]

الشَّيخُ أَبُو عُمَرَ، مُحَمّدُ بنُ أَحمدَ بِن مُحَمَّدٍ بن قُدَامَةَ المَقْدِسِيُّ(١)

أخو الشيخ موفق الدين الحنبلي الزاهد

رقى السماء فوق صفائحها، وأبدى الأنباء وفق صحائحها. ووالى أعماله أرسالا، وأيقظ أعماله والرياح كسالى، وعزم اعتزاماً مسح بالنجوم راسه، ومسك بخيوط الغيوم أمراسه، فلم يلتفت إلى الدنيا ومغازلتها، ولا انفتل إلى مقاتلتها، على الدنايا ومنازلتها، تحليقاً إلى دار نعيمها سرمدا، ونسيمها لا يرى منه من شكوى الهوى أرمدا، فقطع الغاية مسرعا، ورفع حيث أراد ممرعا، من قوم كانوا أهل علو وعلوم، وفي أموالهم حق معلوم. وكان غماماً به يستسقى، وإماماً عنه الدين يتلقَّى.

ويقال إنهم من بني الفاروق، ثم من ولده عبد الله، ولا يعرف إلى من هم بنيه،

---

(١) ترجمته في: مرآة الزمان ج٨ق٢/ ٥٤٦ـ ٥٥٣، والتكملة لوفيات النقلة ٢/ ٢٠٢، ٢٠٣ رقم ١١٤٧، وذيل الروضتين ٧١ـ ٧٥، ودول الإسلام ٢/ ١١٤، والعبر ٥/ ٢٥، والمعين في طبقات المحدّثين ١٨٧ رقم ١٩٨٩، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٥ـ ٩ رقم ١، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣١٧، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٤٩، ومرآة الجنان ٤/ ٢٥، والبداية والنهاية ١٣/ ٥٨ـ ٦١، والوافي بالوفيات ٢/ ١١٦ رقم ٤٥٣، والذيل على طبقات الحنابلة ٢/ ٥٢ـ ٦١ رقم ٢٢٩، والمقفى الكبير للمقريزي ٥/ ٢٧٢ـ ٢٧٤ رقم ١٨٢٨، وعقد الجمان ١٧/ ورقة ٣٣١، وتاريخ ابن الفرات ج٥ق١/ ١١٦، والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٠١، ٢٠٢، وشذرات الذهب ٥/ ٢٧، وديوان الإسلام ٣/ ٢٩٥ رقم ١٤٥١، والأعلام ٥/ ٣١٩، ودائرة المعارف الإسلامية ٣/ ٨٦٦، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٠١ـ ٦١٠هـ) ص ٢٦٦ـ ٢٧٨ رقم ٣٦١.

ولا إلى أب في النسب يليه، إلا أنهم في الذرية العمرية من معدن شرف، ومثوى كرم، ما يحل منه في طرف.

ولد سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، بقرية «الساويا» من أعمال نابلس، وقيل: بـ «جمَّاعيل».

قال أبو المظفر [الواعظ] سبط ابن الجوزي: /١١٢/ «حدثني أبو عمر قال: هاجرنا في بلادنا، فنزلنا بمسجد أبي صالح بظاهر باب شرقي، فأقمنا به [مدة]، ثم انتقلنا إلى الجبل، فقال الناس: «الصالحية، الصالحية!» ينسبونا إلى مسجد أبي صالح، لا أننا صالحون، ولم يكن بالجبل عمارة إلا دير الحوراني وأماكن يسيرة. قال أبو المظفر: «وكان معتدل القامة، حسنَ الوجه، عليه أنوار العبادة، لا يزال متبسِّماً، نحيل الجسم من كثرة الصلاة والصيام، والقيام». قرأ القرآن بحرف أبي عمرو، وحفظ «مختصر الخرقي» في الفقه، وقرأ النحو على ابن بري بمصر، وسمع الحديث بدمشق ومصر. واشتغل بالعبادة عن الرواية، وكتب [الكثير بخطه المليح من المصاحف والكتب مثل:] «الحلية«لأبي نعيم، و«تفسير البغوي»، و«المغني» لأخيه، و«الإبانة» لابن بطَّة، ومصاحف كثيرة، للناس ولأهله، وكتباً كثيرة، الكل بغير أجرة.

وكان يصوم الدهر، إلا من عذر، ويقوم الليل من صغره، ويحافظ على الصلوات في الجماعات، ويخرج من ثلث الليل الأخير إلى المسجد في الظلمة، فيصلي إلى الفجر، ويقرأ في كل يوم سُبَعين من القرآن، بين الظهر والعصر، ويقرأ بعد العشاء الآخرة آيات الحرس، و«ياسين» و«تبارك» و«الواقعة»، والمعوذتين، و«قل هو الله أحد»، وإذا ارتفعت الشمس لقَّن الناس القرآن إلى وقت الضحى، ثم يقوم فيصلي ثماني ركعات، ويقرأ «قل هو الله أحد» ألف مرة، ويزور المقابر بعد العصر في كل جمعة، ويصعد يوم الاثنين والخميس إلى مغارة الدم ماشياً بالقبقاب، فيصلي فيها ما بين الظهر والعصر، وإذا نزل جمع «الشِّيحَ» من الجبل وربطه بحبل وحمله إلى بيوت الأرامل، واليتامى، ويحمل في الليل إليهم الدراهم، والدقيق ولا يعرفونه، ولا ينام إلا على طهارة، ومتى فتح له بشيء من الدنيا آثر به أقاربه، وغيرهم، ويتصدَّق بثيابه، وربما خرج الشتاء وعلى جسده جبَّة بغير ثوب، ويبقى مدة طويلة بغير سراويل، وعمامته قطعة من بطانة، فإن /١١٣/ احتاج أحد إلى خرقة، أو مات صغير يحتاج إلى كفن قطع له منها قطعة، وكان ينام على الحصير، ويأكل خبز الشعير، وثوبه خام إلى أنصاف ساقيه، وما نهر أحداً ولا أوجع قلب أحد، وكان يقول: «أنا زاهد ولكن في الحرام!».

ولما نزل صلاح الدين على القدس كان هو وأخوه الموفق في خيمة، فجاء العادل إلى زيارته، وهو في الصلاة فما قطعها، ولا التفت، ولا ترك ورده، وكان يصعد المنبر وعليه ثوب خام مهدول الجيب، وفي يده عصا، فما قطعها، ولا التفت، والمنبر يومئذ ثلاث مراقٍ، وكان يحضر الغزوات مع صلاح الدين.

قال أبو المظفر: وكراماته كثيرة؛ فمنها: أني صليتُ يوم جمعة بجامع الجبل في سنة ست وستمائة، والشيخ عبد الله اليونيني إلى جانبي، فلما كان في آخر الخطبة والشيخ أبو عمر يخطب، نهض الشيخ عبد الله مسرعاً، وصعد إلى مغارة توبة، وكان نازلاً بها، فظننت أنه احتاج إلى وضوء أو آلمه شيء، فصلَّيتُ وطلعت وراءه، وقلت له: خير ما الذي أصابك؟، فقال: هذا أبو عمر ما تحل خلفه صلاة!، يقول على المنبر ما لا يصلح. قلت: وما الذي قال؟ قال: قال: «الملك العادل» وهو ظالم! فما يصدُق!!!. وكان أبو عمر يقول: «اللهم وأصلح عبدك الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب». فقلت: إذا كانت الصلاة خلف أبي عمر لا تصح، فيا ليت شعري خلف من تصح؟. وخطر لي قول عبد الرحمن بن عوف لما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمشي في أزقَّة المدينة فتبعه، فأتى بيت عجوز، فدخله، قال: فدخلت لأبصر ما يصنع؟. فتواريت، وإذا به قد خرج من عندها، فدخلت بعده وقلت للعجوز: ما كان هذا يصنع عندك؟. فقالت: يحمل إليَّ ما آكل ويخرج الأذى عني!!!.

قال عبد الرحمن: فقلت في نفسي: ويحك يا /١١٤/ عبد الرحمن! أعثرات عمر تتبع؟. قال أبو المظفر: وبينا نحن في الحديث، إذ دخل الشيخ وسلَّم، وحلَّ مئزره وفيه رغيف وخيارتان، فكسر الجميع، وقال: بسم الله الصلاة، ثم قال ابتداء: «قد روي في الحديث: أن النبي ﷺ قال: «ولدت في زمن الملك العادل كسرى». فنظر إليَّ الشيخ عبد الله وتبسَّم، ومدَّ يده فأكل، وقام الشيخ أبو عمر فنزل، فقال لي الشيخ عبد الله: ما ذا إلا رجل صالح.

قال أبو المظفر: وأصابني قولنج، عانيت منه شدة، فدخل علي أبو عمر وبيده خرُّوب شامي مدقوق، فقال: استفَّ هذا. وكان عندي جماعة فقالوا: هذا يزيد القولنج!، ويضرُّه. فما التفت إلى قولهم، وأخذته من يده فأكلته، فبرأت في الحال.

قال: وجاءه رجل مغربي فقرأ عليه القرآن، ثم غاب عنه مدة، وعاد، فلازمه، فسئل عن ذلك؟ فقال: دخلت ديار بكر، فأقمت عند شيخ له زاوية وتلاميذ، فبينا هو ذات يوم جالس بكى بكاءً شديداً، وأغمي عليه، ثم أفاق، وقال: مات القطب الساعة!، وقد أقيم أبو عمر شيخ الصالحية مقامه!؟.

قال: فقلت له: ذاك شيخي!. قال: فأيش قعودك هنا؟. قم فاذهب إليه، وسلِّم

إليه عني، وقل له: لو أمكنني السعي إليه لسعيت. ثم زودني، وسافرت.

قال أبو المظفر: وقلت له يوماً أول ما قدمت الشام ـ وما كان يرد أحداً في شفاعة ـ وقد كتب ورقة إلى الملك المعظَّم وقال فيها إلى الولد الملك المعظم: «كيف تكتب هذا والملك المعظَّم على الحقيقة هو الله؟. فتبسَّم، ورمى إليَّ الورقة، وقال: تأمَّلْها. وإذا به لما كتب «الملك المعظَّم» كسر الظاء، فصار «المعظِّم». وقال: لا بد أن يكون يوماً قد عظَّم الله تعالى.

/ ١١٥/ قال: فعجبت من ورعه، وتحفظُّه في منطقه عن مثل هذا.

قال أبو المظفر: وقال أبو عمر يوماً للمبارز المعتمد: قد أكثرت عليه من الرقاع والشفاعات!. فقال له: ربما تكتب إليَّ في حق أناس لا يستحقون الشفاعة، وأكره ردَّ شفاعتك. فقال له الشيخ: أنا أقضي حق من قصدني، وأنت إن شئت فاقبل، وإن شئت فلا تقبل. فقال: ما أردُّ ورقتك أبداً.

قال أبو المظفر: وكان سبب موته أنه حضر مجلسي بالجامع بقاسيون، مع أخيه الموفَّق والجماعة، وكان قاعداً في الباب الكبير، وجرى الكلام في رؤية الله ومشاهدته، واستغرقت، وكان وقتاً عجيباً فقام أبو عمر من جانب أخيه، وطلب باب الجامع، ولم أره، فالتفت وإذا بين يديه شخص يريد الخروج من الجامع، فصحتُ على الرجل: اقعد. فظنَّ أبو عمر أنني أخاطبه، فجلس على عتبة باب الجامع الجوانية، إلى آخر المجلس، ثم حمل إلى الدير، فكان آخر العهد به، وأقام أياماً مريضاً، ولم يترك شيئاً من أوراده. فلما كان عشيَّة الاثنين، ثامن عشر ربيع الأول سنة سبع وستمائة، جمع أهله، واستقبل القبلة، ووصاهم بتقوى الله، ومراقبته، وأمرهم بقراءة «يسٓ»، وكان آخر كلامه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[1]، وتوفي.

وغُسِّل وقت السَّحَر، ومن وصل إلى الماء الذي غُسِّل به نشَّف به النساء مقانعهنَّ، والرجال عمائمهم. ولم يتخلف عن جنازته أحد، ولما خرجوا بجنازته من الدير، كان يوماً شديد الحر، فأقبلت غمامةٌ، فأظلَّت الناس إلى قبره!. وكان يُسمَعُ منها دويٌّ كدويِّ النحل.

قال أبو المظفر: ولولا المبارز المعتمد، والشجاع بن محارب، وسيف الدولة الحسامي، ما وصل إلى قبره من كفنه شيء. وإنما /١١٦/ أحاطوا به بالدبابيس والسيوف. وكان قبل وفاته بليلة رأى إنسان كأنَّ قاسيون وقع، أو زال من مكانه، فأوَّلوه: موته.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٢.

ولما دفن رأى بعض الصالحين النبي ﷺ وهو يقول: من زار أبا عمر ليلة الجمعة، فكأنما زار الكعبة، فاخلعوا نعالكم قبل أن تصلوا إليه. ومات عن ثمانين سنة.

قال أبو المظفر: وأنشدني أبو عمر لنفسه: [من الطويل]

أَلَمْ يكُ مَلهاةً عن اللهو أنني بدا لي شيبُ الرأس والضعفُ والألَمْ
ألَمَّ بي الخطبُ الذي لو بكيتُهُ حياتي حتى يَنْفَدَ الدمعُ لَمْ أُلَمْ

قال: وكان على مذهب السلف الصالح سمتاً وهدياً، وكان حسن العقيدة، متمسكاً بالكتاب والسنة، والآثار المروية، يمرها كما جاءت من غير طعن على أئمة الدين وعلماء المسلمين، وكان ينهى عن صحبة المبتدعين، ويأمر بصحبة الصالحين الذين هم على سنة سيد المرسلين وخاتم النبيين ﷺ. وأنشد لنفسه أيضاً: [من الرجز]

أُوصيكُمُ بالقَول في القرآنِ بقولِ أهلِ الحَقِّ والاتقانِ
ليسَ بمخلوقٍ ولا بفانِ لكنْ كلامُ المَلكِ الديَّانِ
آياتُهُ مُشرقةُ المَعاني متلوَّةٌ لله باللسانِ
محفوظةٌ في الصدرِ والجَنانِ مكتوبةٌ في الصُّحْفِ بالبنانِ
والقولُ في الصفاتِ يا إخواني كالذاتِ والعلمِ مَعَ البيانِ
إمرارُها مِنْ غيرِ ما كُفرانِ مِنْ غَيرِ تشبيهٍ ولا عُدوانِ

وقال أبو شامة: أخبرني بعض أصحابنا الثقات، أنه رأى الإمام الشافعي في المنام، فسأله: إلى أين تمضي؟. قال: أزور أحمد بن حنبل، قال: فاتَّبعتُه، أنظر ما يصنع؟. فدخل داراً، فسألت: لمن هي؟ فقيل: للشيخ أبي عمر - رحمه الله تعالى. وقال أبو شامة: وأول ما وقفت على قبره وزرته، وجدت بتوفيق الله تعالى رِقَّةً عظيمة، وبكاءً، وكان /١١٧/ معي رفيقٌ لي، وهو الذي عرَّفني قبره، وجد أيضاً مثل ذلك، رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[٥٤]

عَبدُ الله بنُ عثمانَ بنِ جَعفرِ بنِ أبي القَاسِم محمد اليونينِيُّ(١)

ملجأ لخائف، وملجم للسان كل مفتر وحائف. صفت له أيامه صفاء الزجاجة،

(١) ترجمته في: مرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٦١٢- ٦١٧، وذيل الروضتين ١٢٥- ١٢٨، ونهاية الأرب ٢٩/ ١١١- ١١٣، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٢٣، ودول الإسلام ٢/ ١٢١، والعبر ٥/ ٦٧، ٦٨، =

ووفت له لياليه وفاء السحب الثجَّاجة، فمسَّ السماء ومسحها، ومدّ النعماء وفسحها، والحق يسعده، ويقربه ولا يبعده، دامت به كل عين قريرة، ونسبته على المحاسن قديرة، وهو للمتبصر سيف لك لم يثلم، وللمقتصر شرف ما كلٌّ من رقى إليه بسُلَّم يسْلَم، فكان فضله شيء جزم به وقطع، وعلم أن غيره لو حاوله لم يستطع، تهلل به وجه الدهر، وكان قد كلح، وصلح به فساده وقطُّ ما صلح.

قال عبد الله بن شكر اليونيني: كان الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ في شيبوبيَّته قد انقطع في الجبل، وكانت أخته تأتيه كل يوم بقرص وبيضتين، فأتته بذلك مرة، وإذا بفقير قد خرج من عنده ومعه قرص وبيضتان، فقالت له: من أين هذا؟. قال: من ذاك القاعد، له شهر كل يوم يعطيني قرصاً وبيضتين!. فأتته وسألته، فنهرها، وزعق فيها.

وقال خليل بن عبد الغني الزاهد الأنصاري: كنت بحلقة الحنابلة إلى جانب الشيخ عبد الله، فقام ومعه خادمه توبة إلى الكلاسة، ليتوضَّأ، وإذا برجل متختِّل يفرِّقُ ذهباً، فلما وصل إليَّ أعطاني خمسة دنانير، وقال: أين سيدي الشيخ؟. قلت: يتوضأ. فجعل تحت سجادته ذهباً، وقال: إذا جاء قل له: مملوكك أبو بكر التكريتي يسلِّم عليك، ويشتهي أن تدعو له.

فلما جاء الشيخ وقف يصلي وبقيت أنا ألعب بالذهب في عبِّي، فلما سلم قال: ما هذا؟ قلت: يا سيدي ذهب أعطانيه رجل، ويقول: /١١٨/ مملوكك أبو بكر التكريتي يسلم عليك ويشتهي أن تدعو له، فقال توبة: من ذا يا سيدي؟. قال: صاحب دمشق؛ وإذا به قد رجع، ووقف قدام الشيخ، والشيخ يصلي، فلما سلَّم أخذ السواك ودفع به الذهب، وقال: يا أبا بكر كيف أدعو لك والخمور دائرة في دمشق؟. وتغزل امرأة وقيَّةً تبيعها فيؤخذ منها قراطيس؟. فلما راح أبطل ذلك كما قال الشيخ، وكان الملكَ العادلَ.

وقال محمد بن أبي الفضل: كنت عند الشيخ، وقد جاء إليه المعظَّم، فلما جلس عنده، قال: يا سيدي ! ادعُ لي. قال: يا عيسى لا تكن نحساً مثل أبيك!. فقال: يا

= وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٠١ـ ١٠٣ رقم ٧٤، ومرآة الجنان ٤/ ٣٨، والبداية والنهاية ١٣/ ٩٣، ٩٤، والوافي بالوفيات ١٧/ ٣١٦ رقم ٢٦٧، وعقد الجمان ١٧/ ورقة ٤٠٨ـ ٤٠٩، والعسجد المسبوك ٢/ ٣٨١، والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٤٩، وشذرات الذهب ٥/ ٧٣ـ ٧٥، وجامع كرامات الأولياء ٢/ ٢٣٤ـ ٢٣٧، وموسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي (للتدمري) ق٢ ج٢/ ٦٣٦ـ ٣٦٨ رقم ٦٠٦، تاريخ الإسلام (السنوات ٦١١ـ ٦٢٠هـ) ص ٣٤٦، رقم ٤٥١.

سيدي وأبي كان نحسْاً؟. قال: نعم. أظهر الزغل، وأفسد على الناس المعاملة، وما كان محتاجاً!. قال: فلما كان الغد. أخذ الملك المعظَّم ثلاثة آلاف دينار، وطلع إلى عند الشيخ بها، وقال: هذه تشتري بها ضيعة للزاوية. فنظر إليه، وقال: قم يا ممتحن، يا مبتدع!، لا أدعو الله تنشق الأرض وتبتلعك، ما قعدنا على السجاجيد حتى أغنانا، تحتي ساقية تجري ذهباً وساقية تجري فضة!، أو كما قال.

وقال أبو طالب النجار: أنكر الشيخ عبد الله على صاحب بعلبك، وكان يسميه «مُجَيد»، فأرسل إليه الأمجد يقول: إن كانت بعلبك لك فأشتهي أن تطلقها لي، فلم يبلِّغه رسول الأمجدِ شيئاً.

وقال أبو المنى خادم الشيخ مسعود الحمصي: كنت ليلة جالساً أكبِّسُ الشيخ، وإذا به قد ضمَّ رجليه، وقام. فقلت في نفسي: خرج مجدداً وضوءاً. قال: فأبطأ علي، فخرجت أطلبه، فلم أجده، فبقيت أنتظره إلى أن عاد، فكَّبسته، ثم قام وخرج، وعاد، فبقي في نفسي شيء، فقال: ما لي أراك؟، أيش في نفسك؟. قلت: أنت تدري. قال: ويحك، كان الشيخ عبد الله اليونيني قد خرج يزور جبال العراق فودَّعته، إلى الفرات، ثم رجع فودعته، ثم ناولني منشفة بغدادية /١١٩/ وقال لي: هذه أعطانيها الشيخ، أو ما هذا معناه.

وقال أبو الحسن علي بن عثمان الموصلي: حضرت مجلس الشيخ الفقيه ببعلّبَك، وهو على المنبر، فسألوه أن يحكي شيئاً من كرامات الشيخ عبد الله، فقال بصوت جهير: كان الشيخ عبد الله عظيماً،. كنت عنده، وقد ظهر من ناحية الجبل سحابة سوداء مظلمة، ظاهر منها العذاب، فلمَّا قربت قامَ الشيخ، وقال: إلى بلدي؟ ارجعي، فرجعت السحابة. ولو لم أسمع هذه الحكاية من الفقيه ما صدَّقت.

وقال الشيخ محمد السكاكيني، وكان لا يكاد يفارق الشيخ: كنت ليلة ببعلبك فدعاني إنسان، وألحَّ عليَّ؛ [فأتيته] فقلت: كيف أخلي الشيخ؟ فقال: لا بدَّ من هذا. فلما كان الليل، قلت في نفسي: يكون الشيخ في الجبل، وأنا ههنا، فقمت، وطلعت من السور، من عند عمود الراهب، وجئت إلى الزاوية، فإذا الشيخ ظاهرها وهو يقول: يا مولاي! ترسل إليَّ الناس في حوائجهم؟، من هو أنا حتى ترسلهم إليَّ؟. اقضها أنت لهم يا مولاي!. إبراهيم النصراني من جبَّة بشرّي، يا مولاي!، ودعا له، فبهتُّ لذلك، ونمت، ثم قمتُ إلى الفجر، وبقيت عنده يومئذ إلى الليل. فلما كان الليل وأنا ظاهر الزاوية، إذا بشخص، فقلت: أيش تعمل هنا؟. وإذا هو إبراهيم النصراني!. من «جبة بشرِّي»، قلت: أيش جابك؟. قال: أين الشيخ؟. قلت: يكون في المغارة، وأيش تريد

به؟. قال: رأيت البارحة رسول الله ﷺ وهو يقول: تروح إلى الشيخ عبد الله، وتُسْلِمْ على يده، فقد شفع فيك!.

فرحنا إلى الشيخ وإذا به في المغارة، فلما رآه الشيخ، قال: يا سيد! أيش بك؟. فقصَّ عليه ما رأى، فتفجَّرتْ عينا الشيخ، وغرغرت بالدموع، وقال: «سماني رسول الله ﷺ شويخ!؟. فأسلم إبراهيم، وجاء منه رجل صالح.

وقال عبد الصمد: واللهالذي لا إله إلا هو، مذ /١٢٠/ خدمت الشيخ عبد الله اليونيني، ما رأيته استند على شيء، ولا سَعَلَ، ولا تنحنح، ولا بصق. وقال الفقيه محمد اليونيني: حضرت الشيخ عبد الله مرَّتين، وقد سأله ابن خاله حميد بن برق، فقال: زوجتي حامل، إن جاءت بولد ما اسميه؟. قال: سمِّ الواحد سليمان، والآخر داود!. فولدت اثنين توأماً.

وقال له ابنه محمد: امرأتي حامل، إن جاءت بولد ما أسميه؟. قال: سمِّ الأول عبد الله، والثاني: عبد الرحمن!. وقال سعيد المارديني: جاء رجل من بعْلَبَكّ إلى الشيخ، فقالوا: جاءت الفرنج. قال: فمسك لحيته، وقال: هذا الشيخ النحس ما قعوده ها هنا؟. فرُدَّتْ الفرنج!.

وقال أبو المظفر سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان»: عبد الله اليونيني أسد الشام، كان صاحب رياضات ومجاهدات، وكرامات وإشارات، لم يقم لأحد تعظيماً لله؛ وكان يقول: لا ينبغي القيام لغير الله. صحبته مدة، وكان لا يدَّخر شيئاً، ولا يمس ديناراً ولا درهماً، وما لبس طول عمره سوى الثوب الخام، وقَلَنْسُوَة من جلد ماعز تساوي نصف درهم، وفي الشتاء يبعث له بعض أصحابه فروة، فيلبسها، ثم يؤثر بها في البرد. قال لي يوماً ببعلبكّ: يا سيدي!، أنا أبقى أياماً في هذه الزاوية ما آكل شيئاً!. فقلت: أنت صاحب القبول، كيف تجوع؟. قال: لأن أهل بَعْلَبَكَّ يتَّكل بعضهم على بعض، فأجوع أنا، فحدَّثني خادمه عبد الصمد، قال: كان يأخذ ورق اللوز يفركه، ويستفّه!. وكان الملك الأمجد يزوره، فكان الشيخ يهينه، فما قام له يوماً، وكان يقول: يا مُجَيد! أنت تظلم وتفعل، وهو يعتذر إليه. وأظهر الملك العادل قراطيس سوداً، فقال الشيخ عبد الله: انظروا إلى هذا الفاعل الصانع، يفسد على الناس معاملاتهم، فبلغ العادل ذلك، /١٢١/ فأبطلها.

وكنت اجتمعت به في سنة ستمائة إلى سنة ثلاث، وكان له تلميذ اسمه توبة. وسافرت إلى العراق سنة أربع، وحججت، فلما كان يوم عرفة، صعدت جبل عرفات، فإذا بالشيخ عبد الله قاعد مستقبل القبلة، فسلَّمتُ عليه، فرحَّب بي وسألني عن

طريقي؟، وقعدتُ عنده إلى وقت الغياب، ثم قلت: ما نقوم نروح إلى المزدلفة؟. فقال: اسبقني؛ فلي رفاق. فأتيت مزدلفة ومنى، فدخلت مسجد الخيف، فإذا بالشيخ توبة، فسلَّم عليَّ، فقلت: أين نزل الشيخ؟. فقال: أيُّما شيخ؟. قلت: عبد الله اليونيني. قال: خلّفتهُ ببعلبكَّ. فقطَّبت، وقلت: مبارك. ففهم، وقبض على يدي وبكى، وقال بالله حدثني، أيش معنى هذا؟. قلت: رأيته البارحة على عرفات. ثم رجعتُ إلى بغداد، ورجع توبة، إلى دمشقَ، وحدَّثَ الشيخَ عبدَ الله، ثم حدثني الشيخ توبة، قال: قال لي: ما هو صحيح منك، فلانٌ فتى، والفتى لا يكون غمَّازاً، فلما عدت إلى الشام عتبني الشيخ.

قال سبط ابن الجوزي: وحدَّثني الجمال [بن] يعقوب، قاضي [كرك] البقاع، قال: كنت عند الجسر الأبيض، وإذا بالشيخ عبد الله قد جاء ونزل إلى ثورا، وإذا بنصراني عابر على الجسر، ومعه بغل عليه حِمْلُ خمر، فعثر البغل ووقع، فصعد الشيخ وقال: يا فقيه! تعال. فعاونته حتى حملناه، فقلت في نفسي: أيش هذا الفعل؟. ثم مشيت خلف البغل إلى العقيبة، فجاء إلى دكان الخمَّار، فحلَّ الظرف وقلبه، وإذا به خَلّ!. فقال له الخمَّارُ: ويحك هذا خل!. فبكى، وقال: والله ما كان إلا خمراً من ساعة، وإنما أنا أعرف العلة، ثم ربط البغل في الخان، وعاد إلى الجبل، وكان الشيخ قد صلى الظّهر عند الجسر في مسجدٍ، فدخل عليه النصراني، وأسلم، وصار فقيراً.

قال أبو المظفر: وكان /١٢٢/ الشيخ شجاعاً، ما يبالي بالرجال، قلُّوا أو كثروا، وكان قوسه ثمانين رطلاً، وما فاتته غزاة في الشام قطُّ. وكان يتمنى الشهادة، ويلقي نفسه في المهالك. فحكى لي خادمه عبد الصمد: قال: لما دخل العادل إلى بلاد الفرنج، إلى صافيتا، قال لي الشيخ ببعلبكَّ: انزل إلى عبد الله الثقة، فاطلب لي بغلته، قال: فأتيته بها، فركبها، وخرجت معه فبتنا في يونين، وقمنا نصف الليل، فجئنا المحدثة الفجر، فقلت له: لا تتكلم فهذا مكمن الفرنج. فرفع صوته وقال: الله أكبر، فجاوبته الجبال، فيبست من الفزع!، ونزل فصلى الفجر، وركب، فطلعت الشمس، والطير لا يطير في تلك الأرض، وإذا قد لاح في ناحية حصن الأكراد طلب أبيض، فظنهم «الأسبتار»، فقال: الله أكبر، ما أبركك من يوم!. اليوم أمضي إلى صاحبي. وساق إليهم وشهر سيفه، فقلت في نفسي: شيخ وتحته بغلة، وبيده سيف، يسوق إلى طلب فرنج!. فلما كان بعد لحظة وقربوا، إذا هم بمائة حمير وحش، فانكسر قلبه، وفترت همته، وجئنا إلى حمص، فجاء الملك المجاهد أسد الدين، وقدَّم له حصاناً من خيله، فركبه، ودخل معهم، وفعل عجائب. وكان يقول للفقيه محمد: فيَّ وفيك نزلت:

﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾[1] أنا من الرهبان، وأنت من الأحبار!

وقال كمال الدين ابن العَديم في «تاريخ حلب»: أخبرني الشيخ محمد اليونيني، قال: سمعت الشيخ عبد الله اليونيني ينشد: [من الطويل]

شفيعي إليكمْ طُولُ شَوقي إليكمُ ... وكلُّ كريم للشفيعِ قبُولُ
وعذري إليكمْ أنني في هَوَاكمُ ... أسيرٌ ومأسورُ الغَرامِ ذليلُ
فإنْ تَقبلوا عُذري فأهلاً ومَرحباً ... وإنْ لمْ تُجيبوا فالمُحِبُّ حَمُولُ
/١٢٣/ سأصبرُ، لا عنكمْ ولكنْ عليكمُ ... عسى لي إلى ذاكَ الجَناب وُصُولُ

وأخبرني الشيخ محمد قال: كان الشيخ يصلي بعد العشاء الآخرة وِرْداً إلى قريب ثُلث الليل، فكان ليلة يعاتب ربه عز وجلَّ، ويقول: يارب! الناس ما يأتوني إلا لأجلك، وأنا قد سألتك في المرأة الفلانية، والرجل الفلاني أن تقضي حاجته، وما قضيتها، فهكذا يكون؟. ويبكي ليله وينتحب. وليلة يتمثل بهذه الأبيات، وكان يتمثل بها كثيراً.

قال: وأخبرني القاضي شمس الدين عبد الله الحنفي النائب بدمشق، قال: حكى رجل من الفقراء كان قد صحب الشيخ عبد الله اليونيني، وكان في صباه حمامياً، قال: دعتني نفسي إلى معاشرة النساء، فبينا أنا عند امرأة، وإذا زوجها قد جاء، فدقَّ الباب، فحِرْتُ، وكان بيتها صغيراً، فصعدت السطحَ، فدخل زوجها، فرآها متغيرة، فقال: ما لك؟. قالت: لا شيء، فارتاب، وصعد السطح. قال: ونظرت واللهإلى عمامته وهو في السلَّم صاعد. فقلت: «يا سيدي الشيخ عبد الله!، أنا في حسبك». فطلع، فلم يرني، ونزل، وبقي في بيته ساعة، وخرج. فنزلت، ومضيت إلى الشيخ، فقال: ويلك يا مُدبر! تتستَّر بنا، وتستعين بنا على المعاصي؟!

قال ابن العديم: وقد صحبته، ووهب لي قميصاً لهُ أزرق، وقال لي يوماً ببيت المقدس: يا أبا القاسم! اعشق تفلح!. فاستحييتُ، وذلك في سنة ثلاث وستمائة. وعدت مع والدي. ثم بعد مدة سارَّني بجامع دمشق، وقال: عشقتَ بعدُ؟. فقلت: لا. قال: شُه عليك. واتفق أني تزوجت بعد ذلك بسنة، وملت إلى الزوجة ميلاً عظيماً، فما كنت أصبر عنها. قال لي الفقيه محمد: كنت عند الشيخ، فالتفت إلى داود المؤذِّن، فقال: وصيَّتُك بي غداً، فظنَّ الموذن أنه يريد يوم القيامة. وكان ذلك يوم الجمعة، وهو

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٤.

صائم، فلما جاء وقت الإفطار، / ١٢٤/ قال لجاريته: يا درَّاج! أجدُ عطشاً. فسقته ماء لينوفر، فبات تلك الليلة، وأصبح وجلس على حجر، موضع قُبِرَ، مستقبلَ القِبلة، فمات وهو جالس، ولم نعلم بموته، حتى حرَّكوه، فوجدوه ميتاً، فجاء المؤذِّنُ وغسَّله، رحمه الله تعالى.

قال الفقيه: كنت عند الشيخ يوماً؛ فجاءه رجلان من العرب، فقالا: نطلع إليك؟. قال: لا. فذهب أحدهما، وجلس الآخر، فقال الشيخ: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾(١)، ثم قال له: اطلع. وطلعَ، فأقام عندنا أياماً، فقال له الشيخ: تحب أن أريك قبرك؟. قال: نعم. فأتى به المقبرة، فقال: هذا قبرك!. فأقام بعد ذلك اثني عشر يوماً، أو أربعة عشر يوماً، ثم مات، فدفن في ذلك المكان!. وكان له زوجة، ولها بنت، فطلبت أن يزوجني بها، فتوقَّفت أمها، وقالت: هذا فقير ما له شيء. فقال: والله إني أرى داراً قد بُنيتْ له، وفيها ماءٌ جارٍ، وابنتكِ عنده في الإيوان، وله كفاية على الدوام، فقالت: ترى هذا؟. قال لها: نعم. فزوَّجَتْنِيها، ورأت ذلك، وأقامت معي سنين، وذلك سنةَ محاصرة الملك العادل سنجار. وكانت امرأة بعد موتها تطلب زواجي، وتشفَّعتْ بزوجة الشيخ، فلما أكثرتْ عليّ، شكوتها إلى الشيخ، فقال: طوِّلْ روحك يومين، ثلاثة، ما تعود تراها. قال: فقدم ابن عمها من مصر أميرٌ كبيرٌ بعد أيام، فتزوَّج بها، وما عدتُ رأيتها.

قال ابن العديم: توفي في عشر ذي الحجة، سنة سبع عشرة وستمائة، وهو صائم، وقد جاوز الثمانين. وكان رحمه شيخاً طُوالاً، مهاباً، كأنه نار، وكان يقوم نصف الليل إلى الفقراء، فمن رآه نائماً ضربه، وكان له عصاة اسمها «العافية». وكان شجاعاً في الله، وبالله، / ١٢٥/ كثير الأذكار والحضور، يغار ممن يذكر اسم «الجبَّار» بغير استحضار، وله هيبة على المشايخ والفقراء، لا يستطيع الإنسان أن يطيل النظر إليه، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم. وكان من حين اشتدَّ يخرج ويتطرح في شعراء يونين، فإذا رآه السفارة، حملوه إلى أمه، وكانت صالحة. فلما انتشا، طلب لبنان، وتعبَّد فيه.

وقال الشيخ شمس الدين محمد بن العماد نزيل مصر: ما سمي أحد بأسد الشام إلا الشيخ عبد الله اليونيني. وقال الشيخ علي القصار: كنت إذا رأيت الشيخ عبد الله أهابه كأنه أسد، فإذا دنوت منه، وددت أني أشق قلبي وأجعله فيه. رحمه الله تعالى.

---

(١) سورة الرعد: الآية ١٧.

ومنهم:

[٥٥]

الشَّيخُ يُونُسُ بنُ يوسفَ بنِ مُساعد الشَّيبانيُّ، المُخَارِقِيُّ، المشرقيُّ، القُنَيُّ شيخ الفقراء اليونسية[١]

رجلٌ لم يكن في التقوى محرّجا، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[٢]، توالت عليه العصب، وقام له العدو، وانتصب فرُدَّ خائباً، وفرَّ دون لقائه آيبا، فتوكل له ربه، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٣]، فكشف له الغطاء، ووكف له العطاء، وأنافت له غُدُر المواهب، وأشرقت به غدائر الغياهب، وكانت لياليه مشكاة لأنوار، ومشكاة لأوار، وعزائمه تُسعِّر لجج السيوف وتوقدها، وطائفته شاكية السلاح، شافية في أهل الصلاح، طالما حلّوا الدهرَ هما، وأشبهوا الصحاب ذمما، واتَّزروا بزيٍّ غريب من طُرّة عجيب نظره، فلبسوا أحلاماً، وصلوا اخلافاً، ولم يكن من انتموا إليه وارتموا عليه على طريقتهم التي سلكوها، وحقيقتهم التي ضيَّعوها بعد أن ملكوها.

قال ابن خلّكان: [وسألت جماعة] من أصحابه عن شيخه من كان؟. فقالوا: / ١٢٦/ لم يكن له شيخ؛ بل كان مجذوباً، وهم يسمون من لا شيخ له بـ «المجذوب»، يريدون بذلك أنه جُذب إلى طريق الخير والصلاح، ويذكرون له كرامات.

وقال ابن خلّكان: أخبرني الشيخ محمد بن أحمد بن عبيد، كان قد رآه وهو صغير، وذكر أن أباه أحمد كان صاحبه، فقال: كنا مسافرين والشيخ يونس معنا، فنزلنا في الطريق على عين بوار، وهي التي يجلب منها الملح البواري، وهي بين سنجار وعانة، قال: وكانت الطريق مخوفة، فلم يقدر أحد منا أن ينام من شدة الخوف، ونام الشيخ يونس، فلما انتبه قلت له: كيف قدرت أن تنام؟.

---

(١) ترجمته في: وفيات الأعيان ٧/ ٢٥٦ـ ٢٥٧، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٣٢، والمختار من تاريخ ابن الجزري ١١٥، ودول الإسلام ٢١/ ٩٣، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٧٨ـ ١٧٩ رقم ١١٩، والعبر ٥/ ٧٧، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٠٣، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٤٤، ومرآة الجنان ٤/ ٤٦ـ ٤٧، والمواعظ والاعتبار ٢/ ٤٣٥، وطبقات الأولياء لابن الملقن ٤٩٠ رقم ١٧٣، وتاريخ ابن سباط (تحقيق التدمري) ١/ ٢٨١، والدارس ٢/ ٢١٣ـ ٢١٥، وشذرات الذهب ٥/ ٨٧، وجامع كرامات الأولياء ٢/ ٢٩٦، والخطط التوفيقية ٦/ ٤٥، تاريخ الإسلام (السنوات ٦١١ـ ٦٢٠هـ) ص ٤٧١ـ ٤٧٣ رقم ٦٤٧.

(٢) سورة الطلاق: الآية ٢. (٣) سورة الطلاق: الآية ٢.

فقال لي: والله ما نمت حتى جاء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وتدرَّك الفعْل. فلما أصبحنا رحلنا سالمين ببركة الشيخ يونس.

قال: وعزمت مرة على دخول نصيبين، وكنت عند الشيخ يونس في قريته، فقال: إذا دخلت البلد فاشتر لأم مساعد كفناً، قال: وكانت في عافية، وهي أم ولده، فقلت له: وما بها حتى نشتري لها كفناً؟. فقال: ما يضر، فذكر أنه لما عاد وجدها قد ماتت!.

وذكر له غير هذا من الأحوال والكرامات. وأنشدني له مواليا، وهو: [من المواليا]

أنا حميتُ الحِمى وانا سكنت فيهْ ... وأنا رميتُ الخلايق في بحارِ التِّيهْ
مَنْ كانَ يبغي العَطا مِنِّي أَنا أُعطيهْ ... أنا فتًى ما أداني مَنْ بهِ تَشبيهْ

قال ابن خلِّكان: وذكر لي الشيخ محمد المذكور أن الشيخ يونس توفي سنة تسع عشرة وستمائة في قريته، وهي «القُنَيَّة»، من أعمال «دارا»، وقبره مشهور بها يزار، وكان قد ناهز تسعين سنة من عمره. رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[٥٦]

السَّاوجي شَيخُ القَلَنْدَرِيَّة، جَمَالُ الدِّين، محمد الزَّاهِد[1]

أليف حالٍ لو صُبَّ على الصخر لتصدَّع، ولو استوقف به المفارق لما وَدَّع، كان لا يصدف مسمعاً، ولا يصرف في غير الهوى العذري مدمعاً، هام بالحب فتيَّمه، وأثكله مذ أحبَّ وأيَّمه، /١٢٧/ شهدت البصائر من حاله ما أعجب، ومن فرط بكائه وانهماله ماء لولا النار لأعشب، فحمَّل إنسان عينيه ما لم يطق، وسقي بكأسٍ مذ شرب منه لم يفق. وكان في مبدأ أمره إذا قدم دمشق بطلب العلم مشتغلا، وفي لهب الجد مشتعلا، ثم شمَّر للزهد إزاره، وانقطع سواء من هجره أو زاره، وأقام مجاوراً لمحلَّة الأموات، وجاراً للأعظُم الرُّفات، ثم حلق شعر لحيته ورأسه، واتخذه شعاراً لأناسه، فلم يزل رياً لأتباعه، وحلية لضباع قاعه وسباعه. وربما أتى هو وبعض ذويه بمخاريق وكرامات، للإنكار فيها طريق. وأصحابه يُرْمَونَ باستعمال المسكر، إلا أنه الذي لا يُعصَر، والمسكِر الذي يفعل فعل المُدام، ولا يعرف وينكر.

قدم دمشق، وقرأ القرآن والعلم، وسكن بجبل قاسيون بزاوية الشيخ عثمان الرومي، وصلى به مدة. ثم حصل له زهد، وفراغ عن الدنيا، فترك الزاوية وانملس،

---

(١) ترجمته في: الوافي بالوفيات ٥/ ٢٩٢ـ ٢٩٣ رقم ٢٣٥١، الدارس ٢/ ٢١٠، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٢١ـ ٦٣٠هـ) ص ٤٢٣ـ ٤٢٤ رقم ٦٣٧.

وأقام بمقبرة الباب الصغير، قريباً من الموضع الذي بنى فيه القبة لأصحابه، وبقي مدة في قُبَّة زينب بنت زين العابدين، فاجتمع فيها بالجلال الدركزيني، والشيخ عثمان كوهي الفارسي، الذي دفن بالقنوات، بمكان القلندرية. ثم إن السَّاوجي حلق وجهه ورأسه، فانطلى على أولئك حاله، فوافقوه، وحلقوا. ثم فتَّش أصحاب الشيخ عثمان [الرومي] على السَّاوجي فوجدوه بالقبة فسبُّوه، وقبَّحوا فعله، فلم ينطق ولا ردَّ عليهم. ثم اشتهر وتبعه جماعة وحلقوا، وذلك في حدود العشرين وستمائة. ثم لبس دلق شعر، وسافر إلى دمياط، فأنكروا حاله وزيَّه، فرنق بينهم ساعة، ثم رفع رأسه، وإذا هو بشيبة ـ فيما قيل ـ كبيرة بيضاء. فاعتقدوا فيه، وضلُّوا به، حتى قيل: إن قاضي دمياط وأولاده، وجماعة حلقوا لحاهم، /١٢٨/ وصحبوه، والله أعلم بصحة ذلك.

وتوفي بدمياط بعد العشرين وستمائة. وقبره بها مشهور، وله هناك أتباع.

وذكر شمس الدين الجزري في تاريخه: أنه رأى كراريس من «تفسير» القرآن الكريم للشيخ جمال الدين السَّاوجي، وبخطه. وجلس في المشيخة بعده بمقبرة الباب الصغير، جلال الدين الدركزيني، وبعده: الشيخ محمد البلخي، وهو ـ أعني البلخي ـ من مشاهير القوم، وهو الذي شرع لهم الجولق الثقيل، وأقام الزاوية، وأنشأها، وكثر أصحابه. وكان للملك الظاهر فيه اعتقاد، فلما تسلطن طلبه، فلم يمضِ إليه. فبنى لهم السلطان هذه القبة من مال الجامع. وكان إذا قدم يعطيهم ألف درهم، وشقتين من البُسط، ورتَّب لهم ثلاثين غرارة قمح، في السنة، وعشرة دراهم في اليوم. وكان السويداوي منهم يحضر سماط السلطان الملك الظاهر، ويمازح السلطان. ولما أنكروا في دولة الأشرف موسى على عليّ الحريري أنكروا على القَلَنْدرية ـ وتفسيرها بالعربيّ المحلِّقين ـ ونفوهم إلى قصر الجُنَيد.

وذكر ابن إسرائيل الشاعر: إن هذه الطائفة ظهرت بدمشق سنة نيِّف وعشر وستمائة. ثم أخذ يحسن حالهم.

ومنهم:

[٥٧]

الشَّيخُ عبدُ الله بنُ يُونُسَ الأَرْمَنِي الحَنَفِيُّ(١)

الشيخ، الزاهد، القدوة. قدوة لمّا عصم، وأسوة فيما عُلم، فطفق يفيض

---

(١) ترجمته في: مرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٦٨٦ـ ٦٩١، والتكملة لوفيات النقلة ٣/ ٧٣ رقم ٢٥٤٩، وذيل =

المواهب، وطفح جدوله ليغيض الغياهب، ولم يزل منتاباً، ومؤملاً يهدي مرتاباً، وكشف لبصيرته، وأشرف بسريرته، وأدلج إلى الآخرة يحدي به مطايا النفوس، حتى زُف إلى لحده زفاف العروس، وأطبق ملحده عليه، وعلى ما تبعه من النفوس، ثم خلا بعمله، وخلف المحلف خالياً بعدله، وذهب لم يطمسْ له منار، ونزل الجنة، /١٢٩/ والقلوب بعدُ في نار.

أصله من أرمينية الروم، وجال في البلاد، ولقي الصلحاء والزهَّاد، وكان صاحب أحوال ومجاهدات، وكان سمحاً، لطيفاً، متعفِّفاً، لازماً لشأنه، مُطَّرحَ التكلف. ساح مدة وبقي يتقنَّع بالمباحات، وكان متواضعاً، سيِّداً، كبير القدر، له أصحاب ومريدون، ولا يكاد يمشي إلا وحده، ويشتري الحاجة بنفسه، ويحملها. وكان قد حفظ القرآن، وكتاب القُدُوري، فوقع برجلٍ من الأولياء فدلَّه على الطريق إلى الله.

توفي تاسع عشرين شوال سنة إحدى وثلاثين وستمائة. وكانت له جنازة مشهودة، وزاويته مطلة على قبر الشيخ موفق الدين بسفح قاسيون، ودفن جوار الزاوية رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[٥٨]

شِهَابُ الدِّينِ السُّهْرَوَرْدِيُّ(١)

أبو حفص، عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن [عمر بن] عمُّويه. واسمه عبد

= الروضتين ١٦٢، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٣٣، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٦١ وفيه «الإرموي»، والمختار من تاريخ ابن الجزري ١٥٣ـ ١٥٤، والعبر ٥/ ١٢٥ وفيه «الإرموي»، والوافي بالوفيات ١٧/ ٦٩٥ـ ٦٩٦ رقم ٥٨٦، والبداية والنهاية ١٣/ ١٤١ـ ١٤٢، ومرآة الجنان ٤/ ٧٥، والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٨٥، وشذرات الذهب ٥/ ١٤٥ـ ١٤٦، والدارس ٢/ ١٩٦، والقلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية لابن طولون ١/ ١٩٢ـ ١٩٣، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٣١ـ ٦٤٠هـ) ط ٧٠ـ ٧١ رقم ٣٦.

(١) ترجمته في: وفيات الأعيان ٣/ ٤٤٦ـ ٤٤٨ رقم ٤٩٦، معجم البلدان ٢/ ٢٠٤، وذيل تاريخ مدينة السلام بغداد لابن الدبيثي (بارس ٥٩٢٢) ورقة ٢٠٢، ومرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٦٧٩ـ ٦٨٠، والتكلمة لوفيات النقلة ٣/ ٣٨٠ـ ٣٨١ رقم ٢٥٦٥، وذيل الروضتين ١٦٣، والجامع المختصر لابن الساعي ٩٩، ١٤٥، ٢٥٩، وأخبار الزهاد له، ورقة ٩٥ـ ١٠٢، وتاريخ إربل لابن المستوفي ١/ ١٩٢ـ ١٩٤ رقم ٩٦، وقلائد الجمان لابن الشعار ٥/ ١٩٠ـ ١٩١ رقم ٥٣١، ووفيات الأعيان ٣/ ٤٤٦ـ ٤٤٨، والحوادث الجامعة ٤٢، وتلخيص مجمع الآداب ١/ ٦٨، ١٢٣، ١٥٨، ٢١٤، ونهاية الإرب ٢٩/ ١٩٢، (وفيات ٦٣٠هـ)، وسير الأولياء للخزرجي ٦٧، ودول الإسلام ٢/ ١٣٦، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٧٣ـ ٣٧٧ رقم ٢٣٩، والمختصر المحتاج إليه =

الله بن سعد بن الحسين بن القاسم بن النضر بن القاسم بن سعد بن النضر بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق الملقب: شهاب الدين السُّهْرَوَرْدِي.

رأس سُنَّةٍ وجماعة، ورحا سنةٍ ذات مجاعة. كان الغيث يستهلُّ من فروج أصابعه، وتستقي البحار من منابعه، مع اعتزائه إلى نسب صِدِّيقيّ، واعتزازه منه بحسب حقيقي، وإجلال الخلفاء لمحله، وانتساب الوفاء إلى حرمه وحِلِّه، ونظره في العلم نظراً يُعَدَّ به من الفقهاء، وشغل أوقاته شغلاً ما قرَّ للالتهاء. وكان في أول أمره ومقتبل عمره - على شدة فاقته، وعدم قدرته على الدنيا وطاقته - يعطي عطاء المكثرين، ويهب هبات المثرين، مع فقر يعضُّ عليه، ويغضُّ بصر أمله لديه، لعفَّةٍ ما زالت تحل له رتاجاً، وتوسع عليه فلا تدعه / ١٣٠/ مُحتاجا، إلى أن صار من ذوي الثراء، والنعم والإثراء، وعلا مقاماً كان له سعدا، وتمَّ تماماً كان له إرثاً من آبائه حتى يعد معدًّا.

وكان فقيهاً شافعي المذهب، شيخاً صالحاً ورعاً، كثير الاجتهاد في العبادة والرياضة، وتخرَّج عليه خلقٌ كثير، من الصوفية في المجاهدة والخلوة، ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله. وصحب عمَّه أبا النجيب، وعنه أخذ التصوف والوعظ، والشيخ أبا محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي، وغيرهما، وانحدر إلى البصرة إلى الشيخ أبي محمد بن عبد، ورأى غيرهم من الشيوخ، وحصَّل طرفاً صالحاً من الفقه والخلاف، وقرأ الأدب، وعقد مجلس الوعظ سنين. وكان شيخ الشيوخ ببغداد، وكان له مجلس وعظ، وعلى وعظِهِ قبول كثير، وله نَفَسٌ مبارك.

حكى من حضر مجلسه أنه أنشد يوماً على الكرسي: [من الكامل]

= ٣/ ١٠٨- ١٠٩ رقم ٩٥٨، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٦١- ١٦٣، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ٢٠٩- ٢١٠ رقم ١٦١، ومرآة الجنان ٤/ ٧٩- ٨٢، وطبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٦٣- ٦٤ رقم ٦٥١، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٥/ ١٤٣ (٨/ ٣٣٨- ٣٤١)، ونثر الجمان للفيومي ٢/ ورقة ٦٧- ٦٨، والبداية والنهاية ١٣/ ١٣٨- ٣٤٣، (٦٣١هـ و٦٣٢هـ)، وطبقات الشافعية لابن كثير، ورقة ١٦٦ ب و١٦٧، والعقد المذهب لابن الملقن، ورقة ١٧٥ وطبقات الأولياء، له ٢٦٢، ٢٦٥، ٤٦٨، ٤٩٣، ٤٩٥، ٤٩٧، ٤٩٩، ٥٠٤- ٥٠٦، ٥٠٩، ٥١٥، ونزهة الأنام لابن دقماق، ورقة ٨، ٩، والفلاكة والمفلوكون ١٢٠، والعسجد المسبوك ٢/ ٤٦٧- ٤٦٨، والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٨٣- ٣٨٥ (في وفيات ٦٣١هـ)، والقلائد للتادفي ١١١- ١١٢، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ٤١٣- ٤١٤ رقم ٣٨١، وتاريخ الخميس ٢/ ٤١٤، ولسان الميزان ٤/ ٣١٧، وحسن المحاضرة ١/ ٢٤٦، وشذرات الذهب ٥/ ١٥٣، ١٥٤، وروضات الجنات ٥٠٥، وكشف الظنون ١٢٦، وإيضاح المكنون ١/ ٦٣، ١١٨، وهدية العارفين ١/ ٧٨٥، وديوان الإسلام ٣/ ٤٣٤- ٤٣٥ رقم ١٦٤١، وتاريخ الأدب العربي ١/ ٤٤٠، والأعلام ٥/ ٦٢، ومعجم المؤلفين ٧/ ١٣، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٣١- ٦٤٠هـ) ص ١١٢- ١١٥ رقم ١١٢.

لا تَسقني وحْدي فما عوَّدتني   أني أشحُّ بها على جُلاسِي
أنتَ الكريمُ ولا يليقُ تكرُّماً   أنْ يعبرَ الندماءُ دَورَ الكاسِ

فتواجد الناس لذلك، وقطعت شعور كثيرة، وتاب جمع كبير[١].

قال ابن خلِّكان[٢]: ورأيت جماعة ممن حضروا مجلسه وقعدوا في خلوته وتسليكه ـ كجاري عادة الصوفية ـ فكانوا يحكون غرائب مما يطرأ عليهم فيها، وما يجدونه من الأحوال الخارقة، وكان قد وصل رسولاً إلى إربل، من جهة الديوان العزيز، وعقد بها مجلس وعظ، ولم تتفق لي رؤيته لصغر السن.

وكان كثير الحج، وربما جاور في بعض حججه. وكان أرباب الطريق من مشايخ عصره يكتبون إليه من البلاد صورة فتاوى يسألونه عن شيء من أحوالهم.

سمعت أن بعضهم كتب إليه: «يا سيدي، إن تركت العمل، أخلدت إلى البطالة، وإن عملت داخلني العُجْبُ، فأيهما أولى؟». /١٣١/ فكتب جوابه: «اعمل واستغفر الله تعالى من العُجب».

وحكى الوداعي عن الشيخ قطب الدين بن القرطبي قال: حضرت مجلس الشيخ شهاب الدين السهروردي بمكة، وهو يعظ، فأنشد في خلال وعظه: [من البسيط]

هوَ الحِمى ومَغانيهِ مَغانيهِ   فانزلْ وعايِنْ بليلى ما تُعانيهِ
ما في الصّحابِ أخو وجْدٍ أطارحُهُ   حديثَ نَجْدٍ ولا صَبٌّ أجاريهِ

فقام إليه فقير فقال: أنا أطارحك أيها الواعظ!، وجلس ووضع رأسه بين ركبتيه، فقال الشيخ: جهِّزوا أخاكم، فإنه قد مات!. فقاموا إليه فوجدوه قد مات، فجهَّزوه، وواروه. وله كتاب: «عوارف المعارف» ذكر فيه أبياتاً لطيفة منها: [من البسيط]

أَشَمُّ مِنكَ نسيماً لستُ أعرفُهُ   أَظنُّ لمياءَ جرَّتْ فيكَ أذيالا

وذكر فيه أيضاً: [من الخفيف]

إن تأمَّلتكمْ فُكلِّي عُيونٌ   أو تذكَّرتكمْ فكُلِّي قُلوبُ

ومن شعره أيضاً قوله[٣]: [من مخلع البسيط]

تَصرَّمَتْ وحشَةُ الليالي   وأقبلتْ دَولةُ الوصالِ
وصارَ بالوصلِ لي حَسُوداً   مَنْ كانَ في هُجْركُمْ رَثَى لِي
وحقِّكمْ بَعْدَ أَنَ حَصَلتُمْ   بكُلِّ ما فاتَ لا أُبالي

---

(١) إلى هنا النقل من وفيات الأعيان ٣/ ٤٤٦.
(٢) وفيات الأعيان ٣/ ٤٤٧.
(٣) وفيات الأعيان ٣/ ٤٤٧ـ ٤٤٨.

أَحـيـيـتُـمـونـي وكـنـتُ مَـيْـتـاً وبِـعـتُـمـونـي بـغـيـرِ غـالـي
تـقـاصَـرَتْ عـنـكُـمُ قـلـوبٌ فـيـا لَـهُ مَـوْرِداً حَـلاَ لِـي
عـلـيَّ مـا لـلـوَرى حَـرامٌ وحـبُّـكُـمْ فـي الـحَـشَـا حَـلاَلِـي
شَـرَّبْـتُ أعـظُـمـي هـواكُـمْ فـمـا لـغـيـرِ الـهَـوى ومـا لِـي
فَـمـا عـلـى عـادمٍ أُجـاجـاً وعـنـدَهُ أَعـيـنُ الـزُّلالِ

وقوله: [من البسيط]

رَبْعُ الحِمَى مُذْ حَلَلتُمْ مُعشِبٌ نَضِرُ بُروقُ أكنافِهِ يَزهو بها النظَرُ
لا كانَ وادي الغَضَا لا تنزلونَ بهِ ولا الحِمَى سَحَّ في أرجائِهِ المَطَرُ
ولا الرياحُ وإنْ رَقَّتْ نَسائمُها إنْ لَمْ تُفِدْ نَشْرَكُمْ لا ضَمَّها سَحَرُ
ولا رَقَتْ عَبْرَتي حتى يكونَ لِمَنْ ذاقَ الهوى وصبّاً في عَبَرتي عِبَرُ

وقوله: [من الكامل]

يَطوي اللبيبُ صحائفَ الأَملِ قبلَ اقتحامِ طلائعِ الأَجَلِ
قدْ شابَ مشوب حظه [...] ذهب الكَلال بلذَّةِ الكَلَلِ

وقوله: [من المتقارب]

أيا صاحبي وقد سئمت السرى فمن ليَّ بِعَينٍ تَذُوقُ الكَرَى
أرَى نارَهمْ والهَوى سائِقي وقدْ هَيَّجَ الشَّوقَ مَنْ أُسِهرا
وقدْ دارَ في القلبِ كأسُ الهَوى وذُو الوَجْدِ لابُدَّ أن يَسكَرا
وُلُوعِي بسكانِ دارِ العَقيقِ رَخيصُ بِرُوحيَ أنْ يُشتَرى

مولده: بسهرورد، في أواخر رجب، أو أوائل شعبان، الشك منه، سنة تسع وثلاثين وخمسمائة. وتوفي: في مستهلّ المحرم سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، ببغداد، ودفن من الغد بالوردية. رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[٥٩]

غَانِمُ بنُ عَليٍّ بنِ إبراهيمَ بنِ عَسَاكِر بنِ الحُسَينِ الشيخ، القدوة، الزاهد، أبو عليٍّ، الأنصاريُّ، السَّعديُّ، المَقْدِسِيُّ، النَّابُلُسيُّ(١)

أحد مشايخ الطرق. باب من حضرة القُدُسْ، وآب ولم يطأ غير الكواكب ولم

(١) ترجمته في: الإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٣٤، العبر ٥/ ١٢٩ـ ١٣٠، دول الإسلام ٢/ ١٣٦، =

يدُسْ، ففاء ظلالاً، وأضاء هلالا، وورد مشرعة، وحمل حمل السحاب المقبل مسرعة، ورمى بمريديه على الشريعة حتى سقاهم زلالها، ووقاهم فرق الفُرقة وضلالها، وتألَّقت له الأنوار، فمشى في أضوائها، وتألقت له الأنواء، فسرى في أنوائها، ولم يعدلْ بليلى حبيبة، ولا عدى نجداً وكتيبة، خبا لرامة وسفوحها، وآرام وَجْرَةَ وسنوحها، فهمى وهام، ودلَّ على وقته السهام.

/ ١٣٣/ ولد بقرية بورين، من عمل نابلس، سنة اثنتين وستين وخمسمائة. وسكن القدس، عام أنقذه السلطان من الفرنج سنة ثلاث وثمانين، وساح بالشام، ورأى الصالحين. وكان زاهداً، عابداً، مخبتاً، قانتاً لله، مؤثراً للخمول والانقباض، صاحب أحوال وكرامات. حكى ابنه الشيخ عبد الله: إنَّ أباه أخبره أن رجلاً من الصدِّيقين اجتمع به ساعة، قال: فلما وقعتْ يدي في يده انتُزِعَتِ الدنيا من قلبي، ولما نهضت قال لي: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[(١)]. فجعلتُ هذه الآية قدوتي إلى الله تعالى، وسلكت بها في طريقي، وجعلتها نُصب عيني لكلِّ شيء قالته لي نفسي. فإن قالت لي: كُلْ. أجوعُ، وإن قالت: نَمْ، سهرتُ، وإن قالت: استرحْ، أتعبتها.

قال ابنه عبد الله: انقطع أبي رحمه الله تعالى تحت الصخرة في الأقباء السليمانية سنة ستين، وصحب الشيخ عبد الله الأرموي، بقيةَ عمره، وعاشا جميعاً مُصْطَحِبَيْن. قال: وحجَّ ثلاث مرات مُحْرِماً من القدس، فقال: رجعت من الحج، وأنا مريض، لا أستطيع الكلام، فانطرحتُ في البرِّيَّة، فجاءني مغربي، فسلَّم عليَّ، فأومأت له، فقال: قم. فأقامني، وجعل يده تحت جناحي، ثم سار بي يحدِّثني بما أنا فيه، وبما يكون مني، لا أشكُّ أني سائرٌ في الهواء، غير أني قريب من الأرض مقدار ساعة، ثم قال: اجلسْ!، ونم، فنمت ونام معي، فاستيقظت، فلم أجده!. ووجدت نفسي قريباً من الشام، وأنا طيِّبٌ، ولم أحتج بعد ذلك إلى طعامٍ، ولا شرابٍ حتى دخلت بيت المقدس.

قال: [ثم أخذ ولده عبد الله يصف توكُّله وفناءه ومحبَّته ورضاه، ومقاماته، وأن أخلاقه كريمة، وهيبته عظيمة، وأنه][(٢)] بقي عشرين سنة بقميص واحد، وطاقية على

= مرآة الجنان ٤/ ٢٨، العسجد المسبوك ٢/ ٤٦٨، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٩٢، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٣١ـ ٦٤٠هـ) ص ١١٨ـ ١١٩ رقم ١١٦.

(١) سورة النازعات: الآيتان ٤٠ـ ٤١.

(٢) ما بين المعقوفتين من تاريخ الإسلام ص ١١٩.

رأسه، ثم سأله الفقراء أن يلبس جُبَّةً، فلبس، وأنه ما لقي أحداً إلا ابتسم له.

قال: ورأيت ابن شير المغربيّ، وحجَّ سنة، ثم قدم وحضر عند الفقراء، فقال: كيف كان وصولُ الشيخ؟. قالوا: الشيخُ ما حجَّ. فقال: والله / ١٣٤/ لقد سلَّمت عليه على الجبل وصافحته. ثم أتى إليه وسلَّم عليه، وقال: يا شيخ غانم! أما سلَّمت عليك بالجبل؟. فتبسَّم وقال: يا شمس الدين! هذا يكون بحسن نظرك، والسكوت أصلح.

وحكى الشيخ القدوة إبراهيم [بن عبد الله] الأرمويُّ قال: حضرتُ مع والدي سماعاً حضره الشيخ غانم، والشيخ طيّ، والشيخ علي الحريري، فلما تكلم الحادي حصل للشيخ غانم حالٌ، فحملني وقام بي، ودار مراراً، فنظرتُ، فإذا بي في غير ذلك الموضع، ورأيت شخصاً خارجاً من باب حديقةٍ، وهو يسوق بقرة، فهالني ذلك. فلما جلس بي الشيخ، قال له الشيخ طيّ أو غيره: أيش كانت وظيفةُ ولد الشيخ عليك في هذه القومة؟. فلم ينطق. فقال والدي: الشيخ عبد الله فرَّج ولدي في إقليم الهند وجاء!. فسكت الشيخ غانم.

هذه الحكاية يرويها قاضي القضاة أبو العباس بن صَصْرَى، والشيخُ علاءُ الدين علي ابن شيخنا شمس الدين محمد سبط الشيخ غانم.

وتوفي الشيخ غانم في غرة شعبان سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، ودفن في الحضرة التي فيها صاحبه ورفيقه الشيخ عبد الله الأرموي، بسفح قاسيون. رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[٦٠]

عَبدُ الله بنُ عَبدِ العَزيزِ اليُونينيُّ من أصحاب الشيخ عبد الله اليونيني الكبير(١)

قمر طلع منيراً تماما، واقتلع ثبيراً وشماما، من قوم رفعوا عقوق الأعذار، ورقعوا خروق الأعمار، وطبعوا الكلام زبرا، وطمعوا بقول ربهم: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾(٢)، فقدَّموا لأيديهم، وتقدَّموا والله يهديهم، وسَعَوا للآخرة سعيَها، وسَقوا رياض الأماني الفاخرة، فأحسنوا سقيها ورعيها، فأزلفت لهم الغرف ورضوان بوَّابها / ١٣٥/، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾(٣).

---

(١) تاريخ الإسلام (السنوات ٦٤١ـ ٦٥٠هـ) ص ١٦٨ـ ١٧٠ رقم ١٨٥.

(٢) سورة الزمر: الآية ٧٣.

(٣) سورة الزمر: الآية ٧١.

كان صاحب كرامات ومجاهدات. قال أبو العباس أحمد ابنه: عنَّفني والدي مرة، وقال لما انزعج: وَيلكَ أنا قضيت إلى يومي هذا صلاة أربعين سنة!.

قال ابنه: وحدَّثني فقير قال: اقتات أبوك سنة بثلاثة دراهم، اشترى بدرهم دقيق، وبدرهم سمناً، وبدرهم عسلاً، ولتَّه وجعله ثلاثمائة وستين كبَّة، كان يفطر كل ليلة على كبَّة.

وقيل: إنه عمل مرة مجاهدةً تسعين يوماً، يفطر كل ليلة على حمّصة، حتى لا يواصل.

قال [الشيخ] إسرائيل بن إبراهيم: كان إذا دخل شهر رجب يتمارض الشيخ عبد الله بن عبد العزيز، ويأكل في كل عشرة أيام أكلة!.

وقال الشيخ إبراهيم البطائحي: كان في المِزَّة شابٌّ، وكان يشرب الخمر، وكان يحسن إلى جماعة المزة، فسألوا الشيخ عبد الله لعلَّه يتوب، فقال الشيخ عبد الله: أحضروه [لعلَّه يتوب، وكان يحسن إلى جماعة المِزَّة]. فدعا بعض الجماعة الشيخ وأصحابه، وحضر الشاب وأنشد بعضهم أبياتاً، وطاب الشيخ، وكان ثمة شمعةٌ، فجعل الشيخ لحيته عليها، وبقيت النار تخرج من خلالها، وكان الشيخ كثَّ اللحية، فلما رأى الشاب ذلك الحال، وقع على رِجْلِ الشيخ وتاب، وجاء منه رجلٌ صالحٌ، وكان كثير العبادة والخير.

قال: وأخبرني جماعة من أهل المزة: أنهم شاهدوا الشيخ والنار تخرج من خلال لحيته، وأن الشاب تاب.

وقال مري بن أبي الفضل: أخبرني علي الشبلي، قال: احتاجت زوجتي إلى مقنّعة، وطالبتني، فقلت: عليَّ دَينٌ خمسة دراهم، فمن أين أشتري لكِ؟. فلما كان الليل نمتُ، فرأيتُ كأنَّ قائلاً يقول: إن أردت أن تنظر إلى إبراهيم الخليل، فانظر إلى الشيخ عبد الله بن عبد العزيز. فلما أصبحت أتيته بقاسيون، فقال لي: ويلك يا علي! اجلس. /١٣٦/ وقام إلى منزله، وعاد ومعه مقنِّعة، وفي طرفها مربوط خمسة دراهم. فرجعت، وكان عندنا وردٌ، فجمعتْه المرأة وأتت به إلى بيت الشيخ عبد الله، فوجدت زوجته وما على رأسها سوى مئزر معقود تحت حنكِها، رضي الله عنها.

وحكى خادمه عباس، فقال: سافرت صحبة الشيخ إلى العراق، ومعنا جماعة، فلما أتينا ميافارقين، دخل الشيخ عبد الله مسجداً وكان ثمَّ دكانٌ فيها خياطٌ سامري، فلما رأى السامريُّ الشيخ دخل وقعد في رواق المسجد، فأنكر عليه بعض الجماعة، وأراد أن يخرجه، فقال له الشيخ: دعه، وإذا برجل قد دخل على الشيخ ودعاه إلى

منزله، فقام الشيخ وأصحابه، والسامريُّ، فلما صاروا في بيت الرجل أنشد بعض الجماعة أبياتاً، قال: فضرب السامريُّ بيده على رأسه، وقام إلى الشيخ، وأسلم، وصحبه.

وقال الشيخ يوماً لزوجته: ما فرغ هذا الدقيق المشؤوم؟. قالت: ليس هو مشؤوم!، وقد رأينا فيه البركة. فقال: ويلك، وإلا دقيق ما يأكل منه فقير ما هو مشؤوم؟.

وكان إذا رأى فقيراً يقول: ما تجيء تعمل عندي في جُبّ. فإذا أجاب قال: على شرط أي شيء جاءنا فتوحٌ تأخذه. فكان إذا عمل الفقير عمق شبرين فإنْ أتي الشيخ بشيء دفعه إليه. فإذا راح عمد الشيخ فطمَّ ما حفره الفقير.

توفي: في ثامن رجب سنة ثلاث وأربعين وستمائة. ودفن بقاسيون بالقرب من التربة المعظَّمة. رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[٦١]

الشَّيخُ عَليُّ بنُ [أبي الحَسَنِ بنِ منصورٍ] المعروفُ بالحريري(١)

عَشِقَ فَتَاهَ، وكَلِفَ بغير فتى ولا فتاه، وكان صاحب خوارق لا بتكيف، ولا يدري أهي أو سانحات الطير أعيف. أخذ القلوب عنوة، وكشف الغطاء وقال علوة، وكان لا ينام والعيون رقود، ولا يسام إليه خطى المهرية والقُود، وكانت له أذكار بها النجوم تتألف، /١٣٧/ وأفكار لو سرت مسراها الريح كادت تتلف، إلى خَلْبِ للألباب، وسَلْبٍ للقلوب يفعل فعل الأعداء بالأحباب، وسكونٍ إلى الدَّعة، وإنفاق من

(١) ترجمته في: نهاية الأرب ٢٩/ ٣٢٨، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٤٦ـ ٣٤٧، والإعلام بوفيات الأعلام ٣٦٩، والمشتبه في الرجال ١/ ١٥٠، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٢٤ـ ٢٢٧ رقم ١٤٤، وفوات الوفيات ٢/ ٤٢ـ ٤٥، والذيل على الروضتين ١٨٠، وشذرات الذهب ٥/ ٢٣١ـ ٢٣٢، والنجوم الزاهرة ٦/ ٣٥٩ـ ٣٦٠، والكواكب الدرّية (مخطوط)، وجامع كرامات الأولياء ٢/ ١٧٤، والحوادث الجامعة ٢٣٥ وفيه وفاته سنة ٦٤٦هـ، والعبر في خبر من غبر ٥/ ١٨٦، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٧٨، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٤ـ ١٧، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢١٢، ومرآة الجنان ٤/ ١١٢ـ ١١٣، والبداية والنهاية ١٣/ ١٧٣ـ ١٧٤، والعجسد المسبوك ٢/ ٥٥٦ـ ٥٥٧، وطبقات الأولياء لابن الملقّن ٤٥٠، ٤٥١ رقم ١٤٠، والفلاكة والمفلوكين للدلجي ٧٢، وجامع كرامات الأولياء ٢/ ٣٤٠، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٤١ـ ٦٥٠هـ) ص ٢٧٧ـ ٢٨٧ رقم ٣٧٧.

سَعَة، وتأنقٍ في رفاهية، وعيشةٍ راضية، لعيشة الملوك مضاهية، هذا مع جهاد كان عليه في أول حاله وقبل أن يرمى صدقه بمحاله.

حكي أنه كان يركب حائطاً في داره لحاجة يريدها، ثم يغلب عليه حال ينسى بها نفسه، ولا يعود يعرف يومه من أمسه، حتى يبقى مدى على الجدار منتصب، ومرفقه بالشمس متوَّج أو بالثريا معتصب، لا يعرف ضجراً ولا هجيرا سحاباً مثعنجراً، ثم كثر بالناس ائتلافه، وطال تردده إلى المدينة واختلافه، فأطلقت فيه الفقهاء الألسنة، ومرقت الفقراء له السيئة بالحسنة، فطائفة مقرَّة، وأخرى جاحدة، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[1].

أصله من «بُسْر»، وتردد إلى دمشق، وتبعه طائفة من الفقراء. قال أبو شامة: وهم المعروفون بالحريرية، أصحاب الرأي المنافي للشريعة، وباطنهم شرٌّ من ظاهرهم.

قال: وكان عند هذا الحريري من الاستهزاء بأمور الشريعة والتهاون بها، ومن إظهار شعار أهل الفسوق والعصيان شيء كثير. وانفسد بسببه جماعة كثيرة من أولاد كبراء دمشق، وصاروا على زي أصحابه، وتبعوه بسبب أنه كان خليع العذار، يجمع مجلسه الغناء الدائم، والرقص، والمُردان، وترك الاحتجاز على أحد فيما يفعله، وترك الصلوات، وكثرة النفقات، فأضلَّ خلقاً كبيراً، وأفسد جماعة. ولقد أفتى في قتله جماعة من علماء الشريعة، ثم أراح الله منه.

وتوفي: في رمضان سنة خمس وأربعين وستمائه، في زاويته بقرية «بسر». هذا قول /١٣٨/ أبي شامة في الحريري، وهو أحد القولين فيه.

والقول الآخر: إنه من الأولياء أصحاب الأحوال والكرامات، وقد حكي لي من أحواله ما أذكره والسرائر عند الله تعالى.

حدثني عمي الصاحب شرف الدين رحمه الله تعالى قال: سافرت وأنا صبي صغير إلى بلاد حوران، فلما كنت بزرع دخلت الحمام، فإذا أنا بالشيخ الحريري؛ فقال لي بعض من كان معي: قبِّل يد الشيخ، فقمت إليه، وقبَّلت يده، فرأيته جالساً على جانب الحوض يصب الماء على أصحابه، فقال له بعض أصحابه، يا سيدي! هذا ابن فضل الله، فقال: ونِعمَ ـ والله ـ من ابن رجلٍ جيد، اقعد!، فقعدت، فأمر شخصاً من أصحابه، فغسَّلني، والشيخ يصبُّ عليَّ بيده الماء، إلى أن فرغت، ثم أتاني بمناشف من عنده مبخرة، ما رأيت أطيب منها ريحاً!، ثم أتاني بقماشٍ كأنه قد هُيِىءَ لي،

---

(١) سورة هود: الآية ١١٨.

فلبَّسني، ثم قال: يا سعيد! يا طويل العمر!، يا طويل الذيل!، فأنا كلما تذكَّرت ما أنعم الله به علي علمت أنها كانت بشرى من الشيخ.

وحدَّثني الشيخ نجم الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن أبي الطيب، عن أبيه الشيخ نجم الدين أبي حفص عمر قال: خرج مرة إلى محجَّة قاضي القضاة محيي الدين أبي الفضل ابن الزكي، ومعه نائبه قاضي القضاة صدر الدين بن سني الدولة، ومعه ابنه القاضي نجم الدين، وكان الفصل شتاء، فلما أردنا العود، وجَّه ابن الزكي وجهه إلى: «بُسْر» لزيارة الشيخ علي الحريري، فلما قاربنا «بُسْر» قال ابن الزكي: أشتهي أن يطعمنا الشيخ بسيسة حورانية، فقال صدر الدين بن سني الدولة: وأنا أشتهي طبيخ كشك بدجاج، فقال ابنه: وأنا أشتهي درَّاقن لوزي. فقالوا: وأنت؟. فقلت: أنا رجل فقير مهما حضر قنعت. قال: فلما وصلنا ونزلنا بالزاوية، سلَّمنا على الشيخ، فجلس إلينا / ١٣٩/ جلسة ثم قام، وغاب عنا إلى أن كاد وقت الظهر يفوت، ثم أتى ومعه قصعة فيها بسيسة، وقصعة فيها كشك دجاج، وبيده شيء آخر، فقال لخادمه: ضع البسيسة بين يدي قاضي القضاة محيي الدين، وضع الكشك بين يدي القاضي صدر الدين، ثم التفت إلى نجم الدين وقال: يا ثقيل!، يا متعنِّت!، من أين يلتقي في بلاد حوران في زمان الشتاء درَّاقن لوزي؟ والله ما تأخرنا إلا بسبب عنتك، ثم وضع الذي كان بيده قُدَّامه، فإذا هو سلَّةٌ صغيرة فيها دُرَّاقن، ثم طلع إليّ وقال: يا نجم الدين! أنت رجل فقير مهما حضر قنعت به، شارك الكل وكُلْ معهم.

وحدَّثني شيخنا نجم الدين موسى بن علي الكاتب المجوّد، عرف بابن البصيص، فيما يحكي عن أبيه قال: كان شخص من أبناء الأمراء عند أبي في المكتب، يتعلم الخط، فلما خرج من المكتب، سمع الحديث، وتفقَّه، وكان له ذكاء، وعنده قابلية واستعداد، فبرع، ثم إنه جاء يوماً إلى أبي إلى المكتب ليزوره ويوصيه بأخ له صغير، كان قد أتى به إليه ليعلِّمه، فجلس إلى أبي، وشرع يحدِّثه، فجرى ذكر الشيخ الحريري، فأخذ ذلك الشاب يقع فيه ويقول: رجل مبتدع صفته نعته، وبالغ في ذكره بالسوء، فما أتمَّ كلامه إلا وقد أقبل الشيخ في خلق من أصحابه، فوقف على المكتب، ونظر إلى ذلك الشاب، ثم قال له: دع كل شيء كنت فيه، وخلِّ هذا الفشار من رأسك، وقم انزل. فقام الشاب إلى الشيخ، وقبَّل يده، فطلب الشيخ مقصاً ثم قصَّ شعره، وألبسه طاقية على رأسه، وثوباً من ثياب الفقراء، ثم مشى الشيخ، فمشى الشاب معه، ثم صحبه صحبة كانت إلى آخر العمر.

ومنهم:

[٦٢]
عِيسَى بنُ أَحمدَ بنِ إلياسَ بنِ أحمدَ اليُونِينِيُّ(١)

جلا الرتب ومزَّقها، ومحا بصباح جبينه الأهلَّة ومحقها /١٤٠/، صام الهواجر، وقام الليالي الطوال مُغْرَوْرِقَ المحاجر، وأَنِينُهُ أَنِيسُه، وجلوسُه منفرداً جليسُه، فأنس بالله دون خلقه، وجلس في كِسْرِ بيته لأداء حقه، وعمل لجنَّة يدوم نعيمها، ويهبُّ بحياة النفوس نسيمها، وفرَّ من النار فرار الآبق، وقرَّ به القرار ودمعه السابق.

قال أبو محمد عبد الله بن عمر المقدسي ـ فيما جمعه من أخبار الشيخ عبد الله اليونيني وأصحابه ـ: ومنهم ذو المنظر المهول، والسيف المسلول، لم يكن بالكلام قَوُول، ولا في العمل ملول. رئيس القوم، ومحيي الليل بالتهجُّد والنهار بالصوم. سلاَّب الأحوال؛ الشيخ عيسى. فروى بسنده عن إبراهيم بن مسمار قال: صحبت الشيخ عيسى أربعين سنة، ما رأيته أكل فيها بالنهار.

وقال محمد بن عبد القادر اليونيني: جاء الملك الصالح إسماعيل إلى عند الشيخ، واستأذن عليه ثلاث مرار، فلما اجتمع به قال له: يا سيدي! أشتهي أن أوقف عليك يومين، فامتنع من ذلك، فقال: أبني هاهنا رواقاً، فقال له: ما أشتهي يكون عندي من يصدِّعني.

وقال أحمد بن عثمان بن إلياس: صحبت الشيخ عيسى خمسين سنة، فحدَّثنا يوماً قال: ورد إليَّ جماعة وتحدَّثوا في كرامات الأولياء، فقلت: أعرف رجلاً لو قال لهذه الحجارة: صيري ذهباً وفضةً، صارت. فقلت: يا سيدي!، ذكر عن إبراهيم بن أدهم أنه ورد إلى عنده جماعة، وتحدَّثوا بمثل هذا، فقال إبراهيم: أعرف رجلاً لو قال لهذا الجبل: زُلْ، لزال!. فاهتزَّ الجبل، فقال له إبراهيم: اسكنّ!، فسكن. فأنت لما قلت هذه المقالة صارت الحجارة ذهباً؟! قال: فاحمرَّ وجهه، ودخل فحصل عندي مثل أني أسأت الأدب قُدَّامه، /١٤١/ فلما كان بعض الليالي، توضَّأ، ووقف على حجر ينشف وجهه، ويحرك الحجر برجليه، فالتفت إليَّ وقال: يا أحمد! أيش كنت تقول؟.

---

(١) ترجمته في: ذيل مرآة الزمان ١/ ٢٤ـ ٣٣، العبر ٥/ ٢١٨ـ ٢١٩، مرآة الجنان ٤/ ١٣٦، السلوك ١/ ٢/ ٤٠١، العسجد المسبوك ٢/ ٦٢٢، وشذرات الذهب ٥/ ٢٦٦، تاريخ بعلبك ٢/ ٤٠٤ـ ٤٠٥، سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٠٩، عيون التواريخ ٢٠/ ١٠٠ـ ١٠١، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٥١ـ ٦٦٠هـ) ص ١٧٤ـ ١٧٨ رقم ١٦٤ .

فقلت: يا سيدي! أنا أستغفر الله. قال: قال إبراهيم: ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[١] فنظرت، وإذا بالحجر يلمع ذهباً!. فصحتُ وأغمي عليّ، فأراد الفقراء يقيموني، فقال: خلوه، فلما أفقتُ، اجتمعت ببعض أصحاب الشيخ، وقلت: يا فلان! ما يعرف أحد الشيخ، فقد رأيت منه كذا وكذا. ثم دخلت على الشيخ فعنَّفني، ولامني لكوني حكيت ما رأيت. وقال: يا ما فاتك مني؟.

وقال إسماعيل بن إبراهيم بن سلطان: كنت قرأت نصف الختمة، والبقرة، وآل عمران، والنساء، ونسيتها، فسألني الشيخ عيسى: أيش قرأت؟. قلت: كذا وكذا، ونسيتها، فلما أردت أن أفارقه ضمَّني إلى صدره، فحفظت بعدها القرآن.

وقال عبد الولي بن عبد الرحمن الخطيب: لما دخل الخوارزمية جاء والٍ لهم إلى «يونين»، وطلب من الفلاحين شيئاً ما لهم به قوة، فشكا الفلاحون إلى الشيخ ما يقاسونه من الوالي. فاتَّفق أن الوالي طلع إلى عند الشيخ، فقال له: ارفق، فهؤلاء فقراء. فقال: ما لي إلى هذا سبيل. فبقي الشيخ يردد عليه ويقول: ما لي إلى هذا سبيل. فنظر إليه الشيخ وأطال النظر، فخبط الأرض، وأزبد، فلما أفاق، انكبَّ على رجلي الشيخ، واعتذر، ونزل، فقال للخوارزمية: من أراد أن يموت يطلع إلى الضيعة، أو ما معناه.

ولما مرض الشيخ مرض الوفاة جاء فقير إلى السياج الذي عند زاويته، وقال له: يا عيسى تعال فقام إليه فقال: هات أذنك، فقدَّم إليه أذنه، فشاوشه، وراح. فلما رجع الشيخ سأله الجماعة عما قال له؟. فقال: أيش تريدون؟ فلما ألحُّوا عليه، قال لهم: قال لي: يقول لك / ١٤٢/ رسول الله ﷺ: تهيَّأ للقدوم. فمات بعد اثني عشر يوماً، والجماعة خبَّروني بهذا.

توفي في ذي القعدة سنة أربع وخمسين وستمائة.

وقد ذكره ابن اليونيني[٢]، ورفع نسبه إلى كرز بن وبرة، وكرز في الطبقة الرابعة من أهل الكوفة. وكان زاهداً عابداً، [خائفاً مجتهداً] يأمر بالمعروف، وينهي عن المنكر، فيضربونه حتى يغشى عليه. وكان يختم القرآن في اليوم والليلة ثلاث مرات. ولم يرفع رأسه إلى السماء أربعين سنة، حياءً من الله تعالى.

وقال أبو سليمان المكتب: صحبت كرزاً إلى مكة، فكان ينزل فيصلي، فرأيت يوماً سحابة تظلُّه، وكان يوماً شديد الحر، فقال: اكتم علي. وقد ذكره أبو نعيم وغيره.

عدنا إلى ذكر الشيخ صاحب هذه الترجمة:

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٠.

(٢) ذيل مرآة الزمان ١/ ٢٤.

قال ابن اليونيني[١] : صحب الشيخ الكبير عبد الله اليونيني، وانتفعت به، وكان من أعيان أصحابه، وانقطع بزاويته بقرية «يونين» من عمل بعلبك، معرضاً عن الدنيا وأهلها. يقوم الليل، ويسرد الصوم، [وبقي على ذلك سنين كثيرة، إلى أن توفي رحمه الله تعالى في زاويته بقرية يونين، في رابع ذي القعدة، ودفن بها، وهو في عشر الثمانين تقريباً]، وكان من الأولياء الأفراد، ولم يتزوَّج لاستغراق أوقاته بذلك، لكنه عقد عقداً على عجوز كانت تخدمه، لاحتمال أن تمس يده يدها، والناس عنده سواء في المعاملة.

قال[٢] : وبلغني أن البادرائي قصد زيارته، فجاءه عند صلاة المغرب، فصلى الشيخ، وقام ليدخل إلى خلوته على عادته، فاستوقف له حتى أتاه، فسلَّم عليه، وسأله الدعاء، ثم أخذ في محادثته، فقال له الشيخ: رحم الله من زار وخفَّف. وتركه ودخل [إلى خلوته]. قال: وكانت شفاعاته عند ولاة الأمور مقبولة، وله الحرمة العظيمة عند سائر الناس، والمهابة في الصدور، مع لطف أخلاقه، ولين كلمته. وله الكرامات الظاهرة، /١٤٣/ وإذا حضر إليه أحد من [المشايخ و] أرباب القلوب [إلى يونين، قصد زيارته و] تأدَّب معه غاية الأدب، وأما هو فلا يمشي إلى أحدٍ البتة. ومن سلك منهم معه غير الأدب سُلِب.

قال[٣] : وكانت بينه وبين والدي صداقة، وكنت آتيه مع أبي فيقبل علي، ويتلطَّف بي، فلما كانت السنة التي مات فيها، كان والدي يأمرني بكثرة التردد إليه، [كأنه استشعر قرب أجله وأحس به، فكنت بعد كل يوم أتردد إليه فقصدته مرة في أول شوَّال من هذه السنة، ومعي ناصر الدين علي بن فرقين، والشمس محمد بن داود رحمها الله، فدخلنا عليه وليس عنده غيرنا، وشرع] فحدَّثنا، ثم استغرق عن غير قصد منه لذلك، ثم أفاق من غشيته، وقد انقطع الحديث، فسألناه إتمامه وألحجنا في السؤال فقال: [من البسيط]

مَنْ سارروه فأَبدى السرَّ مُشتهراً لمْ يأمنوُه على الأسرارِ ما عاشا
وابعدوهُ فلمْ يَحظَ بقربهمُ وبدَّلوهُ مكانَ الأنسِ إيحاشا

قال[٤] : وكان مضمون ذلك الحديث: أنه أنذر بدنو أجله، ثم لم يَلبث أن مرض ومات، ودفن إلى جانب الشيخ عبد الخالق، وكان من أبر الصلحاء.

---

(١) ذيل مرآة الزمان ١/ ٢٤ـ ٢٥.
(٢) ذيل مرآة الزمان ١/ ٢٥ـ ٢٦.
(٣) ذيل مرآة الزمان ١/ ٢٦ـ ٢٧.
(٤) ذيل مرآة الزمان ١/ ٢٧ـ ٢٨.

قال(١) : حدثني أبو طالب بن أحمد اليونيني: إن الشيخ عيسى أخبره بما يكون من زوال ملك بني أيوب، وأن الترك تملك بعدهم، ويفتح الساحل كله. قال: وحكى لي أيضاً: أن عبد الله بن إلياس النصراني الراسي قال: جئت طرابلس، فقال لي بعض الخيَّالة: عندي أسير من بلادكم ـ وعَرَضَ عليَّ مشتراه ـ فوجدته رجلاً اسمه: سهل، من قرية «رعبان» [فحين رآني تشبَّث بي وقال: لا تخلى عني اشترني، وأنا أعطيك ثمني حال وصولي إلى رعبان]، فاشتريته بستين ديناراً صورية، وجبته إلى قريته، فلم يكن له ولأولاده تلك الليلة ما يتعشون، فندمت، فقال لي أهل القرية: نحن في أيام البيدر نجمع لك ثمنه، فضقت لذلك، وجئت إلى يونين، فصادفت الشيخ عيسى خارجاً من الطهارة، وما كنت رأيته قبل ذلك، فقال لي: أنت الذي اشتريت [سهل] الرعباني؟. فقلت: نعم. فشرع يحدِّثني عنه، [ويسألني عن الصورة وهو متوجه إلى زاويته، وأنا معه، فلما وصل إلى السياج الذي على ظاهر الزاوية، طلب فقيراً من داخل السياج، وقال له:] أبصر في الزاوية /١٤٤/ ورقة تحت اللباد الذي لي، أحضرها.

قال النصراني: فتوهَّمت أنها ورقة كتبها إلى من يعطيني شيئاً من وقف الأسرى، أو غيره، فلما ناولني الورقة وجدتها ثقيلة، ففتحتها، فوجدت فيها الستين ديناراً التي وزنتها في الأسير بعينها!، فتحيَّرتُ، وأخذتها، وانصرفت. قال أبو طالب: فقلت له: فلم لا أسلمت؟. فقال: ما أراد الله.

قال قطب الدين(٢) : وشكوا إليه التفاح وأمر الدودة، وسألوه كتابة حرز، فأعطاهم ورقةً فشمعوها، وعلَّقوها على شجرة، فزالت الدودة عن الوادي بأسره، وأخصبت أشجار التفاح بعد يبسها، وحملت حملاً مفرطاً. وبقوا على ذلك سنين في حياته، وبعد وفاته، ثم خشينا من ضياع الحرز، فقلنا ننسخه عندنا، فأزلنا الشمع عنه، وفتحناه، فوجدناه قطعة من كتاب جاء إلى الشيخ من حماه، فندمنا على فتحه، ثم أعدناه، فلم يفد. وجاءت الدودة فركبت الأشجار، وأعطبتها، واستمرَّ الحال على ذلك.

وقال(٣) : حكى لي الحاج علي بن أبي بكر عن بعض أقاربي أنهم قصدوا عمارة حمام في «يونين» وحصَّلوا بعض آلاته، فنهاهم الشيخ عيسى، فقالوا: السمع والطاعة، فلما قاموا وأبعدوا، قال أحدهما للآخر: كيف نعمل؟. فقال له: الشيخ عيسى رجل

---

(١) ذيل مرآة الزمان ١/٢٨ـ ٢٩.
(٢) ذيل مرآة الزمان ١/ ٣٠.
(٣) ذيل مرآة الزمان ١/ ٣٠ـ ٣١.

كبير [ما يخلد، نصبر]، ومتى مات عمَّرناه. فبعث الشيخ بطلبهم، فلما جاؤوه قال: كأني بكم وقد قلتم كذا وكذا؟. [وأنكم تعمرون الحمام بعد موتي]. وهذا ما يصير، ولا يعمَّر هذا الحمام لا في حياتي، ولا بعد موتي، فاعتذروا إليه. قال ابن اليونيني: وأنا واللهرأيت التجيبي وهو نائب الشام وكان معظم يونين وقد / ١٤٥/ همَّ بعمارة حمام يونين، واشترى القدور، وسائر الآلات، [ولم يبق إلا عمارته]، ثم اتفق ما صرفه عن ذلك، ثم [انتقل الخبر إلى الأمير عز الدين أيدمر الظاهري متولي نيابة السلطنة بالشام بعده، فشرع في ذلك]، واهتم به أعظم ممن تقدَّمه، وحفر الأساس، ثم بطل بموانع سماوية!

ومنهم:

[٦٣]
يوسف القُمِّيني[١]

رجلٌ كان لا يريد في الأرض علوّاً، ولا فيما لم يرض غلوًّا، فاتخذ الذلَّ عزّا، والفقر كنزا، وجعل الدنيا مسافةً جَدَّ في قطعها، وشجرة خبيثة جهد في قلعها، وباغية جرّد عزائمه لقمعها، وعلة ضارية جلد نفسه على منعها، فعوِّض بالأعلى عن الأدنى، وبدل له اللفظ بالمعنى، وتوقد منه أي جذوة، وأدلج ليلاً وأوَّب، وأبهج لألاء والنجم في غرته قد صوَّب. كان مأواه القمامين والمزابل بدمشق، وغالب أوقاته يكون بقمِّين حمام نور الدين الشهيد، بسوق القمح بدمشق. وكان يلبس ثياباً طوالاً تكنس الأرض وهو حاف، مكشوف الرأس، طويل الصمت، قليل استعمال الماء، ولكثير من الناس فيه عقيدة جميلة، ويحكون عنه أنه يكاشفهم في كثير من الأوقات. وكان بعض من يعتقد فيه يحضر له شيئاً من المأكول والمشروب، ويجتهد فيه، فيتناول منه قدراً يسيراً. ولازم هذه الطريقة الشاقة إلى أن توفي في سادس شعبان سنة سبع وخمسين وستمائة، بدمشق. ودفن بتربة المولَّهين، بقاسيون، ولم يتخلَّف عن جنازته إلا القليل من الناس. وكان من غرائب العالم، يترنَّح في مشيته، ولا يلتفت إلى أحدٍ، ولا يعبأ به.

ومنهم:

---

(١) ترجمته في: ذيل الروضتين ٢٠٢ـ ٢٠٣، ذيل مرآة الزمان ١/ ٣٤٨، العبر ٥/ ٢٤٠، سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٠٢ـ ٣٠٣ رقم ٢١٠، البداية والنهاية ١٣/ ٢١٦ـ ٢١٧، عيون التواريخ ٢٠/ ٢٢١، شذرات الذهب ٥/ ٢٨٩ـ ٢٩٠، عقد الجمان ١/ ٢٢٦ـ ٢٢٧، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٥١ـ ٦٦٠هـ) ص ٣٢٨ـ ٣٣٠ رقم ٤٠٩.

[٦٤]

الأَكَّالُ، مُحَمَّدُ بنُ خَلِيل بنِ عَبدِ الوَهَّابِ بنِ بَدرٍ، أَبُو عَبدِ الله البِيطَارُ[١]

حُبِّب إلى الناس حُسن منظره، ويمن /١٤٦/ محضره، فكانوا يَغْشَونه، وكادوا بهدب الأجفان يعشونه؛ لأنهم كانوا للنصح لا يستغشونه، ولخالص الودِّ معه لا يغشونه، فكان لا يزال مَجْلسه معمورا، ومُجَالِسُه معذورا، رغبة في أنسه، ومحبة لنوعه الغريب في جنسه. وكان يقصد من السلطان فمن دونه بأطايب الطعام، ومواهب الإنعام، وتنوع له تلك الأطعمة، وتبذل في النفقات عليها الأيدي المنعمة، ولا يأكل إلا بالأجرة تلك المآكل، ثم يجعل تلك الجعالة للأرمل والثاكل، فما جاءه منها بالأجرة مقرباً أكل منه، وأطعم، وفضَّ ختام ذلك المبلغ وأنعم، وما جاءه بغير شيء ردَّه، وتركه ما مدَّ إليه ولا مدَّه.

ويحكى عنه في هذا حكايات غرائب ونوادر: حكى لي شيخنا شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي الكاتب رحمه الله، قال: اجتمع طائفة من الأمراء يوماً، فتحدَّثوا في طريقة الشيخ محمد، فقالوا: نريد نغلبه، ونتحيل حتى يأكل شيئاً بغير أجرة!. فقال واحد منهم: أنا أفعل هذا، فبعث، فاشترى رأسين سمان من الغنم، ثم عمد إلى خرجين لطيفين، فملأ عين كل واحد منهما أرزاً والآخر سكراً، ثم شدَّهما عليهما، وبعث بهما رجلاً استغفل الشيخ محمد، حتى أتى من الجامع، وفتح باب بيته، ودخل، فلما علم أنه قد صار داخل الدار، ساق الرأسين إلى داخل الدار، ثم ردَّ الباب عليهما وسكَّره، فلما شعر الشيخ محمد بدخولهما، خرج فرآهما!، فقال: نعم، يريدون انني آكل هذا بلا أجرة!، لا كيد، ولا كرامة، والرجل الذي أحضرهما خارج الباب يسمع، فانطلق إلى أصحابه، وأخبرهم. ثم إن الشيخ محمداً لم يزل بالباب حتى فتحه، وأخرج الغنم إلى الزقاق بما عليهما وطردهما، /١٤٧/ وجعل يقول: يا غنم! إن كان لهم حاجة يبعثوا معكِ الأجرة حتى آكل، وإلا ما آكل. فلما أبعدت الغنم رجع الشيخ محمد إلى داره، وتمت الغنم جارية تشق الأسواق، والطرقات، حتى أتت دار القيامرة، فدخلت إلى الموضع الذي بعثت منه، بما عليها، لم يتعرَّض لها أحد!. فلما رأوا ذلك أكبروه، ثم ركب بعض أولئك الجماعة لزيارة الشيخ على عادتهم، فلما دخلوا عليه قال: إنكم شُطَّار ملاح، أردتم أن آكل لكم بالسخرة وما كفاكم هذا حتى أردتم ان

---

(١) ترجمته في: الوافي بالوفيات ٣/ ٤٩، فوات الوفيات ٣/ ٣٥١ـ ٣٥٢ رقم ٤٤٩، ذيل الروضتين ٢٠٧، البداية والنهاية ١٣/ ٢٢٩، عيون التواريخ ٢٠/ ٢٤٥، شذرات الذهب ٥/ ٢٩٤، ذيل مرآة الزمان ١/ ٣٨٩ـ ٣٩٢، العبر ٥/ ٢٤٨، تاريخ الاسلام (السنوات ٦٥١ـ ٦٦٠هـ) ص ٣٦٢ رقم ٤٦٠.

أطبخ لكم بالسخرة وان اذبح لكم وأسلخ بالسخرة، وأنا هذا ما أفعله، ولا آخذ إلا طعاماً مطبوخاً، لا يكون عليَّ في أكله كثير تعب، وبعد هذا ما آكله إلا بالأجرة، قم عني، قم!. فقام، وأتى أصحابه، وأعلمهم، فعملوا له أطعمة فاخرة، ثم بعثوا معها مائة دينار، حتى أكل من الطعام، وفرَّق الذهب بأجمعه في سبيل الخير.

قال شيخنا شهاب الدين: وكان هذا دأب الشيخ محمد، ومهما جاءه، فرَّقه على المستحقين، لا يدَّخر شيئاً منه، وكان عنده لكل طعام أجرة، وكل ما كان الطعام أفخر، كانت أجرته على أكله أكثر، حتى سُمِّي بالأكَّال لذلك، وكان من أقلِّ الناس أكلا. هذا ما حكاه لي.

وأصله من جبل بني هلال، ومولده بقصر حجاج، خارج دمشق، سنة ستمائة. وكان رجلاً صالحاً، كثير الإيثار، وحكاياته مشهورة في أخذه الأجرة على ما يأكله وما يقبله من برِّ الأمراء والملوك وغيرهم، مشهورة، ولم يسبقه إلى ذلك أحدٌ، ولا اقتفى أثره من بعده.

قال اليونيني في «الذيل»: ولا شك أنه كان له حالٌ ينفعل له بها ذلك، وجميع ما يفتح به على كثرته يصرفه في القرب، وتفقُّد المحابيس وغيرهم من المحاويج، والأرامل، والمنقطعين. وكان بعض الناس ينكر على من يعامله بهذه المعاملة، وينسبه في فعله، فإذا اتفق اجتماعه /١٤٨/ به انفعل له انفعالاً كلياً، ولا يستطيع الامتناع من إعطائه كل ما يروم، وكان مع هذا حسن الشكل، مليح العبارة، حلو الحديث، له قبول تام من سائر الناس.

قال قطب الدين اليونيني: وكان كثير المحبة في والدي، والتردد إليه، لما نزل دمشق في سنة خمس وخمسين وستمائة، والأكل عنده بغير أجرة، وهو مطلق عنده دون غيره.

توفي بدمشق في خامس شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة.

ومنهم:

[٦٥]

عبد العزيز ابن القاضي أبي عبد الله محمد بن عبد المحسن بن محمد بن منصور بن خَلَف الأنصاريُّ، الأوسِيُّ، أبو محمد، شرف الدين[١]

شيخ الشيوخ بحماه، عَلَم زهد، ومجنى شُهد، وسلالة أجداد جادوا، وآباء

---

(١) عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصاري الأوسي، شرف الدين، المعروف بابن قاضي =

فعلوا فعل آبائهم وزادوا. من جرثومة سجعت، وأرومة سبقت، ومجد لم يقنع، باق منه لوراثه بل لبس برده حتى أبلاه، وأنفق رفده حتى أفناه، تمتع بمفاخره، وجمع فضله، ثم ذهب عن آخره. وكان له عند ملوك حماة جد مقبل، وسعدٌ ذيله عليه مسبل، وتبع طريقه المسلوك. وأخذ بالأدب والتأديب عنه الملوك، وكانت قريحته غمامة مطر، وكمامة زهر، ونظام درر، وغرر أيام، وطرر ليال في سالفه غلام.

وله شعر ما طرزت مثل سطوره الخدود، ولا نقشت شبه طروسه الرداح الرود، أرقُّ من دمعة الدلال، ومعاتبة الأحباب للملال. كان كأنه إيماء اللحاظ المراض، وسقيط الطل على الرياض، ومنه قوله[1]: [من الطويل]

ولَوْ سَلّمتْ ليلى غَداةَ لقيتُها ... بسَفحِ اللوَى كادتْ لها النفسُ تَخشعُ
ولكنَّ جُرمي ما علمتِ ولوْ بهِ ... البَداوةُ تَأبى أنْ أَلينَ وتَمنعُ

= حماة: شاعر، فقيه. ولد في دمشق سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م وسكن حماة وتوفي بها سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م. كان صدراً كبيراً نبيلاً فصيحاً، جيد الشعر له مجلد كبير في «لزوم ما لا يلزم» ذكره الصفدي في مقدمة كتابه «كشف السر المبهم في لزوم ما لا يلزم» وسماه: «إلزام الضروب بالتزام المندوب» وله ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري ـ ط» نشره المجمع العلمي العربي بدمشق.
ترجمته في: قلائد الجمان لابن الشعار ٤/ ٢٠ـ ٢٤ رقم ٣٢٨، وذيل الروضتين ٢٣١، وذيل مرآة الزمان ٢/ ٢٣٩ـ ٢٩٢، ومشيخة قاضي القضاة ابن جماعة ١/ ٣٤٣ـ ٣٥١ رقم ٣٧، ومعجم شيوخ الدمياطي ٢/ ورقة ٤٨أ، ومنتخب المختار من ذيل تاريخ بغداج لابن رافع ١١٢ـ ١١٤، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٢١٩، وتالي وفيات الأعيان ٩٧ـ ٩٨ رقم ١٤٥، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٤٣، ودول الإسلام ٢/ ١٦٧ـ ١٦٨، والعبر ٥/ ٢٦٨، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧٧، والمعين في طبقات المحدّثين ٢١١ رقم ٢٢٠٧، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٩ـ ٣٦٠، والسلوك ج١ ق٢/ ٥٢٣، وذيل التقييد ٢/ ١٣٣، رقم ١٢٩٤، والوافي بالوفيات ١٨/ ٥٤٦ـ ٥٥٦ رقم ٥٥١، والنجوم الزاهرة ٧/ ٢١٤، والدليل الشافي ١/ ٤١٧، رقم ١٤٢٧، والمنهل الصافي ٧/ ٢٩٣ـ ٢٩٩ رقم ١٤٤٣، وبغية الوعاة ٢/ ١٠٢ وتاريخ ابن سباط ١/ ٤٠٩، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٣١٩، وشذرات الذهب ٥/ ٣٠٩، وطبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٢٥٨، وطبقات الشافعية لابن كثير، ورقة ١٧٩ أ، ب، وكشف الظنون ٢٨٣، وهدية العارفين ١/ ٥٨٠، وديوان الإسلام ٣/ ١٤٨ رقم ١٢٤٩، والأعلام ٤/ ٢٥، ومعجم المؤلفين ٥/ ٢٥٩، وتاريخ حماة للصابوني ١٣١، والأدب في بلاد الشام لعمر كمال موسى ٣٢٣ـ ٣٢٧، وموسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي ق٢/ ج٢/ ٢١٧، ٢١٨ رقم ٥٥٢، وعقود الجمان للزركشي ١٨٣، ومفرّج الكروب لابن واصل ٤/ ٢٧٣، الأعلام ٤/ ٢٥ـ ٢٦، تاريخ الاسلام (السنوات ٦٦١ـ ٦٧٠هـ) ص ١٠١ـ ١٠٤ رقم ٥٤.
له ديوان شعر «ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري» عنى بتحقيقه د. عمر موسى باشا، نشر مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

(١) أخل بها ديوانه.

ولستُ امرءاً أشكو إليكِ صَبابةً ولا مُقلةً إنسانُها الدهرَ يَدمَعُ
/ ١٤٩/ ولكنني أطوي الضلوعَ على الجَوَى ولَوْ أنَها مِمَّا بها تتقطَّعُ

وقوله[١]: [من البسيط]

أُحدِّثُ النفسَ أحياناً فأُطمعُها زُوراً وتَأْيَسُ أحياناً وتَكتئِبُ
وأستريحُ إلى صَهباءَ صافيةٍ كأنها شُعلةُ في الكاسِ تَلتهبُ
ولي كتائبُ أشواقٍ أجهِّزُها إلى جَنابِكِ إلا أنها كُتُبُ
وليْ أمانيّ مِنْ نفسٍ أسُرُّبها إذا ذَكرْتُكِ إلا أنها كَذِبُ

ومن شعره قوله في الملحق بأوزان الطويل، وهو تاليه على مذهب الأخفش يكون آخر أجزائه مفاعيل بسكون الام، وحذف النون من مفاعيلن على أصولها[٢]:

تغافل عن حرماتنا كل غافل وقد علموا أنا معالم إغفال
وإنا شرعنا للسماحة منهجاً ينال الغنى غادون فيه وقفال
وإنا نرد الجيش فلاً بعزمة تصدق بالإقدام ما زعم الفال
ونجعل أعراف الجياد إلى الوغى أعنتنا حتى نعود بأنفال
وإن نطق الراؤون عنا بمدحة فنافجة المسك الذكية منفال
ومن يتغافل عن فروض لوازم فلسنا عن النفع المصاع بغفال
وإني لمقدام على كل هائل ولي عن دنيات الخلائق إجفال
وأرفل في أبراد حمدي وسؤددي ومثلي في تلك الملابس رفال
وأنمى إلى أشياخ صدق إذا غلت حقودهم شابت ذوائب أطفال
أسود سُرى لا تستخف حلومهم إلى لهوهم غيد رواجح أكفال
فمن حاول العلياء فليحذ حذوهم فليس على باب المكارم إقفال

وقوله[٣]: [من البسيط]

عاتبتُ إنسان عَيني في تَسرُّعهِ فقالَ لي: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾[٤]
يا عاذلي ليسَ مِثلي مِنْ تُخادعُه فليسَ مِثلُكَ مَأموناً على عَذَلي
/ ١٥٠/ ما دُمت خِلواً فلا تنفكَّ مُرتهَناً فاعشَقْ وقولُكَ مقبُولٌ عليَّ ولِي

وقوله[٥]: [من البسيط]

---

(١) أخل بها ديوانه. (٢) أخل بها ديوانه.
(٣) من قصيدة قوامها ٤٧ بيتاً في ديوانه ص ٣٩٩ـ ٤٠٣.
(٤) سورة الأنبياء: الآية ٣٨.
(٥) من قصيدة قوامها ٣٢ بيتاً في ديوانه ص ٢٥٣ـ ٢٥٦.

لـهـا مَـعـاطـفُ تُـغـريـنـي بِـرِقَّـتـهـا ولـيـنِـهـا أَنْ أُقـاسـي قَـلـبَـهـا الـقـاسـي
بـاتـتْ مُـوسّـدةً رأسـي عـلـى يـدِهـا عَطفاً وكانتْ يدي منها على راسي

وقوله(١): [من الطويل]

ولـيـلـةِ راحٍ سـاعـدتْـنـي عَـجـوزُهـا عـلـى نَـومِ بَـيْـنٍ لا يُـنـادَي وَلـيـدُهُ
خَـلـوتُ بـهـا أَبـكـي الأَسـى وأجـدُّهُ وأصـبَـغُ بـالـدمـعِ الـثَّـرى وأجـودُهُ
وأَشـربُـهـا صِـرْفـاً كـأنَّ حـبَـابَـهـا لـهـا مِـنْ جَـبـيـنـي ثَـغْـرُهُ وعُـقُـودُهُ
فـمَـنْ قـالَ نَـجْـدٌ أو زَرُودٌ مـحـلُّـهُ فـدعْـهُ فـقـلـبـي نَـجْـدُهُ وزَرودُهُ

وقوله(٢): [من السريع]

عـذب شـربـي فـي حـيـاتـي أجـاجْ فَـزمـانـي والـعُـلا فـي ضـجـاجْ
كـلـمـا حـاولـتُ مِـنْ صَـرْفِـهِ حـاجـةً يـصـرِّفَـنـي بـاحْـتـجـاجْ
لا تُـطـيـلَـنَّ لَـجَـاجـي وقـدْ يـنـفـعُ الإنـسـانَ طُـولُ الـلَّـجـاجْ
سـالـيـاً رَشْـفَ رُضـابِ الـدُّمـى قـالـيـاً حـبَّ حـبَـابِ الـلَّـجـاجْ
سـاحـبـاً فـي الـدوِّ سُـمْـرَ الـقَـنَـا رامـيـاً لـلـجَـوِّ كُـدْرَ الـعَـجـاجْ
قـائـداً نـحـوَ الـعِـدا جَـحْـفـلاً بِـرُؤوسِ الأُكْـمِ مـنـهُ شـجـاجْ
راجـيـاً إيـقـاعـه بـالـعـدة وقـعـة لـلأرضِ مـنـهـا ارتـجـاجْ
خـاطـبـاً بـكـر الـغـلـى خـاطـراً بـيـن خِـرصـانِ الـقَـنـا والـزِّجـاجْ
كـارهـاً لـلـعـيـش مـا لـمْ أنـلْ سـالـكـاً لـلـعـزِّ خـيـرَ الـفِـجـاجْ
وقـعـةً يَـرضـى بـهـا ذو الـحِـجَـى أو مـمـاتـاً قـاطـعـاً لـلْـحِـجـاجْ

وقوله(٣): [من البسيط]

قد طالَ بالحِلم عَنْ أعدائِكَ الأمدُ فاعْمِدْ لعزم مُزيلٍ ما لهُ عَمِدوا
وكُنْ على رأيكَ الميمونِ مُعتمِداً فليسَ غيرُكَ للعَلياءِ مُعتمدُ
/١٥١/ لا تصرفنْ عَنْ بني هَمْدانَ واقرهمُ ضَرباً إذا ما تَغَشَّى أمةً هَمَدُوا
ضـربـاً تَـجـمَّـدَ مَـوَّارُ الـدِّمـاءِ إذا ما مارَ مِنْ هامِهمْ في المَأْقِط الجَمَدُ
هـمْ مِـنْ عَـلائِـكَ فـي هَـمٍّ وفـي كَـمَـدٍ فـدامَ لـلـقـومِ ذاكَ الـهَـمُّ والـكَـمَـدُ
ولـيـسَ تـخـمـدُ نـارُ فـي قُـلـوبِـهـمُ مِـنَ الـحُـقُـودِ الأُلـى إلا إذا خـمـدُوا

---

(١) من قصيدة قوامها ١٥ بيتاً في ديوانه ص ١٧٩ـ ١٨٠.
(٢) خمسة أبيات منها في ديوانه ص ١١٥ـ ١١٦.
(٣) ٤ أبيات منها في ديوانه ١٨٢.

في ليل نَقْع لهنيض الظبي شهب ... كسقفِ دَجْنٍ لهُ سُمْرُ القَنا عَمَدُ
وقدْ مَددتَ لـه حَبلاً إلى أَمَدٍ ... والآنَ حينَ تَدانى ذلكَ الأمَدُ
فانهضْ تَعُبُّ المَعالي غيرَ مُتئدٍ ... وارعَ الأنامَ رعاكَ الواحدُ الصَّمدُ

وقوله[1]: [بحر البسيط]

متيمٌ ودَّ في عينيه لو خبّأك ... ماذا يضركَ لو عرفته نبأك
للهِ درُّكَ ما ألهاكَ عَنْ دَنِفٍ ... ما ردَّ أمرَكَ في حالٍ ولا درأك
بريتَ جسمِيَ بالإعراضِ منكَ ولو ... عَطَفْتَ أبرأته سُبحانَ مَنْ برأك
أدميتَ خَدَّكَ إذْ أدميتَ لي كَبِدي ... أنصفْ وقلْ لي ترى مَنْ بالسر بدأك
قدْ قلتُ للسِّجْفِ لمَّا أنْ حُجبتَ بهِ ... يا سِجْفُ لَبيكَ قدْ أحميتَ أم رشأك
ويا منمنمَ خطي عارضيهِ لقدْ ... قَرَاكَ مهجتَهُ الرَّائي وما قَرأك
وأنتَ يا مَنْ يُساميني إلى شَرَفي ... لقدْ وسِعْتَ إذَنْ أضعافَ ما مَلاك
هذا وسَرحُكَ يَرعى في حِمى كَلأي ... فلا رَعَى سَرْحَكَ الباري ولا كَلاَك
جحدتَ حَقَّ فَتًى ما زلتَ ترزَؤُهُ ... فيما يَحِلُّ وفيما مَلَّ ما رزأك
مِنْ وَهْنِ رأيكَ أصبحت مُنتصرا ... بمن يفاجئه يأسى بما فجأك
لَمْ يدرِ قدرَكَ مَنْ قدْ يَرى ولا ... عَرَفْت جهلَكَ النامي ولا مَلاك
قلِ ما بَدَا لكَ مِنْ لُوم لذي كَرَمٍ ... فلَمْ تُجبْ طَوالَ الدهر ما حسأك

وقوله[2]: [من مخلع البسيط]

/١٥٢/ يا رشأً لَمْ يُطِقْ فُؤادي ... تخلُّفاً عنْهُ وهوَ داعِي
إنْ كانَ لا بُدَّ مِنْ فِراقٍ ... فاسمَحْ بتقبيلةِ الوَداعِ

وقوله[3]: [من مخلع البسيط]

قَدَّ فُؤادي بحُسْنِ قَدٍّ ... كالغُصنِ في بانِهِ الرَّطيبِ
ووجنةٍ ما أتمَّ ربْحي وقدْ ... غَدا وَرْدُها نَصيبي

وقوله[4]: [من الوافر]

تقنَّعْ بالكَفافِ مِنَ المَعيشهْ ... ودَعْ شَرهاً يَذِلُّ أُسودَ بيشهْ
ولا تَهتمَّ في الدنيا بِرزقٍ ... ليومٍ لا تُؤمِّلُ أنْ تعيشَهْ

---

(١) بعضها في ديوانه ص ٣٨٢ـ ٣٨٣.
(٢) أخل بها ديوانه.
(٣) ديوانه ٨٣.
(٤) أخل بها ديوانه.

وقوله[١]: [من الوافر]

وأرمــاح نَـفَــتْ مُــهَــجَ الأعَــادي كـمـا يـنـفِـي الـزُّيُـوفَ الـصَّـيـرفِـيُّ
تـكــنُّ صُـدورهـا مـنـهـمْ صَـدور تَـضـيـقُ بـهـا فـتُـظـهـرُها الـقِـفِـيُّ

وقوله[٢]: [من الوافر]:

ونــحــنُ مَـعــاشـرُ نَـأبـى الـدَّنـايـا ونـلـبسُ مِـنْ صُـوَانِ الـعِـرْضِ سَـرْدا
نُـعَـانـق مِـنْ رِمـاحِ الـخَـطِّ بـانـاً ونَـنْـشَـقَ مِـنْ سيُـوفِ الـهِـنْـدِ وَرْدا

وقوله[٣]: [من الوافر]

إذا قَـنَـعَ الـمُـلـوكُ بـدونِ عـيَـشٍ فَـدُونَ مـرَامِـكَ الأمَـدْ الـقَـصِـيُّ
أبـوكَ مـحـمـدٌ داعـي الـبَـرايـا إلـى الـجَـدوى وأنـتَ لـهُ وصِـيُّ

وقوله[٤]: [من الكامل]

مَـهِّـدْ لـجنـبِـكَ قـبـلَ مُـضـطـجَـعِـكْ وانـظُـرْ طَـريـقَـكَ قـبـلَ مُـنـتـجَـعِـكْ
راجِــعْ فُــؤادكَ فــي فَــوارِطِــهِ تَـجِـدِ الإبـانـةَ قـبـلَ مُـرتـجَـعِـكْ
واصـبـرْ لإنـجـاعِ الـنَّـصـيـحِ فَـفـي عُـقـبـاهُ مـا يَـشْـفِـيـكَ مِـنْ وَجَـعِـكْ

وقوله[٥]: [من مجزوء الكامل]

ضَـحِـكَ الـغَـوَادِي إذْ بـكـيـتُـكْ فَـشَـغَـلـتَـنـي عـنـهـمْ فَـدَيـتُـكْ
/١٥٣/ لا كـان مـن يَـلْـحِـي عـلـيـكَ وعــاشَ عَــيــشــي إذْ نــأيــتُـكْ
أطـمـعـتَـنـي بـلـطـيـفِ وَعْـــ ـدِكَ فـي وِصـالِـكَ فـاقْـتـصـيـتُـكْ
وصَــرَفْــتُ عَــنْ كــلِّ الــوَرى عـيـنـي فـكـيـفَ دَنَـتْ رأيـتُـكْ
ومَــتَــى ذَكَــرتُ بِــصــالــحٍ أحـداً سِـوَاك فـقـدْ عَـنَـيـتُـكْ
ونـزلـتَ قَـلـبـي فـاحـتـكَـمْ فـيـهِ فـإنَّ الـبـيـتَ بـيـتُـكْ
أخـشـى سـطـاكَ ولَـوْ أَطَـعْـــ ـت وأرتَـجِـيْـكَ وإن عَـصَـيـتُـكْ
مـا كـانَ أربـحَ صَـفْـقـتـي مُـذْ بِـعـتُ رُوحـي واشـتـريـتُـكْ

وقوله[٦]: [من مجزوء الكامل]

جـنـحَ الـلـئـيـمُ إلـى الـعِـنـا د وَغَــرَّهُ مِــنِّــيْ الـسُّــكــونُ
والــراحُ عــنــدَ وَقــارِهــا فــي الـدَّنِّ أَبْـرَقُ مـا تَـكُـونُ

---

(١) أخل بها ديوانه.
(٢) ديوانه ١٨١ـ ١٨٢.
(٣) أخل بها ديوانه.
(٤) أخل بها ديوانه.
(٥) ديوانه ٣٨٤ـ ٣٨٥.
(٦) أخل بها ديوانه.

وقوله: «ويروى للبهاء زهير وهي بقوله أشبه، وعبقها أنسب بزهير إذا تنبَّه»[١]:

[من مجزوء الكامل]

رفــقــاً بــرُوحــي فــهــيَ لَــكْ ... وعــلــى الــسَّــخِــيِّ بــمــا مَــلَــكْ
إنِّــــــي أَغــــــارُ إذا الأراكُ ... دَنَــا إلــيــكَ فــقــبَّــلــك
ويَــرُوْعُــنــي وَاشــي الــنــسـيــ ... ـم إذا ثَــنــاكَ ومــيَّــلــكْ
مــا أقــبــحَ الــصــبــرَ الــجَــمــيــ ... ـلَ بــعــاشِــقِــيــكَ وأَجْــمَــلَــكْ

وقوله[٢]: [من مجزوء الرجز]

يُــمْــهِــلُ مَــنْ عَــارَضَــهُ ... لــكــنَّــهُ لا يُــهــمِــلُ
كــمْ لــلــعــفــاةِ نَــحْــوَهُ ... فــي الــسَّــدِّ حَــرْفُ يَــعــمــلُ

وقوله[٣]: [من السريع]

مَــنْ مُــنــصــفــي مِــنْ عــاذلٍ جــاهــل ... يَــخُــونُ بــالــلُّــوَّمِ مَــنْ لا يَــخُــونْ
إنْ قــلــتُ مــا يَــضــحــكُ إلا أذى ... قــالَ ومــا عِــشْــقُــكَ إلا جُــنُــونْ

وقوله[٤]: [من السريع]

/١٥٤/ سَــيــندمُ الــمُــلــحدُ فــي دينِهِ ... يــومــاً إذا صــارَ إلــى الــلاَّحِــدِ
أقــررتَ بــالــربِّ وخــالــفــتَــهُ ... مــا أَشــبــهَ الــمُــثْــبِــتَ بــالــجــاحِــدِ

وقوله[٥]: [من السريع]

لا تَــنْــسَ وَجْــدي بــكَ يــا شــادِنــاً ... بــحُــبِّــهِ أُنــســيــتُ أَحــبــابــي
مــالــي عــلــى هَــجــرِكَ مِــنْ طــاقــةٍ ... فــهــلْ إلــى وَصــلِــكَ مِــنْ بــابِ؟

وقوله[٦]: [من السريع]

ســألــتُــهُ مِــنْ ريــقِــهِ شَــرْبــةً ... يــطــفــىٰ بــهــا مِــنْ ظَــمَــئِــي حَــرَّهْ
فــقــالَ أخــشــى يــا شــديدَ الــظَّــمــا ... أنْ تَــتْــبَــعَ الــشَّــربَــةَ بــالــجَــرَّهْ

وقوله[٧]: [من السريع]

مــاتَ أبــو بــكــرٍ ومَــنْ لــي بــأنْ ... لــوْ مُــتُّ مِــنْ قــبــلِ أبــي بــكــرِ

---

(١) انظر: ديوان البهاء زهير ١٨٩ـ ١٩٠.
(٢) أخل بها ديوانه.
(٣) أخل بها ديوانه.
(٤) أخل بها ديوانه.
(٥) ديوانه ٨٨.
(٦) ديوانه ٢٤٠.
(٧) أخل بها ديوانه.

أخٌ تـجـلَّـلـتُ لـه أنْـعـمـاً تَـفْـضُـلُ عَـنْ حـمْـدي وعَـنْ شُـكـري

وقوله مما كتبه على جُرْنِ حمّام كان يدخله السلطان بحماة[1]: [من السريع]

كَـمُـلْـتَ لُـطْـفـاً ووَقـاراً عـلـى مـا حِـزْتَ مِـنْ أوصـافـي الـحُـلْـوَهْ
مِـنْ أَجْـلِ هـذا صـرتُ أهـلاً لأنْ أجُـالـسَ الـسـلـطـانَ فـي الـخَـلْـوَهْ

وقوله[2]: [من المنسرح]

قـالـوا فـلانٌ مِـنَ الـقُـضـاةِ فـمـا بـالُـكَ فـي سَـبِّ عِـرْضِـهِ جـاهِـدْ
فـقـلـتُ لا تَـحْـفِـلـوا بـهِ أبـداً فـذاكَ قـاضٍ يـقـولُ بـالـشـاهِـدْ

وقوله[3]: [من الخفيف]

إنَّ قَـومـاً يَـلـحّـون فـي حُـبِّ سُـعْـدَى لا يـكـادُونَ يـفـقـهـونَ حَـديـثـا
سَـمِـعُـوا وصْـفَـهـا ولامُـوا عـلـيـهـا أَخَـذوا طَـيـبـاً وأعـطـوا خَـبـيـثـا

وقوله[4]: [من المجتث]

انـظُـرْ بـصـائـبِ رأيٍ مُـسْـتـنِـكـرٍ وغَـريـزي
ولا تَـعِـيـشَ ذَلـيـلاً وأنـتَ عـبـدُ الـعَـزيـزِ

وقوله[5]: [من المتقارب]

تـيـقَّـظْ بـفـكـرِكَ فـيـمـا إلـيـهِ عَـواقـبُ كـلِّ الـوَرى آيـلـهْ
ولا تَـتـعـرض لَـخِـزيِ الـجَـحـيـمِ ومـالـكَ صَـبْـرُ عـلـى الـقـابـلَـهْ

وقوله[6]: [من المتقارب]

وقـاضٍ تَـصـدّى لإسـخـاطِـنـا فـلـيـسَ لـنـا ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[7]
يَـجـورُ وقـدْ عَـدَلـتْ عِـرْسُـهُ فـ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾[8]

وقوله[9]: [من المتقارب]

ولـيْ صـاحـبٌ لـسـتُ أُكـفَـى أذاهَ إلا إذا مـا حَـوَاهُ الـجَـدَثْ
لـهُ لِـحـيـةٌ لا سَـقـاهـا الـحَـيـا إلـيـهـا يُـسـاقُ حَـديـثُ الـحَـدَثْ

وقوله[10]: [من الطويل]

(١) ديوانه ٥٢١.
(٢) ديوانه ١٨٢.
(٣) ديوانه ١٠٨.
(٤) ديوانه ٢٥٢.
(٥) أخل بها ديوانه.
(٦) أخل بها ديوانه.
(٧) سورة الحاقة: الآية ٢١.
(٨) سورة الحاقة: الآية ٢٧.
(٩) ديوانه ١٠٩.
(١٠) ديوانه ٢٩١.

تَقَرَّبْ إلى رَبِّ السَّماءِ بما يُرضي ... ودَعْ عَرَضْ الدنيا تَعِشْ وافرَ العِرْضِ
ووفِّ بني الدنيا الودادَ فإنْ وَفَوا ... وإلا فقدْ اقرضتَهمْ أحسنَ القَرْضِ

وقوله[1]: [من الطويل]

رأى المالَ عَمَّنْ يملكُ المالَ مائلاً ... فَصَرَّمَهُ في الجُودِ قبلَ انصرامِهِ
... لهيب البُغْضِ في قَلبِ.. ... لا ضيافِهِ .... صحيح مَرامِهِ

وقوله[2]: [من الكامل]

قَذَفَتْ صَميمَ فُؤادِهِ بشُواظِ ... شُعَلٌ أَرتْهُ نصائحَ الوُعَّاظِ
وأَطَلْتُ في ليلِ الشبيبةِ رَقْدَتي ... فأَجدَّ صُبْحُ الشَّيْبِ في إيقاظي

وقوله[3]: [من المتقارب]

لَعَلَّكَ تَرْثِي لذي لَوعَةٍ ... إذا ضَحِكَ العاذِلونَ انتحبْ
أُؤَمِّلُ مِنْ عَبْرتي نُصْرَتي ... متى كُشِفَتْ كُرَبٌ بالكُرَبْ
ولَوْ لَمْ أدَعْ في هَواكَ الوَقارَ ... لَمَا صَارَ يأْخُذُمِنِّي الطَّرَبْ
ولا صِرْتُ أفهمُ عنكَ الحَديـ ... ـثَ بنقرِ الدّفوفِ ونفْخِ القَصَبْ

/١٥٦/ وقوله[4]: [من الوافر]

وكمْ [من] لائمٍ يَلْحي إلى أنْ ... تأمَّلَ مَنْ هَوَيت فما تَنحْنحْ
نَفَى عنِّي المنامَ بسحرِ عَينٍ ... إلى سِلْم المُتَيَّم ليسَ يَجْنحْ
لهُ حَذقٌ بقولِ الحربِ أولى ... ولي قلبٌ يقول الصلحُ أَصْلحْ

وقوله[5]: [من البسيط]

يا سَلَّمَ اللهُ جِيراناً بِذِي سَلَمٍ ... لِبينِهمْ بانَ خسُراني وأرباحي
كانوا شُموسي وأَقماري وقدْ حُجبوا ... عنِّي فأظلمَ إمسائي وإصباحي
إذا خشيتُ مَزيدَ البُعدِ زِدْتُ جَوًى ... مُباعداً بينَ أجسادٍ وأرواحِ

وقوله[6]: [من المتقارب]

أَرِقْتُ لبارقِ مُزنٍ أَضَا ... على الأثَلات بذاتِ الأضَا
فأذكَرَني جِيرَةً بالغَضَا ... تَوَلَّوا وأُصليتُ جَمْرَ الغَضَا
وطَوَّلَ في حُبِّهمْ لائمي ... فَعَرَّضَ قَلبي لِما عَرَّضا

---

(١) أخل بها ديوانه.
(٢) ديوانه ٣٠١ـ ٣٠٢.
(٣) ديوانه ٨٨ـ ٨٩.
(٤) ديوانه ١٣٢ـ ١٣٣.
(٥) ديوانه ١٢٨ـ ١٣٠.
(٦) ديوانه ٢٨٥ـ ٢٨٧.

فَلَمْ يُجْدِ نفعاً سِوى أنَّهُ ... على النفعِ إذْ لامني حَرَّضا

وقوله[١]: [من الكامل]

وغَريمِ شيبٍ لا يُدافَعُ خَصْمُهُ ... وافَى وحَقُّ شَبيبتي لَمْ أقْضِهِ
فلئنْ أَصَختُ إلى العَذُولِ فَطَالما ... أَعْرضتُ عَنْ طُولِ المَلامِ وعَرْضِهِ
وكَسرت رُمَّانَ النُّهودِ بعصرِهِ ... وأكلتُ تفَّاحَ الخُدودِ بِعَضِّهِ
فالآنَ تَوّجني الزمانُ بأسوَدٍ ... شَمْطٍ تَنَافَرَ بعضُهُ مِنْ بعضِهِ
وتباينتْ أوصافُهُ فالغَيُّ في ... مُسْوَدِّهِ والرُّشْدُ في مُبْيَضِّهِ
وكذاكَ حالي في الهوى ما هِمْتُ في ... إبرامِهِ إلا هَمَمتُ بنقضِهِ

/١٥٧/ وقوله[٢]: [من الطويل]

وجاؤوا عشاء يُهْرَعُونَ وقدْ بَدَتْ ... بجسميَ مِنْ داءِ الصَّبابةِ ألوانُ
فقالوا وكلٌّ مُعْظِمٌ بعضَ ما رَأى ... أصابتْكَ عَيْنٌ قلتُ إنَّ وأَجفانُ

ومنهم:

[٦٦]

الشَّيخُ القُطْبُ، أَبو بَكرِ بنُ قَوَامِ بنِ عَلِيِّ بنِ قَوامِ بنِ مَنصُورِ بنِ مُعَلّى بنِ حَسَن بنِ عِكرِمَةَ بنِ هَارونَ بنِ قَيسِ بنِ رَبِيعةَ بنِ عَامِرِ بنِ هِلالِ بنِ قُصَيِّ بنِ كِلاب[٣]

مسلِّك أقوام، وسالك طريقة دعا بها ابن قوام، وكان لأهل بيته أي قدوة، وبيته أي بيت ودار ندوة، لم يخل رحابه من طارق، ولا سحابه من هطل ما ذرَّ شارق. وكان في أرض «بالس» تهطل سماؤه، وعلى جانب الفرات وماء الفرات وماؤه، وأقام ما أقام وكراماته ظاهره، ومقاماته باهرة، وأحواله تحدث الغرائب عنها، وتحدث العجائب منها. ولم يكن في وقته وزمانه على مقته أجمع منه للخواطر، ولا أجمل محيّاً إذا تجهَّمت السحب المواطر. والحقيقة بعض علمه، والطريقة تحت رسمه، والآداب منه تتعلم، وراية المجد إلى يمين غرائبه تسلم.

---

(١) ديوانه ٢٨٠ـ ٢٨٢. (٢) أخل بها ديوانه.

(٣) ترجمته في: طبقات الشافعية للسبكي ٨/ ٤٠١ـ ٤٠٨، ذيل مرآة الزمان ١/ ٣٩٢ـ ٤١١، العبر ٥/ ٢٥٠ـ ٢٥١، طبقات الأولياء لابن الملقن ٤٨٦ـ ٤٨٧ رقم ٦٨، مرآة الجنان ٤/ ١٥٠، السلوك ١/ ٢/ ٤٤٢، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٥١ـ ٦٦٠هـ) ص ٣٧٢ـ ٣٧٧ رقم ٤٧٥.

ولد بمشهد صفين سنة أربع وثمانين وخمسمائة. ثم انتقل إلى «بالس» وربي بها.

حكى عنه حفيده الشيخ العارف أبو عبد الله أنه قال: كانت الأحوال تطرقني في بداية أمري، فكنت أخبر بها شيخي، فينهاني عن الكلام فيها. وكان عنده سوط، يقول: متى تكلمت في شيء من هذا ضربتك بهذا السوط!. ويأمرني بالعمل، ويقول: لا تلتفت إلى شيء من هذه الأحوال. فما زلت معه كذلك، حتى كنت في بعض الليالي، وكانت لي أم ضريرة، وكنت باراً بها، ولم يكن لها من يخدمها غيري، فاستأذنت الشيخ في المضي إليها، فأذن لي، وقال: إنه سيحدث لك في هذه الليلة /١٥٨/ أمرٌ عجيب، فاثبت له ولا تجزع. فلما خرجت من عنده وأنا مارٌّ إلى جهة أمي سمعت صوتاً من جهة السماء، فرفعت رأسي، فإذا نور كأنه سلسلة متداخل بعضه في بعض، فالتفتْ على ظهري، حتى أحسست ببردها في ظهري. فرجعت إلى الشيخ فأخبرته بما وقع لي. فقال: الحمد لله، وقبّلني بين عيني، وقال: يا بني! الآن تمت النعمة عليك، أتعلم يا بني ما هذه السلسلة؟. فقلت: لا. فقال: هذه سنة رسول الله ﷺ.

وأذن لي في الكلام، وكان قبلُ ينهاني عنه.

قال حفيده: سمعته يوماً وقد دخل البيت وهو يقول لزوجته: ولدكِ قد أخذه قطّاعُ الطريق! في هذه الساعة. وهم يريدون قتله، وقتل رفاقه. فراعها قول الشيخ رضي الله عنه، فسمعته يقول لها: لا بأس عليكِ، فإني قد حجبتهم عن أذاه وأذى رفاقه، غير أن مالهم يذهب، وغداً إن شاء الله تعالى يصل هو ورفاقه. فلما كان من الغد وصلوا كما ذكر الشيخ، وكنت فيمن تلقّاهم، وأنا يومئذٍ ابن ست سنين، وذلك سنة ست وخمسين وستمائة.

قال شمس الدين الخابوري: وقع في نفسي أن أسأل الشيخ ـ وكان الخابوري من مريدي الشيخ أبي بكر ـ عن الروح؟، فلما دخلتُ عليه قال لي من غير أن أسأله: يا أحمد! ما تقرأ القرآن؟. قلت بلى يا سيدي. قال: أقرأ يا بني!: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] يا بني! شيءٌ لم يتكلم فيه رسول الله ﷺ، كيف يجوز لنا أن نتكلّم فيه؟.

وقال الشيخ إبراهيم البطائحي: كان الشيخ يقف على حلب، ونحن معه، ويقول: والله إني لأعرف أهل اليمين من أهل الشمال منها، ولو شئتم لسميتهم، ولكن لم نؤمرْ بذلك، ولا يكشف سر الحق في الخلق.

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

وقال معضاد بن حامد: /١٥٩/ كنا مع الشيخ في حفر النهر الذي ساقه إلى «بالس»، فاجتمع عندنا في بعض الأيام خلق كثير في العمل، فبينا نحن نعمل، إذ جاء راعد قوي فيه بَرَد كبار، فقال له بعض أصحابه: يا سيدي! قد جاء هذا الراعد، وربما تعطَّل الجماعة عن العمل. فقال له الشيخ: اعمل وطيِّب قلبك، فلما دنا الراعد، استقبله، وأشار إليه بيده، وقال: خذ يميناً وشمالاً، بارك الله فيك. فتفرَّق عنا بإذن الله، وما زلنا نعمل والشمس طالعة علينا، ودخلنا البلد ونحن نخوض الماء كما ذكر.

وقال محمد بن ناصر [المشهدي] كنت عند الشيخ وقد صلى صلاة العصر، وصلى معه خلق، فقال له رجل: يا سيدي! ما علامة الرجل المتمكن؟. وكان في المسجد سارية، فقال: علامة الرجل المتمكن أن يشير إلى هذه السارية، فتشتعل نوراً. فنظر الناس إلى السارية فإذا هي تشتعل نوراً. أو كما قال.

وقال إبراهيم البطائحي: سئل وأنا حاضر عن الرجل المتمكن ما علامته؟. وكان بين يديه طبق فيه شيء من الفاكهة والرياحين. فقال: أن يشير بسره إلى ما في هذا الطبق، فيرقص جميع ما فيه. فتحرَّك جميع ما كان في الطبق ونحن ننظر.

وقال إسماعيل بن أبي سالم، المعروف بابن الكردي: كنا جلوساً مع الشيخ في تربة الشيخ رافع رضي الله عنهما، ونحن ننظر إلى الفرات، إذ لاح على شاطىء الفرات رجل، فقال الشيخ: أترون ذلك الرجل الذي على شاطىء الفرات؟ فقلنا: نعم. قال: إنه من أولياء الله تعالى، وهو من أصحابي، وقد قصد زيارتي من بلاد الهند، وقد صلى العصر في منزله، وقد توجَّه إليّ، وقد زُويت له الأرض، فخطا من منزله خطوة إلى شاطىء الفرات، وبقي يمشي من الفرات إلى ههنا، تأدُّباً منه معي. وعلامة ما أقول لكم أنه يعلم أني في هذا المكان فيقصده، ولا يدخل البلد. فلما قرب من البلد عرَّج عنه، وقصد المكان الذي فيه /١٦٠/ الشيخ والجماعة، فجاء وسلَّم وقال: يا سيدي! أسألك أن تأخذ عليَّ العهد أن أكون من أصحابك. فقال له الشيخ: وعزَّةِ المعبود، أنت من أصحابي. فقال: الحمد لله، لهذا قصدتك، واستأذن الشيخ في الرجوع إلى أهله، فقال له الشيخ: وأين أهلك؟. قال: في الهند!. قال: متى خرجت من عندهم؟. قال: صليت العصر، وخرجت لزيارتك. فقال له الشيخ: أنت الليلة ضيفنا، فبات عند الشيخ، وبتنا عنده. فلما أصبحنا من الغد طلب السفر، فخرج الشيخ، وخرجنا في خدمته لوداعه، فلما سرنا في الصحراء، وأخذ في وداع الشيخ، وضع الشيخ يده بين كتفيه، ودفعه، فغاب عنا، ولم نره، فقال الشيخ: وعزَّة المعبود في دفعتي له وضع رجله في باب داره بالهند، أو كما قال.

قال حفيده: سمعت علم الدين الشيرازي يحكي لوالدي: قال: كنت في بعض أسفاري، فأدركني شيء من الجوع والعطش، وأوقع الله تعالى في نفسي أن الله يطلع الشيخ على حالي، فإذا أنا بإنسان واقف على صخرة، وهو يشير إليَّ: أن تعال. فمضيت إليه، وإذا هو الشيخ، وعنده كوز ماء، ورغيف خبز!. فقال: كُلْ. فجلست وأكلت، وشربت. وحملت ما فضل.

قال حفيده: وسمعت والدي يقول: ولما كان في سنة ثمان وخمسين وستمائة، وكان الشيخ في حلب وقد حصل فيها ما حصل من فتنة التتار، وكان نازلاً في المدرسة الأسدية. فقال لي: يا بني! اذهب إلى بيتنا، فلعلك تجد ما نأكل. فذهبت إلى الدار، فوجدت الشيخ عيسى الرصافي، وكان من أصحابه، مقتولاً في الدار، وعليه دَلَق الشيخ، وقد حُرق، ولم يحترق الدَّلَق، ولم تمسَّه النار، فأخذته وخرجتُ، فوجدني بعض من بني جهبل، فأخبرته بخبر الدَّلَق، فحلف عليَّ بالطلاق وأخذه مني.

وقال أيضاً: حدَّثني إسماعيل /١٦١/ بن سالم الكردي، قال: كان لي غنم، وكان عليه راع، فسرح يوماً على عادته، فلما كان وقت رجوعه لم يرجع، فخرجت في طلبه فلم أجده، ولم أجد له خبراً، فرجعت إلى الشيخ، فوجدته واقفاً على باب داره، فلما رآني قال لي: ذهبت الغنم؟. قلت: نعم. قال: قد أخذها اثنا عشر رجلاً، وهم قد ربطوا الراعي بوادي كذا. وقد سألت الله أن يرسل عليهم النوم، وقد فعل. فامضِ تجدهم نياماً والغنم ربضاً إلا واحدة، قائمة ترضع سخلتها. قال: فمضيت إلى المكان الذي قال، فوجدت الأمر كما قال؛ فسقت الغنم، وجئت البلد.

وقال البطائحي: حضر الشيخ جنازة، وفيها جماعة من أعيان البلد، فجلس القاضي والخطيب والوالي في ناحية، وجلس الشيخ والفقراء في ناحية، فتكلَّم القاضي والوالي في كرامات الأولياء، وأنه ليس لها حقيقة، وكان الخطيب رجلاً صالحاً، فلما قاموا جاء الجماعة يسلمون على الشيخ، فقال الشيخ للخطيب: إنا لا نسلِّم عليك!. قال: ولمَ يا سيدي؟. قال: لأنك لم ترد غيبة الأولياء، ولم تنتصر لهم، والتفت الشيخ إلى القاضي، والوالي، وقال: أنتما تنكران كرامات الأولياء!. فما تحت أرجلكما؟ قالا: لا نعلم. قال: تحت أرجلكما مغارة ينزل إليها بخمس درج، وفيها شخص مدفون، هو وزوجته، وكان ملك هذا البلد، وهو على سرير، وزوجته قبالته، ولا نبرح من هذا المكان حتى نكشف عنهما. فدعا بفؤوس، وكشف المكان، والجماعة حاضرون، فوجدوه كما قال.

وقال أبو المجد بن أبي الثناء: كنت عند الشيخ، وقدم عليه الشيخ نجم الدين

الباذرائي، متوجهاً إلى بغداد، وقد ولاه الخليفة القضاء، فسمعته يقول للشيخ: يا سيدي! قد ولاني الخليفة قضاء بغداد، وأنا كارهه، فقال له: طيِّب قلبك، فإنك لا تحكم فيها، وحدَّثه أشياء. وسمعت / ١٦٢/ الشيخ يقول له: يا شيخ نجم الدين! هذا إنسان صفته كذا وكذا، من أعيان الناس، وهو قريب من الملك الناصر، خاطره متعلق بك، وهو يشير إليك بخنصره، فقال له: صدقت، يا سيدي!. دفع إليَّ فص خاتم له قيمة، وقال: يكون عندك وديعة، واللهِ ما أعلم أحداً من خلق الله علم بهذا الفصِّ حين دفعه إليَّ، وقد خيَّطته في مزدرجتي، من حذري عليه، وكان كما قال الشيخ، فإن نجم الدين قدم بغداد، ومات، ولم يحكم بين اثنين!.

قال حفيده: حدَّثني الشيخ الصالح العابد عمر بن سليمان الجعبري المعروف بأبي أصيبعة، قال: سيَّر أبي معي إلى الشيخ هدية، وكنت شابّاً، فرافقني جماعة من أهل القلعة، فتحدَّثوا فيما بينهم، فقالوا: إذا دخلنا البلد رجعنا إلى الخمَّارة، وشربنا. فلما دخلنا البلد وعزموا على ما قالوا، قلت لهم: حتى أوصل إلى الشيخ هديته، ولا يبقى لنا شغل، فمضينا إلى الشيخ، فلما دخلنا إليه وجلسنا، أخذ يتكلم في المعاصي وما فيها من سخط الله وعقابه، فما زال يتكلم حتى القوم تابوا، وصاروا من أصحابه، وماتوا على عمل صالح.

وحدَّثني أيضاً قال: دخلت على الشيخ، وعنده إنسان من أهل العراق، وهو يسأله، والشيخ يجيبه، فأكثر عليه السؤال، فخطر لي أن أقوم إليه، وأخرجه. فقال لي: يا فلان! دعه، فإنه صاحب بدعة، وقد كفانا الله فيه. قال: فلما جاء الليل، أخذه بعض أهل البلد، وبيَّته عنده، فقام من الليل، فسقط من أعلى الدار التي بات فيها!. فجاؤوا إلى الشيخ وأخبروه به. فقال: امضوا، واحفروا له قبراً فإنه الآن يموت!، وهو رافضي مبتدع.

قال حفيده: وسمعت والدي قال: كان الشيخ كثيراً ما يتكلم فيما يلتبس على الأولياء كشفه، فقال لي في بعض الأيام: قد خرج في هذه / ١٦٣/ الساعة جماعة من حلب إلى زيارتنا، وهم يمشون في شجر سيسبان، ولم يكن هذا الشجر بأرض حلب، ولا يعرف بها. أتدرون ما هو؟. فقالوا: لا. فقال: لأنهم يتكلمون في نقص أموال، وغرائم أموال، فظهرت إشارته في الكشف شجر سيسبان، وذلك لأن النقص يعطي النقص في الأبدان، فلما تكلموا في نقص الأموال، ظهر في الكشف كما قلنا.

وقال مرة أخرى: قد دخل إلى مجلسنا حَمَامٌ كثير، وقد رُصَّ المجلس بهم، أتدرون ما هم؟. فقال: قد قصد زيارتنا قوم أحرار وليس فيهم دعيٌّ، فلما كان عن

قليل، دخل جماعة، وجلسوا حتى رصُّوا المجلس، فقال: هؤلاء الذين أخبرتكم عنهم، إنهم قومٌ أحرار، ظهرت في الكشف أسرارهم كما قلنا. وكان رحمه الله تعالى كثير العمل دائم المجاهدة في نفسه، ويأمر أصحابه بذلك، ويلزمهم بقيام الليل، وتلاوة القرآن، والذكر دأبه لا يفتر عنه، وفي كل ليلة جمعة يجعل لكل إنسان منهم وظيفة من الجمعة إلى الجمعة، وكان يحثُّهم على الاكتساب، وأكل الحلال، ويقول: أصل العبادة أكل الحلال.

وكان شديد الإنكار على أهل البدع، لا تأخذه في الله لومة لائم، فرجع به خلق. وكان يحثُّ أصحابه على التمسك بالسنة، ويقول: ما أفلح من أفلح، وسعد من سعد إلا بالمتابعة، فإن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[1]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[2]، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[3]. وكان يقول: ما اتخذ الله ولياً صاحب بدعة قطّ. قيل له: فإن اتخذه؟. قال: يُصْلِحه [وكان يقول: رجال الشام أمكن من رجال العراق، وأعرف]. وكان يتفقَّد الأرامل بنفسه، ويقضي حوائجهنَّ. وجاءته امرأة / ١٦٤/ فقالت له: عندي دابَّةٌ، وقد ماتت. وما لي من يجرُّها عني، فقال: امضي وحصِّلي حبلاً واتركيه عندها، حتى أبعث من يجرُّها. فمضت وفعلت ما قال، فجاء بنفسه، وربط الحبل في الدابة، وجرَّها إلى باب البلد. وكان لا يركب بغلاً، ولا حماراً، ولا فرساً. وإذا عطش وهو قاعد في المجلس مع أصحابه قام فشرب بنفسه، يريد بذلك تربية المريدين.

وكان في الزاوية رجلٌ كبيرٌ مُسِن، وكان به قطار البول، فأخذ تحته شيئاً يقطر فيه البول، فكان يقوم، ويريقه بنفسه، ويغسل ما أصاب الحصير منه. وكان لا يُمَكِّن أحداً من تقبيل يده، ويقول: إذا مكَّن الشيخ أحداً من تقبيل يده، نقص من حاله شيء. وكان شديد الحياء، لا يقطع على أحد كلامه، ولا يُخجِلُ أحداً بما يقول. وكان كثير التورُّع، يتحرَّى في مطعمه، وملبسه، ويقول: الدين الورع، وهو أصل العبادة. وكان يتورَّع عن أموال السلاطين، والجند، وكان عن مال العرب أشدَّ تورُّعاً، لا يأكل لهم طعاماً، ولا يقبل لهم هدية. وكان للعرب عادة يمرون كل سنة بأرضنا مرتين، فإذا مرُّوا لا يأكل مما يباع في السوق، لا لحماً ولا لبناً ولا غيرهما، بل يتأدَّم بالزيت، وما كان من الأدم في البيت.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣١.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

(٣) سورة الحشر: الآية ٧.

وكان في بدء أمره لا يأكل إلا من المباح، يجمع الأشنان بيده، وتارة يحصد، فلمَّا كبر وأسنَّ، كان يأمر من حوله من الفقراء والأصحاب، فيخرجون إلى الصحراء، فيزرعون زرعاً ويحصدونه، فإذا حصل، قال لهم: لا ترفعوه، حتى تدفعوا إلى السلطان نصيبه منه، وكانوا يفعلون ذلك، حتى يدفعوا من التبن ما يخصه. وكان السلطان نور الدين يتردَّد إلى زيارة جده، فوقف على الشيخ غابة من أرض الفرات، فتورَّع عنها، وسبَّلها للمسلمين، فكانوا يأخذون منها الخشب، وينتفعون به، وربَّما احتاج هو إلى شيء من الخشب للعمارة، فيشترى /١٦٥/ له ولا يأخذ منها شيئاً، تورُّعٌ منه.

وصنع له بعض أصحابه في بعض الأيام طعاماً فيه جزر، فلما وضعه بين يديه، قال له الشيخ: من أين اشتريت هذا الجزر؟، فإنه حرام!. فقال: من السوق؟ فقال: امضِ إليه واسأله عنه من أين اشتروه؟، فمضى وسأل عنه، فوجده قد اشتري من طعمة المكاسين!!.

وقال الشيخ إبراهيم البطائحي: كان الشيخ رضي الله عنه لا يقبل خمسين درهماً [جملة واحدة]، ويقول: خمسون درهماً غنى فقير.

وتوفي يوم الأحد سلخ رجب سنة ثمان وخمسين وستمائة، بقرية «عَلَم» ودفن بها، في تابوت، لأجل نقله، فإنه أوصى بذلك.

قال حفيده: أخبرني والدي قال: أوصاني والدي أن أدفنه في تابوت، وقال: يا بني! أنا لا بد أن أنقل إلى الأرض المقدسة. وكان كما قال، فإنه نُقِل بعد موته باثنتي عشرة سنة، إلى جبل [قاسيون]. قال: وكنت فيمن حضر خروجه من قبره، وسرت معه إلى دمشق، وشهدت دفنه، وذلك صبيحة يوم الجمعة، تاسع المحرَّم، سنة سبعين وستمائة. ورأيت في سفري معه عجائب، ذكرها. وقد جمع له حفيده سيرة في أربع كراريس.

ومنهم:

[٦٧]

عليّ البكّاء(١)

الصالح المشهور، ما زايل الدمع حتى خدَّد خديه، ونزل خاضعاً لديه، وترك

---

(١) ترجمته في: الوافي بالوفيات ٢٢/ ٣٥٧ رقم ٢٥٠، المقتفي للبرزالي ١/ ورقة ٢٧ب عقد الجمان ٢/ ٩٨ـ ٩٩، البداية والنهاية ١٣/ ٢٦٢، السلوك ١/ ٢/ ٦٠٤، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٦١ـ ٦٧٠هـ) ص ٣٠٩ـ ٣١٠ رقم ٣٤٩.

جياده في حلبة الخد تستبق، والأرض تصطبح منه وتغتبق. بكَّاءٌ كان لا يجف منه جفنه، ولا يخف منه أفنه، قطع عليه مدة البقاء، واتخذ منه عدة اللقاء، هذا إلى حبٍّ للانفراد، فسكن من قلبه الشغاف، وركن إلى خلبه للاطلاع والإشراف، حتى ثوى، ولكل امريء ما نوى، وأمسى وهو نزيل الخليل وجاره، وفوق وكر السرحان وجاره.

قال ابن اليونيني: حكى لي الملك المنصور /١٦٦/ سيف الدين قلاوون رحمه الله، بغزة في شوال سنة خمس وسبعين وستمائة، وقد خرجت صحبته من الديار المصرية، فلما نزل غزة استأذنته في زيارة الخليل عليه السلام، فقال لي: زر الشيخ علياً البكَّاء، فإنه كبير القدر، وشرع في الثناء عليه وذكر مناقبه، فقال: لما كنا في الأيام الناصرية مع الملك الظاهر، زرته فدعا لي، وأخبرني بأمور تقع، فوقع أكثرها، وأعطاني قميصه، فكنت ألبسه تحت السلاح، فما أصابني نشاب ولا غيره وهو عليّ، وأصابني جراحات لما لم أكن لابسه، أو ما هذا معناه.

قال ابن اليونيني: فلما تسلطن الملك المنصور، وقع في خاطري أن ذلك ربما يكون من الأمور التي أخبره بوقوعها، والله أعلم.

قال: وسمِّي بالبكَّاء لكثرة بكائه.

حكي أنه سئل عن كثرة بكائه، فقال: كنت ببغداد، فرأيت رجلاً خرج منها، فتبعته، فلم يكن بأسرع من وصوله إلى عمارة لا أعرفها، فظننتها من قرى بغداد، ودخل مسجداً وصلى فيه الظهر وخرج، وأنا في صلاة السنة، فخرجت، فرأيت وجوهاً أنكرتها، وبلداً أنكرته، فسألت شيخاً هناك: ما هذه القرية؟. فقال: من أين أنتَ؟. فقلت: من بغداد. خرجت منها من ساعة. فقال: أظنك لا تعقل ما تقول، بينك وبين بغداد أكثر من سنة!. فقلت: والله لقد خرجت منها من أقل من ساعتين. فقال: حدِّثني قِصَّتَك. فحكيت له أمري عن حليته، فقال: إن كنت صادقاً فارجع إلى المسجد الذي دخلت إليه معه فانتظره، فإنه سيعود إليه. فرجعت إلى ذلك المسجد، فلما كان وقت العصر، حضر ذلك الشخص الذي تبعته، فلزمته، وتشبثت به، وبكيت، وتضرَّعت إليه، فانتهرني، ثم رقَّ لي، ورجع بي إلى بغداد، فوصلناها في مثل المسافة التي خرجنا منها، وصحبته، وخدمته /١٦٧/ مدة، وأراد السفر، فأردت صحبته، فمنعني، وقال: لا تقدر على ذلك!. وأنا مسافر إلى البلد الفلاني، وأموت في الوقت الفلاني، فإذا كان ذلك الوقت، فاحضر ذلك المكان، واشهدني. فلما دنا الميعاد، حضرت فوجدته في الموت، وقد توجَّه إلى الشرق، فأدرته إلى القبلة، وهو ينحرف إلى الشرق، وتكرر ذلك منه ومني، فنظر إليَّ، وقال: لا تتعب ـ هو إنما يموت نصرانياً! ـ وتكلم بما يدين به

النصارى ويعتقده، ففارق، فحملناه إلى دير مشهور هناك، فيه جماعة من الرهبان، فوجدناهم في تألم شديد، وذكروا لنا أنهم كان عندهم راهب عظيم، قد أتى عليه مائة سنة، وأنه توفي تلك السنة، بعد أن أسلم، فسلمنا إليهم صاحبنا، فتولوا أمره ودفنوه، وتسلمنا ذلك الراهب وغسَّلناه، ودفنَّاه. فألام على كثرة البكاء؟!. فنسأل الله حسن الخاتمة، وأن يتوفانا على الإسلام والسُّنة، آمين.

توفي الشيخ علي البكَّاء - رحمه الله تعالى - ببلد الخليل عليه السلام في أوائل شهر رجب سنة سبعين وستمائة، ودفن بزاويته.

ومنهم:

[٦٨]

الشَّيخُ خَضِر بنُ أَبي بكرٍ بنِ مُوسَى، أَبُو العَبَّاسِ المِهْرَانِيّ، العَدَوِيُّ، شيخ الملك الظاهر(١)

قدم من جبال الأكراد، وورد الحياض ورَّاد، فاستخصب المرعى، واستنجب المسعى، وتأكدت له بالملك الظاهر بيبرس صحبة نفعته لديه، ورفعته عند إفضاء الملك إليه، وحمد به زمانه النضر، وكان الملك الاسكندر والشيخ الخضر، ووسائله مقبولة، ورسائله للمصايد أحبولة، والأنام معه، والأيام لدعوته مسمعة، حتى هبت له بنكباء البأساء، ودبت إليه دبيب ظلماء المساء، وانتهت له من الوزراء الظاهرية صلالاً أراقم، وأسقاماً داؤها /١٦٨/ متفاقم، وكان قد ثقلت عليه شفاعاته، ونقلت إليهم شناعاته. وما زالوا به حتى أخرجوا خباءه، وأسمعوا منه آي نبأه، وأحضرت امرأة تعرف ببنت

---

(١) توفي سنة ٦٧٦هـ.

ترجمته في: المقتفي للبرزالي ١/ورقة ٦٤ب، وتالي وفيات الأعيان ٦٩- ٧٠ رقم ١٠٦، ونهاية الأرب ٣٠/٣٧٦- ٣٨٠، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٦٨، ودول الإسلام ٢/١٧٧، والعبر ٥/٣٠٩، ٣١٠، والدرّة الزكية ٢٢٠- ٢٢٤، والوافي بالوفيات ١٣/٣٣٣ رقم ٤١٣، والمقفى الكبير ٣/٧٥٠-٧٥٦ رقم ١٣٦٥، وحُسن المحاضرة ١/٥٢١ رقم ٤٨، والطبقات الكبرة للشعراني ٢/٢ رقم ٣٠٢، وفوات الوفيات ١/٢٩٨- ٣٠٠، وشذرات الذهب ٥/٣٥١، ٣٥٢، وموسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي ق٢ ج٢/٧٩- ٨١ رقم ٣٨٧، ومرآة الجنان ٤/١٨٧، والبداية والنهاية ١٣/٢٧٨، والسلوك ج١ ق٢/٦٣٤ (في وفيات سنة ٦٧٥هـ)، والدليل الشافي ١/٢٨٨، والمنهل الصافي ٥/٢١٨- ٢٢٠ رقم ٩٩٠، وذيل مرآة الزمان ٣/٢٦٤، والقلائد الجوهرية ١/٣٦٣، والمواعظ والاعتبار ٢/٤٢٩- ٤٣٠، والنجوم الزاهرة ٧/٢٧٦- ٢٧٧، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٧١- ٦٨٠هـ) ص ٢٢١- ٢٢٣ رقم ٢٨١.

ابن نظيف، فقالت فيه كلاماً، وقادت إليه ملاما، فحمل إلى القلعة واعتقل، وأقام حتى هُيء له بيته في المقابر ونقل، إلا أنه مات غير محترم، وتاب ولم ير غير مبجل محترم، وكان موته بدنو أجل الملك الظاهر منذرا، وكان قد أنذره به، وكان منه حذرا.

أصله من قرية يقال لها: «المحمدية»، من أعمال جزيرة ابن عمر، وسبب معرفة الملك الظاهر له واعتقاده فيه: إن الأمير العجمي أخبره عنه قبل أن يتسلطن، أنه قال: إن ركن الدين بيبرس البندقداري لابد أن يملك، فلما ملك، صار له فيه عقيدة [عظيمة]، وقرَّبه وأدناه، وكان ينزل إلى زيارته في الأسبوع مرة أو مرتين أو ثلاثاً، على قدر ما يتفق؛ لكنه لم يكن يغب زيارته والاجتماع به، ويطلعه على غوامض أسراره، ويستشيره في أموره، ولا يخرج عن رأيه، ويستصحبه في سائر أسفاره وغزواته، وفي ذلك يقول الشريف شرف الدين محمد بن رضوان الناسخ: [من الكامل]

ما الظاهرُ السلطانُ إلا مالكُ ... الدنيا بذاك لنا المَلاحِمُ تُخبِرُ
ولنا دليلٌ واضحٌ كالشمسِ في ... وسطِ السماءِ بكلِّ عينٍ تُنَظرُ
لمَّا رأينا الخِضْرَ يقدمُ جَيشَه ... أبداً علمنا أنَّه الاسكندرُ

وكان يخبر الملك الظاهر بأمور قبل وقوعها، فتقع على ما يخبر به، ولما حاصر الملك الظاهر [أرسوف]، وهي من أوائل فتوحاته، سأله: متى تؤخذ؟ فعين له اليوم الذي تؤخذ فيه، فوافق. وكذلك في «قيسارية» و«صفد».

ولما عاد الظاهر [رحمه الله تعالى] من دمشق إلى جهة الكرك، سنة خمس وستين، استشاره في قصده، فأشار عليه أن لا يقصده، / ١٦٩/ وأن يتوجه إلى الديار المصرية، فلم يوافق قوله غرضه، فخالفه وقصده، فلما كان فانكسرت فخذه، وأقام مكانه أياماً كثيرة، ثم حمل في محفَّة إلى غزة، ثم إلى الديار المصرية على أعناق الرجال. ولما قصد الظاهر منازلة حصن الأكراد ومحاصرته، اجتاز الشيخ خضر ببعلبك، ونزل بالزاوية التي عمرت له بظاهرها، وخرج نوَّاب السلطنة وبعض أهل البلدة إلى خدمته، فقال ابن اليونيني: وكنت فيمن خرج، فسمعت كمال الدين إبراهيم بن شيث [رحمه الله تعالى] يسأله عن أخذ حصن الأكراد؟. فقال ما معناه: يؤخذ في مدة أربعين يوماً. أو قال: قلت: لابني يشير إلى الملك الظاهر انك تأخذه في أربعين يوماً، فوافق ذلك، وأخذه في مدة أربعين يوماً.

ولما توجَّه الملك الظاهر إلى الروم، سأل الشيخ خضر بعض أصحابه عما يتم للملك الظاهر؟، فأخبرهم أنه يظفر، ثم يعود إلى دمشق، ويموت بها بعد أن أموت أنا بعشرين يوماً!. فاتفق ذلك.

قال ابن اليونيني: وحكي لي أن الملك الظاهر لما تغير عليه، وأحضر من أصحابه من دمشق من يحاققه على أمور نقلت إليه عنه، ويقابله عليها، قعد الملك الظاهر بقلعة الجبل، وعنده من أكابر الأمراء فارس الدين الأتابك، وبدر الدين، والملك المنصور قلاوون، وسير الأمير سيف الدين قشتمر العجمي لإحضاره، فلما طلبه إلى الحضور إلى القلعة، أنكر ذلك؛ لأنه لم يكن له به عادة، فعرَّفه [بشيء ما] هم فيه، فحضر معه، فلما دخل لم يجد ما يعهده، فقعد عندهم منتبذاً منهم، فأحضر السلطان الذين أحضرهم من أصحابه من دمشق، فشرعوا ونسبوه إلى قبائح وأمور عظيمة لا تكاد تصدر من مسلم، فقال: ما أعرف ما يقولونه، ومع هذا، فأنا ما قلت لكم: إني رجل صالح، أنتم قلتم هذا، فإن كان ما يقول هؤلاء صحيحاً، فأنتم / ١٧٠/ كذبتم. فقام الملك الظاهر ومن معه من عنده؛ وقالوا: قوموا بنا، لا نحترق بمجاورته. وتحولوا إلى طرف الإيوان بعيداً منه. فقال الظاهر: أيش رابكم في أمره؟. فقال الأتابك: هذا مطَّلعٌ على الأسرار وأسرار الدولة، وبواطن أحوالها، وما ينبغي إبقاؤه في الوجود، فإنه لا يؤمَن أن يصدر منه ما لا يمكن تلافيه. فوافقه الحاضرون على ذلك، وقالوا: ببعض ما قد قيل [عنه] يباح دمه، ففهم ما هم فيه، فقال للملك الظاهر: اسمع ما أقول لك! إنَّ أجلي قريب من أجلك، وبيني وبينك مدة أيام يسيرة، من مات منا لحقه صاحبه عن قريب. فوجم الملك الظاهر لذلك، وقال للأمراء: ما ترون في هذا؟. فلم يقل أحد منهم شيئاً. فقال [السلطان] الظاهر: هذا يحبس في موضع لا يسمع له فيه حديث، فيكون مثل من قد قبر وهو حي. فقالوا: الذي رآه مولانا السلطان. فحبسه في مكان منفرد، بقلعة الجبل، ولم يمكّن أحداً من الدخول إليه إلا من يثق به السلطان غاية الوثوق، ويدخل إليه بالأطعمة الفاخرة، والأشربة، والفواكه، والملابس تغيرَّ عليه كل وقت. وكان حبسه في ثاني عشر شوال سنة إحدى وسبعين وستمائة.

وتوفي يوم الخميس سادس المحرَّم، أو ليلة الجمعة سابعه، وأُخرج يوم الجمعة المذكور من سجنه بقلعة الجبل، ميتاً، فسُلِّم إلى أهله، فحملوه إلى زاويته المعروفة بخط الجامع الظاهري بالحسينية، فغسِّل بها، [وحمل إلى الجامع المذكور]، وصُلِّي عليه عقيب الجمعة بالجامع المذكور، ودفن بتربة أنشأها لنفسه بالزاوية، وقد نيف على الخمسين. ولما عاد الظاهر من الروم، كتب بالإفراج عنه، وجهَّزه على البريد، فوصل البريد بعد موته. وكان بنى له الظاهر زاوية بالحسينية، ووقف عليها أحكاراً يحصل منها في كل سنة فوق ثلاثين ألف درهم. وبنى له بالقدس زاوية، وبجبل المزة ظاهر / ١٧١/ دمشق زاوية، وبظاهر بعلبك زاوية، وبحماة زاوية، وبحمص زاوية، وفي جميعها

فقراء، وعليهم الأوقاف، وصرَّفه في ملكه يَحْكُمُ ولا يُحكَم عليه، ولا يخالف أمره في جليل ولا حقير، ويتقي جانبه الخاص والعام، حتى الأمير بدر الدين الخازندار، والصاحب بهاء الدين، وملوك الأطراف، وملوك الفرنج وغيرهم.

وهدم بدمشق كنيسة اليهود ونهبها، وكان فيها من الآلات والفرش ما لا يُعبَّر عنه، وصيَّرها مسجداً وبنى بها المحاريب، وعمل بها سماعاً، ومدَّ بها سماطاً. ودخل كنيسة الإسكندرية، وهي معظَّمة عند النصارى، ويعدونها كرسياً من كراسيهم، ويعتقدون فيها البركة، ويزعمون أن رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام فيها، وهو عندهم يحيى المعمَّدان، فنهبها، وصيَّرها مسجداً، وسمَّاها «المدرسة الخضراء» وأنفق في تغييرها من بيت المال مالاً كثيراً.

وهدم بالقدس كنيسة النصارى المعروفة بالمصلَّبة، وهي جليلة عندهم، وقتل قسيسها بيده، وعملها زاوية.

وكان واسع الصدر، يعطي ويفرِّق الدراهم والذهب، وعمل الأطعمة الفاخرة، في قدور مفرطة في الكبر بحيث يحمل القدرة الواحدة الجماعة من الحمَّالين.

وكانت أحواله عجيبة لا تكيَّف، ولا تنتظم، والأقوال فيه مختلفة، فمن الناس من أثبت صلاحه، ومنهم من رماه بالعظائم، والله أعلم بحقيقة حاله.

قلت: حكى لي والدي رحمه الله تعالى، قال: كان الشيخ خضر عظيم المكانة عند الملك الظاهر، لا يخالفه في شيء، وكان جريئاً باللسان وباليد إلى غاية، فضاق منه الوزير ابن حنا ضيقاً عظيماً، ولم يجد له سبيلاً إلى إبعاده، فشرع في التحيُّل عليه، وكانت بدمشق امرأة تعرف ببنت ابن نظيف، بارعة في الحسن، خالية من الزوج، محبَّةً لأهل الخير، فأتى الشيخ خضر في بعض أسفاره /١٧٢/ دمشق، فسمعت به، وبعثت إليه بأنواع من المآكل، ثم دعته إلى دار لها لضيافة عملتها له؛ فجاءها، وأقام عندها أياماً في مأكل وأوقات طيبة لا ريبة فيها، فبلغ ذلك ابن حنا، فجعله سُلَّماً له إلى ما يريد يتسلق منه على الشيخ خضر، وذلك أنه خلَّى تاج الدين ابن ابنه، تزوَّج المرأة وأبقاها في عصمته مدة طويلة، وحملها بالرغبة والرهبة على ما تقوله في الشيخ خضر، ثم طلَّقها سراً، وتحيل جده على الظاهر حتى ألقى في أذنه أن الشيخ خضر يشرب الخمر ويزني، وأنه كان قد أحب امرأة من بنات ابن نظيف، وأفسدها، وأن تاج الدين تزوجها، ثم لم ينته عنها الشيخ خضر، وبقي يأتي إليها، فطلَّقها، وأنها لو سئلت لأخبرت بالخبر، فبعث الظاهر إلى نائبه بدمشق في ذلك، وأحضر المرأة وسألها، وهي لا تعلم بتطليق تاج الدين لها، فقالت ما قرر معها أن تقوله، فكتب بذلك إلى الظاهر،

ثم أضيف إلى الشيخ خضر أقوال أخر، ورتبت له ذنوب لم تكن، وكان منه ما كان.

ورأيت أنا في أوراق عمي ـ رحمه الله ـ نسخة المطالعة التي كتبت في ذلك، وفيها عظائم، ومما قيل فيها وهذه المرأة باقية في عصمة الصاحب تاج الدين، لأنهم لم يكونوا علموا بإيقاع الطلاق عليها.

ومنهم:

[٦٩]

يُوسُفُ بنُ نَجَاح بنِ مَوهُوب، أبو الحَجَّاج الزّبَيرِيُّ المعروف بالفُقَّاعِيّ[١]

علا بعز الطاعة، وغالب رأي النفس فأطاعه، وأزمع على الرحيل فجمع له أهبته، وأجمع له وثبته، واستعدَّ ليوم العرض، وأعدَّ لجَنَّةٍ عرضها السماوات والأرض، وملاحظة الحق تعينه، وتحقق له ما يستبينه، فتقدَّم ولم يتأخَّر، وقدَّم لله لا لمفخر، وركض به عمله محضرا، وسره ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ / ١٧٣/ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾[٢]، فلم ير أضاليل الدنيا إلا مهموما، ولا رئي على غروراتها محوّما.

أصله من قرية من قرى «نابلس» تعرف بـ «عقربا» وله بها زاوية، وكان يتردد إليها في كثير من الأوقات، بعد أن قدم دمشق. وله زاوية ورباط بالقرب من الجامع الأفرمي بناهما له الأمير جمال الدين موسى بن يغمور.

وكان كثير العبادة والزهد، حسن التربية، كريم الأخلاق، لطيف الحركات، كثير التواضع، ليِّن الكلمة، من المشايخ المشهورين بالعرفان، ولكثير من الناس فيه عقيدة صالحة.

توفي ليلة الأربعاء [بجامع الجبل] سابع عشرين شوال، سنة تسع وسبعين وستمائة، ودفن بتربته جوار الزاوية، بعد أن صُلِّي عليه بالجامع المظفَّري، بسفح قاسيون، وقد نيف على الثمانين.

حكى ابن اليونيني: عن الشيخ تاج الدين عبد الرحمن الفزاري قال: اجتمعت به فسمعته يقول: الطالب للمشيخة جاهل بحقيقة الأمر، مستور عليه، إن أهل الله تعالى [يُكرَمون] بها، فيسألون الله تعالى الإقالة. قال: وسمعته يقول: ليس أبناء المشايخ

---

(١) ترجمته في: ذيل مرآة الزمان ٤/ ٨٧، المقتفي للبرزالي ١/ ورقة ١٩٢أ الإعلام بوفيات الإعلام ٢٨٣، العبر ٥/ ٣٢٤ـ ٣٢٥، النجوم الزاهرة ٧/ ٣٤٧، شذرات الذهب ٥/ ٣٦٥، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٧١ـ ٦٨٠هـ) ص ٣٣٤ رقم ٤٨.

(٢) سورة آل عمران: ٣٠.

كغيرهم، فإن الحاصل للطالب المريد من غيرهم أكثر وأجل، فإن أولاد المشايخ عندهم إدلال بآبائهم، فلا تزال نفوسهم مرتفعة، وغيرهم يطلب الذل والانكسار، وإنما حصل الناس على الخير بهما.

قال: وسمعته يقول: لقد جرى لهؤلاء الذين عندي وقت اجتهدت على إدخال أولادي فيه بكل طريق فلم أقدر.

قال: وسمعته يقول: إنما نهى الشيخ الشخص عن صحبة غيره، إذا كان مريداً مشتغلاً قد سلَّكه، وعرف مزاجه، لأنه ربما لاذ بجاهل لحاله، ففسد عليه أمره. ومثال هذا: كالمريض الذي له طبيب قد خبر علته، وعرف دواءها، وعالجها مدة، لو شاركه في تعليله طبيب آخر ربما أدَّى إلى هلاك المريض.

/ ١٧٤/ قال: وسمعته يقول: كان شخص يرعى الغنم مدة طويلة لم يأخذ الذئب له شيئاً قط، فلما كان بعد تلك المدة، أخذ الذئب منه شاة، فقلت له: قد أحدثت شيئاً!. فأنكر، فكشفت عن حاله، فإذا به قد أكل طعاماً مسروقاً من بعض صبيان الرعي، فقلت له: بهذا أخذ الذئب منك ما أخذ.

ومنهم:

[٧٠]

الشَّيخُ إبراهيمُ ابنُ [الشَّيخِ عَبدِ اللهِ] الأَرْمَويُّ(١)

كريم كان ينجز المواعيد، وتنبجس له الجلاميذ، من بيتٍ أركانُه لم تهدم،

---

(١) إبراهيم ابن الشيخ القدوة عبد الله بن يوسف بن يونس بن إبراهيم بن سليمان بن يَنْكو: الشيخ الزّاهد، العابد، أبو إسحاق ابن الأرمنيّ، ويقال الأَرْمِويّ نسبة إلى أرمينيّة .
وُلِد سنة ٦١٥هـ، بجبل قاسيون.
وسمع من: الشيخ الموفّق بن قُدامة، وابن الزّبيديّ، وغيرهما.
روى عنه: ابن الخبّاز، وابن العطّار، والمِزّيّ، وطائفة .
وكان صالحاً، خيِّراً، ديّناً، كبير القدْر، مقصوداً للتّبرُّك والزّيارة. له أصحاب ومحبّون، ولهم فيه عقيدة حسَنَة؛ ولمّا قدِم الملك الأشرف دمشق من فتح عكّا طلع إليه وزاره، وطلب منه الدّعاء ووصله. ووذلك ليلة الجمعة رابع عشر رجب بعد العشاء.
وقد حدَّث بكتاب «الأمر بالمعروف» لابن أبي الدّنيا مرّات، لأنّه تفرّد به، عن الشيخ الموفّق.
تُوُفّي في ثاني عشر المحرَّم [سنة ٦٩٢هـ]، وطلع إلى جنازته ملك الأمراء والأمراء والقضاة والعلماء، وحُمِل على الرؤوس. وكان من بقايا الشيوخ، رحمه الله. وله شِعر جيّد، فمنه هذه الأبيات السّائرة:

سهري عليكَ ألذُّ من سِنَةِ الكَرَى ... ويلذُّ فيك تهتُّكمي بين الورى =

ومكانه إرث ممن تقدم، فلم يجهل له قدر، ولم يمهل ترابه مذ وضع له خدٌّ في قبر. كان يؤخذ ترابه للاستسقاء، ونور بصائر الأكفاء، وهو في ضريحه يزار، وتحت صفيحه مشهد ومزار.

ومنهم:

[٧١]

[الشَّيخُ الزَّاهِدُ] جندل [بن محمد العجمي](١)

ذكره ابن اليونيني، فقال: كان زاهداً عابداً، منقطعاً، صاحب كرامات، وأحوال ظاهرة وباطنة، وله جدٌّ واجتهاد، ومعرفة بطريق القوم. وكان الشيخ تاج الدين عبد الرحمن بن الفركاح الفزاري يتردد إليه في كثير من الأوقات، وله به اختصاص كبير.

قال ولده الشيخ برهان الدين: كنت أروح مع والدي إلى زيارته بمَنِين، ورأيته يجلس بين يديه في جمع كثير، ويستغرق وقته في الكلام مغرباً لا يفهمه أحد من الحاضرين بألفاظ غريبة.

وقال الشيخ تاج الدين المذكور رحمه الله: الشيخ جندل من أهل الطريق، وعلماء التحقيق، اجتمعت به في سنة إحدى وستين وستمائة، فأخبرني أنه بلغ من العمر خمساً وتسعين سنة. وكان يقول: طريق القوم واحدٌ، وإنما يثبت عليه ذوو العقول

=

وسوى جمالكَ لا يَرُوق لناظِري ... وعلى لساني غيرُ ذِكْرِك ما جرى

وجنات وجهِكَ لو بذلك حُشاشتي ... لمُبَشِّري بِرضاك كِمتُ مُقَصّرا

أنا عبدُ حُبِّك لا أحولُ عن الهوى ... يوماً وإنْ لامَ العذولُ وأكثرا

«تاريخ الإسلام ص ١٤٧ـ ١٤٨».

ترجمته في: المقتفي ١/ ورقة ١٩٦أ، وتالي كتاب وفيات الأعيان ١٠ رقم ١٥، وتذكرة الحفّاظ ٤/ ١٤٧٧، ودول الإسلام ٢/ ١٤٨، والعبر ٥/ ٣٧٥، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٨٩، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٨٠، والوافي بالوفيات ٦/ ٣٦ رقم ٢٤٦٩، البداية والنهاية ١٣/ ٣٣٣، ومرآة الجنان ٤/ ٢٢٠ـ ٢٢١، وفوات الوفيات ١/ ٣١، وعيون التواريخ ٢٣/ ١٣٣ـ ١٣٤، والسلوك ج١ ق ٣/ ٧٨٧ـ ٧٨٨، وتذكرة النبيه ١/ ١٦٣، ودرّة الأسلاك ١/ ورقة ١٠١ب، وذيل التقييد ١/ ٤٢٩ رقم ٨٤٠، والمقفى الكبير ١/ ٢٣٨ رقم ٢٧٣، وتاريخ ابن الفرات ٨/ ١٥٩، والنجوم الزاهرة ٨/ ٣٨، وعقد الجمان ٣/ ١٩١، والدارس ٢/ ١٩٦، وشذرات الذهب ٥/ ٤٢٠، وذيل المرآة ٤/ ورقة ٦١، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٩١ـ ٧٠٠هـ) ص ١٤٧ـ ١٤٨ رقم ٩٩.

(١) ترجمته في: ذيل مرآة الزمان ٣/ ١٩١ـ ١٩٢، البداية والنهاية ١٣/ ٢٧٣، شذرات الذهب ٧/ ٦٠٥، عقد الجمان ٢/ ١٧١، تاريخ ابن الفرات ٧/ ٧١.

الثابتة. وقال: المولَّه منفيٌّ ويعتقد أنه واصل، ولو علم أنه منفيٌّ، لرجع عما هو عليه.

/١٧٥/ وقال: ما تقرب أحد إلى الله عزَّ وجلَّ بمثل الذُّلِّ والتَّضرُّع والانكسار.

قال الشيخ تاج الدين: واجتمعت به في شعبان سنة أربع وستين وستمائة فقال: أنا أحقُّ الملك [العادل] وقد جاءه من حلب عسكر يحاصره، وكان عمري إذ ذاك خمس عشرة سنة.

وقال لي: دنا الموت، ولم يبق إلا القليل. ثم قصَّ عليَّ رؤيا استدلَّ بها على هذا، فسألته عن الرؤيا؟، فقال: رأيت من زمان متقادم كأني أفرغت في بيتي حمل بصل، فأخذت منه بصلة بيدي، فرأيت عليها عبد الرحمن شملة، فجعلتها في حجري، وعرفت أن ذاك البصل كله مشايخ، أريد أن أجتمع بهم، وأراهم، ويروني. فلما كان هذا القرب رأيت كأني عبيت الجوالق البصل، ولم يبق إلا القليل، فعلمت بذلك قرب الأجل. حدَّثني بذلك عشية السبت ثامن شعبان من السنة المذكورة.

وكانت وفاته بقرية منين في شهر رمضان المعظَّم، سنة خمس وسبعين وستمائة، ودفن بزاويته المشهورة، وعلى ضريحه من الجلالة والهيبة ما يقصر الوصف عنه. رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[٧٢]

أبو الرِّجال بن مُرِّي بن بُحْتُر المنيني[١]

رجل كشفت له البصائر، وأزلفت له المصادر، فعمل لدار القرار، وعجَّل البدار للاستقرار، وقدَّم لجنَّة طالما تسوَّق لنزلها، وتشوَّق إلى كرم منزلها، وهام بها وتاه، وقام في طلبها فواتاه، فقلبته في نعيمها، وقلَّدته تقليد زعيمها، وقالت: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾[٢]، وقدمتم فأصبتم، ولم يزل يخطم الآمال، ويحطم المال، حتى آن

---

(١) ترجمته في: تاريخ حوادث الزمان ١/ ٢٦٩ رقم ١٣٧، والعبر ٥/ ٣٨٥، ومرآة الجنان ٤/ ٢٢٧، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٤٠، وتذكرة النبيه ١/ ١٨٠ـ ١٨١، وعيون التواريخ ٢٣/ ١٨٩ وفيه «ابن بحير المنيني»، وعقد الجمان ٣/ ٢٨٣، والنجوم الزاهرة ٨/ ٧٦، والدليل الشافي ٢/ ٨٢٨ رقم ٢٧٨٧، وشذرات الذهب ٥/ ٤٢٨، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٨١ والإعلام بوفيات الأعلام ٢٩٠، والمقتفي ١/ورقة ٢١٩ب، وذيل مرآة الزمان ٤/ ورقة ١٤٤ وفيه: «أبو الرجا»، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٩١ـ ٧٠٠هـ) ص ٢٣٧ـ ٢٣٨ رقم ٢٧٧.

(٢) سورة الزمر: الآية ٧٣.

له الأوان، وحان أن يدعى إلى الجنَّة ورضوان، فطاب مضجعا، وقدم مقدماً / ١٧٦/ ومرجعا. وكان شيخاً ساذجاً، كبير التواضع، دائم الذكر، دائم التوجه، عارياً عن التكلُّف والتصنُّع، عارفاً بالله، صاحب أحوال ومكاشفات. امتحنه جماعة من أعيان الناس في أمر المكاشفات، فكان يأتي بها أسرع من رجع البصر.

وعظم شأنه في آخر عمره، وقصده الناس رجاء بركته. وكانت له زاوية يُمَدُّ بها السِّماط للواردين والمقيمين، وكان علماء الوقت مثل ابن الفركاح، وابن الوكيل، وابن الزملكاني، يعظِّمونه، ويترددون إليه، ويثنون عليه، ويصفونه بالصلاح والولاية، ويبالغون فيه إلى الغاية. وحدَّثني صاحبنا ناصر الدين محمد بن الفارس المعروف بالحاجبي: توفي يوم الثلاثاء عاشر المحرَّم، سنة أربع وتسعين وستمائة، بقرية منين، ودفن بها.

ومنهم:

[٧٣]

عُثمّانُ المَنِينيُّ المعروف بالقُريريّ(١)

رجلٌ يُعَدُّ برجال، وبطل لا يزاحم في مجال، وعجّل وكم قضيت به آجال، كان بدراً تماما، وبين ثوبيه أسداً ضرغاما، لا تتوقى له سهام، ولا يرد بالجيش اللهام.

حدَّثني عنه والدي، والصدر جمال الدين يوسف بن رزق الله العمري ـ رحمهما الله تعالى ـ قالا: لما اشتدَّ بأهل بعلبك الأمر نوبة غازان ونحن إذ ذاك بها، كان فيها الشيخ عثمان، وكنا نتعهد زيارته، وأبواب المدينة مفتحة، فلما نازلها بولاي غلقت الأبواب واشتدَّ الخوف، ثم أتينا الشيخ عثمان للزيارة، فوجدنا قطب الدين بن اليونيني خارجاً من عنده، فقال: دخلت على الشيخ فلم يكلِّمني، ووجدته منكراً، فلم أجلس، والرأي أن ترجعوا، فإن هذا رجل له بادرة. فقلنا: لا بدَّ أن ندخل، فدخلنا عليه. قال والدي: فالتفت إليَّ وقال: يا محيي الدين! لأي شيء غلقتم / ١٧٧/ أبواب المدينة؟. فقلت له: يا سيدي!! خوفاً من [بولاي] فإنه قد جاء ونزل عليها، وربما أنه يريد أن يحاصر. قال: فغضب الشيخ غضباً شديداً، واحمرَّت عيناه، وجثا على ركبتيه، وطلعت الزبدة على شدقيه.

قال والدي وابن رزق: والله حتى ظنناه سَبُعاً يريد أن يفترسنا، وبقي على هذه

(١) ترجمته في: أعيان العصر ٣/ ٢٣٨.

الحال هنيهة، ثم قال: وعِزَّةِ العزيز، طرشهم رجل طرشة بدَّد شملهم، وفتح يديه يمنة ويسرة، ثم سري عنه. وقال: قل لهم يا محيي الدين: فليفتحوا أبواب البلد. قالا: فقمنا، وأمرنا بفتح الأبواب كما قال، ثم باكرنا الخبر في اليوم الثالث برحيل غازان عن مدينة دمشق في الساعة التي قال فيها الشيخ عثمان ما قال.

وحكى لي الشيخ نجم الدين محمد بن أبي الطيب قال: كان لخالنا القاضي تقي الدين عبد الكريم بن الزكي خصوصية بالشيخ عثمان، وكان يتردد إلى قرية برزة حين أقام بها، وكان لا يزال يشكو إليه ما يجده من سوء أخلاق امرأته، وتكبّرها عليه بما لها من الأوقاف والغنى. وكان الشيخ ينهاها في كل وقت، ويخوفها عاقبة فعلها، إلى مرة زادت في سوء معاملته، فلما شكاها إلى الشيخ عثمان، قال لها: النوبة الفيصلة بيننا وبينك. ثم قال لابن الزكي: إن عاد بدا منها النوبة شيء قل: يا عثمان، يا نحسّ!. قال ابن أبي الطيب: فلما أتى يوم موسم، أو حفل كانت بالميطور، وقد اجتمع عندها جماعة من النساء، فلما أراد أن ينزل إلى المدينة، قالت له: ابعث لنا كذا وكذا من الحلوى وغيرها، فبعث بشيء، فاغتاظت، فلما طلع لامته، ثم احتدَّتْ إلى أن عادت إلى عادتها وأشدّ، فصاح ابن الزكي: يا عثمان! يا نحس!، يا عثمان، يا نحس!. ثم لم يستكمل المجلس حتى أخذتها الحمَّى الحادّة، المحرقة، وقالت له: قتلتني والله!. ثم قالت: واللهالنوبة هي الفيصلة، /١٧٨/ ففطن ابن الزكي وقام لوقته حتى أتى الشيخ عثمان، ليسأله في أمرها، فمنذ رآه مقبلاً من بعيد قال له: أحسن الله عزاك! ارجع جهِّزها، فقد قضي الأمر، فرجع وكان الأمر كمال قال.

وحكى لي غير واحد من أهل برزة: إن الملك الأوحد كان قد تعجَّل نوبة كسروان منهم خراج سنة، ثم لما طال المقام بالجبل بعث يستلف سنة أخرى، فأضرَّ ذلك بنا، ولم يبق إلا من أخذ دوابَّه، أو قماش نسائه، أو غزلهنَّ ليبيعه ويزنه في خراج السنة الأخرٰى، فلما رأى الشيخ عثمان ما حصل لنا بذلك من الضرر والإزعاج، اغتاظ حتى كاد يتميز من الغيظ، ثم قال: لا تبيعوا شيئاً، فإنه قد قضي الشغل، فلم يلبث أن جاءنا الخبر بأن الملك الأوحد قد توفي في ذلك اليوم. وأخباره ومناقبه كثيرة.

حكى لي القاضي عبد الله البستاني الفقيه، قال: كان الشيخ صدر الدين ابن الوكيل حسن العقيدة في الفقراء، وسمعته يحكي قال: طلبني الأفرم مرة، طلباً مزعجاً، فجئته، وأنا خائف منه ـ على صحبتي له ـ، فلما دخلت عليه رأيته مبتهجاً لي، فطلع إلي وقد كاد يسطو علي لأجل ابن تيمية، وقال لي: يا صدر! أنت تريد تعاند القدرة في ابن تيمية؟ وكلما رفعه الله تريد أنت أن تضعه بيدك، والله ما تريد إلا من يخرجك من

الشام، ويحبسك في الاسكندرية، ليكف شرك. قال: فخرجت وأنا في غاية الخوف والوحشة، وتوجَّهت على الفور إلى الشيخ عثمان، فما لحقت أكمل السلام عليه حتى قال لي: بئس الصاحب صاحبك، يعني الأفرم، والله يا صدر الدين، ما هو يا صدر كما قال لك ما يريد يعاند القدرة إلا هو، والله ما يخرج من الشام ويحبس في الاسكندرية إلا ابن تيمية. قال: فُسُرِّي عني ما كنت فيه، وبت عنده تلك الليلة، ثم عدت، فلم أصل إلى بيتي إلا ورسول الأفرم قد أتاني، فجئته، فقال: يا صدر الدينّ أنت رجل صالح، عمل نَفَسك في ابن تيمية، /١٧٩/ وقد جاء مرسوم السلطان بطلبه، وعزمي أن أدفع عنه، وأشتهي أن لا تحرِّكوا أنتم ساكناً ليدفع عنه الشر، لعلَّ تصطلحوا، فيزول ما بينكم، ثم لم يمضِ ـ والله ـ الأيام حتى لم يكن بدٌّ من تجهيزه، وحبس بمصر والاسكندرية، وجاء الأمر كما قال الشيخ. وتوفي سنة ثمان وسبعمائة رحمه الله تعالى، ورضي عنه.

ومنهم:

[٧٤]

مُحَمَّدُ بنُ إبراهيمَ الأُرْمَوِيُّ(١)

مشيِّد بيت وأبيات، وصاحب أناشيد وتلاوة آيات، سكن الشام فاخضرَّ واديه، وابيضَّ بكرم أياديه، وتفجَّرت أنهاره مثل قريحته، وطالت غرة جبهته مثل لألاء صبيحته، وسكن بزاوية ابنه بسفح قاسيون، فسقى السفح، وعامل ساكنه بالرحمة والصفح، فظهرت به من سِرِّ أبيه ـ رحمه الله ـ خفايا، وطلعت من الزوايا خبايا. وكان رجلاً أوَّاباً، وعجِلاً إلى الله توَّابا، ومحسناً ما عرفت له أساءة، ولا ألفت منه إلا عباده، أشهد عليها صباحه ومساه، وله عقب نعم ما أعقبه سلف، وأبقاه ماض من خلف منه أي ابن منجب، وولد متواضع تواضعاً للفقراء معجب.

ومن كلامه:

فصل يتعلق بالسماع

قال: افتقار السماع إلى الوجد، افتقار الصلاة إلى النية والقصد، فكما لا تصح

---

(١) محمد بن ابراهيم بن عبد الله بن يوسف الأرموي، أبو عبد الله الصالحي.
ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٢٨٧، البداية والنهاية ١٤/ ٦٤، طبقات الصوفية للمناوي ٣/ ٦٦ـ ٦٧، معجم الشيوخ للذهبي ٢/ ١٣٢، نهاية الأرب ٣٢/ ٢٣٠، أعيان العصر ٤/ ٢١٥.

الصلاة إلا بالنية والقصد، كذلك لا يباح السماع إلا بالوجد، فمن كانت حركته في السماع طبيعية، كانت نشوته به حيوانية، ألا ترى أن كثيراً من الحيوان ينشأ له حال غير المعتاد عند سماع المطربات، وقوة حركة لسماع طيِّب النغمات، فمن كان هذا السماع / ١٨٠/ الحيواني في ذلك أقصى أربه، وكان مقصوراً فيه على هواه ولعبه، وهو سماع الطبيعة لا سماع الأرواح، فجدير أن يجتنب فإنه يستعمل الطبيعة [ويجرُّ إلى الوقوع] في غير المباح.

. والسماع الذي اختلفت فيه الأقوال إنما هو سماع أهل المقامات والأحوال، فمنهم من أباحه على حكم الاختصاص، ومنهم من جعله زلة الخواص، ومنهم من توقف ولم يجد إلى إقامة الدليل على كلا الأمرين نشاطا، ورأى الاستغفار منه إذا قدر له الحضور فيه احتياطا، فهو متردد في أمريه، فتركه لمثل ذلك أولى، ولم يرزأ على من حضره من السلف، لكن لم ير نفسه بحضوره أهلا. فهذه جملة اقتناعية مما قيل فيه، ونبذة لعلَّ من تأملها تكفيه. [من الطويل]

إذا حَرَّكَ الوجدَ السَّماعُ إليكُمُ ... يُباحُ وإلا فالسماعُ حَرامُ
ومَنْ هَزَّهُ طيبُ استماعِ حديثِكُمْ ... ومالَ مِنَ الأشواقِ ليسَ يُلامُ
ولا عَجَبٌ إنْ شَتَّتَ الحبُّ جَمْعَهُ ... فليسَ لأحوالِ المُحبِّ نظامُ
يسيرُ معَ الأشواقِ أَنَّى توجَّهتْ ... وليسَ له في الكائناتِ مقامُ
ولا غَرو إنْ ضلَّتْ مَذاهبُ عَقلِهِ ... فإن مقامَ العِزِّ ليسَ يَرامُ
حمًى لا سبيلٌ أنْ يُباحَ مَصونُهُ ... وكلُّ الورى طافُوا عليهِ وحامُوا
وقامُوا وقدْ جدُّوا لأولِ منزلِ ... فَقامُوا حَيارى فيهِ حيثُ أَقامُوا

ومن نظمه الفائق قوله: [من السريع]

لا غَروَ أنْ أصبحَ وجهُ الثَّرى ... ونَورُهُ بالنُّورِ وضَّاحُ
إذْ كمْ يدٍ بيضاءَ في كفِّها ... بِرَوضةِ النَّرجِسِ مِصباحُ

وقوله: [من الكامل]

ما حُمرةُ العينينِ منكِ بمُهجتي ... أَفديهما وبناظِري لتألَّمِ
/ ١٨١/ لكنْ لحاظُكِ أغمدتْ أسيافَها ... بحُشاشَتي فبَدَا بها أثرُ الدَّمِ

وقوله: [من الكامل]

وا إذا جِئْنا سراعاً نَحوَهُ ... خَوفَ الهَجيرِ وقدْ أَطلَّ زمانُهُ
رقَّ النسيمُ لِبانِهِ وتَعطَّفتْ ... كَرَمَاً علينا في الرُّبا أَغصانُهُ

وقوله: [من الكامل]

للهِ أيـامُ الـربـيـعِ وطِـيـبُـهـا وتـفـاخـرُ الأطـيـارِ فـي الألـحـانِ
والـوردُ يَـنـمِـى فـي الـغُـصـونِ كـأنَّـهُ [مـاءُ] الـحـيـاء بـوجـنـة الـخَـجلانِ
والـغُـصـنُ يـثـنـيـهِ الـنـسـيـمُ كـمـا ثَـنَـى سُـكـرُ الـشَّـمُـوْلِ شَـمـائِـلَ الـنـشـوانِ
والماءُ يَمشي في الرياضِ كما مَشَتْ سِـنَـةُ الـرُّقـادِ بِـمُـقـلـةِ الـوَسـنـانِ

وقوله: [من السريع]

حَـديـقـةٌ إذْ نـبَّـهـتـهـا الـصَّـبـا لـم تُـبـقِ مـنـهـا مُـقـلـة غـافـيـهْ
وَشَـى بـطِـيـبِ الـعَـرْفِ نَـمَّـامُـهـا لـمَّـا أتـتـهـا الأعـيـنُ الـصـافـيـهْ

وقوله: [من السريع]

كـأنـمـا الـمِـرِّيـخُ فـي جَـوِّهِ شَـقـيـقـةٌ بـيـنَ ريـاضِ الأُقـاحْ
وأنـجـمُ الـجَـوزاءِ خَـوْدٌ غَـدَتْ تَـرقـصُ مِـنْ تِـيْـهٍ بـسـيـفِ الـصـبـاحْ

وقوله: [من الكامل]

يـا طـيـبَ مـا جـاءَ الـنـسـيـمُ بـعَـرْفِـكـمْ وحَـدِيـثـهُ عـنـكـمْ حَـديـثٌ مُـرْسَـلُ
حَـمَّـلْـتُـهُ مُـنِـيِّ الـسـلامَ إلـيـكـمُ فـأطـاعـنـي لـكـنَّـهُ يَـتـعـلَّـلُ

وقوله: [من الكامل]

كـمْ لـلـنـسـيـم عـلـى الـرُّبَـى مِـنْ نـعـمـةٍ وفـضـيـلـةٍ بـيـنَ الـوَرَى لـنْ تُـجْـحَـدا
مـا زارَهـا وشَـكـتْ إلـيـهِ فـاقَـةُ إلا وهَـزَّ لـهـا الـشَّـمـائـلَ بـالـنَّـدَى

وقوله: [من السريع]

رقَّـتْ ورقَّ الـكـاسُ مِـنْ دُونِـهـا عَـذْراءُ راح عَـرْفُـهـا يُـسـكِـرُ
/ ١٨٢/ كـالـشَّـفـقِ الأبـيـضِ مِـنْ دُونِـهِ والـجَـوُّ صـافٍ شَـفَـقٌ أَحـمـرُ

وقوله: [من السريع]

قـلـبٌ غَـدَا مِـنْ حُـبِّـكـمْ عـامـراً لـغـيـركـمْ لـيـسَ بِـهِ مَـنـزِلُ
وقـدْ أردتُـمْ هَـدْمَـهُ بـالـقِـلا سـألـتُـكـمْ بـاللهِ لا تَـفـعـلـوا

وقوله: [من الخفيف]

حـبَّـذا دوحـةٌ إذا مـا سَـعـيـنـا واسـتَـجـرنـا بـذيـلـهـا فـي الـسَّـمُـومِ
لـمْ نَـزلْ تـحـتَ ظـلِّـهـا فـي أمـانٍ بـيـنَ جُـوْدِ الـنَّـدَى ولُـطْـفِ الـنَّـسـيـمِ
مـا اسـتـمـدتْ ريـاضُـهـا الـغـيـثَ إلا جـاءَ مـنـهُ الـصَّـبـا بـوعْـدٍ كـريـمِ
قـدْ تَـردّى بُـرْدَ الـسـحـابِ ووافـى يـتـمـشَّـى هَـونـاً بـقَـلـب سـلـيـمِ
يـتَـمـادَى بـيـنَ الـغُـصـونِ دَلالاً قـدْ تَـربَّـى مِـنْ يـومِـهِ فـي الـنَّـعـيـمِ

وهوَ يختالُ فَرحةً حينَ وافى مِنْ حَبيبٍ مُبشِّراً بالقُدُومِ
ويُريدُ الرجوعَ مِنْ غيرِ عَزْمٍ فهوَ بينَ التأخيرِ والتقديمِ

وقوله: [من البسيط]

أما تَرى الليلَ قدْ ولَّتْ مواكبُهُ مهزومةً واختفتْ خَوفاً كواكبُهُ
وقدْ تَجرَّدَ سيفٌ للصباحِ غَدَتْ مُحْمَرَّةً مِنْ دمِ القَتلى جَوانبُهُ

وقوله: [من الكامل]

ما اصفرَّت الأوراقُ إلا خِيفةً لمَّا استبانَتْ فُرْقَةُ الأغصانِ
وكذا النسيمُ غدا عَليلاً إذ بدا مُتنقلاً أبداً عَنِ الأوطانِ
فاظْفَرْ بجمعِ الشَّمْلِ قبلَ شتَاتِهِ ما العيشُ إلا صُحبةُ الإخوانِ

وقوله: [من البسيط]

وافَى الربيعُ فعادَ الروضُ مُبتسما وطَالما انتحبتْ فيهِ سَحائبُهُ
والغصنُ مِنْ فوقِهِ الشُّحرورُ تحسبُهُ يتلُو الزَّبُورَ بأَعلى الدَّيْرِ راهِبُهُ
وشاطِىءُ الدهرِ قدْ دَبَّتْ عَوارِضُهُ وافترَّ مبسِمُهُ واخْضرَّ شاربُهُ
/ ١٨٣/ فَصَفَّقَ الدوحُ لمَّا أَنْ رأى عَجَباً مِنْ أجلِ ذلك [قدْ] شابتْ ذَوائبُهُ

وقوله: [من البسيط]

لمْ أَنسَ ليلةَ باتَ البدرُ يخدُمُنا إلى الصباحِ ولمْ يُشعِرْ بنا الرُّقَبا
والنهرُ [أَضحى] لُجيناً والدَّجى سَبَجٌ فمُذْ بدا الصبحُ ياقوتاً جَرَى ذَهَبا

وقوله: [من البسيط]

وافى النسيمُ أَمامَ القَطْرِ فانَثَنِتِ الـ أغصانُ تَرقُصُ مِنْ تِيْهٍ ومِنْ مَرَحِ
وأعينُ الروضِ تجري وهوَ مبتسمٌ وقدْ تفيضُ دُموعُ العَينِ بالفَرحِ

وقوله: [من الوافر]

وزُهْرٍ في غُصونِ الدَّوحِ تبدو فَنَاهيكَ السماءُ بها النُّجَومُ
فَذَا عَجَبٌ إذا أَضحتْ رُجُوماً متى استرقَ العَبيرَ بها النَّسيمُ

وقوله: [من السريع]

كأنَّما الدَّوحُ وقدْ طَرَّزَتْ أَيدي الصَّبا بالنُّور أثْوَابَها
مَضاربٌ مِنْ سُندُسٍ مُذْهَبٍ قدْ مَدَّتِ الأغصانُ أثوابَها

وقوله: [من البسيط]

أمَا تَرى الليلُ قدْ ولَّتْ عَساكرُهُ وأقبلَ الصُّبحُ وامتدَّتْ مَواكبُهُ

وجرَّدَ الصبحُ سَيفاً للدجى فغدتْ … مِنْ سفكِهِ لِلدما حُمْراً جَوانبُهُ
وأصبحَ الليلُ مُصفرّاً لِهيبتِهِ … يجدُّ في السيرِ لا تَعْيى رَكائبُهُ
مُمزَّقَ الدرعِ مَحلولَ الإزارِ وكَمْ … قدْ أحكمَتْ سَردَها ليلاً كواكبُهُ

وقوله: [من البسيط]

أَصبحتُ أَوجَعَ مِنْ ورقاءَ فاقِدَةٍ … في الدَّوحِ طُولَ الليلِ لمْ تنَمِ
بَعْدَ الأحَبَّةِ لا تَهوى المنامَ بَلَى … إنْ سامَحوها وزارَ الطيفُ في الحُلمِ

وقوله: [من الطويل]

رأيتُ الصّبا لمَّا استعنتُ بلطفِهِ … على حَمْلِ ما لاقيتُهُ يتعلَّلُ
/ ١٨٤/ وقمْتُ بحفظِ العهدِ للنجمِ في الدجى … فما بالُهُ في صُحبتي يَتنقلُ
وقلبُ الدُّجى ما زالَ للسرِّ كاتِماً … وها هوَ عمَّا خِلتُهُ يَتحوَّلُ

وقوله: [من الخفيف]

وربوعٍ يكادُ طِيبُ شَذاها … يَفضحُ المِسكَ في نُحورِ العَذارَى
أَشرقتْ شَمسُ نَورِها فَسَعينا … نَحوها في الدُّجى نَؤُمُ نَهارا
وأَتى القابسونَ نحوَ سَناها … فَرأَوا جلّي نارها جُلَّنارا

وقوله: [من الوافر]

شَكَوْتُ كما تَهُبُّ صَباً صَباحا … فَرَقَّ لأنَّهُ بَرٌّ كَريمُ
فلا تَعْجَبْ لهُ إنْ مالَ عِطْفاً … لأنَّ الغُصنَ يَعطِفُهُ النَّسيمُ

وقوله: [من الكامل]

لَطُفَتْ شَمائلُهُ فعُذْن شَمائلا … مِنْ أجلِها عَرْفُ النسيمِ مُعَطَّرُ
لَوْ لمْ يَنُمَّ عبيرُهُ بعنوده … كانَ الرقيبُ لِلُطْفِهِ لا يَشعُرُ

وقوله: [من السريع]

أُصافحُ الأغصانَ أَبغي الحَيا … مُستشفياً... جِرْبالَها
وكيفَ لا يُدركُني جُودُها … وقدْ تعلَّقْتُ بأذيالِها

وقوله: [من البسيط]

ناجتْهُ في السرِّ ألحاظي على وَجَلٍ … أليسَ في الحُلْمِ ما يُغني عَنِ السكرى
فقالَ لي كَسْرُ جَفنَيهِ فديتُهما … بحجلة قدْ عَرَفتْ السرَّ والنَّجْوَى

وقوله: [من الكامل]

يا مُعرضاً عنِّي وفي إعراضِهِ لُطْفٌ يفي بِفضائلِ القُرْبِ
مِنْ دونِ سَفكِ دَمي بحُبّك عامداً معنّى نفسك بواعث العَتْبِ

وقوله: [من البسيط]

كأنما النهرُ في ظلِّ الغصُونِ وقدْ أَلقى السحابُ عليهِ حُمرَةِ الشَّفَقِ
/ ١٨٥/ خَدٌّ تكنَّفَهُ فَرْطُ الحَياءِ وقَدْ مَدَّ العِذارُ عليهِ خُضرةَ الوَرَقِ

وقوله: [من الوافر]

كَسَا فصلُ الربيعِ الدوحَ بُرداً يَقيها لَفْحَةَ الحَرِّ الشَّديدِ
وما خلعتْهُ لمَّا رَثَّ إلا وقدْ طَمَحَتْ إلى لُبْسِ الجَديدِ

وقوله: [من مجزوء الكامل]

أنا مُستجيرٌ بالدُّجى مِنْ سَلِّ سيفِ صباحِهِ
فَعَساهُ يَكْلأُ ذا هَوًى كَرَماً بِظِلِّ جناحِهِ

وقوله: [من الوافر]

كأنَّ سَماءَنا والبدرَ فيها وأنجمَها مُحدِّقةٌ إليهِ
حديقةُ نَرجسٍ مِنْ حَولِ عينٍ تدفَّقَ ماؤُها فَطَغى عليهِ

وقوله: [من الخفيف]

جاءَ فصلُ الربيعِ يَخطرُ عُجْباً عِطْفُهُ بينَ نَرجسٍ وبهارِ
وبَدَتْ خَجْلَةٌ مِنَ الماءِ لمَّا رَمقَتْه لواحِظُ الجُلَّنارِ
وكأنَّ الغديرَ إذْ قابلَ الشمسَ لُجينٌ مُرصَّعُ بنُضارِ
وكأنَّ السماءَ إذْ رأتِ الأرضَ عَروسا جادَتْ لها بِنَثارِ
فلهذا أَضحى الأقُاحُ وكلٌّ قابضٌ ثَغْرُهُ على دِينارِ
وذَكَتْ نَكهةُ الصَّبا إذ أذاعتْ سِرَّ ما أوُدعتْ عَنِ النُّوارِ
لا عَجِيْبٌ تُهْدِي إلينا شَذَاها مَعْ صَبَاها مَجامِرُ الأَزهارِ
إذْ رأينا بكلِّ كأسِ شَقِيقٍ دَرَّ مِسْكٍ تُذكيهِ شُعْلَةُ نارِ

وقوله: [من الطويل]

تَبسّمَ ثَغرُ الرَّوضَ بعدَ قُطوبِهِ سُروراً بإقبالِ الربيعِ إليهِ
أَلمْ تَرَ أنَّ الغُصْنَ إذْ رقَّتِ الصَّبا يُصفِّقُ مَسروراً لها بَيديْهِ
وأنَّ ثِيابَ الوَردِ وهيَ شَقيقةٌ يُشقِّقُها حتى تَمُرَّ عَليهِ

/ ١٨٦/ وقوله: [من الخفيف]

خِلْتُ أنَّ الغُصونَ ترقُصُ لمَّا ... بشَّرتْها النَّسيمُ بالأمطارِ
فلهذا ألقتْ لها ما عليها ... فهيَ مِنْ شِدَّةِ السُّرورِ عَواري
لِبَسْتْ في الشبابِ ثوبَ وَقارِ ... ورأتْ في المَشيبِ خَلْعَ عِذارِ

وقوله: [من الكامل]

دِمَنٌ تُخالُ دِماً خُدودُ شَقيقِها ... تَجري وثَغْرُ أُقاحِها يتكلَّمُ
ويكادُ نَرْجِسُها ويَمنعُهُ الحَيا ... مِنَّا بأطرافِ الحَياءِ يُسلِّمُ

وقوله: [من الطويل]

ودَوحةِ حُسنٍ خِلتُها حينَ انبعث ... كواكبَ تبْرٍ في السماءِ زَبرجَدِ
إذا قبلتْها الشمسُ ظُنَّتْ لطَافَةً ... بَقيةَ نارٍ في بَنادقِ عَسْجدِ

وقوله: [من الطويل]

وما اشتَقْتُ أيامَ الصِّبا غيرَ أنني ... تذكَّرتُ أحباباً بها ومآرِبا
تولَّوا فَوَلَّى طِيبُ عَيشي لبينِهِمْ ... فلو أنهمْ داموا لدامَ لِيَ الصِّبا

وقوله: [من الكامل]

أَوَ ما تَرى المَنثورَ لمَّا أنْ رَأى ... طِيبَ المَقام بجَنَّةٍ وخُلُودِ
كَسَرَ الصَّليبَ وقدْ غَدا بِبنانِهِ ... نحوَ السماءِ يُشيرُ بالتَّوحيدِ

وقوله:

تَعوَّدتُ طُولَ الهَجرِ منكمْ فَلَوْ طَرَا ... لِيَ الوَصْلِ يَوماً أنه الوصلُ
ولوْ شاهدتْكمْ مُقلتي لمْ أثقْ بها ... وقُلتُ مَنامٌ ما لبعضِهما أصل

وقوله: [من مجزوء الكامل]

فاحتْ فقلتُ لها دَعي ... ليسَ الهَوى بتصنُّعِ
أينَ الذهولُ إذا نطقـ ... ـتِ وأينَ فَيضُ الأدمُعِ؟

وقوله: [من الطويل]

/١٨٧/ لئنْ شُغلتْ رُوحي بغيرِ هَواكمُ ... فلا بلغتْ مِنْ وصلكِمْ ما تَمنَّتِ
وإنْ مُدَّتِ الأيدي إلى غيرِ فضلكِمْ ... تَروم نَوالاً مِنْ سِواكم فَشَلَّتِ

وقوله: [من مجزوء الكامل]

قُمْ فاسقني ما راقَ في ... صافي الكُؤوسِ مِنَ الشرابِ
راحاً ألذَّ مِنَ ابتسا ... مِ مِنْ حبيبٍ في عِتابِ
وأَرَقَ مِنْ شَكوى مُحِـ ... ـبٍّ مُستهامٍ باكتئابِ

والشمسُ في أُفقِ السَّما ... ءِ تَلُوحُ مِنْ خَلَلِ السَّحابِ
مِرآةُ تِبْرٍ دُونَها ... مارَقَّ مِنْ حُمْرِ الثِّيابِ

وقوله: [من المنسرح]

بدا لنا الجُلَّنارُ في القُضُبِ ... والطَّلُّ يَبْدو عليهِ كالحَبَبِ
كأنَّما أكْؤُسُ العَقيقِ بِهِ ... قدْ مُلِئَتْ مِنْ بُرادَةِ الذَّهَبِ

وقوله: [من الطويل]

غَدا لكل معنى في الأنام يَرُوقُهُ ... ويُغريهِ بَرْقٌ باللِّوَى وخُفُوقُهُ
وَيثنيهِ نَشْرُ الروضِ مَرَّتْ بِهِ الصَّبا ... سُحَيراً بَرَيَّا عَرْفِكُمْ ويَشُوقُهُ
مُبشِّرةً جاءَتْ فكانَ لها يدٌ ... وفضلٌ عليهِ لا تُؤَدى حُقُوقَهُ
فما الطلُّ فَوقَ الرَّوضِ عندَ سُقوطِهِ ... ولا المِسْكُ مَنثوراً عَلينا سَحِيقُهُ
بأَطيبَ ممَّا طَمَّنت عَنْ جَنابِكُمْ ... وفي طَيِّها نَشْرٌ ذَكِيٌّ عُبُوقُهُ
فباللهِ عرِّجْ سائقَ الظَّعنِ بالحِمَى ... فمنزِلُها وادي النَّقا وعَقِيقُهُ
وإلا فَدَعها كيفَ شاءَتْ وسيرَها ... فأيُّ طَريقٍ يَمَّمتْهُ طَرِيقُهُ

وقوله: [من الخفيف]

خانني ناظري وهذا دليلٌ ... بِرَحيلي مِنْ بَعْدِهِ عَنْ قليلِ
هكذا السَّفْرُ إنْ أرادوا رَحيلاً ... قَدَّمُوا [خَيلَهُمْ] أمامَ الحُمُول

/١٨٨/ وقوله: [من الخفيف]

لِمْ حَرَمْتمْ جَفْني الرُّقادَ إلى أنْ ... خِلْتُ ما بَينَ جَفْنِ عَينيَّ سَيفا
ما تَمَنَّيتُهُ اشتياقاً ولكنْ ... أَترجَّى أنْ تَبعثوا فيهِ طَيفا

وقوله: [من السريع]

أَوحَشْتَني واللهِ يا مالكي ... في لَذَّةِ الكأْسِ على الوَرْدِ
فقالَ لي ما غِبْت عَمَّنْ غَدَا ... يَشْرَبُ مِنْ رِيقي على خَدِّي

وقوله وقد مرَّ ببعض الكروم فرأى بها أعظماً قد علقت، والرياح تلعب بها كلما خفقت، وكلما حركتها سمع من أصواتها مثل الأنين، وأوجع من حسها ما يوجع الحزين، فتذكر ما كانت عليه تلك العظام الرفات، ثم ما حدث عليها من الآفات، وتأسف لها لو ردَّ الأسف ما فات، والذي قاله: [من الكامل]

سئمتْ دَوامَ سُكُونها فتكلَّمتْ ... شَوقاً إلى ما مَرَّ مِنْ لَذَّاتِها
مَرَّ الصَّبا فَتذكَّرتْ زَمَنَ الصِّبا ... فَغَدَتْ تَنُوحُ على زَمانِ حَياتِها

وقوله: [من الخفيف]

أودعتْ سِجْنَها الأزاهيرُ سِرّاً سرى فيه النسيم في الأسَحارِ
وتلقَّتْ بِعَرْفِها الوَفْدَ حتى تنبهوا منها بقُربِ المَزارِ
فأعادتْ مِنَ السقام شِفاءً حِيْنَ جاءَتْ بأطيبِ الأخَبار
فثُغُورُ الرياضِ تبسَمُ عُجبْاً مِنْ بُكاءِ السماءِ بالأمَطارِ
نَقَّطَتها بِلؤُلؤِ الطَّلِ ليلاً فَحَكتْهُ شَمسُ الضُّحَى في النَّهارِ
قَسَمَتْهُ النسيمُ في الجَوِّ حتى جَمَعَتْهُ مِنْ سُنْدُسٍ في إزارِ
وكأنَّ الغُصونَ في الدوحِ أَضْحَتْ مُصغياتٍ إلى هَديلِ الهزارِ
فإذا ما انتهى إليها بثت تحدث الهَوَى بغَيرِ اسْتتارِ
ثُمَّ شَقَّتْ أثوابَها مِنْ غيرِ أمرٍ ثُمَّ فَكَّتْ بقيةَ الأزْرارِ

/ ١٨٩/ وقوله: [من الكامل]

رَقَّتْ مَعانيهِ وراقَ حَديثُهُ لطفاً فعاد هَوًى لكلِّ مِزَاجِ
فكأنَّ مَعناهُ لَطِيفُ ولفظُهُ خَمْرٌ يُرَوَّقُ في صَفاءِ زُجاجِ

وقوله: [من الوافر]

شَكَوتُ صَبابتي فيهِ وشوَقي فَكادَ لرِقَّةِ الشَّكْوَى يَهِيْمُ
فلا عَجَبٌ إذا ما مَالَ عِطْفاً لأنَّ الغُصْنَ يعطِفُهُ النَّسيمُ

وقوله: [من مجزوء الرمل]

مقلةٌ سوداءُ ألبَسَتني كَحَلاً مِنْ غَيرِ كُحْلِ
قدْ أمنتُ القَطْعَ منها إذْ غَدَتْ هَمْزَةَ وَصْلِ

وقوله: [من البسيط]

دَنَا السحابُ فَضَمَّ الروضَ فانبعثتْ دُمُوعُهُ تَتَوالى وهوَ لَهْفَانُ
كالأمِّ تَحْنُو على المؤلودِ تُرضِعُهُ بثديها العَذْبَ سَحّاً وهوَ ظَمآنُ

وقوله: [من السريع]

كأنَّما الروضُ إذا ما بَدَا جَبينُ وجْهِ الكَوكبِ النيِّرِ
مَطارِفٌ مِنْ سُنْدُسٍ أَخْضَرٍ مُمَوَّهٍ بالذَّهَبِ الأحمرِ

وقوله: [من الكامل]

عَطَفَ السَّحابُ على الرياضِ فأقبلتْ تَشكُو إليهِ مِنْ أليم بعادِهِ
فَغَدا يقبِّلُها ويبكي رَحْمَةً فتبسَّمَتْ فَرَحاً بِعَودِ وُدادِهِ

وقوله: [من السريع]

كـأنَّـمـا الـمِـرِّيْـخُ فـي جَـوِّهِ شَـقـيـقَـةٌ في رَوضَـةِ الأقُـحـوانْ
ودمـيـةُ الـجـوزاءِ فـي حُـلَّـةٍ مِنْ سُندسٍ ما بينَ عِقْدَيْ جُمانْ

وقوله: [من الكامل]

الـغُـصْـنُ ربَّـاهُ الـنسيـمُ بـلُطْفِهِ فَـكَسَا شمائلَهُ شَريفُ طِباعِهِ
/١٩٠/ والـنهرُ غذَّاهُ صَغيراً قبلَهُ فَزَكا وطابَ جنًى لطيبِ رضاعِهِ

وقوله: [من الكامل]

والـنهرُ قدْ عَشِقَ الغُصُونَ وقدْ غَدَا يصفُ المَحاسنَ مِنْ بَديعِ جَمالِها
لكِنْ دَرَى أَنَّ النَّسيمَ يُميلُها عَنْ وَصْلِهِ فَرَضِي بطَيفِ خَيالِها

وقوله: [من السريع]

أَما تَرَى الأغصانَ لمَّا أتى النـ ـسيمُ بالبُشرى مِنَ المغربِ
لمْ يَرضَ مِنْ سندسِها حُلَّةً حتى انجلتْ في ثَوبِها المُذْهَبِ

وقوله: [من الكامل]

وإذا رأيتَ الروضَ في عَرَصاتِهِ تَقِيْهِ بخَدَّيهِ الرَّدى وعُيُونِهِ
وألفَيْتَ فيهِ النهرَ قدْ جاءَ طالعاً يُقبِّلُ أرضاً بينَ أيدي غُصُونِهِ

وقوله، وكتب بهما إلى ابن خاله أبي الحسن لما سافر [إلى] نابلس: [من البسيط]

فقدتُ مذْ غِبتُمُ ياسادتي جَلَدِي وأنتمُ سائرَ الأوقاتِ في خَلَدِي
عَدِمْتُ قلبي وجسمي ذابَ بعْدَكمُ سُقماً فَصِرْتُ بلا قلبٍ ولا جَسدِ

وقوله: [من السريع]

أقولُ والصبحُ حَثِيثاً سَرَى في طَلَبِ الليلِ على الأبلقِ
وطُرَّةُ الليلِ بها مَفْرِقٌ بغَيرِ سيفِ الصبحِ لمْ يُفْرَقِ
والبدرُ إنسانٌ لِعَيْنِ الدُّجَى منفِّذٌ في طَرْفِهِ الأزرقِ

وقوله: [من الخفيف]

كيفَ للطَّيفِ أنْ يزورَ مُحبّاً وهوَ في طُولِ ليلِهِ يَقظانُ
يَسْرِقُ النومَ جَفْنُهُ فإذا ما كادَ يَغشاهُ هَزَّهُ الخَفَقانُ

وقوله: [من الكامل]

خَلَتِ الغُصونُ كأنها قدْ أُلبِسَتْ دِرعاً يُزَرِّرُها الصَّبا ويُفكِّكُ
رش النَّدى أثوابَها وكأنَّها بيدِ الشَّمائلِ والجَنُوبِ تُفَرَّكُ

/١٩١/ وحَدَا النسيمُ الورقَ إذْ باحتْ بهِ فـالـغُـصْـنُ وَجْـداً بـالـهَـوى يـتـحـرَّكُ
والشمس تبسم عن قطوب المزن إذ تبكي على الأرض السماء فتضحك

ومنهم:

[٧٥]
نَجْمُ الدِّينِ الخَشْكَنَاكِيُّ

نجمٌ كم أطلع هلالا، وأطعم مما حلا حلالا، ولم يزل كل ذي ورع ينتاب محله، ويختار من المآكل أحلَّه، والعيون تترقب مواقيت تلك الأهلّة، وتتوثب إلى تواقيت تلك الأكلة، وللناس ولع بذلك الخشكنان، وطمع فيما يؤثر من سعد القرآن، فتعجل إلى منادي تلك الدور والدار، وترى طعام أهل الجنة ما خرج من تلك النار، فكانت لا تبرح ترى أفواجاً على فرنها، وتسمع لجاجاً في مفاخرة العصور الذاهبة بقرنها، ولهذا كم أقسم منها بنون والقلم لكتابه وآثارها وما يسطرون.

كان رجلاً أشقر طُوَالاً، له حانوت بالسوق الكبير يعمل فيه الخشكنانك، ويبيعه، ويأخذ الثمن بالناقص، ويعطي بالزائد، ولا يرد درهماً زائفاً، بل يأخذه ويعطي به الخشكنانك، ثم يقص الدرهم ويرميه في النار، قصداً لتخفيف الزغل من نقود الناس ومعاملاتهم. وكان إذا سمع أذان المؤذن ترك شغله، وأتى الجامع فصلى فيه في أول صف. وفي يوم الجمعة لا يتسبب بل يجعله مقصوراً على القعود في مقصورة الخطابة، وانتظار الصلاة، حتى يصلي الجمعة. وكان كثير البر والصدقة والمعروف، ونفقاته أضعاف مكسبه، وأمثال معاشه وسببه، وكان معروفاً بالصلاح، مشهوراً بالولاية، وله أحوالٌ عظيمة، وأمور غريبة، وطريقة مثلى، وأفعال حسنى، إلى رياضة أخلاق، ودماثة جانب.

قالوا: إنه لم يشتر شيئاً حتى يزن ثمنه أولاً، ويجعله في يده، ثم ما يتسلم المبيع حتى يصير الثمن في يد /١٩٢/ البائع. هذا إلى عيادة مرضى، وتشييع جنائز، والقيام بحقوق إخوانه وأصحابه وجيرانه، والإفضال عليهم بتفقده، واشتهر أمره في زمانه، وأجمع عليه أهل وقته. وكان ابن تيمية، وابن الفركاح، وابن الوكيل، وابن الزملكاني، وغيرهم من علماء الوقت مجمعين على فضله وصلاحه، وكان الناس تحمل أولادهم وتأتي إليه ليمسح بيده على رؤوسهم، ويدعو لهم، ويعوذهم، فيفعل ذلك، ثم ما ينصرف واحد منهم حتى يعطيه خشكنانكة، أو خشكنانكتين، أو أكثر من ذلك، ويعطي الناس على مقدارهم، وينزل الناس منازلهم، ويجزل لذوي الحاجة، حتى أن الفقراء منهم كان يعطيهم مع الخشكنانك ما تيسر من الفضة أو الفلوس، ولا يعرف هذا المدد

من أين، ومعاشه لا يحمل بعضه. وكان على قدم عظيمة، وسلوك مشق على غيره.

وحدثني الحافظ العلائي قال: لما اشتد الخوف بأهل دمشق نوبة شقجب، فغدا الشيخان محمد الأرموني، ومحمد بن قوام في الجامع الأموي، واجتمع إليهما الناس، وشرعوا في التوجه إلى الله تعالى، وقرؤوا الحديث الشريف، فلما أكملوا القراءة والدعاء أذن للمغرب، وكان ذلك في رمضان، قام الشيخ نجم الدين الخشكنانكي، ومعه علبتان من الكعك المحشو، تقدير ما يكون في مثليهما عشرون كعكة، فأعطى كل واحد من الشيخين كعكين كعكين، ثم فرَّق على بقية الناس كذلك، وكان الجامع مملوءاً من الناس، لو فرّق عليهم ثلاثمائة علبة لم يكفهم!، ولم يفطن أحد لذلك في ذلك الوقت، ولا فيما بعده حتى مات، فلما وضع سريره للصلاة عليه، لم يبق إلا من ذكر تلك الكرامة، وعدَّها من كراماته.

وحدَّثني صاحبنا الشريف محمد بن أحمد بن علي بن ظاهر الحسيني، قال: كانت لنا دار بالخضراء، وظهور بعضها لغيرنا، /١٩٣/ وكنا في غاية الضرر بملك الغير لها، فباعها مالكها من رجل كان من خاصة الأعسر، فلم يقدر على منازعته بالشرع ولا بغيره، ودخلنا عليه بكل أحد فلم ينزل لنا عن البيع، فذهبت أنا وأمي إلى الشيخ نجم الدين، وكنا لا نعرفه، ولكنا نسمع بخبره، ونعرف مكانته عند الناس، فحدَّثناه لعلَّه يكلِّمه، أو يكلِّم الأعسر لنا، فقال: أما الأعسر، فإني لا أعرفه، وأما هذا الرجل؛ فأحدثه. ثم قام معنا حتى أتيناه، فقلنا له: هذا هو. فسلَّم عليه، ثم قال: من ترك شيئاً لله، عوَّضه الله خيراً منه، وهؤلاء أحق بهذه الدار، والله قد قدَّمهم للجوار وللخلطة، فدعها لهم. فقال: قد تركتها لهم ـ وما كان والله يعرفه ـ فذهبنا، فأتينا بالدراهم، ولم نبرح حتى تكاتبنا، وتسلَّمنا المبيع، وأراحنا الله من ضرر جواره. ثم إن ذاك الرجل كان يقول: والله ما أعرف كيف سحرني ذاك الشيخ؟. ولا يزال نادماً على الإجابة للبيع. توفي رحمه الله تعالى ....

ومنهم:

[٧٦]

علي السَّقْبَاوِيُّ الكردي الأصل[١]

رجل عرف عرفانه، وألف السهر حتى جَفَت النوم أجفانه، وكان بطل كتائب،

---

(١) الزاهد الكبير الشيخ علي بن حسن السقباني.
توفي سنة ٧١٢هـ عن نيف وثمانين سنة.
ترجمته في: ذيل تاريخ الاسلام (السنوات ٧٠١ـ ٧٤٦هـ) ص ١٢٠ رقم ٣٦٦.

ورجل لقاء لا يخطىء له صوائب. كان يسكن بالمدرسة العزيزية شمالي الكلاَّسة، جوار جامع دمشق، في بيوت الداير الفوقاني.

وله كرامات ظاهرة، وأمور باهرة: ـ منها: ما حدَّثني به زين الدين عمر المشرف رحمه الله تعالى قال: كان أيدمر مملوك الصاحب عز الدين بن القلانسي قد أخذ بيتاً من بيوت هذه المدرسة التحتانية، فأشرف عليه الشيخ يوماً فرآه في ذلك البيت بكلوته ولباس الجندية، فسأل عنه؟ فقيل له: هذا مملوك الصاحب. فقال: قولوا له: هذه البيوت ما جعلت إلا للفقهاء، والفقراء، ومزاحمتك لهم / ١٩٤/ وأنت من الجند الأغنياء ما يحل، فدعْ هذا البيت لمستحق. فقالوا له، فلم تفد. فبعث يقول لسيده ذلك، فما أفاد، فغضب غضباً عظيماً، وحنق حنقاً مفرطاً، واحمرَّت عيناه، وقامت أوداج رقبته، وقال: إن كنت تلتقي يا ابن القلانسي التقي، فو الله ما أصبر!. ثم بقي يقول: انقضى الشغل. قال: فاتفق ما كان من إمساك كراي لابن القلانسي، وتضييقه التضييق الشديد عليه، فلما كان بعد مدة، رأيت أيدمر مملوك ابن القلانسي في ذل، مجروراً بين الأعوان، يكاد يسحب على وجهه فرحمته، وذكرت قول الشيخ، فأتيته، فصادفته منبسطاً، فقلت: يا سيدي! أنتم أهل رحمة وخير، وذكرت له حال ابن القلانسي، ولم أزل به حتى رقَّ له، ودمعت عيناه، وقال: والله ما هذا النائب عن كراي إلا من الجبابرة، وهو أولى بنزول البلاء. اللهم فرِّج عن ابن القلانسي، وأنزل بكراي ما أراد أن ينزل به من البلاء. قال: فو الله لم يمض إلا أسبوع حتى أمسك كراي، وآل أمر ابن القلانسي إلى الصلاح، ثم إلى الفرج.

وحدَّثتني الحاجة صفية أخت البطاحي، وكانت ثقة، قالت: لما نزلت التتار على الرحبة ـ تعني سنة اثنتي عشرة وسبعمائة ـ واشتد بالناس الأمر، وكثر الجفال، وتأخر العسكر المصري، عدمت القرار، وكنت أطلب الدعاء للمسلمين من كل من أعتقد فيه الصلاح، فاشتد الخوف بنا يوماً، وكثرت الأراجيف، فأتيت أخت الشيخ علي السقباوي، وكانت في بيت إلى جانب بيته، فقلت لها: لو قلت للشيخ ليدعو للناس، فإنهم في خوف عظيم وشدة، وإلى الساعة ما صحوا من نوبة غازان. فقامت وأخذتني معها، وقالت: يا أخي! هذه امرأة مباركة، وقد قالت: كذا وكذا، فقال: يدبِّر الله، يدبِّر الله، وطرأ عليه حال ما استطعنا معه / ١٩٥/ الثبات على المقام عنده، فخرجنا إلى بيت أخته، وجلسنا به هنيهة، نتحدَّث في أحوال الناس، وإذا به قد صاح صيحة عظيمة منكرة، فقامت أخته إليه مزعجة، وقمت خلفها، فسمعته يقول: ائتني بخرق ليحشي به هذا الجرح، فهبت فأتيته بخرق، فكشف لها عن جرح دون ترقوته، قدر

شبر، فقالت له: يا أخي! من أين هذا؟ فقال: هذا بسبب تلك العجوز بالشتنا بهؤلاء القوم، وهؤلاء لهم واحد وقح ما يرتد، جرت بيننا وبينه حروب حتى رحَّلناهم إلى اللعنة!. ولحقنا هذا الجرح في سبيل الله، فحشت جرحه وهو يشخب دماً، وأنا أراه بعيني لا يخبرني بذلك مخبر.

ومنهم:

[٧٧]

إبراهيم الصَّيَّاح[١]

مشكاة الأنوار، وروضة صلاح، لا تخفى لها أنوار. انقطع بدمشق بالجامع الأموي مربياً لجماعته، وعوناً على ما يخلو به المتعبد فيه من طاعته، وكان بالمأذنة الشرقية مشرقاً لشموسها، ومحلياً لها حلية عروسها، وكان رجلاً منجمعاً عن الناس، مستوحشاً كأنه النمر أو الأسد. وكان كثير الصلاة والذكر، مواصلاً لقيام الليل، وصيام النهار، ولا يقبل على أحد، ولا يختلط بأحد، يمشي في الجامع وكأنما يمشي على حذر، وكان لا يقبل لأحد شيئاً فيما أعلم إلا صاحبنا بدر الدين بن العزازي، فإنه كان يبعث إليه من الطعام في كل يوم، ومن اللباس في كل سنة، بقدر حاجته، وكان يقبل ذلك منه، وحج معه، وكان عديله في المحمل.

حكى لنا ابن العزازي عنه قال: كنت لا أراه إلا كالسكران الطافح، وكنت لا أجسر على كلامه، وكان لا يسألني عن شيء من أحوال الناس ولا الطريق /١٩٦/ ولا المنازل، ولا غير ذلك. وكان يكثر من قوله: «يا دائم المعروف الذي لا ينقطع أبداً، ولا يحصى عددا، يا الله».

وآخر أمره أنه استدفأ بمجمرة فاحترق رحمه الله تعالى وغفر له، وذلك في يوم... ورثاه الأديب جمال الدين ابن نباتة[٢] بقوله[٣]: [من الطويل]

---

(١) إبراهيم بن منير الصيّاح الشامي البقاعي، توفي سنة ٧٢٥هـ.
ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٧٣ رقم ١٩٤، أعيان العصر ١/ ٦١، البداية والنهاية ٩/ ٣٧٠.

(٢) محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي الفارقي المصري، أبو بكر، جمال الدين، ابن نُبَاتة: شاعر عصره، وأحد الكتاب المترسلين العلماء بالأدب. أصله من ميافارقين، ومولده في القاهرة سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م، ووفاته فيها سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م. وهو من ذرية الخطيب «عبد الرحيم بن محمد» ابن نباتة.
سكن الشام سنة ٧١٥هـ (تقريباً) وولي نظارة «القمامة» بالقدس أيام زيارة النصارى لها، فكان =

على مثلِها فلتَهِم أَعْيننا العبرٰى ... وتُطلقُ في مَيدانِها الشّهْبَ والحُمْرا
فَقَدنا بَني الدنيا فلمَّا تلفَّتتْ ... وجُوهُ أمانِينا فقَدَنا بني الأُخرى
لفقدِكَ إبراهيمُ أمستْ قلوبُنا ... مُؤجَّجةً لا بَرْدَ في نارِها الحَرى
وأنتَ بجناتِ النعيم مُهنَّأٌ ... بما كنتَ تُبلِي في تطلبهِ العُمرا
عَريتَ وجَوَّعتَ الفُؤادَ فحبَّذا ... مساكنُ فيها لا تَجوعُ ولا تَعْرى
بكى الجامعُ المعمورُ فقدَكَ بعدَ ما ... لبثتَ على رُغم الديارِ بهِ دَهرا
وفارقتَهُ بعدَ التوطُّنِ سارياً ... إلى جَنةِ المأوى فسبحانَ مَنْ أسرى
كأنَّ مصابيحَ الظلام بأفقِهِ ... لفقدكَ نيرانُ الصبابةِ والذكْرى
كأنَّ المحاريبَ القيامَ بصدرِهِ ... لفُرقَةِ ذاكَ الصدرِ قدْ قُوِّستْ ظَهرا

= يتوجه فيباشر ذلك ويعود. ورجع إلى القاهرة (سنة ٧٦١) فكان بها صاحب سر السلطان الناصر حسن. له «ديوان شعر ـ ط» و«سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ـ ط» و«سجع المطوق ـ خ» تراجم، و«مطلع الفوائد ـ خ» أدب، و«سلوك دول الملوك ـ خ» و«المختار من شعر ابن الرومي ـ خ» و«تلطيف المزاج في شعر ابن الحجاج ـ خ» و«ترسل ابن نباتة ـ خ» و«أبزار الأخبار» و«فرائد السلوك في مصايد الملوك ـ ط» أرجوزة، و«القطر النباتي ـ خ» مقاطيع من شعره، منه نسخة قديمة في اللور نزيانة (Orien. 286) وعلى نون النّباتي فيها ضمة. وأورد الصلاح الصفدي (في ألحان السواجع) مراسلاته معه في نحو ٥٠ صفحة. ولإسماعيل حسين: «ابن نباتة الشاعر المصري ـ ط».

ترجمته في: حسن المحاضرة ١/ ٣٢٩، والبداية والنهاية ١٤/ ٣٢٢، وابن إياس ١/ ٢٢١، والدرر الكامنة ٤/ ٣١٦، والنجوم الزاهرة ١١/ ٩٥ ونص فيه على «نُباتة» بضم النون. وآداب اللغة ٣/ ١٢٢، والوافي ١/ ٣١١، ألحان السواجع ومحمد أسعد طلس في مجلة المجمع العلمي العراقي ٢/ ٣٠١ـ ٣١٠، والفهرس التمهيدي ٢٨٠، وطبقات الشافعية ٦/ ٣١، ودائرة المعارف الإسلامية ١/ ٢٨٨، وفيه، كما في كتاب Huart 32i: «ولد ببلدة ميافارقين» خلافاً لسائر المصادر. يقول الزركلي: وفي القاموس: مادة «نبت» والتاج ١/ ٥٩٠ اختلاف الأقوال في ضبط النون، من «نباتة» بالضم أم بالفتح، قال صاحب القاموس، في الكلام على عبد الرحيم الخطيب: «والضم أكثر وأثبت». ونثل صاحب التاج أن بعض الأئمة جزموا في الشاعر (صاحب الترجمة) خاصة، بالفتح، لتوريته في شعره بالقطر النباتي.

يقول الزركلي: لا سبيل للتفريق هنا بين الخطيب والشاعر، بعد قول الزبيدي إن هذا من ذرية ذاك، فإما الضم في كليهما أو الفتح، وقد رجحوا الضم في الأول، فيتبعه الثاني. وقرأت نسبه في مخطوطة «تاج المفرق» للبلوي، وقد اجتمع به في بيت المقدس، كما يأتي: محمد بن محمد بن الحسن بن أبي الحسين بن صالح بن علي بن يحيى بن طاهر بن محمد بن محمد بن عبد الرحيم. وكان يكتب اسمه «محمد بن الخطيب ابن نباتة العبشمي المصري الشافعي»، الأعلام ٧/ ٣ـ ٣٩.

(٣) ديوان ابن نباته ٢٢٠ـ ٢٢١.

مَضيتَ وخلَّفتَ الديارَ وأهلَها بمضيَعةٍ تشكو الشدائدَ والوِزْرا
فمَنْ لِسهامِ الليلِ بعدَكَ إنها مُعطَّلةٌ ليستْ تُراشُ ولا تُبرى
ومَنْ لِعفافٍ عَنْ ثَراءٍ ثَنى الورى عَبيدَ الأماني وانثنيتَ بهِ حُرَّا
سيعلمُ كلٌّ مِنْ ذوي المالِ في غدٍ إذا نُصِبَ المِيزانُ مَنْ يَشتكي الفَقْرا
عليكَ سلامُ اللهِ مِنْ مُتيقِّظٍ صَبورٍ إذا لمْ يَستطعْ بشرٌ صَبرا
ومِنْ ضامرِ الكَشحينِ يَسبقُ في غدٍ إلى غايةٍ مِنْ أجلِها تُحْمَدُ الضّمْرا
أيعلمُ ذو التسليكِ أنَّ جُفونَنا على شخصِهِ النائي قدِ انتثرتْ دُرَّا
وأنَّ الأسَى كالحُزْنِ قدْ جالَ جَولةً فما أكثرَ القَتلى وما أرْخصَ الأسَرى
ألا رُبَّ ليلٍ قدْ حَمَى فيهِ مِنْ وَغًى حَمَى الشامَ والأجفانُ غافلةٌ تَكْرَى
إذا ضَحكَ السُّمارُ حَجَّبَ ثَغرَهُ كذلكَ يَحمي العابدُ الثغرَ والثغرا
/١٩٧/ إلى اللهِ قلباً بعدَهُ في تغابُنٍ إلى أنْ أرى صَفَّ القيامةِ والحَشرا
لقدْ كنتُ ألقاهُ وصدري مُحْرَجٌ فيفتحُ لي يُسراً ويشرحُ لي صَدْرا
وألثُم يُمناهُ وفكريَ ظامئٌ كأنِّيَ منها ألثُمُ الوابلَ الغَمْرا
أمولايَ إنِّي كنتُ أرجوكَ للدُّعا فلا تَنسني بالخُلدِ في الدعوةِ الكبُرى
سَقَى القَطْرُ أرضاً قدْ حَللتْ بتُربها وإنْ كنتُ أَستسقي برؤيتِكَ القَطْرا
ومَنْ كانَ يُرجَى منهُ في المَدحِ أُجْرةٌ فإنِّيَ أرجُو في مدائحِكَ الأَجْرا

ومنهم:

[٧٨]

حمَّادُ الحَلَبيُّ[١]

ذو القدر الوافي، والمشعل بالثريا وبشر الحافي، والسري مع أنه معروف، والنوري حينه إذا سئل منه معروف. قدم دمشق، ونزل بظاهرها على رجل متسبب من أهل الصلاح متكسب من الجبل، كان لا يأكل إلا من طعامه، ولا يكتسي إلا من لباسه، ولا يبيت إلا عنده في بستان له بمرج الدحداح، وكان الشيخ يقرىء القرآن

---

(١) الزاهد الشيخ حمّاد بن غيث التلعراني القطّان، توفي بالعقيبة في دمشق سنة ٧٢٦هـ.
ترجمته في: تاريخ حوادث الزمان ٢/ ١٥٢ رقم ٦١، ذيل العبر ١٤٧، دول الإسلام ٢/ ٢٣٤، مرآة الجنان ٤/ ٢٧٦، الدرر الكامنة ٢/ ٧٤ رقم ٦٢٦، شذرات الذهب ٦/ ٧٢، الكواكب الدرية في طبقات الصوفية ٤/ ٢٧٠ـ ٢٧١، البداية والنهاية ١٤/ ١٢٥، تذكرة النبيه ٢/ ١٦٦ـ ١٦٧، درة الأسلاك ٢/ ورقة ٢٤٧، ذيل تاريخ الإسلام (السنوات ٧٠١ـ ٧٤٦ هـ) ص ٢٣٨ رقم ٧٤٩.

الكريم بجامع التوبة بالعقيبة، تبرعاً واحتساباً، يجلس لإقراء الناس بياض كل يوم في أخريات الرواق الشمالي به.

وكان رجلاً ربعة أبيض بحمرة، أبيض الرأس واللحية، أقنى الأنف، ضعيف العينين، منوَّر الوجه والشيبة، عليه سيما الولاية، واتَّهمه أهل العرفان، فكان لا يزال متوجهاً إلى القبلة على طهارة كاملة، منتصباً للقراءة، والإقراء، فارغاً من الناس، لا يقبل لأحد منهم شيئاً.

وكان شيخنا ابن الفركاح يخرج إلى زيارته في كل أسبوع مرة، أو مرتين، وكذلك شيخنا ابن الزملكاني، رحمهم الله تعالى.

وزاره شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية، وكان يذكره بالخير ويثني عليه.

حكى لي الشيخ شرف الدين ابن النجيح، قال: ذكر بين يدي الشيخ - يعني ابن تيمية - أناس من صلحاء الوقت، فأمسك بأذن القائل، وقال له: اجعل بالك، وافتح عينيك: «الصالح حماد، الصالح حماد»، وبقي يكررها.

/ ١٩٨/ كنت كثير التردد والزيارة له، وكان على قدم صدق وهدى، وكتاب منير. ولو حلفت أنه لم تقع عيني على مثله، لكنت بارّاً. ولم يُحك عنه أنه قال، ولا ادَّعى، ولا رزأ أحداً من ماله شيئاً.

ولما أقحط الناس سنة ثمان عشرة وسبعمائة، واستعدوا للاستسقاء، أتيته وقلت: يا سيدي! الناس في مشقة، فقال: لو سكتوا كُفُوا. فأعدت عليه القول، وقلت: لو دعوت لهم. فقال لي: اسمع! - وفقنا الله وإياك -: يحكى أن الناس أقحطوا في سنة من السنوات؛ فأمسكت السماء، وجفَّ الماء، فهمُّوا بالاستسقاء، واستعدوا له، فلما أرادوا الخروج إلى الصحراء، أتوا رجلاً صالحاً كان في جانب عنهم، توسَّموا خيره، فسألوه في الخروج معهم، فخرج معهم، حتى مرَّ ببستان في طريقه، فطرق الباب، فخرج إليه القيِّم به، فقال له: ما تريد؟. فقال له: اسقِ بستانك. فقال له: هذا ما يلزمك، أنا أسقي بستاني متى شئت. فالتفت ذلك الصالح إلى الناس، وقال: ألا تسمعون ما يقول؟. قالوا: قد سمعنا. فقال: إذا كان هذا كره أن أعترض عليه، أتعترضون أنتم على الله؟. ثم تركهم ورجع. ولم يخرج الشيخ حماد مع الناس إلى الاستسقاء.

قلت: وكنا نسمعه كثيراً ما يقول: «كان فقير، قال فقير، جرى لفقير» ويذكر أموراً عظيمة، وكرامات ظاهرةً، أنه إنما يحكيها عن نفسه، وإنما يريد الكتمان. ومما حدثنا به - وأظنه إنما حكاه عن نفسه - قال: كان بحلب فقير صادق الطلب، نودي في

سرِّه: حاجتك في مصر!. فخرج يريد مصر، وجعل عليه أن لا يسأل أحداً شيئاً، وكان شديد الفاقة، وكان لا يأكل إلا من مباحات الأرض، فلما عدا غزة بفراسخ، دخل الرمل، فقال: أيتها النفس، ليس هنا ما تقتاتين به، فصبراً على الجوع، أو فالرجوع، ثم قوَّى عزيمته، ودخل الرمل / ١٩٩/ حتى أتى «قطيا» ولم يطعم طعاماً تلك الأيام، فلما دخل «قطيا» رأى ما في أسواقها، فغض بصره حتى خرج منها، وأتى حائطاً في منقطع الحدائق بها، فقال في ظله، فلم ينتبه إلا في رجل أتاه بزنبيل فيه من كل ما في السوق من حارٍّ وحلو وحامض، ثم قال له: يا عبد الله! كُلْ، فأمسَكَ. فقال له: كُلْ، فأنت ما سألت، وإنما سُئلت. فأكل ثم رفع يده، فقال له: كُلْ، يا عبد الله!، للأيام التي لم تأكل فيها من غزة إلى هنا، وللأيام التي تريد أن لا تأكل فيها من هنا إلى غزة، وارجع من حيث أتيت، فقد انقضى شغلك الذي جئت في طلبه بمصر. قال: فأكل الفقير أكلاً ما كان يعهده من نفسه، ولا يظنه، حتى أتى [على] ما في الزنبيل عن آخره، ثم ناوله ذلك الرجلُ ماءً مبرَّداً، فشرب منه، ثم قال له: قم، فارجع، فقام فرجع، وقد انقضى شغله، ووصل ما كان أراد.

ولما توفي الشيخ حمَّاد في [...]، حضرت جنازته، فلم أرَ يوم دخول السلطان إلى مدينة، ولا يوم خروج حاج، ولا يوم عيد، كان أحفل من جنازته، وكان الناس منتشرين من مرج الدحداح بموضع موته، إلى مقابر باب الصغير، موضع دفنه، ما لأحد موضع أكثر من مكان قدمه، وشهدها عامَّة أهل دمشق.

ومنهم:

[٧٩]

محمد بن نبهان(١)

من بيت ما منهم إلا ولي تتشبث ذيله المطر، ويتشبه به النسيم إذا خطر، بناة عليا، وأساة قلوب أموات وأحيا، وما زالوا غيوم سما، ونجوم ظلما، وفي كل وقت منهم رجل شقيق شفيق، وسر السرى في علم التحقيق، سكنوا بيت جبرين من البلاد الحلبية، فهبَّ نسيمهم شمالا، ووهب كرمهم آمالا، وكانت تأتيني أخباره كما يقذف الروض بنشره، / ٢٠٠/ وكان السبب في المعرفة به الشيخ التقي عبد الله بن الخطيب،

---

(١) محمد بن نبهان بن عمر بن نبهان الجبريني.
ترجمته في: الوافي بالوفيات ٥/ ١٠٩ رقم ٢١٢٢، الدرر الكامنة ٤/ ٢٧٢- ٢٧٣ رقم ٧٥٧، أعلام النبلاء ٤/ ٥٨٤.

فكتبت إليه كتاباً مضمونه: [من الخفيف]

قيلَ جبرينُ منزلٌ لابنِ نَبهان مَحُوظٌ بمُحكم التنزيلِ
قدْ تَبدَّا محمدٌ في رُباها عَلَماً للسارينَ وابنِ السبيلِ
بوَقارٍ كأنَّهُ الليلُ خَوفاً وجبينٍ نيِّرٍ كالقنديلِ
ليسَ يَخشى الضَّلالَ مَنْ أمَّ منهُ حَضرةً أشرقَتْ على جبريلِ

سلام الله وتحياته وبركاته على تلك الحضرة الطاهرة، جمعنا الله وإياها على التقوى في الدنيا والآخرة.

حضرة سيدي الشيخ السيد القدوة المسلِّك، جامع الطرائق، منتخب الحقائق، أبي عبد الله محمد بن سيدي الشيخ نبهان، نبَّه الله القلوب به، ونوَّر البصائر بأغلاقها. نسبته العبد الفقير المعترف بالتقصير أحمد بن فضل الله. لما زاد شوقه إلى هذه الحضرة المقدسة، لما سمع من أخبارها، واقتبس قلبه الكليم من أنوارها، وكان الشيخ تقي الدين بن الخطيب ممن اتفق معرفته من الإخوان، وكان من نبهاء الطائفة المنسوبة إلى نبهان، وأخذ بزمام القلوب إلى الانتظام في هذا العديد، وجد بها إلى هذه النسبة الشريفة، وإن كان لا يصلح لها نبوة كل مزيد. كتب العبد الفقير الراغب في القبول له، والإقبال عليه، هذه الأحرف حال وداعه متعرفاً إلى هذا الجناب، ومتعلقاً منه بأدنى الأسباب، فإن فتح له، وإلا فكسير لا ينثني وهو وراء الباب.

ثم كانت بيننا المكاتبات لا تنقطع، وكنت أتمنى لقاءه، ولم أستطع، وكان على قدم آبائه في إطعام كل زائر، وبر كل آمل، وإعانة كل مظلوم، وإغاثة كل ملهوف، ولم يزل أمراء حلب تجل أقدارهم، وتستأمر مستشارهم. ولما قدمت حلب سنة اثنتين وأربعين /٢٠١/ وسبعمائة، رأيت هذا الشيخ، وقد جاء إلى الطنبغا ملك الأمراء، مسلِّماً عليه، فرأيت رجلاً يملأ العين والصدر سيماؤه على جلالة القدر. ولما اجتمع بالطنبغا، أكرمه إكراماً يليق بمثله، وعامله معاملة عارف بفضله، إلا أن الشيخ أنكر عليه ما فعله بطشتمر، وخوَّفه عاقبة البغي، ويوشك أن يؤخذ قريباً، فثقل عليه كلامه، وقام الشيخ وقد طال عليه مقامه هذا، ولم تأت الأخبار بقصد الفخري دمشق، إلا أنه قد طاح إلى الخبر سراً، ولم نظهر عليه أحداً، إلا أنا والطنبغا. ثم لم نلبث أن جاءت الأخبار، فلما كان يوم الجمعة الآتية في أسبوع قدومنا، صلينا الجمعة في جامع الطنبغا، قريباً من سوق الخيل بحلب، فقيل لي: إن الشيخ في بيت له، فدخلت، وجلست إليه، وأخذنا في الحديث، فقال لي: يا أخي! هذا الرجل قد آن أن يُطلَّ دمه، وأرى النصح لا يلج أذنه، فعرفته خبر الفخري، وما كان منه، فقال: هذا الرجل ينهزم

من قدامه كما انهزم طشتمر من قدّام هذا، ثم يقتل هذا، وكان الأمر كما ذكر.

ثم إن الشيخ لم يجتمع بالطنبغا، بعد تلك المرّة، وحرض به أن يعود إليه، فما عاد، وهمَّ بأن يتوجه لزيارته، فعاقت دون ذلك العوائق. قلت: وأهل هذا البيت لهم زرع ومتجر، ومنه ينفقون نفقات موسعة، وكانت قد تأكدت بيني وبينه الصحبة في الله تعالى، منذ تلاقينا بحلب. ومما كتبت به إلى رجلين سافرا إلى حلب: [من مخلع البسيط]

بـالله إنْ جـئـتُـمـا بـلاداً لـهـا ... ابـنُ نَـبـهـانَ كـالـحُـلِـيِّ
تَـأمَّـلا مـنـهُ أيَّ بِـرٍّ ... وفـيـهِ بَـحْـرٌ لـكـلِّ رِيِّ
وعـارِضـا الـنَّـوءَ فـي رُبـاهُ ... وقـبِّـلا عـارضَ الـوَلِـيِّ

ثم لم تلبث الأخبار أن أتت بوفاته، وتوفي رحمه الله تعالى سنة ثلاث وأربعين / ٢٠٢/ وسبعمائة.

ومما كتبت فيه أعزي بيته من قصيدة وافق فيها تضمين بيت أبي تمام الرابع: [من الطويل]

لأَنـتُـمْ بـنـي نـبـهـانَ بـعـدَ أبـيـكـم ... أَحَـقُّ بـأَنْ تَـبـقَـوا فَـلا خـانَـكُـمْ دَهْـرُ
فَحُوزوا تُـرابَ الـمَـجِدِ مِنْ بعضِ إرثهِ ... وطُـولَ بـقـاءٍ بـعـضُ مِـيـراثِـهِ الأَجْـرُ
فعُدْنـا وضـاح الـجـبـيـن وإنـمـا بقيتمْ ... لـنـا هَـذي وجـوهُـكُـمُ الـزُّهْـرُ
(كـأَنَّ بـنـي نـبـهـانَ يـومَ وفـاتِـهِ ... نُـجـومُ سَـمـاءٍ خَـرَّ مِـنْ بـيـنِـهـا الـبَـدْرُ)

ومنهم:

[٨٠]

عَبدُ اللهِ اليَافِعِيُّ(١)

الشيخ الصالح، نزيل مكة المعظَّمة، والمتطوِّف بتلك المشاعر المحرَّمة، استقام سننا، وأقام بالبطحاء لا يبغي بغيرها سكنا، أخذ بطرف من العلم والعمل، وأقام بمكة

(١) أبو محمد، عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان بن فلاح عفيف الدين اليافعي. نسبة إلى يافع إحدى قبائل اليمن الحميرية.
ترجمته في: طبقات الشافعية للأسنوي ٢/ ٥٧٩ـ ٥٨٣، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ١٠٣، الدرر الكامنة ٢/ ٢٤٧ـ ٢٤٩، الوفيات لابن رافع ٢/ ٣١٣ـ ٣١٤، شذرات الذهب ٨/ ٣٦٢، ذيل العبر لابن العراقي ١/ ٢٢٥، لحظ الألحاظ ١٥٢، العقد الثمين ٥/ ١٠٤ـ ١١٥، النجوم الزاهرة ١١/ ٩٣ـ ٩٤.

المعظَّمة يصوم النهار، ويفطر على ماء زمزم، ويقنع باليسير من الزاد، ولا يأكل إلا مما يتيقَّن حلَّه، واستطاب أكله. وأقام مرة بالمدينة المشرفة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ، ومرة بالمسجد الأقصى ببيت المقدس، ثم عاد إلى مكة، وهو الآن بها.

وقد ألان بمواعظه حتى قلب أخشبها، وقد رأيته بالقبَّة الدنيا من قبة الشرابي بمكة سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، وحضرت مجلسه، وسمعته يتكلم بمثله في المجامع، وسلمت عليه، ولم يطل لي معه مجلس لحوافز الضرورة.

ومنهم:

[٨١]

أَبُو بَكر، مُحَمَّدُ بنُ عُمَرَ بنِ أَبِي بَكر بنِ قَوَام(١)

الشيخ نجم الدين. نجم هدى، ونجل أئمة بهم يُقتدى، وبارقة سحب تجلي الحندس وتجلو الصدا. شيَّد أركان بيته، وأحيا ذكر ميته، وتمذهب للإمام الشافعي فامتدَّ مذهبه في رحابه، وكان مذهبه علماً لأصحابه، /٢٠٣/ وودَّ «الزعفراني» لو خلق بردع زمانه أطراف النهار، و«البيضاوي» لو بيَّض صحائفه بأشعة الأنوار. وجهد «المحاملي» فلم يستطع أن يكون سائق ركبه، و«الاسفراييني» فما قدر بعد طول السفر على كسبه. هذا إلى توسع في بقية العلوم، وتطلُّع إلى سائر المعارف على العموم، وإلتحاقه وما خلع الشباب بمشايخ الطريقة، وقيامه فيها بأكثر من قدرة الهمم المطيقة، فأمسى في نكرات زمانه المفرد العلم، ومن يشابه أباه فما ظلم. وكان يجمعنا وإياه طلب العلم زمن الشباب، وأيام الصبا قبل أن يتقلص الجلباب. وكان عالماً لم يضيِّع أيامه، وعارفاً قدَّم أمامه، لم يزل عمره في جد كله، وجهد في أن لا يأكل شيئاً إلا من حلِّه، والدنيا عنه معرضة، وأصل الأيام له ممرضة، وهو عنها أيُّ مزورّ، وكنفه منها مغبر ثم مغبر، فلما أسمع صيته من له أذنان، وأجنى ذكره مثل اجتناء الأفنان. ولي التدريس، وتصدَّر، ودونه كل رئيس. قال: لقد نعيت إلي نفسي لأننا قوم لا نعهد هذا

(١) ترجمته في: الوافي بالوفيات ٤/ ٢٨٤ رقم ١٨٠٣، ذيل تاريخ الإسلام (السنوات ٧٠١ـ ٧٤٦هـ) ص ١٦٨ رقم ٥٤١ وفيه وفاته «سنة ٧١٨هـ»، المقتفي للبرزالي ٢/ورقة ٢٨٣ب، ٢٨٤أ، دول الإسلام ٢/ ٢٢٥، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٦٧، الإعلام بوفيات الأعلام ٣٠٢، القلائد الجوهرية ١٩٨، شذرات الذهب ٦/ ٤٩، ذيل العبر ٩٦ـ ٩٧، الذيل على تالي وفيات الأعيان ١٨٢ رقم ٣٠٩، مرآة الجنان ٤/ ٢٥٧، درة الأسلاك ١/ ورقة ٢١٦، البداية والنهاية ١٤/ ٨٩ ـ ٩٠، الدارس ٢/ ٢٠٨، تذكرة النبيه ٢/ ٦.

من الدنيا، وحكم بدنو الأجل على نفسه، وانطلق ولم يمتد شوط المهل حتى وُسِّد في رمسه. قرأ القرآن الكريم، وأتقن حفظه، وتفقه بشيخ الإسلام شيخنا برهان الدين ابن الفركاح، وأخذ النحو عن شخنا كمال الدين بن قاضي شهبة، وكان كثيراً ما تجمعنا أوقات الاشتغال عنده، ثم لم ألقه إلا بعد أن قدمت دمشق من مصر سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، فرأيت منه أنموذج السلف، وطريقة الأُلى، ورجل دنيا وأخرى.

كان عقله عقل الوزراء، وزيه زي الفقراء، ويتيه على الدنيا تيه الأمراء.

وكان في زاوية أبيه، غربي الصالحية، في جبل قاسيون، لا يخلو من زائر، ولا يأتيه أحد إلا ويضيفه، ويطعمه / ٢٠٤/ مما حضر واتفق على قدر حسب الميسور. هذا مع ضرورة ماسَّة، وفقر.

وكان ميَّالاً إلى الفقهاء وأهل العلم، منحازاً إلى شعوبهم، لا يزال ينظر في كتاب فقه أو حديث، أو في نسخ شيء من ذلك؛ إما بيده، وإما بيد غيره، أو في مقابلة على شيء كتب.

وكان لا يهاب الأمراء، وأرباب الدول؛ بل إذا جاءه أحدٌ منهم أمره بالمعروف، ونهاه عن المنكر، وأوصاه من مصالح الرعية ما تقتضيه مصلحة الوقت الحاضر، رضي من رضي، وسخط من سخط.

وتمرَّض مدة بعلَّة الاستسقاء، ولم يزل مستسلماً للموت، مسروراً بلقاء ربه، إلى أن لقي الله تعالى، في أوائل شهر رجب الفرد، سنة ست وأربعين وسبعمائة. ودفن إلى جانب والده بالزاوية المعروفة بهم، وحضره خلقٌ، وتأسَّفت الدنيا لفقده.

وهذا آخر ما ذكرت من هذه الطائفة بالمشرق، فأما من هو منهم بالجانب الغربي بما فيه الديار المصرية الواقعة معه، على قلة المشهورين من أهل المغرب، خلا مصر، فإنَّ المذكورين فيها أمم، إلا أن أكثرهم لم يعدُ ذكرهُ دارَ أهله، وليس هذا من شرطنا، فإنا لا نذكر إلا المشهورين في الآفاق، المذكورين على كل الألسنة.

* * *

[مشاهير الفقراء والمتصوفين من أهل المغرب]

فأما من هو من أهل المغرب:

فمنهم:

[٨٢]

أَبُو عَبدِ الله، مُحَمَّدُ بنُ إسماعيلَ المَغْرِبِيُّ(١)

أغاظ الدنيا وأكظمها، ولم ترقه وهي تجلى عليه في أبرادها، وتستبق إليه بدهمها وورَّادها، فلم يُعِرْها طَرْفَه، ولم يرعها لحظة عينٍ ولا طرفة، بل بتَّ منها طينة الحالَ وفتَ منها في مهاب الرياح طينة الخال، ولم يصحبها إلا بنيَّة مفارق، وطويَّة / ٢٠٥/ طارق، فلم يرد بكاسها، ولم يرغب في مكاسها. فخلاها وسار منطلقا، وولاها ظهره وأشار إليها مطلِّقا.

كان أستاذ إبراهيم الخواص، وإبراهيم بن شيبان. وصحب علي بن رزين، وعاش مائة وعشرين سنة، ومات على جبل طور سيناء، سنة تسع وسبعين ومائتين. وقيل: سنة تسع وتسعين، وقبره فيه مع أستاذه علي بن رزين. وكان عجيب الشان، لم يأكل مما وصلت إليه يد بني آدم عدةً من السنين، بل كان يتناول أصول الحشيش أشياء تعوَّد أكلها.

و[من كلامه] قال: «الفقير: المجرَّد من الدنيا وإن لم يعمل شيئاً من أعمال الفضائل، ذرة منه أفضل من هؤلاء المتعبدين المجتهدين، ومعهم الدنيا».

وقال: «أهل الخصوص مع الله تعالى على ثلاث منازل: ـ قومٌ: يضنُّ بهم عن البلاء، لئلا يستغرق الجزع صبرهم، فيكرهون حكمه، أو يكون في صدورهم حرج من

---

(١) ترجمته في: حلية الأولياء ١٠/ ٣٣٥، صفة الصفوة ٤/ ٣٣٦، طبقات الصوفية للسلمي ٢٤٢، الرسالة القشيرية ٦٢، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٧٩، طبقات الصوفية للمناوي، المنتظم ٦/ ١١٣، طبقات الأولياء ٤٠٢، جامع كرامات الأولياء ١/ ١٠١، النجوم الزاهرة ٣/ ١٧٨، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٩١ ـ ٣٠٠هـ) ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ رقم ٣٨٨.

قضائه. ـ وقومٌ: يضنُّ بهم عن مساكنة أهل المعاصي، لئلا، تغتمَّ قلوبهم، فمن أجل ذلك سلمت صدورهم للعالم. ـ وقومٌ: صبَّ عليهم البلاء [صبّاً]، وصبَّرهم وارتضاهم، فما ازدادوا بذلك إلا حباً له، ورضا لحكمه. ـ وله عباد [منحهم نِعَماً تجدَّد عليهم، و] أسبغ عليهم باطن العلم وظاهره، وأخمل ذكرهم.

وقال: «من ادَّعى العبودية وله مرادٌ باقٍ فيه، فهو كاذب في دعواه، إنما تصح العبودية لمن أفنى مراداته، وقام بمراد سيده، فيكون اسمه ما سمي به، ونعته ما حلي به، إذا سمي باسم أجاب عن العبودية؛ فلا اسم له، ولا رسم، لا يجيب إلا لمن يدعوه بعبودية سيده». ثم بكى أبو عبد الله وأنشأ يقول: [من السريع]

لا تَدْعني إلا بياعَبدَها ... فإنَّهُ أَصدقُ أَسمائي

وقال: «أفضل الأعمال عمارة الأوقات بالموافقات».

/ ٢٠٦/ وقال: «الفقراء الراضون هم أمناء الله في أرضه، وحجته على عباده، بهم يدفع البلاء عن الخلق».

و[قال]: «الفقير الذي لا يرجع إلى مستند في الكون غير الالتجاء إلى من إليه فقره، ليغنيه بالاستغناء به، كما عزَّزه بالافتقار إليه».

و[قال] وأعظم الناس ذلاً فقير داهن غنياً وتواضع له، وأعظم الخلق عزاً: غني تذلل لفقير، وحفظ حرمته». وأنشد لنفسه: [من البسيط]

يا مَنْ يَعُدُّ الوصالَ ذَنباً ... كيفَ اعتذاري مِنَ الذُّنوبِ
إنَّ كانَ ذنبي إليكَ حُبِّي ... فإنَّني عنهُ لا أتوبُ

وقال: «العارف يضيء له أنوار العلم فيبصر بها عجائب الغيب». وقال: «مررت بمفازة المغرب عشرين يوماً، ما رأيت فيها آدمياً، ولم آكل شيئاً من الدنيا إلا شربة ماء، فبينما أنا أسير إذ لاح لي شيخ قائم يصلي، فقربت منه وقلت: السلام عليك ورحمة الله. فردَّ عليَّ السلام. فقلت له: من أنت؟. فقال: خليل الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين رموه في النار. فقلت له: بماذا نلت هذه المنزلة؟. قال لي: يا عبد الله! توكَّل، فما في المملكة شيء أعزَّ من التوكل. فقلت له: وما التوكل؟. فقال: النظر إليه بلا عين تطرف، ولسان ذاكر بلا حركة، ونفس جوَّالة بلا روح. ثم سلَّم عليَّ فإذا هو في الهواء!!».

وقال: خرجت، فبينا أنا في برِّية تبوك، إذا أنا بامرأة بغير يدين، ولا رجلين، ولا عينين، فدنوت منها، ثم قلت: يا أمة الله! من أين أقبلتِ؟. قالت: من عنده. قلت: فأين تريدين؟. قالت: إليه. فقلت: يا سبحان الله! بادية تبوك، وليس فيها مغيث!،

وأنت على هذه الحالة؟!. قالت: يا سبحان الله! غمِّض عينيك، فغمَّضتهما، ثم فتحتهما، فإذا أنا بها متعلقة بأستار الكعبة، ثم قالت: يا عبد الله! أتعجب من ضعيف حمله قوي؟. /٢٠٧/ ثم طارت بين السماء والأرض!!.

ومنهم:

[٨٣]

أَبُو الخَيرِ الأَقْطَعُ المَعروفُ بالتِّيناتِيِّ(١)

لم يبق للدنيا رذاذا، ولا لبس ثوبها المعار إلا جذاذا، صحب أيامها حتى غرض، وحمل آلامها حتى مرض، وتعرَّضت له فلم يرضها، ولا أحب سماءها ولا أرضها، بل شمَّر لدار لا ينقص نعيمها، ولا يهب زعزعاً نسيمها، ليلحق بقوم جدَّ ليصل إليهم، مع الذين أنعم الله عليهم، فلم يشبع من المطاعم السغب، ولا ورد من الماء العب، ليتفيَّأ تلك الظلال الوارفة الأفياء، الواكفة الأتقياء.

أصله من المغرب، وسكن التينات، وله آيات وكرامات.

صحب أبا عبد الله بن الجلاء، وغيره من المشايخ. وكان أوحد في طريقة التوكل. وكانت السباع والهوامُّ تأنس به، وله فراسة حادة. وتوفي سنة نيّفٍ وأربعين وثلاثمائة.

قال ـ رضي الله عنه ـ: «دخلت مدينة النبي ﷺ؛ وأنا بفاقة. فأقمت خمسة أيام ما ذقتُ ذَواقاً، فتقدَّمت إلى القبر، وسلمتُ على النبي ﷺ، وعلى أبي بكر، وعمر، رضي الله عنهما. وقلت: أنا ضيفك الليلة يا رسول الله!. وتنحَّيتُ ونمتُ خلف المنبر. فرأيت في المنام النبي ﷺ، وأبا بكر عن يمينه، وعمر عن شماله، وعلي بن أبي طالب بين

(١) ترجمته في: طبقات الصوفية للسمي ٣٧٠ـ ٣٧٢ رقم ٦، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٧٧، ٣٧٨، والرسالة القشيرية ٢٦، والأنساب ٣/ ١٢١، والمنتظم ٦/ ٣٧٦ـ ٣٧٧ رقم ٦٢٦ وفيه وفاته سنة ٣٤٣هـ، وصفة الصفوة ٤/ ٢٠٦، وتاريخ دمشق ط دار الفكر ٦٦/ ١٦٠ـ ١٧٣ رقم ٨٤٩٣، ومعجم البلدان ٢/ ٦٨، واللباب ١/ ٢٣٤، والكامل في التاريخ ٨/ ٥٣٣ وفيه وفاته في سنة ٣٤٩هـ، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ١٠٢، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٢ـ ٢٣ رقم ٩، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٢٨٨، والبداية والنهاية ١١/ ٢٢٨، وطبقات الأولياء ١٩٠ـ ١٩٥، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٨٢١، ونتائج الأفكار القدسية ١/ ١٩٣، والروض المعطار للحِمْيَري ١٤٧، وتحفة الأحباب للسخاوي ٢٥٣، وبدائع الزهور لابن إياس ج١ ق١/ ١٧٩ وفيه وفاته سنة ٣٤٣هـ، ودائرة معارف البستاني ٥/ ٣٠١ (طبعة المعارف ببيروت ١٨٧٧)، وموسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي ٣/ ١١ـ ١٤ رقم ٧٢٤، ولبنان من قيام الدولة العباسية حتى سقوط الدولة الإخشيدية (للتدمري) ص ١٨١، والكواكب الدرية ٢/ ١٧، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٣١ـ ٣٥٠هـ) ص ٤٨٤ـ ٤٨٩ رقم ٨٣٣.

يديه، رضي الله عنهم، فحرَّكني علي، وقال لي: قُمْ، قد جاء رسول الله ﷺ. قال: فقمت إليه، وقبَّلتُ بين عينيه، فدفع إليَّ رغيفاً، فأكلت نصفه، وانتبهتُ، فإذا في يدي نصف رغيف».

وقال أبو بكر [الرازي: أنشدني] أبو الخير الأقطع: [من الخفيف]

أنْحَلَ الحُبُّ قلبَهُ والحنينُ ومَحاهُ الهَوى، فما يَستبينُ
ما تَراه الظُّنون إلا ظُنوناً وهوَ أَخفى مِنْ أَنْ تَراه العُيُونُ

وقال: «لن يصفوَ قلبك إلا بتصحيح النية لله تعالى؛ ولن يصفو /٢٠٨/ بدنك إلا بخدمة أولياء الله تعالى».

وقال: «ما بلغ أحدٌ إلى حالة شريفة إلا بملازمة الموافقة، ومعانقة الأدب، وأداء الفرائض، ومحبة الصالحين، وخدمة الفقراء الصادقين».

وقال: «الذاكر لله تعالى لا يقوم له ـ في ذكره ـ عِوَض؛ فإذا قام له العِوَضُ، خرج من ذكره».

وقال: «الدعوى رعونة، لا يحتمل القلب إمساكها، فيلقيها إلى اللسان، فتنطق بها ألسنة الحمقى، ولا يعرف الأعمى ما يبصره البصير من محاسنه وقبائحه».

وقال: «من أحب أن يطَّلع الناس على عمله فهو مراء، ومن أحب أن يطَّلع الناس على حاله فهو مُدَّعٍ كذاب».

وقال حمزة بن عبد الله العلوي: دخلت على أبي الخير، وكنت اعتقدت في نفسي أن أُسَلِّم عليه وأخرج، ولا آكل عنده طعاماً، فلما خرجت من عنده، مشيت قليلاً إذا به خلفي، وقد حمل طبقاً عليه طعام، فقال: يا فتى! كُلْ هذا، فقد خرجت الساعة من عقدك!.

ومنهم:

[٨٤]
أبو عُثمانَ، سَعيدُ بنُ سلاَّم المَغْرِبيُّ[١]

كان للمتقدم إليه حرسا، وللمتكلم لديه خرسا، فكانت عنده لا تنطق الألسنة،

(١) توفي سنة ٣٧٣هـ.
ترجمته في: طبقات الصوفية ١٧٩ـ ٤٨٣، الكامل في التاريخ ٩/ ٣٧، مرآة الجنان ٢/ ٤٠١ـ ٤٠٢، البداية والنهاية ١١/ ٣٠٢، المنتظم ٧/ ١٢٢ـ ١٢٣ رقم ١٦٧، الوافي بالوفيات ١٥/ ٢٢٥ =

ولا تطلق بسيئة ولا حسنة، لمهابة ألقيت عليه، وإنابة ألقيت إليه، على بسطة للجليس، وغبطة للأنيس، وقِرًى، وبشاشةٍ، وقربٍ كان حشو الحُشَاشة، وإطلاق يد في جود، وندى كرامة بأيسر موجود، إلا أنه كان يرجح الطود وقورا، وترى السحاب الجود محقورا. فكان كأن ضيغماً في أمانيه، أو أرقماً يساور بين نائيه.

وكان من القيروان، من قرية يقال لها: «كَرْكِنْت» أقام بالحرم مدة وصحب أبا علي ابن الكاتب، وحبيباً المغربي، وأبا عمرو الزجاجي. ولقي: النهرجوري، وأبا / ٢٠٩/ الحسن بن الصائغ الدينوري. وكان أوحد المشايخ في طريقته، وزهده، وتقدُّمه. وهو بقية المشايخ وتاريخهم، ولم يُرَ مثله على علو الحال، وصون الوقت، وصحة الحكم بالفراسة، وقوة الهيبة.

ورد «نيسابور»، ومات بها سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة. وأوصى أن يصلي عليه الإمام أبو بكر بن فورك.

ومن كلامه: «الاعتكاف: حفظ الجوارح تحت الأوامر».

وقال: «التقوى: هي الوقوف مع الحدود، لا يقصِّر فيها، ولا يتعدَّاها، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[1]. وقال: «من آثر على التقوى شيئاً حُرم لذَّة التقوى».

وقال: «من تحقَّق في العبودية، طهَّر سرَّه بمشاهدة الغيوب، وأجابته القدرة إلى كل ما يريد». وقال: «من آثر صحبة الأغنياء على مجالسة الفقراء ابتلاه الله بموت القلب».

وقال: «العاصي خير من المدَّعي؛ لأن العاصي ـ أبداً ـ يطلب طريق توبته، والمدَّعي يتخبَّط في حبال دعواه».

وقال: «من مدَّ يده إلى طعام الأغنياء ـ بِشَرَهٍ وشهوة ـ لا يفلح أبداً، وليس يعذر فيه إلا المضطر».

وقال: «لا تصحب إلا أميناً، أو معيناً؛ فإن الأمين يحملك على الصدق،

= رقم ٣١٤، النجوم الزاهرة ٤/ ١٤٤، شذرات الذهب ٣/ ٨١، تاريخ بغداد ٩/ ١١٢ رقم ٤٧٢٠، الرسالة القشيرية ٣٨، اللباب ٣/ ٣٦، نتائج الأفكار القدسية ٢/ ١٢، طبقات الشعراني ١/ ١٤٣، تاريخ التراث العربي ٢/ ٤٨٥ رقم ٤٠، العبر ٢/ ٣٦٥، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٢٠ـ ٣٢١ رقم ٢٢٨، طبقات الأولياء ٢٣٧ـ ٢٣٨ رقم ٤٤، هدية العارفين ١/ ٣٨٩، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٥١ـ ٣٨٠هـ) ص ٥٣٩ـ ٥٤٠.

(١) سورة الطلاق: الآية ١.

والمعين يعينك على الطاعة».

وقال: «قلوب أهل الحق قلوب حاضرة، وأسماعهم أسماع مفتوحة».

وقال: «الحكمة هي النطق بالحق».

وقال: «من اشتغل بأحوال الناس ضيَّع حاله».

وقال رضي الله عنه: «الغني الشاكر يكون كأبي بكر الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ، فقدَّم ماله، وآثر الله عليه، فأورثه الله عز وجلَّ غنى الدارين، وملكهما. والفقير الصابر مثل أويس القرني، ونظرائه، صبروا فيه، حتى ظهرت لهم براهينه».

وقال: «التقوى تتولَّد من الخوف».

وقال: «من ادَّعى السماع، ولم / ٢١٠/ يسمع لصوت الطيور، وصرير الباب، وتصفيق الرياح؛ فهو مغترّ مدَّع».

وقال: «رأيت في المنامِ كأن قائلاً يقول لي: يا أبا عثمان! اتق الله في الفقر ولو بقدر سمسمة».

ومنهم:

[٨٥]

أَبُو العَبَّاس، أَحمدُ بنُ محمدِ بنِ مُوسَى بنِ عَطَاءِ الله الصَّنهَاجِيُّ، الأندَلُسِيُّ، المعروف بابن العَرِيف(١)

متقٍ خاف الدنيا وفتكها، وخلَّص منها نفسه وفكَّها، فلم يعلق بالدنايا، ولم يطلق رسنه من يد المنايا، وطالما دعته الآمال، ورعته الأعمال، فما اغترَّ بسرابها، ولا سر بشرابها، ولا رأى صدقها إلا خداعا، ولا سننها إلا ابتداعا، فنفض منها اليدين، فطالب أطماعه بالفراغ منها، مطالبة الغريم بالدَّين، ولم يزل على حالته ولم يبرح، حتى سار نعشه على الرقاب ليلحد أو يُضْرَح.

---

(١) ترجمته في: الصلة لابن بشكوال ١/ ٨١، وبغية الملتمس للضبّي ١٦٦، والمعجم لابن الأبّار ١٥ـ ١٩، والمطرب ٩٠، والمغرب ٢/ ٢١١، ووفيات الأعيان ١/ ١٦٨ـ ١٧٠ رقم ٦٨، والعبر ٤/ ٩٨ـ ٩٩، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٢٠، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ١١١ـ ١١٤ رقم ٦٨، والوافي بالوفيات ٨/ ١٣٣ـ ١٣٥، وعيون التواريخ ١٢/ ٣٦٨ـ ٣٧١، ومرآة الجنان ٣/ ٢٦٧، وأعمال الأعلام ٢٤٨، والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٧٠، ونيل الابتهاج ٥٨، ونفح الطيب ٣/ ٢٢٩ـ ٢٣٠، وشذرات الذهب ٤/ ١١٢، تاريخ الاسلام (السنوات ٥٢١ـ ٥٤٠هـ) ص ٤٠٤ـ ٤٠٥ رقم ٢٧٠.

وكان من كبار الصالحين، والأولياء المتورِّعين، وله المناقب المشهورة، وله كتاب: «المجالس» وغيره من الكتب المتعلقة بطريق القوم. وله نظم حسن في طريقتهم أيضاً، ومن شعره: [من البسيط]

شدُّوا المَطيَّ وقدْ نالوا المُنَى بِمنًى ... وكلُّهمْ بأليم الشوقِ قدْ باحا
سارتْ رَكائُبهمْ تَنْدى رَوَائِحُهمْ ... طِيباً بما طابَ ذاك الوفدُ أَشباحا
نسيمُ قَبرِ النبيِّ المُصطفى لَهمُ ... رَوحٌ إذا شَربُوا مِنْ ذِكرِهِ رَاحا
يا واصلينَ إلى المختارِ مِنْ مُضَرٍ ... زُرتمْ جُسوماً وزُرنا نحنُ أَرواحا
إنَّا أَقمنا على عُذرٍ وعن قَدَرٍ ... ومَنْ أقامَ على عُذرٍ كَمَنْ رَاحا

وبينه وبين القاضي عياض بن موسى اليحصبي مكاتبات حسنة، وكانت عنده مشاركة في أشياء من العلوم، وعناية / ٢١١/ بالقراءات، وجمع الروايات، واهتمام بطرقها وحملها. وكان العُبَّاد وأهل الزهد يألفونه ويحمدون صحبته.

وحكى بعض المشايخ الفضلاء أنه رأى بخطه فصلاً في حق أبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري الأندلسي، وقال فيه: «كان لسان ابن حزم المذكور، وسيف الحجاج بن يوسف شقيقين». وإنما قال ذلك لأن ابن حزم كان كثير الوقوع في الأئمة المتقدمين والمتأخرين، لم يكد يسلم منه أحد.

وكان قد سُعي به إلى صاحب مراكش يوسف بن تاشفين، فأحضره إليها فمات، واحتفل الناس بجنازته، وظهرت له كرامات؛ فندم على استدعائه.

وكانت وفاته ليلة الجمعة، الثالث والعشرين من صفر، سنة ست وثلاثين وخمسمائة ودفن يوم الجمعة، رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[٨٦]

شُعيبُ [بنُ الحُسّينِ]، أَبُو مَدْيَن(١)

أضاء كالبدر سافرا، ورد من القلوب نافرا، ولم يزل لزلَّة الأيام غافرا، وبأزمَّة

---

(١) ترجمته في: تكملة الصلة لابن الأبار رقم ٢٠١٥، والذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ٤/ ١٢٧، وجذوة الاقتباس للمكناسي ٥٣٠، والبستان لابن مريم ١٠٨، وعنوان الدراية للغبريني ٥٥، وسلوة الأنفاس للكتّاني ١/ ٣٤٦، والتشوّف إلى رجال التصوّف للتادلي ٣١٦، والعبر ٤/ ٤٧٥، ومرآة الجنان ٣/ ٤٦٩ـ ٤٧١، وفيه: «شعيب بن الحسن وقيل: ابن الحسين»، والوافي بالوفيات ١٦/ ١٦٣ رقم ١٩٠، وشذرات الذهب ٤/ ٣٠٣، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ =

المرام ظافرا، وسار ذكره فأسمع الدهر وفي آذانه صمم، وداوى الزمان وفي عقله لمم، وكان أول ما بُشِّر أبوه وهو غلام، وفسَّر عن لؤلؤته صدف الظلام، حتى بلغ الاحتلام، ويده بالخير وارتحل، وصابر الأيام فتسترت الليالي وتبرقعت بالخجل، فرويت آثار أياديه، ونقلت أخبار سؤدده بألسنة أصدقائه وأعاديه. وكان يقوم والليل لم يطمئن له جنوب، ويروِّض نفسه والروض لم يشق فيه للشقيق جيوب، بعلم يفلج به الحجاج محتكم، ويخرج في حربه والعجاج مرتكم. وكان له في مجاهدة النفس / ٢١٢/ حروب، ونوِّب حتى حان منه للشمس غروب.

وحكي أنه لما قدمت إليه المائدة يوماً فقال: أخِّروها، وكان هناك فقير جائع، فقال في نفسه: لو كان هذا فقيراً ما أخَّر المائدة. فلما حضرت تقدَّم فأكل منها أكلاً يسيراً، فأكل ذلك الفقير، وسائر الجماعة، فلما رفعوا أيديهم قال الشيخ لخادمه: شِلْ من هذا الخبز والطعام لفقير يأتينا في هذه الساعة، وهو جائع، قد أخَّرنا المائدة لانتظاره، فظنَّ ظانٌّ فينا ظناً. فشال الخادم منها شيئاً، فقال الشيخ: زد!، فهذا ما يكفي. فزاد، فقال له: زد!، فهذا ما يكفي. فقال له: ياسيدي، أنت قلت: رجل واحد، وهذا فوق كفاية الواحد، فقال: صدقت، هو رجلٌ واحد، ولكن له ثلاثة أيام لم يأكل شيئاً. ثم لم يستتمَّ الكلام حتى أتى الفقير، فسلَّم على الشيخ، والجوع يتبين في وجهه، فقدم إليه الخادم ما خبَّأه له؛ فأكله حتى أتى عليه عن آخره، ثم قال: والله! لي ثلاثة أيام ولا وجدت ما آكل، ثم قام ذلك الفقير، ودخل الفقير الذي قال ما قال أولاً، فقال: يا سيدي! أنا أستغفر الله مما وقع مني، فقال له: يغفر الله لك، أتصحبني كذا وكذا شهراً وتقول: لو كان هذا فقيراً لما أخَّر يده عنا لأجل شبعه، ونحن جياع؟. فقال: والله يا سيدي! كان ذلك. وأنا أستغفر الله منه. فضحك الشيخ، وأقبل عليه.

وحكى ابن عربي قال: رأى بعض مريدي الشيخ أبي مدين؛ كأن الحق سبحانه وتعالى في زير دقيق!، فذكر ذلك لأبي مدين، فقال: هل عندك دقيق؟. قال له: نعم. قال له: هل هو في زير؟. قال: نعم. قال: ذلك إلهك الذي تعتمد عليه، فتصدَّق به لتخلص مما أنت فيه.

وحكى الوداعي قال: حدثني شخص / ٢١٣/ مغربي: ـ وكان رجلاً صالحاً ـ:

= ١٧٠، ونفح الطيب ٧/ ١٣٦، وتعريف الخلف للحفناوي ٢/ ١٧٢، وشجرة النور الزكية ١/ ١٦٤، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٨١ـ ٥٩٠) رقم ٤٢٤ وقد وضع ابن قنفذ كتاباً خاصّاً بشعيب بن الحسين وأصحابه سمّاه: «أُنس الفقير وعزّ الحقير». طبعة الرباط ١٩٦٥.

إن القحط شمل المغرب سنة، وأحبس المطر، فأتى الناس أبا مدين ليستسقي لهم، فخرج وهو يقول: [من البسيط]

يا مَنْ يَغيثُ الوَرى مِنْ بعدِ ما قنطُوا ... ارحَمْ عَبيداً أَكُفَّ الفَقرِ قدْ بَسَطُوا
واستنزلُوا جودَكَ المَعهودَ فاسقهِمُ ... رِياً يُريهم رِضاً ما شانَهُ سَخَطُ
وعامِلِ الكلَّ بالفضلِ الذي أَلِفُوا ... يا عادلاً لا يُرى في حُكمِهِ شَطَطُ
إنَّ البهائمَ أَضحَى المَحْلُ مَرْبَعَها ... والطيرُ أصبحَ للحَصباءِ يَلتقِطُ
والأرضُ مِنْ حُلَلِ الأزهارِ عاطلةٌ ... وكانَ للزهرِ في فتحاتها بُسُطُ
وأنتَ أكرمُ مَسؤولٍ تُمدُّ لهُ ... أيدي العُصاةِ وإنْ جارُوا وإنْ قَنطُوا

قال: ولم يزل يرددها حتى جاءت السماء، وتوالى الغيث، ودام يتعهد حتى كانت السنة المجدبة أخصب عام. رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[٨٧]

أَبُو العَبَّاس، أحمدُ بنُ عبدِ الله بنِ أَحمدَ بنِ هِشام بنِ الحُطَيئة اللَّخْمِيُّ الفَاسِيُّ(١)

لم يستعذب لريق الدنيا مساغا، ولا استلذَّ رحيق رضابها منساغا، وأقبل بقلب منيب، وعزم غير منقلب ولا مريب، مصغياً إلى أوامره ونواهيه بأذن واعية، وقدم قائمة في الطاعة أو ساعيه. خائفاً من نار يلفح سعيرها، ويجمح عسيرها؛ وقودها الناس والحجارة، ووفودها لا يزور فيها جارٌ جاره، معملاً إلى الجنة الركائب، مرملاً بنفسه المطمئنة إلى الحبائب. فهنيء بعمله، وهيأ لأمله. وكان من مشاهير الصلحاء وأعيانهم، وكان مع صلاحه فيه فضيلة ومعرفة بالأدب، وكان رأساً في القراءات السبع، ونسخ بخطه كثيراً من كتب الأدب وغيرها، وكان جيد الخط، حسن الضبط. والكتب التي توجد بخطه مرغوب فيه للتبرك بها، ولإتقانها.

---

(١) ترجمته في: إنباه الرواة ١/ ٣٩، ووفيات الأعيان ١/ ١٧٠ـ ١٧١، والعبر ٤/ ١٦٩، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٤٤ـ ٣٤٨ رقم ٢٣٤، ومعرفة القراء الكبار ٢/ ٥٢٦ـ ٥٢٧، رقم ٤٧٠، والمعين في طبقات المحدّثين ١٦٨ رقم ١٨٠٠، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٣٠، وتلخيص ابن مكتوم ١١، والوافي بالوفيات ٧/ ١٢١، وغاية النهاية ١/ ٧١، والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٧٠، وحسن المحاضرة ١/ ٤٥٣، و٤٩٥، وسلّم الوصول ٨٩، وشذرات الذهب ٤/ ١٨٨، تاريخ الاسلام (السنوات ٥٥١ـ ٥٦٠هـ) ص ٢٩٦ـ ٢٩٩ رقم ٣٢٦.

ولد بفاس يوم الجمعة، /٢١٤/ السابع عشر من جمادى الآخرة، سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وانتقل إلى الديار المصرية، ولأهلها فيه اعتقاد كبير لما رأوه من صلاحه، وكان قد حجَّ ودخل الشام، واستوطن خارج مصر في جامع راشدة. وكان لا يقبل لأحد شيئاً، ولا يرتزق على الإقراء، واتفق بمصر مجاعة شديدة، فمشى إليه أجلاَّء المصريين، وسألوه قبول شيء فامتنع، فأجمعوا رأيهم أن يخطب أحدهم البنت التي له، وكان يعرف بالفضل بن يحيٰى الطويل، وكان عدلاً بزازاً في القاهرة، فتزوجها، وسأل أن تكون أمها عندها، فأذن في ذلك، وكان قصدهم تخفيف العائلة عنه، وبقي منفرداً ينسخ ويأكل من نَسْخه. [وكان يعرض عليه المال فلا يقبل منه شيئاً.

قيل: جاء بعض التجار بمئزر أسود صوف وحلف عليه به، فقال: اجعله على ذلك الوتد، فأقام ثلاثين سنة موضعه]. وتوفي في أواخر المحرَّم سنة ستين وخمسمائة بمصر، ودفن في القرافة الصغرى، وقبره يزار بها.

قال ابن خلكان[1]: «وزرته ليلاً فوجدت عنده أنساً كثيراً»، رحمه الله تعالى.
وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: «أدرجت سعادة الإسلام في أكفان عمر بن الخطاب رضي الله عنه»، أشار إلى أن الإسلام لم يزل في أيامه في نمو وازدياد، وشرع بعده في التضعضع والاضطراب.

وذكر في كتاب «الدول المنقطعة»[2] في ترجمة أبي الميمون عبد المجيد صاحب مصر: إن الناس أقاموا بلا قاضٍ ثلاثة أشهر في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، ثم اختير في ذي القعدة أبو العباس ابن الحطيئة، فاشترط أن لا يقضي بمذهب الدولة، فلم يمكَّنْ من ذلك، وتولى غيره.

ومنهم:

[٨٨]

ابن بلج

وأصله من مدينة قرطبة، وكان علم عرفان، وعمل نجم له اسناد خفان، إلى تعبُّد عمر ما بين عرفات وعسفان، وتهجّد بكرى النجوم ولا يغمض له أجفان. ذكره ابن عربي وقال: /٢١٥/ كان يطوف ويهدي لغيره، فخطر له يوماً أن يطوف لنفسه أسبوعاً

---

(١) وفيات الأعيان ١/ ١٧١.

(٢) تأليف ابن ظافر الأزدي (ت ٦٢٣هـ)، يقع في نحو أربع مجلدات «كشف الظنون ١/ ٧٦٢»، والنص هنا في وفيات الأعيان ١/ ١٧١.

واحداً، قال: فلما عقدت نية الطواف، وقعت ورمت النهوض فلم أستطع، فقلت: «اللهم إني تائب إليك، وراجع إلى ما أقمتني فيه». قال: فعند ذلك أطلقني الله للقيام، فقمت بوقتي، ورجعت إلى عادتي التي هداني الله لها. رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[٨٩]
أَحمدُ بنُ عَطَاءِ الله، أَبُو العَبَّاس

هبَّ للمعارف رخاءً، ووهب الدنيا لأهلها سخاءً، وتألق نجماً للمُريد، ورجماً للمَريد، وكان عالماً معلِّماً، وعارفاً يؤخذ عنه العرفان مسلما، إلى وقوف على الأسرار، ووقوف على قدم في الأسحار، وحضور قلب وشعور، ولب من الكلم كأنه شذور، وموارد حقيقية ورد مناهلها، وشعب طريقة توقى مجاهلها، فلم تزل به قدم، ولم يزل له في الإملاء قلم.

قال ابن عربي: سمعته يقول: ما ينبغي للذاكر أن يشتغل بمعاني الذكر، بل بالذكر، ويجعله تعبداً لا يعقل معناه، ويقول: هذه عبادة أمرت بها، وأنا ممتثل الأمر، فإذا اعتقد الذاكر ذلك، كان الذكر يعمل بخاصيته: وما تقتضيه حقيقته». وأنشد: [من البسيط]

أهوى هَواه وبُعدي عنهُ يغيبه ... فالبعدُ قدْ صارَ لي في حُبِّه أَرَبا
فَمَنْ رأى دَنِفاً صَبّاً أخا شَجَنٍ ... ينأى إذا حِبُّهُ مِنْ أَرَضهِ اقتربا

وقال: الذكر حجاب عن المذكور، ولكونه بمنزلة الدليل، والدليل متى أعطاك المدلول سقط عنك لتحققك بالمدلول، فمتى كنت مع المذكور فلا ذكر، ومتى رددت الباب وجب الذكر عليك، والذكر للقلب بمنزلة الصقال للمرآة، ليتحقق بالحق صفاؤه /٢١٦/ وجلاؤه.

وقال: «مثل الذاكر اللاهي كمثل من ينادي شخصاً فإذا أجابه اشتغل عن سماعه، وكذلك الذاكر يأتيه المذكور، فلا يجده حاضراً، وإنما الأصل المراقبة للمذكور، فمتى أجابك كنت معه، وهذا هو الأصل، والله أعلم».

وقال في معنى الحديث: «وما اتخذ الله ولياً جاهلاً»: «إن معناه أن الله سبحانه وتعالى إذا اختصَّ له ولياً نوّر قلبه، فكان على بصيرة من ربه».

وقال في معنى قوله: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾[1] قال: قيل لي في المنام: تدري ما الواحدة؟. إنما أعظك بنفسك ـ والباء هاهنا باء السبب ـ.

---

(١) سورة سبأ: الآية ٤٦.

وقال: «لما كان المدعي في الشرع عليه البينة بشاهدين، نظرنا في الحقيقة التي انبعث عنها هذا الحكم، فوجدناها في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾(١) فالملائكة وأولو العلم هما الشاهدان. ولما كان يحكم أخر الشاهد واليمين، وجدنا ذلك في شهادته تعالى وقسمه، قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾(٢).

ومنهم:

[٩٠]

سُلَيمَانُ [بنُ عَبدِ البَارِي الدِّرعِيُّ]، «شّيخُ القُرَشِيِّ»، أَبُو الرَّبِيع(٣)

ربيع كل مجدب، وقريع كل متأدِّب سمع به مشرق ومغرب. وأسمع أنباء مثل عنقاء مغرب، سمع منه مرقص ومطرب، وأجمع عليه موجز ومطنب. ردَّد مسائل الطريقة وأوردها، وردَّ عين الحقيقة وأوردها. وكان رجلاً عظيماً، وزاهداً عليماً.

وذكره ابن عربي وقال، وقد ذكر الحديث الوارد من طريق غريب، عن النبي ﷺ أنه قال: (من قال / ٢١٧/ سبعين ألفاً «لا إله إلا الله» كانت له عتقاً من النار). وقال: كان الشيخ أبو الربيع شيخ القرشي كثيراً ما يستعملها لنفسه، ولمن يموت من أصحابه، فقدَّر الله ـ تعالى ـ أن قالها مرة، وأسرَّها في نفسه، لم يهدها لأحد، فبينا هو ذات يوم مع جماعة له على الطعام، وإذا بصغير من الجماعة كان صاحب مكاشفة، وهو دون البلوغ، قد رمى اللقمة من يده، وقال: كشف لي عن النار، فرأيت أمي فيها!!؛ فقال الشيخ في نفسه: اليوم أصحح كشف هذا الصغير بالحديث، وأصحح الحديث بالكشف. ثم قال في نفسه: «اللهم إني قد أهديت ذلك لها، فأعتق اللهم رقبتها من النار». قال: فعندها قال الصغير «الله، الله!، رأيت أمي أخرجت من النار، لكن ما أدري ما السبب؟». قال: فعندها زاد ذلك تعظيماً عند الشيخ وأصحابه، وصحَّ الكشف بالحديث، والحديث بالكشف.

قال ابن عربي: وقد أهديتها لجماعة، ورأيت علامة الرحمة عليهم بغد أن كنت أرى عليهم غير ذلك.

ومنهم:

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨. (٢) سورة الذاريات: الآية ٢٣.

(٣) ترجمته في: التشوّف إلى رجال التصّوف ٤١٠ رقم ٢٣١، صاحب الدرر المرصعة ١٦٦.

[٩١ و٩٢]

الأَخَوان: مُحَمَّدُ الخَيَّاطُ، وَأَحَمَدُ الحَرِيريُّ، المغربيان:

أبو عبد الله، وأبو العباس

يدان كلتاهما يمين، وفرقدان كلاهما لأخيه قرين. أشرقا إشراق القمرين، وبسقا بسوق الغصنين المثمرين. وذكرهما ابن عربي قال في حكاية ذكرها أنه قال له صديق فقال له: علي ابن الحصار متوفى، وأهمني أمره، فجاءني إلى داري ليلة الأخوان ـ وسماهما ـ فسألتهما الاعتناء بأمره تلك الليلة لعلِّي أراه، ففعلوا، فلما كان في جوف الليل، رأيت صاحبي ابن الحصَّار، وعليه ثوب خَلِق، وعلى وجهه من الأنوار ما لا يستطيع /٢١٨/ البصر يتأمله. فقلت له ـ بعد السلام ـ: ألست فلاناً الذي مات؟. قال: نعم. قلت: ما لقيت من الله؟. قال: نفعني الله بما فعلته معي، وكان حالي هذا الذي ترى من هذا الثوب، ووصل إلى الليلة بهذين ما ترى أثره على وجهي، وقد أدخلني الله الجنة، وبشَّرني. فقلت: أخشى أن يكون الشيطان قد تمثَّل بك، فهل من علامة؟. قال: فأطرق مليَّاً، ثم رفع رأسه إلي، وقال: في غدٍ وقت الظهر يرسل إليك صاحب الأمر في تملك ويؤخذ أصحابك، ثم تكون العاقبة إلى خير». هذه علامة. ثم قال: يا أخي ما رأيت العثماني ما أقل خيره، كنت أتوهم أنه أقرب الإخوان، فلم ينفعني، ولا وصل إليَّ منه خير قط.

قال ابن عربي: وكنت رأيت في ذلك النهار العثماني، وكان شاعراً، وقال: أحب منك أن تضع لي معاني في مرثية حتى أنظمها لشخص اقتضاني أن أعمل له مرثية، على وزن قصيدة المتنبي. [من المتقارب]

«أيا خدَّد اللهُ وردَ الخُدودِ»

قلت للعثماني: من الذي اقتضاك المرثية لتكون المعاني لائقة به؟. فلم يعرِّفني، فلما كان الليل، ورأيت الرؤيا، قال لي صاحبي أبو الحسن في حقه ما قال. ثم قال أبو الحسن: وتعلم الذي اقتضاه المرثية، وفي من هي؟. قلت: لا. قال: هو أبو الحكم بن الحجاج، والمرثية في ولده، وقد وصل إلينا، وهو بخير، لكني ما أكون مثله، أنا أقول لك بيتاً يكون أولاً لقصيدته التي اقتضاها عليه أبو الميت، وهو: [من المتقارب]

أَيا عينُ ويحكِ بالدَّمعِ جُودي فإنَّ الحَبيبَ ثَوى بالجُودِ

قال ابن عربي: فانتبهت من النوم، وكانت الجماعة عندي، فذكرت لهم ذلك ففرحوا به، ثم أصبحنا، فكان من الطلب لي، /٢١٩/ وأخذ بعض أصحابي بعد

الظهر، ما ذكره في المنام من العلامة. وذلك سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة.

قال ابن عربي: وكنت سألته في المنام عن مجيئه، فقال: حيث أشرف على جسدي، ثم أعود إلى البرزخ.

ومنهم:

[٩٣]

ابنُ عَرَبي، مُحَمَّدُ بنُ عَلِيِّ بنِ مُحَمَّد بنِ أَحمدَ بن عبدِ الله، الشيخُ محيي الدِّينِ، أَبُو بكرٍ الطَّائِيُّ، الحَاتِمِيُّ، الأَندَلُسِيُّ، المُرسِيُّ[1]

صاحب المصنَّفات، سيف يفري النوائب، ويفلي لمم الخطوب الممتدة

---

(١) ترجمته في: ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد ٢/ ١٥٢، ١٥٣ رقم ٣٨٧، وطبعة أخرى (بيروت) ١٥/ ٥٨، قلائد الجمان في شعراء هذا الزمان لابن الشعار الموصلي ٧/ ١٨١ـ ١٩٤ رقم ٨٠٣، ومرآة الزمان ج٨ ق ٢/ ٧٣٦، والتكملة لوفيات النقلة ٣/ ٥٥٥ رقم ٢٩٧٢، وذيل الروضتين ١٧٠، وتاريخ إربل ٤٠٨١، وتكملة الصلة لابن الأبار ٢/ ٦٥٢، والذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ٦/ ٦٩٣، والأعلاق الخطيرة ج١ ق١/ ١٥٤، ونهاية الأرب ٢٩/ ٢٨١، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٤١، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٦٥، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٤٨ـ ٤٩ رقم ٣٤، والعبر ٥/ ١٩٨ـ ١٩٩، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ٢٨ رقم ٢١، ونثر الجمان للفيومي ٢/ ورقة ١٢٤ـ ١٢٥، وطبقات الأولياء لابن الملقن ٤٦٩ـ ٤٧٠ رقم ١٥٣، وتلخيص مجمع الآداب ٥/ ٨٤٨، وفوات الوفيات ٣/ ٤٣٥ رقم ٤٨٤، والوافي بالوفيات ٤/ ١٧٣ـ ١٧٨ رقم ١٧١٣، والبداية والنهاية ١٣/ ١٥٦، وغاية النهاية ٢/ ٢٠٨ رقم ٣٢٧٧، والعقد الثمين للفاسي ٢/ ١٦٠ـ ١٩٩ رقم ٣٢٢، ونزهة الأنام لابن دقماق، ورقة ٥٠ـ ٥٣، وعقد الجمان للعيني ١٨/ ورقة ٢٤٣ـ ٢٤٤، والعسجد المسبوك ٢/ ٥٠٠ـ ٥٠١، والمقفى الكبير للمقريزي ٦/ ٣٤٨ـ ٣٥٥ رقم ٢٨٣٠، ولسان الميزان ٥/ ٣١١ـ ٣١٥ رقم ١٠٣٨، ومرآة الجنان ٤/ ١٠٠ـ ١٠١، ونفح الطيب ٢/ ١٦١ رقم ١١٣، وعنوان الدراية ٩٧ رقم ١٥٦، والنجوم الزاهرة ٦/ ٣٣٩، وروضات الجنات ١٩٢، وطبقات المفسرين للسيوطي ٣٨، وشذرات الذهب ٥/ ١٩٠، ومفتاح السعادة ١/ ٢٣٢ـ ٢٣٣، وكشف الظنون ١٤، ٥٨، ٨٢، ١٠٧، ١٦٨، ١٨١، ١٨٢، ١٩٦، ٢٥٢، ٣٥٢، ٣٨١، ٣٩٦، ٤٣٨، ٤٩٤، ٥٣٣، ٦٣١، ٦٥٠، ٦٨٨، ٧٢٢، ٧٣٨، ٧٩٥، ٨٤٤، ٨٤٩، ٨٥٢، ٨٦٩، ٨٧٤، ٨٧٩، ٨٨٢، ٨٨٣، ٨٨٧، ٨٩٤، ٩٠٠، وصفحات كثيرة أخرى، وإيضاح المكنون ١/ ٧٣، ٨٤، ١٣٤، ١٥٢، ١٦١، ١٧٧، ٢٠٩، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٦٦، ٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٨، ٤٠١، ٤١٤، ٤٢٣، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٥٩، ٤٦٥، ٥٦٦، ٥٩٨، ٦٠٥ وصفحات كثيرة أخرى، وهدية العارفين ٢/ ١١٤ـ ١٢١، وديوان الإسلام ٣/ ٣٥٦ـ ٣٥٨ رقم ١٥٤٤، وفهرس الفهارس للكتاني ١/ ٢٣٣ـ ٢٣٥، وتاريخ الأدب العربي ١/ ٥٧١، وطبقات المفسرين للداوودي ٢٢٦ـ ٢٧٢، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٢٢٠، وفهرس المخطوطات المصوّرة ٢/ ٢٢١، وفهرست الخديوية ٤/ ٢٣٤ و٥/ ٣٧١، وعقود الجواهر لجميل =

الذوائب، لصرف سلم إليه خاتمه، ونسي به طيِّىء الكريم وحاتمه.

سكن دمشق مذ حلَّها، ومدَّ ببحره الزاخر محلها، وكان فيها ما به مهرعا، وسحابه مكرعا، وجنابه مخصباً ممرعا، وله أمور تحمل على محامل، وخوارق لا يجامله فيها مجامل، على اتضاع نفس، وإيضاع في العلا إلى أن حلَّ الرمس، ولم يمت حتى كثرت مصنفاته كثرة أمت الأقلام وأخفتها، وغطت الأيام وأحفتها.

ولد ـ رضي الله عنه ـ في رمضان سنة ستين وخمسمائة، بمرسية، وسمع بها وبقرطبة من ابن بشكوال، وبإشبيلية، ومكة، وبدمشق، والموصل، وبغداد، وسكن الروم مدة.

قال أبو عبد الله الدبيثي: أخذ عن مشيخة بلده، ومال إلى الآداب، وكتب لبعض الولاة، ثم حج، ولم يرجع، وسمع بتلك الديار، وروى عن السلفي بالإجازة العامة، وبرع في علم التصوف، وله فيه مصنَّفات، ولقيه جماعة من العلماء، وأخذوا عنه.

قال ابن نقطة: سكن قونية، وملطية مدة، وله كلام وشعر غير أنه لا يعجبني شعره. والناس فيه على قولين:

قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي: حدَّثني شيخنا ابن تيمية الحرَّاني، عن جماعة حدَّثوه، عن أبي الفتح ابن دقيق العيد، أنه سمع الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول: /٢٢٠/ ابن العربي، هذا شيخ سوء، كذَّاب، يقول بقدم العالم، ولا يحرِّم فرجاً. وحمل بعض تصانيفه إلى شيخنا ابن الفركاح فتأملها، ثم قال: الذي فهمته من كلامه مليح لا انتقاد عليه فيه، والذي لم أفهمه لا أحكم عليه فيه بشيء.

وحكي مثل هذا عن الشيخ الموفَّق. وسئل عنه ابن الفركاح فقال: أرجو أن يكون من أهل الخير.

وسئل عنه قاضي القضاة البارزي، فقال: كان من العلماء. وسألت عنه شيخنا ابن

= العظم ١٣ـ ٣٩، والمجدّدون في الإسلام للصعيدي ٢٧٥ـ ٢٨٢، وتاريخ فلاسفة الإسلام للطفي جمعة ٢٧٥ـ ٣٠٣، والأعلام ٦/ ٢٨١، ومعجم المؤلّفين ١١/ ٤٠ـ ٤١، وملء العيبة للفهري ٢/ ٣٠٢ـ ٣٠٣، وتاريخ الخلفاء ٤٦٤، وآثار البلاد وأخبار العباد ٢٦٩، ٤٩٧، ومعجم طبقات الحفاظ والمفسرين ٢٨١ رقم ٥٤١ تاريخ الاسلام (السنوات ٦٣١ـ ٦٤٠هـ) ص ٣٧٤ـ ٣٨١ رقم ٥٤٩، والقاموس الإسلامي لأحمد عطية الله ٥/ ٣٣٠ـ ٣٣٣، وسير الأولياء للخزرجي ٤٧، وانظر: الدر الثمين في مناقب الشيخ محيي الدين الذي قدّم له الدكتور صلاح الدين المنجد ففيه مصادر ومراجع أخرى.

له ديوان شعر طبع عدة مرات منها ط دار صادر بيروت ١٩٩٩، بشرح وتقديم نواف الجراح.

الزملكاني، فقال: صحَّ أنه مسلم، ولم يصح غير ذلك.

قلت: كان قاضي القضاة محيي الدين أبو الفضل ابن الزكي كثير الصحبة له، والخصوصية به، ودفنه في تربته بسفح قاسيون تبركاً بمدفنه.

وحكى صاحبه شمس الدين إسماعيل بن سودكين التوزري قال: قال لي الشيخ محيي الدين بن عربي: كنت في بعض سياحاتي، فدخل في إصبعي شوكة، فمنعتني عن المشي، فقعدت، وأخذت رجلي في حجري أنظر إليها، وقلت: إلهي لو أن معي إبرة، أو ملقطاً لتسببت. إلهي! وأنت تعلم عقيدتي أنني أعتقد أن الإبرة والملقاط ما لهما إبراء البتة، فلا تحتجب عني بهما». قال: فنوديت في باطني: نعم، الأمر كذلك، ولكن إليهما ركون. فقلت: إلهي، ولا ركون. وإذا بالشوكة قد نفرت بحدة من رجلي، وضربتني بقوة في إصبع يدي المسبحة اليمني، وسقطت على الأرض، فقمت ومضيت لسبيلي في فضل الله تعالى.

وحكي عن ابن عربي أنه قال: لي إلى مكة تردد، فما حججت لنفسي إلا حجة الإسلام، ولا اعتمرت سوى عمرة الفريضة، والباقي لمن شاء الله تعالى، لكني ما أهدي ذلك إلا لمن لا يكاد يرجى له خير.

وحكي عنه أنه قال: ذهب بعضهم إلى أن قوله عليه الصلاة والسلام: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين»، إنما هو لئلا يبلغوا حد الخرف، الذي يفارق / ٢٢١/ فيه النفوس على حالة الجهل.

وحكى شيخنا أبو الثناء الحلبي: إن رجلاً كان في زمانه يجيد الخط، وأن بعض ملوك دمشق أعطاه مصحفاً بخط ابن البواب لينقل له منه، فبينما هو مفتوح قدامه في ليلة من الليالي، والسراج يَقِد، وهو يكتب، إذ سقط السراج، فتبدد زيته على المصحف، فأيقن الرجل بالبلاء، والصبر للقتل والجلاء، وبات بشرٍّ ليلة تكون. فلما أذن للصباح، أتى المسجد الجامع ليصلي، فرأى ابن عربي إلى جانبه، فلما قضى ركعتي المسجد، التفت إليه ابن عربي بوجهه، وقال له: ما صناعتك؟. قال: أنسخ. فقال له: فإن وقع السراج وتبدَّد زيته على شيء قدَّامك مضنون به، ما تصنع به حتى يذهب الزيت؟. فأكبَّ على يديه يقبِّلها، ويقول: هذا والله! جرى لي البارحة، وقصَّ عليه قصَّته، فضحك الشيخ، وقال: لا يهمُّك، خذ عظام الأكارع الصغار، فاحرقها، واسحقها، واسحق معها من السكر النبات، واخلطهما، ثم افتح الأوراق، وذرَّ ذلك بينهما، ثم أطبق الكتاب، وثقِّله، ودعه يوماً وليلة، ثم افتحه، وانفضه، فإنه يذهب الزيت، ويعود إلى حاله الأول. قال: ففعلت، فكان كما قال.

وحكى شيخنا الكندي عنه أنه كان يقول: «اللهم! ارزقني شهوة الحب، لا الحب، حتى أكون منعَّماً أبداً». قال: وفي هذا يقول: [من الطويل]

ولـمَّـا رأيـت الـحُـبَّ يَـعـظُـمُ قـدْرُهُ   ومـا لـي بـهِ حـتـى الـمَـمـاتِ يَـدانِ
تـعشَّـقـتُ حُـبَّ الـحُـبِّ فـيـهِ ولـمْ أَقـلْ   كـفـانـي الـذي قـدْ نـلـتُ مـنـهُ كـفـانـي

وحكى عن بعض أشياخه أنه قال: بلغني في عموم الأخبار أنه من قرأ اثني عشر ألف مرة سورة الإخلاص بسبب أسير، فرَّج الله عنه، وفكّ أسره. فنزلت مرة في مركباً، وفيه ملاَّح، فسمعني أذكر هذا الخبر، وكان ولده مأسوراً، ولم أعلم ذلك، ثم فارقته، وبقيت مدة، وجئت / ٢٢٢/ إلى النهر لحاجة عرضت. فلما رآنا قام، وقدّم مركبه، وقال: هذا لك. تركب أنت ومن معك بغير أجرة، فسألته عن موجب إكرامه، فقال: ما تذكر لما ذكرت في ذلك الحديث الذي ورد في تلاوة سورة الإخلاص اثني عشر ألف مرة، بسبب المأسور؟. فقلت: نعم. فقال لي: كان ولدي هذا مأسوراً حينئذ، وإني فعلت ذلك، فلم أشعر بعد أيام إلا وولدي داخل علي، وكان قد قطع عليه حملة كثيرة كنت أعجز عن بعضها، ويئست من خلاصه، فلما رأيته سررت بخلاصه، وشكرت الله، ثم سألته عن السبب في خلاصه؟. فقال: ما أعلم سبباً، إلا أني كنت في اليوم الفلاني ـ ثم ذكر ذلك الوقت الذي كملت فيه التلاوة ـ قاعداً، وإذا بالقيد سقط من رجلي، بإذن الله، فلما رأيت [ذلك] قمت، وانصرفت، فلم يعارضني أحد، فاختفيت نهاراً، وسرت ليلاً حتى وصلت إليكم بحمد الله. وهذا ببركة ركوبك في مركبي، فكيف لا أرعى حقك علي؟. وكتب ابن عربي على هذه بخطه: «صح، صح، صح».

ومن كلامه المأثور، ودرّه المنظوم، قوله[1]: [من الكامل]

مَـنْ ظَـنَّ أنَّ طَـريـقَ أربـابِ الـعُـلا   قـولٌ فـجـهـلٌ حـائـلٌ وتـعـذُّر
إنَّ الـسـبـيـلَ إلـى الإلـهِ عـنـايـةٌ   مـنـهُ بـمَـنْ قـدْ شـاءَهُ وتـعـزرُ
لا يـرتـضـى لـحـقـيـقـةٍ ذو عِـزَّةٍ   إلا إذا ضَـمَّ الـسَّـنـابـلَ بَـيْـدَرُ
الـحـالُ تَـطـلـبُـهُ بـشـرطِ مـقـامِـهِ   فـإذا ادّعـاهُ فـحـالُـهُ لـكَ يُـشْـهـرُ
يـتـخـيـلُ الـمـسـكـيـنُ أنَّ عـلـومَـهُ   مـا بـيـنَ أوراقِ الـكـتـابِ تُـسـطّـرُ
هـيـهـاتَ بـلْ مـا أَودعُـوا فـي كـتـبِـهِـمْ   إلا يَـسـيـراً مِـنْ أمـورٍ تَـعْـسُـرُ
لا يـقـرأُ الأقـوامُ غـيـرَ نـفـوسِـهِـمْ   فـي حـالـهِـمْ مَـعْ ربِّـهـمْ هـل يـحـصـرُ
فَـتـرى الـدَّخـيـلَ يَـقـيـسُ فـيـهِ بـرَأيـهِ   لـيُـقـالَ هـذا مَـنْـهُـمُ فـيـكـبَّـرُ

---

(١) ديوانه ص ٢٤ـ ٢٥.

وتناقضتْ أقوالُهُ إنْ لمْ يكنْ … عَنْ حالهِ فيما تَقدَّمَ يُخبِرُ
عِلْمُ الطريقةِ لا يُنالُ براحةٍ … ومَقايسٍ فاجْهَدْ لَعَلَّكَ تَظفَرُ
عزتْ علومُ القومِ عَنْ إدراكِ مَنْ … لا يَعتريهِ صَبابةٌ وتَحَيّرُ
وتنفّسٌ مما يُجنّ وأنَّةٌ … وجوًى يَزيدُ وعَبرةٌ لا تَفتُرُ
وتَذلُّلٌ وتَولُّهٌ في غيبةٍ … وتلذُّذٌ بمشاهدٍ لا تَظهرُ
وتقبُّضٌ عندَ الشهودِ وغَيرةٌ … إنْ قام شخصٌ بالشريعةِ يسخرُ
وتخشُّعٌ وتفجُّعٌ وتشرّعٌ … بتشرّعِ لله لا يَتغَيَّرُ
هذا مقامُ القومِ في أحَوالِهمْ … ليسوا كَمَنْ قالَ الشريعةُ مزجرُ
/٢٢٣/ ثمَّ ادَّعى أنَّ الحقيقةَ خالفتْ … ما الشرعُ جاءَ بهِ ولكنْ تسترُ
تبّاً لها مِنْ قالةٍ مِنْ جاحِدٍ … ويلٌ لهُ يومَ الجَحيم يُسَعَّرُ
أو مَنْ يُشاهدُ في المَشاهدِ مُطرِقاً … ليُقالَ هذا عابدٌ مُتَفكِّرُ
هذا مُراءٍ لا يَلَذُّ بِراحةٍ … في نفسِهِ إلا سُويعةَ ينظُرُ
لكنهُ مِنْ ذاكَ أسْعَدُ حالةٍ … ولهُ النعيمُ إذا الجَهولُ يُقْطَرُ

ومنه قوله: [من مجزوء الكامل]

يا نائماً كمْ ذا الرُّقا … دُ وأنتَ تُدَّعي فانْتَبِهْ
كانَ الإلهُ يقومُ عنـ … ـكَ بما دَعا لَوْ نِمْتَ بِهْ
لكنّ قلبكَ غافلٌ … عمَّا دعاكَ ومُنتَبِهْ
في عالمِ الكونِ الذي … يُرديكَ مَهما مُتَّ بِهْ
فانظرْ لنفسِكَ قبلَ سيـ … ـرِكَ أنَّ زادكَ مُشتَبِهْ

ومنه قوله: [من مجزوء الكامل]

لمَّا انقضى ليلُ الشبا … بِ ولاحَ لِيْ صبُحُ المَشيبِ
أضربتُ عَنْ خوضِ السفا … هةِ بالتبتُّلِ للحبيبِ

نفسي أخاطب، وإياي أعاتب، أيها المرسل عنان شهواته، الجائل في ميدان لذاته، السابق في حلبة هفواته، إلى كم ذا الاغترار بالعمر القصير؟، كأنك ما علمت أن إلى الله المصير!، فبادر إلى التوبة لعلّك تقال، وألق عن ظهرك أوقار الأوزار الثقال، يصحّ لك ما أمّلت في العقول، في حضرة القبول، فقد قال قيُّوم السماوات والأرض: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1] وأمر به في كتابه المبين: ﴿وَتُوبُوٓاْ

(١) سورة الشورى: الآية ٢٥.

إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(١)، ثم رغَّب فيما يحبه للمذنبين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٢). فيا أيها الناس! اعلموا أن كل من / ٢٢٤/ ظهرت منه حوبة؛ فإن لله عليه توبة، فمن عظمت حوبته، جلَّت توبته، فتوبة عالم الشهادة من الأعمال، وتوبة النفوس من الآمال، وتوبة الأرواح من الوقوف مع حضرات الجمال، وتوبة الأسرار من معاينة عين الكمال، وتوبة أسرار الأسرار مما لا ينال، والسر الواحد الجامع، عدم رؤية الثواب النافع. وهذا باب يدق وصفه، ويمنع كشفه، فألقِ سمعك أيها المغتر بحياته!، المحجوب على الحقيقة بمشاهدة صفاته، وخذ خطاب الحق، من حضرة الفرق بلسان الصدق، فيا محلَّ العدم! عليك بالبكاء والندم، ويا محلَّ التمحيص والاختبار! عليك بالافتقار والاعتذار، ويا محل الاطلاع! عليك بالنزوع والإقلاع، فشمِّر الذيل، واقطع بالتلاوة زمان الليل، وطهِّر ثيابك قبل انسلاخك عنها، واعرف قدر جنايتك، وتب إلى الله عز وجل منها، وإياك والخديعة، باسترسال الطبيعة، وأقم ميزان العدل بين حجبك وجناياتك، وكحِّل بميل الاعتبار عين بصيرتك، لتعرف قدر ظلام عمايتك، واعلم أنك على ما فرَّطت في جنب الله نادم، وعلى ما قدَّمت بين يديك قادم، وأدنى مرامي أفعالك وأقصاها في كتاب: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾(٣). [من المتقارب]

فَطُوبَى لِمَنْ [قَدْ] غَدا تَائِباً ... مُنِيبا ذَلِيلاً لِرَبٍّ [كريم] جليلِ
تَراه إذا جَنَّهُ لَيْلُهُ ... كثيرَ الأنينِ كثيرَ العَويلِ
قَرِيحَ الفُؤاد حَلِيفَ السُّهادِ ... يُراعِي النُّجومَ بطَرفٍ عَليلِ
إذا الدمعُ سالَ على خَدِّه ... مَحا أَثَرَ الدَّمْعِ حَرُّ الغَليلِ

وقوله من خطبة: «فلا يقع بصر إلا عليه، ولا يخرج خارج إلا منه، ولا ينتهي قاصد إلا إليه، فيا أولي الألباب، أين الغيبة / ٢٢٥/ والحجاب؟!: [من الطويل]

ومِنْ عَجَبٍ أَنِّي أَحِنُّ إليهِمُ ... وأسألُ شَوقاً عنهمُ، وهُمُ مَعِي
وتبكيهُمُ عَيني وهُمْ في سَوَادِها ... ويَشتاقُهُم قَلبي وهمْ بينَ أَضلُعِي

ومنه قوله: «أيها الغافل عن مواقعة الحساب، والمتعامي عن مناقشة ما في يديه من الاكتساب، كأنك ما قرأت ما في الكتاب المبين: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾(٤)، فاعلم ـ أيقظك الله من سِنَةِ الغفلة ـ: أن المحاسبة في هذه الدار على قدر المحاسب، فمنهم

(١) سورة النور: الآية ٣١.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.
(٣) سورة الكهف: الآية ٤٩.
(٤) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

معاقب، ومنهم مغالب، ومنهم معاتب، ومنهم محاسب. فمحاسبة الإحساس معاقبة، والأنفاس مغالبة، والأرواح معاتبة، والأسرار مخاطبة. فحاسب نفسك ـ يا أخي! ـ في مهل الأنفاس، قبل حلول الأرماس، ومثِّلها كعامل خراجٍ بين يديك من قبل أن ينعكس الأمر عليك، فكأني بك في ذلك اليوم تدعو فلا تسمعُ مجيباً إلا: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[1]. ومنه قوله: «أما بعد ـ يا أخي! ـ عصمنا الله وإياك من نتائج الغفلات، وآمننا من روعة البيات، فإن الله ـ سبحانه ـ لما أوضح المنهج إليه، وبيَّن الأمر المزلف لديه، حمل من اصطفاه من عباده عليه، وعدل بمن حرمه إلى أحد جانبيه، فهنيئاً لمن حمل على الجادة، وبؤساً لعبد قطعت عنه العناية الربانية والمادة. ونحن ـ يا أخي! ـ من هذا كله على بصيرة، مع قبح سيرة وسريرة، فتدارك أخاك بدعوة ترقيه إلى موقف الاختصاص، وتلحقه بأهل الصدق والإخلاص، قبل أن يفجأه الموت، وينقلب بحسرة الفوت؛ فقد طال الأمل، وساء العمل، وترادف الكسل، ولم تعظنا بمرورها الأيام، ولا زجرتنا حوادث العلل والآلام، فأسأله سبحانه أن يطهِّر الذوات بأحمد الصفات، والسلام».

ومنه /٢٢٦/ قوله: «أما بعد ـ يا أخي! ـ فالقدر سابق والقضاء لاحق، ولا يغرَّنَّك ما أنت عليه من سَنِيِّ الأعمال، وزَكِيِّ الأحوال، ما دام رسنك مرخًى، وحبلك على غاربك ملقى، فإن الخاتمة أمامك، ولا تدري بما يرسل الحق إليك أيامك، فخذ الكرامة على أدب، وأعرض عن الاشتغال بها وجدَّ في الطلب، فكم مريد كانت حظ عمله لما كانت غاية أمله، ومن الله نسأل عصمة الأحوال، في السابقة والمآل، والسلام».

وحكى الشيخ شمس الدين إسماعيل بن سودكين عنه أنه كان يقول: «ينبغي للعبد أن يستعمل همَّه في الحضور في مناجاته، بحيث يكون حاكماً على خياله، بصرفه بعقله نوماً كما كان يحكم عليه يقظة، فإذا حصل للعبد هذا الحضور، وصار خلقاً له، وجد ثمرة ذلك في البرزخ، وانتفع جداً. فليهتم العبد بتحصيل هذا القدر فإنه عظيم الفائدة بإذن الله تعالى».

وقال: «إن الشيطان ليقنع من الإنسان بأن ينقله من طاعة إلى طاعة ليفسخ عزمه بذلك».

وقال: «وينبغي للسالك متى خطر له أن يعقد على أمر ما، أو يعاهدُ الله تعالى

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٤.

عليه، أن يترك ذلك الأمر إلى أن يجيء وقته، فإن يسَّر الله فِعلَه فَعَلَهُ، وإن لم ييسِّرِ الله فعله يكون مخلصاً من نكث العهد، ولا يتَّصف بنقض الميثاق».

وقال: «إن الحق ـ سبحانه ـ جعل الطريق إلى معرفته أسهل الطرق وأوضحها، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(١)، وهو أصل المعارف كلها.

وقال: «بلغني في مكة عن امرأة من أهل بغداد أنها تكلمت فيَّ بأمور عظيمة، فقلت: هذه قد جعلها الله سبباً لخير وصل إليّ، فلأكافئنها. وعقدت في نفسي أن أجعل جميع ما أعتمر في رجب يكون لها، وعنها؛ ففعلت ذلك؛ فلما كان الموسم استدل عليَّ رجل /٢٢٧/ غريب، فسأله الجماعة عن قصده، فقال: بالينبع في الليلة التي بت فيها كأن آلافاً من الإبل أوقارها المسك والعنبر والجوهر، فعجبت من كثرته، ثم سألت لمن هو؟، فقيل لمحمد بن عربي، يهديه إلى فلانة، وسمى تلك المرأة، ثم قال: وقيل لي: هذا بعض ما يستحق. قال ابن عربي: فلما سمعت الرؤيا واسم المرأة، ولم يكن أحدٌ من خلق الله علم مني بذلك، علمت أنه تعريف من جانب الحق، وفهمت من قوله: أن هذا بعض ما يستحق، أنها مكذوب عليها. قال: فقصدت المرأة، وقلت: اصدقيني! [فقالت: كنت] قاعدة قبالة البيت وأنت تطوف، فشكرك الجماعة التي كنت فيهم، فقلت في نفسي: اللهم إني أشهدك أني قد وهبت له ثواب ما أعمله في يوم الاثنين وفي يوم الخميس، وكنت أصومهما، وأتصدق فيهما. قال: فعلمت أن الذي وصل منها إليَّ بعض ما تستحقه، فإنها سبقت بالجميل، والفضل للمتقدم.

ومنهم:

[٩٤]

الحرّالي، عَلي بنُ أحمدَ بنِ الحَسَنِ بنِ إبراهيم التجيبي(٢)

الإمام أبو الحسن الأندلسي. كان سيفاً مجرَّداً، وسيلاً لم يكن مصردا، هابته

---

(١) سورة الشورى: الآية ١١.

(٢) ترجمته في: تكملة الصلة لابن الأبار ٢/ ٢٨٧، وعنوان الدراية للغبريني ١٤٣ـ ١٥٦ رقم ٣١، وتاريخ إربل ١/ ٤٣١، وملء العيبة للفهري ٢/ ٥١، ٦٤، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠١، ٣٠٦ـ ٣٠٨، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٤٠، وميزان الاعتدال ٣/ ١١٤ رقم ٥٧٨٥ وفيه: «الحرآني، مات بحماة قبل الأربعين وستمائة»، والعبر ٥/ ١٥٧، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٤٧ رقم٣٣، ومرآة الجنان ٤/ ١٠٠، والعسجد المسبوك ٢/ ٤٩٥ـ ٤٩٦، والوفيات لابن قنفذ ٣١٤ رقم ٦٣٧، ولسان الميزان ٤/ ٢٠٤ رقم ٥٣٦، وفيه: «الحراني» والنجوم الزاهرة ٦/ ٣١٧، =

الخطوب فاتقته، وحابته القلوب فوقته، فاقتاد المطالب بأعناقها، وأتته المآرب تسرع في إعناقها، قد أمسك بعروة ما لها انفصام، وركن إلى ذروة تحميه يوم الخصام بفضل يبهت الطرف، وتبعد منه من يعبد الله على حرف، فراراً من نار لا تخمد لها جذوة، ولا تحمد لها جلوة، لدنيا ساكنها غير مستكن، ومستوطنها غير مطمئن، فربحت تجارته، وصلحت إنابته لله واستجارته.

ولد بمراكش، وأخذ العربية عن ابن خروف، وغيره، وحجَّ، ولقي العلماء، وجال في /٢٢٨/ البلاد، وتغرَّب، وشارك في فنون عديدة، ومال إلى النظريات وعلم الكلام. وأقام بحماة، وبها مات.

وله «تفسير» فيه أشياء عجيبة الأسلوب، غريبة المعاني. وكان لا يقدر أحد أن يؤذيه، وتكلم على الكائنات، وأمور الحدثان، وأسرار الحروف، وزعم أنه استخرج علم وقت خروج الدجال، ووقت طلوع الشمس من مغربها، ويأجوج ومأجوج. وصنَّف في المنطق، وشرح في الأسماء الحسنى، وله عبارة حلوة، وفصاحة وبيان.

قال الحافظ أبو الصفاء الصفدي: وقد اجتمعت أنا بمن له ذوق في علم الحرف، ويد باسطة في هذا الفن، فذكر لي أن الحراليّ لا يفهم شيئاً من هذا العلم، وإنما الأستاذ في هذا الفن: «البوني».

•وتوفي الحراليّ سنة سبع وثلاثين وستمائة.

قلت: سمعة الحراليّ كبيرة، والألسنة ناطقة بسؤدده، وجلالة قدره في طائفته ونظرائه. وبلغني أنه كان متصرفاً في الوجود بتصرفات غريبة، وأمور عجيبة تدل على اطلاعه وعظم مواهب الله عليه، ونعمه لديه.

وكان شيخنا ابن الزملكاني يذكره في أهل التصرفات، وذوي الإتقان لعلم الحرف. وبلغني مثل هذا عن التونسي.

وقال لي تقي الدين عبد الرحمن ابن شيخنا كمال الدين بن الزملكاني: سمعت

= وطبقات المفسرين للسيوطي ٢٢، وطبقات المفسرين للداوودي ٣٨٦٨ـ ٣٨٧ رقم ٣٣٨، ونفح الطيب ٢/١٨٧ـ ١٩٠ رقم ١١٥، وكشف الظنون ٨٩، ٢١٥، ١٠٦١، ١٠٨٢، ١٢٤١، ١٥٦٥، ١٧٦٨، وشذرات الذهب ٥/١٨٩، وفيه: «الحراني»، وإيضاح المكنون ٢/ ٥٢٣، ٦٥٠، وهدية العارفين ١/٧٠٧، ٧٠٨، وديوان الإسلام ٢/١٧٧ـ ١٧٨ رقم ٨٠٠، ونيل الابتهاج للتنبكتي ٢٠١ـ ٢٠٢، وتاريخ الأدب العربي ١/٥٢٧ وملحقه ١/ ٧٣٥، والأعلام ٤/ ٢٥٦، ومعجم المؤلّفين ٧/ ١٣، ومعجم طبقات الحفاظ والمفسرين ٢٥٥ رقم ٣٣٨، تاريخ الاسلام (السنوات ٦٣١ـ ٦٤٠هـ) ص ٣٣٦ـ ٣٣٧ رقم ٤٨٧.

التونسي يقول: «الحراليّ شيخ الجماعة وسيدهم».

ومنهم:

[٩٥]

مُحَمدُ المرجَانِي، أبو عَبدِ الله

مداوي قلوب من أشجان، وسرّ أبوين يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان. كان جدًى للنساك، وهدًى للسلاَّك، وقطباً للأبدال، وحرباً لمن أكثر في الحق الجدال، بكلام يدلُّ على وصول، وبلوغ قصد وحصول، وطبَّقت بلاد إفريقية سمعته، ووسع فرق أهلها رحب صدره وسعته، ثم عمَّ / ٢٢٩/ الشرق والغرب، وملك حبة القلوب بالطلوع والضب، ولم يزل ذكره بالأفواه منتهبا، وفجره في رداء الشفق ملتهبا، وصيته يطير مُتْهماً ومُنْجدا، وإذا سمعه الذين يخشون الرحمن خرُّوا بكيًّا وسُجَّدا، حتى حان حينه، وانتهى إلى القبر نينه، فارتقت إلى السماء روحه، وأشرقت في مطالع الشموس يُوحُه. وكانت الوزراء بمصر تستدعيه إلى حضرتها، وهو من مكانه لا يريم، ولا يزال يحافظ على أوطانه محافظة كريم.

قرأ القرآن الكريم، وتفقَّه على مذهب الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ ولقي العلماء، وأخذ عن المشايخ، وصحب الرجال، وأحبَّ الزهَّاد، واقتدى بالعبَّاد، واعتكف بالمساجد، وتأدب بالكتاب والسنة، ولازم العبادة، وتقرَّب إلى الله تعالى بالنوافل، وتخير لمكسبه، وتوفي في سببه، وتورَّع عن كثير من الحلال خوف الشبهات، ونزه عن دنايا الدنيا وظهرت عليه أمائر القبول، ولوائح القرب، ودام على الاجتهاد، وقام قيام الزهَّاد، وبقي يذكر الله تعالى ويحض على التوجه إليه، والإقبال على ما يزلف عنده.

حكي أن رجلاً قصد زيارته، فلما كان ببعض الطرق، نزل عن حماره لحاجة عرضت له، فشرد الحمار، فقام في طلبه، فلم يجده، فرجع، وتم ماشياً، حتى أتى الشيخ، فسلَّم عليه، وجلس ناحية منه، فالتفت الشيخ إليه، وقال له: طب نفساً، فإن حمارك وصل إلى أهلك. فلما عاد الرجل إلى أهله وجد الحمار، فسأل: من أين وصل إليهم؟. فقالوا: إن رجلاً أتى به السوق ليبيعه، فعرفه من بني عمك، فأخذه، وحمله إلى والي البلد، فسأله عن الحمار؟ فذكر أنه وجده شارداً، فأمسكه، ولم يجد له صاحباً، فاستصحبه معه، فأودعه السجن ليظهر خبرك، وأعطانا الحمار. فشكر الله، وذهب / ٢٣٠/ إلى الوالي وأطلق الرجل.

ومنهم:

[٩٦]

البُونِي أبُو الحَسَن[١]

قانت أوَّاب، وقانع بما عند الله من الثواب، أدرك الحقائق وشهدها، وترك الخلائق ومشهدها، وصحب الدنيا صحبة مفارق، وحلى العلياء حلية هام ومفارق، وحقق فلم يداخله أوهام، وحب فلم يدانه من حب أوهام، فلم تشب إفاضته الشوائب، ولم يشب نواصيه النوائب، وكان ذا فكر جوَّال، وذكر قوَّال، وشكر لا يتغير بتغير أحوال، فتحقق فضله، وتختم وتطوق فعله بأفعال الجميل وتحتم، ولم أقف له على ترجمة، ولم أَقْفُ فيه آثار خواطر محققة ولا مُرَجَّمَة، إلا أن الذي بلغ حدَّ الاستفاضة، أنه كان ممن خلع رداء الحرص، وبت علائق الأمل، وجدَّ في العلم والعمل، ولم يزل حتى سلك الطريقة، ووقف على الحقيقة، وتدبر الأسماء الحسنى، وتكلَّم على معانيها بنوع من العلم اللدُنِّي، وجعل لكل ساعة من ساعات الليالي والأيام، ولسَحَر كل ليلة توجهاً خاصاً، وكذلك لليلة القدر، ويوم عرفة، على دورانهما في الأسبوع، وكذلك لرؤية هلال كل شهر، وجمع ذلك في كتاب سماه: «اللمعة النورانية».

ولأهل المعارف اعتناء به، وحسن ظن فيه. ويزعمون أنَّ له في علم الحرف وأسراره اليد الطولى، ويزعمون أن العالم بذلك يتصرف في الوجود، ولهم في ذلك حكايات غريبة، وأحوال عجيبة.

وأصله من مدينة بونة، على ساحل البحر الشامي، قرب قسطنطينية، من بلاد إفريقية.

---

(١) أحمد بن علي بن يوسف، أبو العباس البُوني: صاحب المصنفات في علم «الحروف»، متصوف مغربي الأصل، نسبته إلى بونة (بافريقية، على الساحل) توفي بالقاهرة سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م.
له «شمس المعارف الكبرى ـ ط» ويسمى «شمس المعارف، ولطائف العوارف، في علم الحروف والخواص» أربعة أجزاء. وله «اللمعة النورانية ـ خ» في مغنيسا (الرقم ١٤٥١) وفي جامعة الرياض (١٣١) و«السلك الزاهر ـ خ» في علم الحرف بالأزهرية (٦/ ٤١٩) و«شمس المعارف الوسطى ـ خ» و«شمس المعارف الصغرى ـ خ» ذكرهما عبيد في تعليقاته، ورسالة في «شرح اسم الله الأعظم ـ ط»، وثانية في «فضل بسم الله الرحمن الرحيم ـ ط»، وكتاب «مواقف الغايات في أسرار الرياضات ـ خ» رسالة في الأزهرية.
ترجمته في: كشف الظنون ١٠٦٢ ومعجم سركيس ١/ ٦٠٧، وهدية العارفين ١/ ٩٠ وجامع كرامات الأولياء ١/ ٣١٤، والأزهرية ٣/ ٦٤١، الأعلام ١/ ١٧٤، الكواكب السيارة ٢٦٨، الطبقات للمناوي ٢/ ٣٥٣.

ومنهم:

[٩٧]

ابن برجان(١)

كاشف أسرار، وكاسف بدور من غير سرار، / ٢٣١/ ولم يزل للشبهة متوقيا، وعلى الشهب مترقيا، حتى تمثل الدقائق، وتوقَّل الحقائق، وشرب من العلم اللَّدنِّيّ، وقطف من الفهم الجني، وأترعت له الحياض فارتوى من موردها، وزوى عن موردها، فأبرز الخفايا، وأخرج الخبايا، فكثرت له مؤملون، وكرت إليه متأملون، فآب بالغنائم، وآل، وطرف العنا نائم، فكربت أضدادٌ له كادوا يتحملون، وكربت حسادٌ له وباطل ما كانوا يعملون.

ومنهم:

[٩٨]

عَليُّ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ الجَبَّارِ بنِ [تَمِيم بنِ هُرْمُزَ بنِ حَاتِمِ بنِ قُصَيِّ ابنِ] يُوسُفَ بنِ يُوشَعَ الحَسَنِيُّ، أبو الحَسَن الشَّاذِلِيُّ الضرير(٢)

وليٌّ لله، طالما أنجد بمدده وأصرح، وانجلى بفرقده الروع وأفرح، وكان عدة

(١) عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبي الرجال محمد بن عبد الرحمن اللخمي الإفريقي المغربي، أبو الحكم الصوفي، المعروف بابن برجان، توفي سنة ٥٣٦هـ.
ترجمته في: تكملة الصلة لابن الأبار، رقم ١٧٩٧، ووفيات الأعيان ٤/ ٢٣٦ـ ٢٣٧، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٢٠، والعبر ٤/ ١٠٠، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٧٢ـ ٧٤ رقم ٤٤، ودول الإسلام ٢/ ٥٥، وعيون التواريخ ١٢/ ٣٧١، ومرآة الجنان ٣/ ٢٦٧ـ ٢٦٨، وفوات الوفيات ٢/ ٣٢٣، وأعمال الأعلام ٢٤٧، والقاموس المحيط (مادّة/ برج)، ولسان الميزان ٤/ ١٣ـ ١٤، وتاريخ الخلفاء ٤٤٢، وذيل تذكرة الحفاظ لابن فهد ٧٣، والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٧٠، وطبقات المفسّرين للسيوطي ٢٥، وطبقات المفسرين للداوودي ١/ ٣٠٠، ٣٠١، ومفتاح السعادة ٢/ ١١١ـ ١١٢، وطبقات المفسرين للأدنه وي (مخطوط) ورقة ١٤١أ، وكشف الظنون ١/ ٦٩، ٤٠ و٢/ ٢٠٣١، وشذرات الذهب ٤/ ١٣٣، وهدية العارفين ١/ ٥٧٠، وديوان الإسلام ١/ ٣٤٤، رقم ٥٣٨، ومعجم المؤلفين ٥/ ٢٢٦، ومعجم طبقات الحفاظ والمفسّرين ٢٤٨ رقم ٢٨٠، تاريخ الاسلام (السنوات ٥٢١ـ ٥٤٠هـ) ص ٤١٦ـ ٤١٧ رقم ٢٨٥.

(٢) ترجمته في: الوفيات لابن قنفذ ٣٢٣ رقم ٦٥٦، والعبر ٥/ ٢٣٢ـ ٢٣٣، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧٤، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٤، ودول الإسلام ٢/ ١٦٠، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٣٨، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٢٣، ونكت الهميان ٢٩٣، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٠٠ـ =

لشدائد، وعمدة في دفع مكايد، طالما أغص الكرب، وأراق ذُنُوب المصائب وقد بلغ عقد الكرب لإصابة سهام، وإجابة دعوة في مهام، لم يحرم في استفتاح السماء، واستمناح النعماء، بعادة متوقعة وسرعة، كم فتق بها الرقيع ورقعه، ولم يزل هذا مجرَّبا، وعنه حدَّثنا يعرف به أنه ممن هدى الله واجتبى.

قدم الديار المصرية من الغرب، وأقام بالاسكندرية مدة، وسافر إلى الحجاز مراراً، وهو أحد المشايخ المشهورين بمعرفة طريق القوم، وله في ذلك كلام، وتصانيف معروفة. صحبه جماعة، وانتفعوا به.

وتوفي بطريق الحجاز، وهو قاصد إليه، بصحراء عيذاب، في العشر الأول من ذي القعدة، سنة ست وخمسين وستمائة، ودفن هناك. رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[٩٩]

عَبدُ الحَقِّ بنُ إبراهيمَ بنِ محمدِ بنِ نصرِ بنِ محمدِ بنِ نصرٍ [بنِ] محمدِ بنِ سبعينَ، أبو محمد: قُطْبُ الدِّينِ المُرسِيُّ الرقوطيُّ(١)

قربَ وداره نائية، وأصغى والنفوس / ٢٣٢/ نابية، فكلف وهام، وشغف بما

= ٢٠١، والوافي بالوفيات ٢١/ ٢١٤ـ ٢١٧ رقم ١٣٩، ومرآة الجنان ٤/ ١٤٠ـ ١٤٧، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٠١ـ ٢٠٢، وشذرات الذهب ٥/ ٢٧٨، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٣٠٠، وعقد الجمان ١/ ١٩٢ـ ١٩٣، والسلوك ج١ ق٢/ ٤١٤، وتاريخ الخلفاء ٤٧٧، وطبقات الأولياء لابن الملقّن ٤٥٨ رقم ١٤٣، وحسن المحاضرة ١/ ٥٢٠ رقم ٤١، والطبقات الكبرى (المسمّى لواقح الأنوار) للشعراني ٢/ ٤ـ ١٠، وكشف الظنون ١/ ٤٠٤، ٦٦١، ٦٦٢، وإيضاح المكنون ١/ ٥٥٩ و٢/ ٩٧، ٢٦٤، وهدية العارفين ١/ ٧٠٩، وشجرة النور الزكية ١٨٦ رقم ٦٢٠، وجامع كرامات الأولياء ٢/ ١٧٥ـ ١٧٧، وخطط علي مبارك ١٤/ ٥٧، ٤٨، والأعلام ٤/ ٣٠٥، ومعجم المؤلفين ٧/ ١٣٧، تاريخ الاسلام (السنوات ٦٥١ـ ٦٦٠هـ) ص ٢٧٣ـ ٢٧٤ رقم ٢٩٣.

(١) ترجمته في: الإحاطة في أخبار غرناطة ٤/ ٣١ـ ٣٨، والمقتفي للبرزالي ١/ ورقة ٢٤أ، وذيل مرآة الزمان ٢/ ٤٦٠، وزبدة الفكرة ٩/ ورقة ٧٥ ب، ٧٦أ، وملء العيبة للفهري ٢/ ٣١٣، وعنوان الدارية ١٣٩ـ ١٤٠، ونهاية الأرب ٣٠/ ١٨٢ـ ١٨٣، ودول الإسلام ٢/ ١٧٢، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٦٣، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧٩، والعبر ٥/ ٢٩١ـ ٢٩٢، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٦١، وفوات الوفيات ٢/ ٢٥٣ رقم ٢٤٢، وعيون التواريخ ٢٠/ ٤٠٧، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٢٠، والوافي بالوفيات ١٨/ ٦٠ـ ٦٤ رقم ٥٧، ومرآة الجنان ٤/ ١٧١، والعقد الثمين ٥/ ٣٢٦ رقم ١٧٠٠، والسلوك ج١ ق٢/ ٥٩٧، وعقد الجمان ٢/ ٨٥ـ ٨٦، والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٣٢، وشذرات الذهب ٥/ ٣٢٩، ونفح الطيب ٢/ ١٩٧ـ ٢٠٧، ورسائل ابن سبعين، المقدّمة =

يدق على الأفهام، وتراءى من وراء ستورها، فأحبَّ والقلوب سالية، وأطرق والعيون سامية، وطن بشارقة من طلالها، وظنَّ كل بارقة على أطلالها، إلى أن مات بها مغرما، وفات إذ رأى فراق الدنيا مغنما، وأدرج في كفنه، وأسرج بدر السماء في مدفنه. ذكره ابن اليونيني في «الذيل» فقال: «كان أحد المشايخ المشهورين بسعة العلم، وتعدد المعارف، وله تصانيف عدة، ومكانة مكينة، عند جماعة من الناس، وأقام بمكة سنين عديدة، إلى أن توفي بها في ثامن عشرين شوال سنة تسع وستين وستمائة، ومولده سنة أربع عشرة وستمائة.

ومنهم:

[١٠٠]

سيدي أَبُو العَبَّاس المُرسِي، أحمدُ بنُ عُمَرَ الأَنصَارِيُّ المَالِكِيُّ[(١)]

بحر من البحور الزاخرة، وحَبر في علوم الدنيا والآخرة، فاكتنفته العناية الإلهية فأمدته بمددها، وأقامته على جددها، فاستنار بأقمارها، واستمار من ثمارها، فضوَّأت مشارقه بأشعتها، وبوَّأت قدمه محل رفعتها، وهبَّ من المغرب هبوب الصَّبَا، ونزل الاسكندرية نزول الغيث الربى، فأصبح به الثغر باسما، وأصبح الراح وأغبق ريحه

= للدكتور عبد الرحمن بدوي ـ القاهرة ١٩٦٥، ولسان الميزان ٣/ ٣٩٢ (٤/ ١١١ـ ٢٢٤ رقم ٤٩٥٦) وكشف الظنون ٦٦٢، وإيضاح المكنون ١/ ٣٠، وهدية العارفين ١/ ٥٠٣، وديوان الإسلام ٣/ ١١٤ رقم ١١٩٩، والأعلام ٣/ ٢٨٠، ومعجم المؤلفين ٥/ ٩٠، والمنهل الصافي ٧/ ١٤٤ـ ١٤٧ رقم ١٣٦٠، والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٣٢، والدليل الشافي ١/ ٣٩٤ رقم ١٣٥٧، والعقد الثمين ٥/ ٣٢٦ رقم ١٧٠٠، تاريخ الاسلام (السنوات ٦٦١ـ ٦٧٠هـ) ص ٢٨٣ـ ٢٨٧ رقم ٣١٣.

(١) أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر، أبو العباس الأنصاري، المالكي الفقيه.
ترجمته في: ذيل مرآة الزمان ١/ ٩٥ـ ٩٦، والذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لابن عبد الملك المراكشي ج١ ق١/ ٣٤٨ رقم ٤٤٨، والديباج المذهب ٦٨، والعبر ٥/ ٢٢٦ـ ٢٢٧، ودول الإسلام ٢/ ١٦٠، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٤، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٢٣، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٣٨، ومرآة الجنان ٤/ ١٣٨ـ ١٣٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٠١ وذيل التقييد للفاسي ١/ ٣٦١ رقم ٦٩٨، والوافي بالوفيات ٧/ ٢٦٤ رقم ٣٢٣٠، والبداية والنهاية ١٣/ ٢١٣، والدليل الشافي ١/ ٦٦ رقم ٢٢٧، وشذرات الذهب ٥/ ٢٧٣ـ ٢٧٤، والعسجد المسبوك ٢/ ٦٤٣، والديباج المذهب ١/ ٢٤٠ رقم ١٢٦، والمقفّى الكبير ١/ ٥٤٥ رقم ٥٣٢، ونفح الطيب ٣/ ٣٧١، وعقد الجمان ١/ ١٩٠، والمنهل الصافي ١/ ٤٤ رقم ٢٢٩، وكشف الظنون ٥٥٤، ٥٥٧، ٤٩٣، وفهرس التيمورية ٢/ ١٥٧، ومعجم المؤلفين ٢/ ٢٧، تاريخ الاسلام (السنوات ٦٥١ـ ٦٦٠هـ) ص ٢٢٥ـ ٢٢٦ رقم ٢٣٩.

ناسما. وكان بمدينة الاسكندرية، وقدره المتطاول علا منارها، وذكره الشائع علم نارها، وعمر حبه من كل قلب بيتاً، وأمر صفته فيها حياً وميتاً.

ذكره بدر الدين بن غانم قال: كان قطب زمانه، وعلامة أوانه، في العلوم الإسلامية وله القدر الراسخ في علم التحقيق، والكرامات الباهرة، والكلام اللائق البديع في طريق القوم، والأحوال /٢٣٣/ الظاهرة، كان لا تتحدث معه في شيء من العلوم إلا تحدَّث معك فيها، حتى يقول السامع: إنه لا يحسن غير هذا العلم، لا سيما علم التفسير والحديث، وكان يقول: شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه.

وكان كتابه في أصول الدين «الإرشاد»، وفي الحديث: «المصابيح» للبغوي، وفي الفقه: «التهذيب» للبرادعي، و«الرسالة»، وفي التفسير: «كتاب ابن عطية». وكان يقرأ عليه بعض المحققين في العربية، فيردُّ عليه اللحن.

وأما علوم المعارف والأسرار؛ فقطب رحاها، وشمس ضحاها، تقول إذا سمعت كلامه: هذا كلام من ليس وطنه إلا غيب الله تعالى، هو بأخبار السماء أعلم منه بأخبار أهل الأرض.

وعن الحسن الشاذلي: إنه قال عن الشيخ أبي العباس: أبو العباس بطرق السماء أعلم منه بطرق الأرض.

قال ابن عطاء تلميذه: كنت لا أسمعه يتحدث إلا في العقل الأكبر، والاسم الأعظم، وشعبه الأربعة، والأسماء والحروف، ودوائر الأولياء، ومقامات الموقنين، والأملاك المقربين عند العرش، وعلوم الأسرار، وأمداد الأذكار، والمقادير، وشأن التدبير، وعلم البدوِّ، وعلم المشيئة، وشأن القبضة، ورجال القبضة، وعلوم الأفراد، وما يكون من أفعال الله تعالى مع عباده يوم القيامة، من حلمه وإنعامه، ووجود انتقامه.

قال الشيخ تاج الدين بن عطاء: ولقد سمعته يقول: «لولا ضعف العقل، لأخبرت بما سيكون غداً من رحمة الله تعالى، وتوفيقه، وإلهامه».

وأما سداد طريقته: فكان رضي الله عنه ـ شديد التحرر من حقوق العباد، مسرعاً للوفاء لها، حتى أنه يوفي الدين قبل استحقاقه، ويحمل أصحابه على التخلص من حقوق العباد، إذا كان عليه دين أحسن القضاء، وإذا كان له حق أحسن الاقتضاء، منقطعاً عن أبناء الدنيا والتردد إليهم، /٢٣٤/ لا يرفع قدمه لأحد منهم، ولا يبعث إليهم، ولا يكاتبهم، إذا طلب منه أن يكتب إليهم، بل يقول للطالب: أنا أطلب لك ذلك من الله تعالى. فإن رضي الطالب بذلك، نجح مسعاه، ولطف به مولاه. ومبنى

طريقه على الجمع على الله تعالى، وعدم الفرقة، وملازمة الخلوة، والذكر. ولكل مريد معه سبيل؛ يحمل كل واحد على السبيل التي تصلح له.

وكان لا يحب المريد لا سبب له، وكان يقول عن شيخه: اصحبوني ولا أمنعكم أن تصحبوا غيري، فإن وجدتم منهلاً أعذب من هذا المنهل فرِدُوا.

وكان مكرّماً للفقهاء، ولأهل العلم وطلبته إذا جاؤوه.

وكان أزهد الناس في ولاة الأمور.

وكان لا يثني على مريد، ولا يرفع له علماً بين إخوانه خشية عليه أن يحسد.

وكان كثير الرجاء لعباد الله، والغالب عليه شهود وسع الرحمة.

وكان ـ رضي الله عنه ـ يكرم الناس على نحو رتبهم عند الله.

وقال ـ وقد سئل لما أن قال عيسى عليه السلام ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]، ولم يقل: الغفور الرحيم؟ ـ. قال: لأنه لو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم، لكان شفاعة من عيسى ـ عليه السلام ـ لهم في المغفرة، ولا شفاعة في كافر، ولأنه عبد من دون الله فاستحى من الشفاعة عنده. وكان يقول: أتباع الحق قليلون، فأولياء الله تعالى كهف الإيواء، فقلَّ من يعرفهم.

وقال ابن عطاء ـ تلميذه ـ: سمعته يقول: «معرفة الولي أصعب من معرفة الله تعالى، فإن الله تعالى معروف بكماله».

ومن زهده: إنه خرج من الدنيا وما وضع حجراً على حجر، ولا اتخذ بستاناً، ولا استفتح سبباً من أسباب الدنيا.

وقال الشيخ أبو الحسن: رأيت الصِّدِّيق في المنام؛ فقال لي: أتدري ما علامة خروج حب الدنيا من القلوب؟. / ٢٣٥/ قلت: لا أدري. قال: علامة خروج حب الدنيا من القلوب: بذلها عند الوجود، ووجود الراحة منها عند الفقد.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي ـ رضي الله عنه ـ: رأيت عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في المنام؛ فقلت: يا أمير المؤمنين! ما علامة حب الدنيا؟. قال: خوف المذمة، وحب الثناء.

وكان يقول: «والله ما دخل بطني حرامٌ قط».

وكان يقول: «الورع مَنْ ورعه الله تعالى».

(١) سورة المائدة: الآية ١١٨.

وقال: «عزم علينا بعض الصلحاء بالاسكندرية في بستان له بالرمل، فخرجت أنا وجماعة من صلحاء الثغر، ولم يخرج معنا صاحب البستان ذلك الوقت، بل وصف لنا المكان، فتجارينا ـ ونحن خارجون ـ الكلام في الورع، فكلٌّ قال شيئاً. فقلت له: الورع من ورعه الله تعالى. فلما أتينا البستان، وكان زمن التوت، كلهم أسرع إلى الأكل، وأكلت، وكنت كلما جئت لآكل أجد وجعاً في بطني، فأرجع، فينقطع الوجع، ففعلت ذلك مراراً، فجلست ولم آكل شيئاً، وهم يأكلون؛ وإذا بإنسان يصيح: كيف يحل لكم أن تأكلوا من ثمرة بستاني بغير إذني؟. فإذا هم قد غلطوا بالبستان!. فقلت لهم: ألم أقل لكم إن الورع مَنْ ورَّعه الله تعالى؟.

وكان يقول: والله! ما جلست للخلق حتى هُدِّدْت بالسلب، وقيل لي: لئن لم تجلس لنسلبنَّك ما وهبناك.

وكان شديد الكراهية للوسواس في الطهارة والصلاة، وينقل عنه شهود من كان ذلك وصفه. سئل يوماً فقيل له: يا سيدي! فلان صاحب علم وصلاح، كثير الوسوسة!. فقال: وأين العلم؟. يا فلان! العلم هو الذي ينطبع في القلب كالبياض في الأبيض، والسواد في الأسود.

وكان يقول: الناس على قسمين؛ قومٌ وصلوا بكرامة الله تعالى إلى طاعة الله تعالى. وقومٌ وصلوا بطاعة الله تعالى إلى كرامة الله تعالى. قال الله تعالى /٢٣٦/ : ﴿يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[1]. ونور الله تعالى يرد على القلب، فيوجب له الاتصاف بصفة أهله في الدنيا، والإعراض عنها، ثم يثب منه إلى الجوارح، فما وصل إلى العين أوجب الاعتبار، وإلى الأذن؛ أوجب حسن الظن، وإلى اللسان؛ أورث الذكر، وإلى الأركان؛ أورث الخدمة. والدليل على ذلك: إن النور يوجب عزوف الهمة عن الدنيا والتأني فيها، قول رسول الله ﷺ: «إن النور إذا دخل الصدر انشرح وانفسح. فقيل: يا رسول الله! فهل لذلك من علامة؟. قال: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود».

وقال في قوله ﷺ: «لصافحتكم الملائكة في طرقكم، وعلى فرشكم»: إنما خص الرسول ﷺ الفُرُشَ والطُّرُق؛ لأن الفرش محل الشهوات، والطرق محلُّ الغفلات، فإذا صافحتهم الملائكة في طرقهم وفرشهم، الأحرى أن تصافحهم في محل طاعاتهم وأذكارهم، واقتضت حكمة الله سبحانه أن لا يستوي وقت كبوتهم عنده ووقت ذكرهم

(١) سورة الشورى: الآية ١٣.

لما سواهما، حتى يعرف عظيم قدر رتبة محاضرته ﷺ وعزازة الذكر، وجلالة منصبهما.
وكان كثيراً ما ينشد: [من السريع]

يا عمرُو نادِ عبْدَ زَهراءِ يعرفه السامع والرائي
لا تَدْعني إلا بيا عَبْدَها فإنَّهُ أشرفُ أسمائي

توفي - رحمه الله تعالى - بالاسكندرية، سنة ست وثمانين وستمائة.

قلت: أتيت قبر الشيخ أبي العباس - رحمه الله تعالى - بظاهر ثغر الاسكندرية، وزرته فيما هنالك، وأتيت الشيخ ياقوتاً الحبشي، وكان قد صحبه، فحكى لي عجائب من كراماته. ومما حدثني به: إن رجلاً أتى أبا العباس، فجلس بين يديه، ورجلٌ عند الشيخ يكتب من /٢٣٧/ أماليه، فأخذ ذلك الرجل محبرة الكاتب بيده، ورفعها ليسهل عليه الاستمداد، والشيخ مقبل على الجماعة يحدِّثهم، فجرى ذكر قلب الأعيان، فقال له ذاك الرجل: يا سيدي! هل لقلب الأعيان حقيقة؟. فقال: نعم. إن لله رجالاً لو قال أحدهم لهذه المحبرة كوني ياقوتاً لكانت. فالتفت الرجل فرأى المحبرة قد صارت ياقوتاً! فقطع كلام الشيخ ووثب خارجاً لاغتنام تلك الياقوتة، وظنَّ أنها تكون رأس مال لغناه!، فقال له الشيخ: ارجع فإنها محبرة، فنظر إليها فإذا هي محبرة.

والذي أقوله: إن مواهب الله عظيمة، والقدرة صالحة، وما شاء الله كان. رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[١٠١]

الحَسَنُ بنُ عليّ بنِ يُوسُفَ بنِ هُودَ الجُذَامِيُّ المَغرِبِيُّ(١)

الزاهد، أبو علي، وأبوه عضد الدولة، أخو المتوكل على الله أبي عبد الله محمد، ملك الأندلس. رجلٌ كم جاب المقفر، وجاء كالصباح المسفر، وقدم من بلاد المغرب، قدوم عنقاء مغرب، وكان بجزيرة الأندلس، من أبناء ملوكها، وأجلاَّء أهل

---

(١) ترجمته في: تالي كتاب وفيات الأعيان ٦٥- ٦٦ رقم ١٠٠، وفيه: «أبو علي، الحسن بن هود المغربي»، والمقتفي ٢/ ورقة ٢٤ب، والعبر ٥/ ٣٩٧، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٩٣، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٨٦، وفوات الوفيات ١/ ٣٤٥ رقم ١٢٢، وتذكرة النبيه ١/ ٢٣١- ٢٣٢، ودرّة الأسلاك ١/ ورقة ١٥٠، والمقفّى الكبير ٣/ ٤٣٢ رقم ١٢٠١، والسلوك ج١ ق٣/ ٩٠٥، وعقد الجمان ٤/ ١٠٩- ١١٣، وشذرات الذهب ٥/ ٤٤٧، وأعيان العصر ٢/ ٢٠٠- ٢٠٥ رقم ٥٧١، والوافي بالوفيات ١٢- ١٥٦، تاريخ الاسلام (السنوات ٦٩١- ٧٠٠هـ) ص ٤٠٠- ٤٠٢ رقم ٦١٢.

سلوكها. وسكن دمشق حيث طاب له الوطن، وطوى ذيل أسفاره وقطن. ولأهلها فيه اعتقاد، وظنٌ خلص من انتقاد. وكانت تغلب عليه فكره، ويغل عقله إذا ثاب إليه سكره، فيظلُّ المُدَدَ شارداً لا يدري، وسائراً لا ينطق، وإنما الزمان به يجري، مع ندى سكن بصيبة السحاب الهتَّان، وهدى بكت بسببه أهل البهتان، على أن بعض الفقهاء لم يخله من لسع عقاربه، ورميه بأنه غير متق لله ولا مراقبه، ومن جهل شيئاً عاداه، ولله حقيقة عمله، وما أبوء بظلمه.

يقال: إنه من أولاد ملوك المغرب.

قال الحافظ أبو محمد البرزالي: أبو عضد الدولة أبو الحسن علي أخو المتوكل على الله ملك /٢٣٨/ الأندلس أبي عبد الله وكان عضد الدولة ينوب عن أخيه بمرسية، وتزهَّد الحسن، وترك الدنيا، واشتغل بشيء من علوم الحكمة والطب، ونظر في كلام ابن عربي، وابن سبعين، وكان من رأيه تعظيم ابن سبعين، وانتماؤه إليه. وكان زهده وإعراضه عن الدنيا ظاهراً لا ينكره أحد. وعنده غفلة كثيرة في غالب أحواله، يصحبه الرجل سنة، ويغيب عنه أياماً يسيرة، فيراه، فلا يعرفه، ويذكره بأشياء جرت له معه، فلا يذكر!، ولا يظهر عليه أنه رأى ذلك الشخص عمره.

وحجَّ مرات، وجاور، ودخل اليمن واحترمه سلطانها، وأرسل إليه وإلى أصحابه مالاً، ودخل دمشق غير مرة، وأكرم أول دخوله إليها إكراماً كثيراً، وقصده نائب السلطنة بها، والقاضي، وأعيان الناس، ثم طالت إقامته بها، فانتقص ذلك الإكرام، مع أنه كان يظهر عليه أنه لا فرق عنده بين الحالتين.

وكان ينقم عليه كلام يصدر منه لا يوافق الشريعة.

وكان الشيخ تقي الدين كثير الوقيعة فيه، والنقمة عليه، والتنقص به، وبمذهبه، ينفر عنه التنفير الكثير، ويحذر منه التحذير الوافر.

قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي: ثم بان أمره، وقطع بأنه من رؤوس الاتحادية.

وحكى الفاضل أبو الصفاء الصفدي: قال: أخبرني الخطيب أبو محمد الحسن بن محمد القرشي، قال: كان ابن هود يلحقه حال يشغله عن حِسِّه، ويذهله عن نفسه، حتى كان توضع في يده الجمرة ولا يشعر، فإذا أحرقته عاد إلى حسِّه. قال: وربما كان يقع في الحفائر، ولا يدري!. وكان يقرىء في «الدلالة» للريس موسى، وأسلم على يده جماعة من اليهود، فعملوا عليه حتى سقوه الخمرة في حالة غيبته، وأروه المسلمين، وهو في تلك الحال. ولا يغير ذلك عقيدة من له فيه عقيدة.

قال البرزالي: سألته عن مولده؟. فقال: في ثالث عشر شوال سنة ثلاث وثلاثين وستمائة /٢٣٩/ بمرسية.

وتوفي عشيّة الاثنين السادس والعشرين من شعبان سنة تسع وتسعين وستمائة بدمشق ودفن بكرة الثلاثاء بسفح قاسيون، وتقدم في الصلاة قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة، وأنشد من شعره قوله: [من مجزوء الرمل]

عِـلْـمُ قَـومـي بـيَ جَـهْـلُ إنَّ شَـأنْـي لأَجَـلُّ

وذكر شيخنا أبو حيان، وقال: رأيته بمكة، وجالسته، وكان يظهر منه الحضور مع من يكلمه، ثم لا تظهر الغيبة منه، وكان يلبس نوعاً من الثياب مما لم يعهد لبس مثله بهذه البلاد.

قال: وكان يذكر أنه يعرف شيئاً من علوم الأوائل. وأنشد عن أبي الحكم ابن هانىء عنه قوله: [من البسيط]

خُضْتُ الدّجنَّةَ حتى لاح ليّ قَبَسٌ وبان بانُ الحِمَى مِنْ ذلكَ القَبسِ
فقلتُ للقومِ هذا الرَّبْعُ رَبعُهُمُ وقلتُ للسَّمْعِ لا تَخلو مِنَ الحَرَسِ
وقلتُ للعينِ غُضّي عَنْ مَحاسِنِهِ وقلتُ للنّطْقِ هذا مَوضعُ الخَرَسِ

قلت: أنشدني شيخنا أبو الثناء الكاتب رحمه الله تعالى هذه الأبيات، وقال: كان من خبرها أن ابن هود حجَّ، فلما أتى المدينة، وشارف أعلامها، نزل عن دابته واغتسل، ولبس ثياباً نظافاً، ثم جعل يمشي، وهو يهمهم بكلام خفي سمعه بعض من كان يمشي خلفه، فإذا هو يقول: [من الطويل]

نَزَلنا عَنِ الأكوارِ نَمشي كَرامةً لِمَنْ بانَ عنهُ أنْ نُلِمَّ بهِ رَكْبا

ثم لم يزل يطأ من رأسه، ويخضع حتى أتى باب المسجد وكأنه راكع، فسلَّم على النبي ﷺ من ظاهر الحجرة، بأكمل الأدب، ثم صلى ركعتي التحية بالروضة، ثم خرج إلى الزيارة، فجلس على الرمل، ثم جعل يبكي ويخط على الرمل الأبيات، فقرأها بعض الحاضرين، فحفظها، وأنشدها عنه.

قلت: حدَّثت بهذا الشيخ سعيد / ٢٤٠/ خادم ابن هود، فقال: صحيح.

وحكى لي شيخنا أبو الثناء قال: أتى لاجين نائب الشام، وحسام الدين الرازي ابنَ هود، وهو لا يعرفهما، وكان مع لاجين سجادة، ففرشها تحت ابن هود بيده، وساعده الرازي. فقال له بعض من عنده: يا سيدي! هذا نائب الشام، وبيده قد فرش لك السجادة، وهذا الذي معه من أكابر العلماء. فقال: بارك الله فيهما، والله ما فرش لي السجادة إلا ليجلس على سرير الملك، وصاحبه قاضي القضاة.

وكان ابن هود ذا علم جمّ، ولكن كانت الغيبة غالبة عليه قال: ولقد كان يبقى الأيام والليالي لا يأكل طعاماً، ولا يشرب شراباً، وكان كثيراً ما يقعد في مقابر كيسان

مستدبراً للمدينة، متوجهاً إلى القبلة، ويبقى الأيام الكثيرة في الحر والبرد، لا يتغير من مكانه، ولقد رأيته هناك في زمان صيف شديد، وقد لفحته هواجر الحر، وأثر فيه السموم، وكانت بيني وبينه صحبة، ووقفت أمامه، وأنشدته: [من الكامل]

أَنتَ المنيةُ والمُنى فيكَ استوى ظلُّ الغَمامةِ والهَجيرُ المُحرِقُ

فرفع رأسه إليّ وقال: من تكون؟ فعرَّفته بنفسي، فقال: ما أعرفك، فانصرفت، وأنا أرثي له مما يقاسي.

وقد ذكره أبو الصفاء، وأنشد له قطعة، منها: [من الطويل]

أُوَرِّي بذكرِ الجَزْعِ عنهُ وبانةٍ ولا البانُ مَطلوبي ولا قَصدِيَ الرَّملُ
وأذكرُ سُعدى في حديثي مُغالِطاً بليلَى ولا ليلَى مُرادي ولا جُمْلُ
ولَمْ أَرَ في العُشاق مِثلي لأنني تَلَذُّ ليَ البَلوى ويحَلُو ليَ العَذْلُ
سِوَى مَعشرٍ حَلُّوا النظامَ ومَزَّقوا الثيابَ فلا فَرْضٌ عليهِمْ ولا نَفْلُ
مَجانينُ إلا أَنَّ ذُلَّ جُنونِهِمْ عَزيزٌ على أعتابِهِمْ يَسْجدُ العَقْلُ

وأنشدني الشيخ سعيد له شعراً كثيراً منها قصيدته المشهورة التي أولها: [من الطويل]

/٢٤١/ سلامٌ عليكمْ صَدّقَ الخَبَرَ الخُبْرُ فلمْ يَبْقَ قالَ القَسُّ أوَ حَدَّث الحَبْرُ

وهي قصيدة عسرة المسلك، متوعرة الجوانب، يحار في ظلماتها ويخبط في بهماتها، وجملة المختار منها قوله:

وأشرقَ نورُ الحقِّ مِنْ كلِّ وِجْهَةٍ على كلِّ وجْهٍ فاستوى السرُّ والجَهْرُ
فَهامُوا وتَاهوا بينَ حقٍّ وباطلٍ يُجَوِّزُهُ زَيدٌ ويمنعُهُ عَمرُو
ولو سَلُموا ساروا على مَنهجِ الهُدَى إلى حَضرةِ الرضوانِ لكنهمْ غُرُّوا
فَقُوموا على ساقٍ مِنَ الجِدِّ واثُبتوا على قَدَمِ التجريدِ إنَّ الغِنىَ فَقْرُ
ولا تَجعلوها راحةً دُونَ غايةٍ فلا راحةٌ إلا إذا بُعثِرَ القَبْرُ

ومما أنشد له ابن الكلاس قوله: [من الكامل]

حاشا ثِيابَكَ مِنْ أذًى يا مَنْ لهُ القَدْرُ الكبيرُ ورِفْدُهُ لا يُمْنَعُ
لَمْ يَبدُ فيهنَّ الدَّمامِلُ ضِلَّةً بالقَصدِ لكنْ ساقهن المَطْمَعُ
لَمَّا رأتْ كفَّيكَ جَوداً هامِعاً وسَحابَ ذاكَ الجَوْدِ لا يَتقشَّعُ
قَصَدَتْ مُشاركةَ الأنامِ فأَصبحتْ مِنْ فَيضِ جُودِكَ تَستمِدُّ وتَجمعُ

وهذا آخر من وقع في الجانب الغربي

[مشاهير طبقات الفقراء والمتصوفين بمصر]

فأما من بمصر، فقوم:

ومنهم:

[١٠٢]

أَبُو الفَيْضِ، ذُو النُّون المِصرِيُّ، واسمه ثوبان بن إبراهيم، وقيل: أبو الفيض بن إبراهيم الأخميمي[1]

قدوة للأولياء، وأسوة للعلماء، ورثة الأنبياء، واتقى الله حقَّ تقاته، وقصر على

---

(١) ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي ١٥ـ ٢٦ رقم ٢، وحلية الأولياء لأبي نعيم ٩/ ٣٣١ـ ٣٩٥ رقم ٤٥٦ و١٠/ ٣، ٤، وانظر فهرس أعلام الحلية ـ ص ٥٧٠، والرسالة القشيرية ١٠، وتاريخ بغداد ٨/ ٣٩٣ـ ٣٩٧ رقم ٤٤٩٧، والزهد الكبير للبيهقي، رقم ٥ و٣٧ و٥٦ و٦٤ و٦٦ و٦٧ و٦٨ و٦٩ و٧٠ و٧١ و٧٢ و٨٤ و٩٤ و١٣٩ و١٤٠ و١٤١ و١٤٢ و١٨١ و١٨٢ و١٩٣ و١٩٦ و٢٩٤ و٣٤١ و٥٨٥ و٦١٦ و٦٨٤ و٧٠١ و٧٤٤ و٧٥٩ و٧٩٥ و٨٣٥ و٨٥٣ و٩٦٧ و٩٨٠ و٩٨١ و٩٨٢، والإكمال لابن ماكولا ٣/ ٣٨٩، والأنساب لابن السمعاني ١/ ١٥٥، وتهذيب تاريخ دمشق ٥/ ٢٧٤ـ ٢٩١، والفرج بعد الشدّة للتنوخي ١/ ٧٤، ١٢٩، ومروج الذهب ٨١٢، والإشارات إلى معرفة الزيارات ٤٣، والاستبصار ٥٨، ٥٩، والأذكياء لابن الجوزي ٨٤ـ ٨٥، والمرصّع لابن الأثير ٣٣٤، واللباب ١/ ٣٥، والكامل في التاريخ ٧/ ٩٢، ووفيات الأعيان ١/ ٣١٥ـ ٣١٨ و٤٢٨، ٤٢٩ و٢/ ٤٢٩ و٦/ ٥٩، وأخبار الحكماء للقفطي ١٨٥، والروض المعطار للحميري ١٧، وآثار البلاد وأخبار العباد للقزويني ١٤٠، ٣٢٦، والإرشاد للخليلي (طبعة ستنسل) ٢/ ١٢ـ ١٣، وميزان الاعتدال ٢/ ٣٣ رقم ٢٧٠١، وتاريخ دمشق ط دار الفكر ١٧/ ٣٩٨ـ ٤٤٢ رقم ٢١١١، ودول الإسلام ١/ ١٤٨، وسير أعلام النبلاء ١١/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ رقم ١٥٣، والعبر ١/ ٤٤٤، والبداية والنهاية ١٠/ ٣٤٧، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٤١، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٢٢٨، ومرآة الجنان ٢/ ١٤٩ـ ١٥١، وآثار البلاد وأخبار العباد ١٤٠، وصفة الصفوة ٤/ ٣١٥ـ ٣٢١، والنجوم الزاهرة ٢/ ٣٢٠، ٣٢١، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٨١ـ ٨٤، ولسان الميزان ٣/ ٤٣٧ـ ٤٣٨، رقم ١٧٩١، وشذرات الذهب ٢/ ١٠٧، الوافي بالوفيات ١١/ ٢٢ رقم ٣٧، وبدائع الزهور لابن إياس ج١ ق١/ ١٥٣، وموسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي ٢/ ٤٥ـ ٥٠ رقم ٣٦٥، ودُرر الأبكار ١٢٢ـ ١٢٣، وطبقات الأولياء ٢١٨ـ ٢٢٧ رقم ٤١، ونتائج الأفكار القدسية ١/ ٧٣ـ ٧٦، تاريخ الاسلام (السنوات ٢٤١ـ ٢٥٠هـ) ص ٢٦٥ـ ٢٧٠ رقم ١٨٠.

الطاعة كل أوقاته، وكان من الناس جانبا، ولليأس إلى آماله جالبا، عرف الأيام حق معرفتها، وعرَّف ذوي الأفهام منح صفتها، فخلاها من يديه، وأولاها الإعراض لديه، تدارك فساد القلوب بصلاحه، وجلا سواد الدياجي بصباحه، وكان في قوم ما دانوا لله بكيا، وكانوا ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[1]. وطلبه / ٢٤٢/ المتوكل لأمر نقل إليه وكان غائباً، ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾[2] فلما حلَّ في حضرته جلَّ في عينه، وحلّ عن الاحتجاز عليه عقد بينه، فآب مكرَّما، وغاب ولم ينل منه أحد محرما.

وكان أوحد وقته علماً وحالاً وورعاً وأدباً، سعوا به إلى المتوكل على الله فاستحضره من مصر، فلما دخل عليه وعظه، فبكى المتوكل، وردَّه مكرَّما؛ وكان المتوكل إذا ذكر أهل الورع بين يديه يبكي ويقول: حَيَّ هلا بذي النون. وكان رقيقا نحيفاً، تعلوه حمرة، ليس بأبيض اللحية.

ومن كلامه: «إياك أن تكون بالمعرفة مدَّعياً، أو تكون بالزهد محترفاً، أو تكون بالعبادة متعلِّقاً».

وقال ذو النون: «قال الله تعالى في بعض كتبه: من كان لي مطيعاً كنت له وليا، فليثق بي، وليحكم علي، فوعزتي! لو سألني زوال الدنيا لأزلتها له».

وقال ذو النون: «الصوفي إذا نطق، أبان نطقه عن الحقائق، وإن سكت، نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق».

وقال: «الأنس باللهمن صفاء القلب مع الله تعالى، والتفرد بالله، والانقطاع من كل شيء سوى الله».

وقال: «من أراد التواضع، فليوجِّه نفسه إلى عظمة الله؛ فإنها تذوب وتصفو، ومن نظر إلى سلطان الله تعالى، ذهب سلطان نفسه؛ لأن النفوس كلها فقيرة عند هيبته.

وقال سعيد بن عثمان: أنشدني ذو النون: [من الطويل]

أَموتُ وما ماتَتْ إليكَ صَبابتي ... ولا قُضيَتْ مِنْ صِدْقِ حُبِّكَ أَوطاري
مُنايَ المُنى كلُّ المُنى أنتَ لي مُنى ... وأنتَ الغِنَى، كلُّ الغِنَى، عندَ إقتاري
وأنتَ مَدَىَ سُؤلي وغايةُ رَغبتي ... وموضعُ آمالي ومكنونُ إضماري
تحمَّلَ قلبي فيك ما لا أبثُّهُ ... وإنْ طالَ سُقْمي فيكَ أَوْ طالَ إضراري
وبينَ ضُلوعي منكَ مالَكَ قدْ بدا ... ولَمْ يبدُ باديهِ لأهلٍ ولا جارِ

---

(١) سورة مريم: الآية ٥٨.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٨٧.

/ ٢٤٣/ وبي منكَ في الأحشاءِ داءٌ مُخامرٌ فقدْ هَدَّ منِّي الركنَ وأنبَتَّ اسراري
ألستَ دليلَ الرَّكبِ إنْ هَمْ تَحَيَّروا ومُنقذُ مَنْ أشفى على جُرُفٍ هارِ؟
أنرتَ الهُدَى للمُهتدينَ ولمْ يكنْ مِنَ النورِ في أيديهِمُ عِشْرُ مِعْشارِ
وعلَّمتَهمْ عِلماً فَباتُوا بِنُورِهِ وبانَ لهمْ منهمْ مَعالمُ أسرارِ
مَهامِهُ للغيبِ حتى كأنَّها لِما غابَ عنها منهُ حاضرةُ الدارِ
وأبصارُهُمْ مَحْجوبةٌ وقلوبُهمْ تَرَاك بأوهام حَديداتِ ابصار
فَنلْني بَعفْوٍ منكَ أحيا بقُربِهِ أغَثْني بيُسرٍ منكَ يَطردُ إعساري

وقال ذو النون: «[الصدق] سيف الله تعالى في أرضه ما وضع على شيء إلا قطعه».

وقال: «من تزيَّن بعمله، كانت حسناته سيئات».

وقال: «كان لي صديق فقير، فمات، فرأيته في المنام؛ فقلت له: ما فعل الله بك؟. قال: قال لي: قد غفرت لك بترددك إلى هؤلاء السفل أبناء الدنيا في رغيف قبل أن يعطوك».

وقال سالم المغربي: حضرت مجلس ذي النون، فقلت: يا أبا الفيض! ما كان سبب توبتك؟. فقال: عجب لا تطيقه، فقلت: بمعبودك إلا أخبرتني، فقال ذو النون: أردت الخروج من مصر إلى بعض القرى، فنمت في الطريق ببعض الصحارى، ففتحت عيني فإذا أنا بقنبرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض، فانشقت الأرض، فخرج منها سكرجتان؛ إحداهما ذهب، والأخرى فضة، وفي إحداهما سمسم، وفي الأخرى ماء، فجعلت تأكل من هذا، وتشرب من هذا. فقلت: حسبي، قد تبت، ولزمت الباب إلى أن قبلني الله عز وجل.

وقال: «توبة العوام تكون من الذنوب، وتوبة الخواص تكون من الغفلة».

وقال محمد بن أحمد السميساطي: سمعت ذا النون المصري يقول: بينا أنا أسير في جبال أنطاكية، إذا أنا بجارية كأنها والهة مجنونة، عليها جبة صوف، فسلَّمت عليها، فردَّت عليَّ السلام، ثم قالت: ألست ذا النون المصري؟. قلت: عافاك الله، كيف عرفتيني؟. قالت: فتق الحبيب بيني وبين قلبك، فعرفتك باتصال حب الحبيب. ثم قالت: أسألك مسألة. قلت: سليني. قالت: أي شيء هو السخاء؟. قلت: البذل والطاعة. قالت: هذا / ٢٤٤/ السخاء في الدنيا، فما السخاء في الدين؟. قلت: المسارعة إلى طاعة المولى. قالت: فإذا سارعت إلى طاعة المولى، يجب به الجزاء؟. قلت: نعم!، للواحد عشرة. فقالتَ: مرّ يا بطَّال! هذا في الدين قبيح، ولكن المسارعة

إلى طاعة المولى أن يطَّلع على قلبك، وأنت لا تريد منه شيئاً بشيء. ويحك يا ذا النون!، إني أريد أقسم عليه في طلب شهوة منذ عشرين سنة فأستحي منه أن أكون كأجير السوء إذا عمل طلب الأجرة، ولكن اعمل تعظيماً لهيبته، وعزّاً لجلاله. ثم ذهبت وتركتني.

وقال: أتتني امرأة فقالت لي: إن ابني أخذه التمساح الساعة!، فرأيت حرقتها، فأتيت النيل، وقلت: اللهم أظهر التمساح، فخرج إليّ، فشققت جوفه، وأخرجت ابنها صحيحاً، فقالت: كنت إذا رأيتك سخرت منك، فاجعلني في حل، فأنا تائبة إلى الله تعالى.

وقال أحمد بن مقاتل البغدادي: لما دخل ذو النون بغداد، دخل عليه صوفية بغداد، ومعهم قوَّال، فاستأذنوه أن يقول شيئاً بين يديه؛ فابتدأ يقول: [من مجزوء الوافر]

صَغِيرُ هَواك عَذَّبني فكيفَ بِهِ إذا احتنكا
وأنتَ جَمَعْتَ مِنْ رُوحي هوًى قَدْ كانَ مُشتَرَكا
أَمَا تَرْثي لِمُكْتَئِبٍ إذا ضَحِكَ الخَلِيُّ بَكا؟

قال: فقام ذو النون وتواجد، وطال تواجده، وسقط على وجهه، والدم يقطر من جبينه، ولا يسقط على الأرض. ثم قام رجل من القوم يتواجد، فقال له ذو النون: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾[1]، فجلس في الحال.

وحكي أن جاراً لذي النون قام ليلة؛ فسمع ذا النون يقول ـ وهو باكٍ ـ «كم من ليلة بارزتك يا سيدي، بما أستوجب به الحرمان منك؟. وأشرفت بقبيح أفعالي منك على الخذلان، فسترت عيوبي عن الإخوان، وتركتني مستوراً بين الجيران، لم تكافئني بجريرتي، ولم تهتكني /٢٤٥/ بسوء سريرتي، فلك الحمد على صيانة جوارحي، وأنا أقول كما قال النبي الصالح: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]. إلهي، عرف المطيعون عظمتك فخضعوا، وألف العاصون رحمتك فطمعوا، فمن أيهما كنتُ، اغفر لي بعظمتك التي تصاغر لديها كل شيء، وبرحمتك التي وسعت كل شيء اغفر لي وارحمني، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

وقال أبو عبد الله بن الجلاء: كنت مجاوراً بمكة مع ذي النون؛ فجعنا أياماً كثيرة، لم يفتح لنا بشيء، فلما كان ذات يوم، قام ذو النون قبل صلاة الظهر، ليصعد

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢١٨.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٨٧.

إلى الجبل يتوضأ للصلاة، وأنا خلفه فرأيت شيئاً من قشور الموز مطروحاً في الوادي، وهو طري. فقلت في نفسي: آخذ منه كفاً أو كفَّين، أتركه في كمي لا يراني الشيخ. فلما صرنا في الجبل، وانقطعنا عن الناس، التفت إلي وقال: اطرح ما في كمك يا شَرِه!، فطرحته، وأنا خَجِل، وتوضَّأنا للصلاة، ورجعنا إلى المسجد، وصلينا الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فلما كان بعد ساعة إذا أنا بإنسان قد جاء ومعه طعام عليه مكبَّة، فوقف ينظر إلى ذي النون، فقال له: مرّ. فدعه قدَّام ذاك، وأومأ بيده إليَّ، فتركه الرجل بين يدي، فانتظرت الشيخ ليأكل، فلم يقم من مكانه، ونظر إلي وقال لي: كُلْ، فقلت: وحدي؟. فقال: نعم، أنت طلبت، نحن ما طلبنا. يأكل الطعام من طلبه، وأقبلت آكل وأنا خَجِل مُسْتَحٍ مما جرى مني.

توفي ذو النون المصري سنة خمس وأربعين ومائتين: وقيل: سنة ثمان وأربعين ومائتين.

وقال أبو بكر محمد بن ريان الحضرمي: لما مات ذو النون بالجيزة، حمل في قارب؛ مخافة أن تنقطع الجسور من كثرة الناس مع جنازته، وكنت قائماً مع الناس على كوم أنظر، فلما رجع من القارب، ووضع على الجنازة، /٢٤٦/ وحمله الناس، رأيت طيوراً خضراً قد اكتنفت الجنازة، ترفرف عليه، حتى عطف به إلى عند حمام الغار، وغاب عني.

حكى في «مناقب الأبرار» عن يوسف بن الحسين قال: بلغني أن ذا النون يعلم اسم الله الأعظم، فخرجت من مكة قاصداً إليه، حتى وافيته في جدة، فأول ما نظرني رآني طويل اللحية، وفي يدي ركوة طويلة، متزراً بمئزر، وعلى كتفي مئزر، وفي رجلي تاسومة، فاستبشع منظري، فلما سلمت عليه كأنه ازدراني، وما رأيت منه تلك البشاشة، فقلت في نفسي: ترى مع من وقعت؟ وجلست عنده، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة، جاءه رجل من المتكلمين فناظره في شيء من الكلام، واستظهر على ذي النون وغلبه، فاغتممت لذلك، وتقدَّمت، وجلست بين أيديهما، واستملت المتكلم إلي وناظرته حتى قطعته، ثم دققت حتى لم يفهم كلامي قال: فعجب ذو النون من كلامي، وكان شيخاً وأنا شاب، فقام من مكانه، وجلس بين يدي، وقال: اعذرني فإني لم أعرف محلك من العلم، وأنت أقرب الناس عندي، وما زال بعد ذلك يجلُّني، ويرفعني على جميع أصحابه، وبقيت بعد ذلك سنة كاملة، قلت له بعد السنة: يا أستاذ! أنا رجل غريب، وقد اشتقت إلى أهلي، وقد خدمتك سنة، ووجب حقي عليك، وقيل لي: إنك تعلم اسم الله الأعظم، وقد جرَّبتني، وعرفت أني أهل لذلك، فإن كنت تعرفه فعلِّمني

إياه. قال: فسكت عني، ولم يُجبني بشيء، وأوهمني أنه ربَّما علَّمني، ثم سكت عني ستة أشهر، فلما كان بعد ذلك، قال لي: يا أبا يعقوب! أليس تعرف فلاناً صديقنا بالفسطاط؟. وسمى رجلاً، فقلت: بلى. قال: فأخرج لي من بيته طبقاً فوقه مكبَّة مسدودة بمنديل، وقال: أوصل هذا إلى من سميت لك بالفسطاط. قال: فأخذت الطبق /٢٤٧/ لأودِّيه، فإذا هو خفيف، كأنه ليس فيه شيء، قال: فلما بلغت الجسر الذي بين الفسطاط والجيزة، قلت في نفسي: يوجِّه ذو النون بهدية إلى رجل في طبق ليس فيه شيء؟ لأبصرَّن ما فيه؟. قال: فحللت المنديل، ورفعت المكبَّة، فإذا فأرة قد طفرت من الطبق فذهبتْ. قال: فاغتظت، وقلت: يسخر بي ذو النون؟ ولم يذهب وهمي إلى ما أراد فيَّ للوقت. وعرف القصة، وقال: يا مجنون! ائتمنتك على فأرة فخيبتني، فكيف أأتمنك على اسم الله الأعظم؟ قم عني فارتحل، ولا أراك بعدها، فانصرفت عنه.

ومنهم:

[١٠٣]

أَبُو بَكر، أَحمدُ بنُ نَصْرٍ الزَّقَّاق الكَبيرُ(١)

أخذ من الدنيا بقصاصها، وسهر الليالي والكواكب تنظر الأيام من أخصاصها. وقام على قدم العبادة ثم ما زال، ولا زال وللشمس كل يوم زوال، فصار ذلك دأباً له لا يتكلَّفه، وديدنا ضرب له موعد لا يخلفه، هذا إلى استجلاب خواطر، واستنزال مواطر، وفتح قلوب مقفلة ضاعت مفاتيحها، وتنوير بصائر ما أضاءت مصابيحها، وإرشاد طائر، وقول حق في دهر هو السلطان الجائر، فاتسع تصريفه، وسمع منه ما يجري به القلم وصريفه. وكان من أقران الجنيد، وأكابر مشايخ مصر.

قال الكتاني: لما مات الزقّاق انقطعت حجَّةُ الفقراء في دخولهم مصر.

ومن كلامه: «من لم يصحبه التقى في فقره أكل الحرام المحض».

وقال: «جاورت بمكة عشرين سنة، فكنت أشتهي اللبن، فغلبتني نفسي، فخرجت إلى عسفان، واستضفت حياً من أحياء العرب، فنظرت إلى جارية حسناء، بعيني اليمنى، فأخذت بقلبي!، فقلت لها: قد أخذ كلُّكِ كُلِّي، /٢٤٨/ فما فيَّ لغيرك مطمع. فقالت لي: تقبح بك الدعاوى العالية، لو كنت صادقاً لذهبت عنك شهوة

---

(١) ترجمته في: صفة الصفوة ٢/ ٤١٥، اللباب ٢/ ٥٠٥، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٨٩، جامع كرامات الأولياء ١/ ٢٩١، طبقات الصوفية للمناوي ٢/ ٤٧، طبقات ابن الملقن ٩١، الرسالة القشيرية ٥٦.

اللبن!. قال: فقلعت عيني اليمنى التي نظرت بها إليها. فقالت لي: مثلك من نظر لله عز وجل. فرجعت إلى مكة، وطفت أسبوعاً، ثم نمت، فرأيت في منامي يوسف الصِّدِّيقَ ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ. فقلت: يا نبي الله! أقرّ الله عينيك بسلامتك من زليخا. فقال لي: يا ـ مبارك! أقرَّ الله عينك بسلامتك من العسفانية!. ثم تلا عليه السلام: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾(١)، فصحت من طيب تلاوته، ورخامة صوته، وانتبهت، وإذا عيني المقلوعة صحيحة!.

وقال الزقّاق: «كنت ماراً في تيه بني إسرائيل، فخطر ببالي أن علم الحقيقة مباين لعلم الشريعة، فهتف بي هاتف من تحت الشجرة: كل حقيقة لا تتبع الشريعة فهي كفر.

وقال أبو علي الروذباري: دخلت يوماً على أبي بكر الزقاق، فرأيته بحالة عجيبة، فسكتُّ ساعة حتى رجع إلي، فقلت له: ما لك أيها الشيخ!؟. فقال: ألم تعلم أني اجتزت بالجيزة ببعض تلك الخوخات، وإذا شخص يغني، يقول: [من الطويل]

أبَتْ غَلَباتُ الشوقِ إلا تَطَرُّبَا ... إليكِ ويأتي العَذْلُ إلا تَحبُّبا
وما كانَ صَدِّي عنكِ صَدَّ مَلامةٍ ... ولا ذلكَ الإقبالُ إلا تَقَرُّبا
ولا كانَ ذاكَ العدلُ إلا نَصيحةٍ ... ولا ذلكَ الإغضاءُ إلا تهيُّبا
عليَّ رقيبٌ منكِ حَلَّ بمُهجتي ... إذا رُمْتِ تَسهيلاً عليَّ تَصَعَّبا

فما هو إلا أن أنشدني الشيخ حتى صرت فيها مغلوباً لا أدري ما لحقني إلى الساعة، فلما أفقت، قال لي: لا عليك، هكذا من تحقق في بلية لم يخلُ من البلاء حاضروه، وإنما هو زيادة بلاء صبَّ مني عليك.

فقمت وتركته.

وقال الزقاق: كنت أبكر يوم الجمعة إلى المسجد الجامع، وأجلس عند الجنيد، فبينا أنا ذات يوم جمعة أمشي إلى المسجد /٢٤٩/ إذا أنا باثنين يقولان: اذهب بنا إلى الجنيد نسأله؟. قال الزقاق: فتبعتهما، حتى دخلا سقاية يتطهران، فرأيت منهما شيئاً كرهته لهما، فقلت: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، أخطأت فراستي فيهما، فخرجا، وأنا أتبعهما حتى وقفا على الجنيد، فقال أحدهما: بماذا يرد خاطر الانزعاج؟. وقال الآخر: كلُّ بادٍ يعود إلى باديه. فقلت في نفسي: يا ترى ما يفعل هؤلاء؟. فأقبل عليَّ الجنيد، وقال: أين المغتاب لنا؟. فقلت في نفسي: علم بي، وتكلّم على خاطري. ثم قال الثانية: أين المغتاب لنا؟. سلنا نجعلك في حِل. فقلت: يا سيدي! ما قلته إلا غيرة.

---

(١) سورة الرحمن: الآية ٤٦.

فقال: يا أبا بكر! لا تتهم أقواما انتخبهم الحق في سابق علمه، وأظهرهم بكرامة وحدانيته، حتى إذا كان في وقت بدوِّهم، استخرجهم من الذرِّ لخاصَّته، وعجن أرواحهم بأنوار قدسه، وأقامهم بين يديه، ونظر إليهم بعين رحمته، وألبسهم تيجان ولايته، فإن دعوه أجابهم، وإن سألوه أعطاهم، وإن استحجبوه غطَّاهم، لا تدركهم خفيات الألحاظ، ولا يغيرهم ترجمان الأسرار، فهم به ينظرون، وإليه في جميع الأشياء عن الأشياء مستغنون. فنظرت، فلم أرهم!.

ومنهم:

[١٠٤]

أَبُو الحُسَينِ بنُ بَنَان(١)

من كبار مشايخ مصر ومقدَّميهم. أدَّى للآخرة فرضها، ووفى من الدنيا قرضها، ولم يرض بعاجل أجله ببوس، وأجفن صفوه ذهاب نفوس، وحبال البلايا آسرة، وعقاب المنايا كاسرة، ومناسر الأهلَّة خواطف، ونواشر الأيام المملة غير عواطف، ونوب الليالي سجال، وريب الحدثان المتوالي عجال، فلم ير زخارف الغرور من حظه، / ٢٥٠/ ولا رمق رونقها الزور إلا بمؤخَّر لحظه، حتى طفئت الشرارة، وحل القرارة، وودِّع متبوعاً بالبكاء، ممنوعاً من البلاء.

صحب الخرّاز، وإليه ينتمي. مات في التيه، وسبب ذلك: إنه ورد على قلبه وارد، فهام على وجهه، فلحقوه في وسط متاهة بني إسرائيل في الرمل، ففتح عينيه، وقال: اربع، فهذا مربع الأحباب، وخرجت روحه.

ومن كلامه: «كل صوفي يكون همُّ الرزق قائماً في قلبه، فلزوم العمل أقرب له إلى الله» و«علامة ركون القلب، والسكون إلى الله، أن يكون قوياً عند زوال الدنيا وإدبارها عنه، وفقده إياها؛ ويكون بما في يد الله تعالى أقوى وأوثق منه بما في يده».

وقال: «اجتنبوا دناءة الأخلاق كما تجتنبوا الحرام».

وقال: «ذكر الله تعالى باللسان يورث الدرجات، وذكره بالقلب يورث القربات».

وقال: «الوحدة جلسة الصِّدِّيقين».

وقال: «لا يعظِّم أقدار الأولياء إلا من كان عظيم القدر عند الله».

---

(١) ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي ٣٨٩، حلية الأولياء ١٠/ ٣٦٢، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٣٢، الرسالة القشيرية ٧٧، نتائج الأفكار القدسية ١/ ١٩٩.

وقال: «الناس يعطشون في البراري، وأنا عطشان وأنا على شطِّ النيل!».

ومنهم:

[١٠٥]

أَبُو عليٍّ، الحَسَنُ بنُ أَحمدَ الكَاتبُ من كبار مشايخ المصريين(١)

رجلٌ كان للمعابد مصباحا، وللعابد في ظلم الليل صباحا، ولم يسود حتى بيض الصحائف، وأمن به الخائف، وكان إذا حندس الظلام، وهمس الكلام، يقف ليله كله على قدمه، ويخدد خده بدمه، ودام على هذا الحال، حتى آن له الارتحال.

صحب أبا بكر المصري، وأبا علي الروذباري، وغيرهما من المشايخ، وكان أوحد مشايخ وقته، حتى قال فيه أبو عثمان المغربي: / ٢٥١/ «كان أبو علي ابن الكاتب من السالكين». وكان يعظِّمه، ويعظِّم شأنه، مات سنة نيف وأربعين وثلاثمائة.

وقال: «إذا انقطع العبد إلى الله بكلِّيته، فأول ما يفيده الله الاستغناء به عن الناس».

وقال: «يقول الله تعالى: وصل إلينا من صبر علينا».

وقال: «إذا سمع الرجل الحكمة فلم يقبلها، فهو مذنب، وإذا سمعها ولم يعمل بها فهو منافق».

وقال: «إذا سكن الخوف في القلب لم ينطق اللسان إلا بما يعنيه».

وقال: «روائح نسيم المحبة تفوح من المحبين، وإن كتموها؛ وتظهر عليهم دلائلها، وإن أخفوها، وتدل عليهم وإن ستروها».

وقال: «إن الله تعالى يرزق العبد حلاوة ذكره؛ فإن فرح به وشكره، آنسه بقربة، وإن قصَّر في الشكر، أجرى الذكر على لسانه، وسلبه حلاوته».

ومنهم:

---

(١) ترجمته في: طبقات الصوفية ٣٨٦ـ٣٨٨، حلية الأولياء ٢٠/ ٣٦٠، صفة الصفوة ٤/ ٢٩٤، الرسالة القشيرية ٣٥، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٣١، حسن المحاضرة ١/ ٢٩٤، البداية والنهاية ١١/ ٢٢٨، المنتظم ١٤ـ ٩٤ ٩٥ رقم ٢٥٤٦.

[١٠٦]

ابنُ الفَارِضِ، أَبُو القَاسِمِ، عُمَرُ بنُ أَبي الحَسَنِ عَلي بنِ المُرشِدِ بنِ عَليّ، الحموي المولد والدار والوفاة، المعروف بابن الفارض، شرف الدين(١)

مظهر جمال، ومظهر تمام وكمال، إلى علو مقام، وعلو شريعة تقام، وكلام في حقيقة، وكمام في حديقة، وإذا غضه يكاد يعصر، وتزداد في العد فلا تكاد تحصر، من بدائع تغازل بألحاظ المها، وتسمع من ألفاظ الغيد ألذ ما يشتهى. إلى قوة تركيب، ومناسبة ترتيب، ودقة معاني، وتوثقة مباني، وتوشيع أردية، وتوسيع أفنية، يجبر بيوت وأندية إلى دقائق عرفان، وحقائق لا يشتمل عليها من السحر أجفان، ومحاسن الخلائق فيه صفان، والناس فيها صنفان، هذا إلى زهدٍ وقناعة، وجهد أسبل عليه لباسه وقناعه، وفرط إيثار / ٢٥٢/ وبرٍّ من إقلال، لا من إكثار، وشرف نفس أغناه عن تحمُّل منه، وتحمل ذي ضعف ومنه، يتزيا من غرور يزدهي، بثيابه المعاره، ويلتهي بباطله ويحمل عاره، فمات ولو زخر لديه البحر، لما شرب منه خوفاً من وباله، أو زخ عليه القطر لما علق بحباله.

وكان رجلاً صالحاً، كثير الخير، على قدم التجريد.

جاور بمكة ـ شرَّفها الله تعالى ـ زماناً، وكان حسن الصحبة، محمود العشرة.

قال ابن الخلِّكان(٢): أخبرني بعض أصحابه: إنه ترنم يوماً وهو في خلوة ببيت الحريري ـ صاحب «المقامات» ـ وهو: [من مجزوء الرجز]

---

(١) ترجمته في: التكملة لوفيات النقلة ٣/ ٣٨٨ـ ٣٨٩ رقم ٣٥٨٦، وتكملة إكمال الإكمال لابن الصابوني ٢٧٠، ووفيات الأعيان ٣/ ٤٥٤ـ ٤٥٦ رقم ٥٠٠، وإنسان العيون لابن أبي عذيبة، ورقة ٣٢٠، والمغرب في حلي المغرب ٣٠٥ـ ٣٠٦، ونهاية الأرب ٢٩/ ٢١٠ـ ٢١١، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٥٧ وفيه: «القاسم بن عمر»، وتابعه ابن الوردي في تاريخه ٢/ ١٦١، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٦١، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٣٤، والعبر ٥/ ١٢٩، وميزان الاعتدال ٢/ ٢٦٦، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٦٨ـ ٣٦٩ رقم ٦٣٢، ومرآة الجنان ٤/ ٧٥ـ ٧٩، ونثر الجمان للفيومي ٢/ ورقة ٦٨ـ ٧٠، والبداية والنهاية ١٣/ ١٤٣، والعسجد المسبوك ٢/ ٤٦٩، ولسان الميزان ٤/ ٣١٧، والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٨٨ـ ٢٩٠، وحسن المحاضرة ١/ ٢٤٦، ومفتاح السعادة ١/ ٢٤٧، وشذرات الذهب ٥/ ١٤٩، وبدائع الزهور ج١ق١/ ٢٦٦ـ ٢٦٧، وروضات الجنات ٥٠٥، وديوانه طبعة دار صادر، بيروت ١٩٧٥، وتاريخ ابن سباط (بتحقيق التدمري) ١/ ٦٠٨، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٣١ـ٦٤٠هـ) ص ١٠٩ـ ١١١ رقم ١١١.

(٢) وفيات الأعيان ٣/ ٤٥٥.

مَــنْ ذا الــذي مــا ســاءَ قَــطْ ومَــنْ لــهُ الـحُـسْـنَـى فَـقَـطْ

قال: فسمع قائلاً، ولم ير شخصه، وقد أنشد: [من مجزوء الرجز]

مــحــمــدُ الــهــادي الــذي عــلــيــهِ جــبــريــلُ هَــبَــطْ

وله ديوان شعر لطيف، وأسلوبه فيه رائق لطيف، ينحو منحى طريقة الفقراء، وله قصيدة مقدار ستمائة بيت على اصطلاحهم، وكان يقول: عملت في النوم بيتين، وهما[1]: [من مجزوء الكامل]

وحــيَــاةِ أشَــواقــي إلــيــكَ وحُــرمــةِ الــصَّــبــرِ الـجـمـيـلِ

لا أبَــصَــرتْ عَــيــنــي سِــوا كَ ولا صَــبَــوْتُ إلــى خــلــيــلِ

وحكى أنه لما رأى السهروردي بمكة أنشده بديهاً: [من البسيط]

في حالةِ البُعدِ رُوحي كنتُ أرُسِلُها تـقبِّـلُ الأرضَ عَـنِّي فـهـيَ نـائبـتي

وهـذهِ نـوبـةُ الأشـبـاحِ قـدْ حَـضَـرَتْ فامدُدْ يمَينَكَ كي تَحظَى بها شَفتَي

ويحكي أنه رأى جملاً هام به وكلف، وكان الجمل لرجل سقَّاء يسقي عليه، وكان الشيخ يأتي المورد كل يوم ليراه.

قلت: وحكى لي شيخنا شهاب الدين أبو الثناء محمود، قال: قدم ابن الفارض، فنزل بمسجد مهجور في آخر باب القرافة، ومعه خادم له، فبقيا ثلاثة أيام /٢٥٣/ لم يطعما طعاماً، فعظم بالخادم الجهد، والسغب، فأتى رجل من الأمراء المسجد، فصلى فيه، ثم رمى إلى الشيخ بخرقة فيها عشرة دنانير، ففرح الخادم وهمَّ بأخذها، فمرَّ سائلٌ، فقال له الشيخ: أعطه الذهب، فقال: لو خلَّينا منه ما نأكل به؟!. فقال: أعطه الذهب، فأعطاه. فلم يمض السائل حتى أتى آخر يسأل عن الشيخ، فلمَّا رآه سلَّم وقال: أريت البارحة في النوم من دلني على مكانك، وأمرني بالمسير إليك، ودفع إليه خرقة مثل تلك الخرقة فيها مائة دينار، فقال الشيخ لخادمه: إن شئت فخذ هذا الذهب وانصرف عني، فقال: لا والله لا تبعتك بهذا، فقال: بارك الله فيك، قم فاشتر بدينار حُصُراً لهذا المسجد، وبدينار ما أحببت من الأكل، وتصدَّقْ بالبقية، ففعل، وأتى بأنواع من الشواء والحلواء، وغير ذلك، فأكل، واقتصر الشيخ على أكل كسرة، وبَقْل، وقال: لو لم تحل لي الميتة لم آكل!. ثم أقام ثلاث سنين لا يأكل إلا بعد كل ثلاثة أيام أكلة واحدة، غير باغ ولا عاد.

وحكي أن ابن الفارض كان قاضياً؛ فأتى يوماً المسجد الجامع، والخطيب

---

(١) ديوان ابن الفارض ١٨٢.

يخطب يوم الجمعة، وشخص يغني، فنوى إقامته وتأديبه، فلما انقضت الصلاة، وانتشر الناس وأراد ابن الفارض الخروج، ناداه ذلك الرجل: أن أقبل!، فلما وقف عليه أنشده: [من الكامل]

قَسَمَ الإلهُ الأمرَ بينَ عِبادِهِ ... فالصَّبُّ يُنشِدُ والخَلِيُّ يُسبِّحُ
ولَعمريَ التسبيح خيرُ عبادةٍ ... للناسكينَ وذا لقومٍ يَصْلُحُ

وكان هذا سبب زهده.

مولده: في الرابع من ذي القعدة، سنة ست وسبعين وخمسمائة بالقاهرة.

وتوفي بها يوم الثلاثاء / ٢٥٤/ ثاني جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، ودفن من الغد بسفح المقطم. وأبوه يعرف بالفارض؛ لأنه كان يكتب الفروض للنساء على الرجال. ومن مختار شعره[1]: [من البحر الكامل]

أرجُ النسيم سَرَى مِنَ الزوراءِ ... سَحَراً فأحيا مَيِّتَ الأحياءِ
أهدى لنا أرواحَ نجدٍ عَرْفُهُ ... فالجَوُّ منهُ مُعَنْبَرُ الأرجاءِ
وروى أحاديثَ الأَحِبَّةِ، مُسنداً ... عَن إذخرٍ بأذاخرٍ وسِحَاءِ
فَسَكِرْتُ مِنْ رَيَّا حَوَاشي بردِهِ ... وسَرَتْ حُمَيَّا البُرءِ في أدَوائي
يا ساكني البطحاءِ هلْ مِنْ عَودَةٍ ... أحيا بها، يا ساكني البطحاءِ؟
إنْ يَنقضي صَبْري فليسَ بمنقَضٍ ... وجْدي القديمُ بكمْ ولا بُرَحائي
ولئنْ جَفا الوَسْمِيُّ ماحِلَ تُرْبِكمْ ... فَمَدامعي تُربي على الأَنْواءِ
يا لائمي في حُبِّ مَنْ مِنْ أجلِهِ ... قدْ جدَّ بي وجْدي وعَزَّ عَزائي
هلاَّ نَهاكَ نُهاكَ عَنْ لوم امريءٍ ... لمْ يُلْفَ غيرَ منعَّمٍ بشقاءِ
لوْ تدرِي فيمَ عذلتَني لعَذَرتَني ... خَفِّضْ عليكَ وخَلِّني وبَلائي
أَسعدْ أُخيَّ وغَنِّ لي بحديثِ مَنْ ... حَلَّ الأباطحَ إن رَعَيتَ إخائي
وكَفَى غَراماً أنْ أَبيتَ مُتيَّماً ... شَوقي أمامي والقضاءُ ورائي

وقوله[2]: [من الكامل]

أَومَيضُ بَرقٍ بالأُبَيرقِ لاحا ... أمْ في رُبَى نَجْدٍ أَرى مُصباحا
أمْ تلكَ ليلَى العامريةُ أسفرتْ ... ليلاً فصيَّرتِ المساءَ صبَاحا
يا ساكني نجدٍ أما مِنْ رَحمةٍ ... لأَسيرِ إلفٍ، لا يُريد سَرَاحا

(١) ديوانه ١١٧ـ ١٢٢.

(٢) ديوانه ١٢٣ـ ١٢٥.

هلاَّ بَعثتُم للمشوقِ تحيةً ... في طيٍّ صافيةِ الرياحِ رَواحا
يَحيا بها مَنْ كانَ يَحسَبُ هَجرَكمْ ... مَزْحاً ويعتقدُ المَرَاحَ مُزاحا
يا عاذلَ المُشتاقِ جَهلاً بالذي ... يَلقَى مليّاً لا لَقِيتَ نَجاحا
أقصرْ عِدِمتُكَ واطَّرِحْ مَنْ أثخنتْ ... أحشاءَهُ النُّجلُ العيونُ جِراحا
/ ٢٥٥/ ماذا يريدُ العاذلونَ بِعذْلِ مَنْ ... لَبسَ الخَلاعةَ واستراحَ وراحا
سَقْياً لأيام مَضَتْ مَعْ جيرَةٍ ... كانتْ لياليِنا بهِمْ أفراحا
واهاً على ذاكَ الزمانِ وطيبِهِ ... أيامَ كنتُ مِنَ اللُّغُوبِ مُراحا

وقوله[1]: [من البسيط]

هلْ نارُ ليلَى بَدَتْ ليلاً بذي سَلَمِ ... أمْ بارقٌ لاحَ بالزوراءِ فالعَلَمِ
أَرواحَ نعمانَ هَلاَّ نسمةٌ سَحَراً ... وماءَ وجْرةَ هَلاَّ نَهلَةٌ بفَمي
يا سائق الظَّعْنِ يَطوي البِيدَ مُعتَسفاً ... طيَّ السِّجِلِّ بذاتِ الشيحِ مِنْ إضَمِ
عُجْ بالحِمى يا رَعاك اللهُ معتمِداً ... خَميلةَ الضَّالِ ذاتَ الرَّنْدِ والخزمِ
وقفْ بِسَلْعٍ وسَلْ بالجَزْعِ هَلْ مُطرَتْ ... بالرَّقمتين أُثيلاتٌ بمُنسجِمِ
نشدتُكَ اللهَ إن جُزْتَ العَقيق ضُحًى ... فاقرَ السلامَ عليهمْ غيرَ مُحتشمِ
وقلْ تَركْتُ صَريعاً في ديارِكمْ ... حيّاً كَمَيْتٍ يُعيرُ السُّقْمَ للسَّقَمِ
فمنْ فُؤادي لهيبٌ نابَ عَنْ قَبَسٍ ... ومِنْ جُفونيَ دَمعٌ فاضَ كالدِّيَمِ
وهذهِ سنَّةُ العُشَّاقِ ما عَلِقوا ... بشادِنٍ فَخَلا عُضْوٌ مِنَ الألَمِ
يا لائماً لامني في حُبِّهم سَفَهاً ... كُفَّ المَلامَ فلو أحببتَ لمْ تَلُمِ
وحُرمةِ الوَصْلِ والوُدِّ العَتيقِ وبالـ ... ـعَهدِ الوثيقِ وما قدْ كانَ في القِدَمِ
ما حُلْتُ عنهمْ بسلوانٍ ولا بَدَلٍ ... ليسَ التبدُّلُ والسُّلوانُ مِنْ شِيَمي
رُدُّوا الرُّقادَ لجَفْنيْ عَلَّ طَيفَكمُ ... بمَضجَعي زائرٌ في غَفلةِ الحُلُمِ
آهاً لأيامِنا بالخَيْفِ لوْ بَقيتْ ... عَشْراً وَوَاهاً عليها كيفَ لمْ تَدُمِ
هيهاتَ وا أَسفي لوْ كانَ يَنفعُني ... أوْ كانَ يُجدِي على ما فاتَ واندمي
عني إليكمْ ظِباءَ المُنحنى كَرَماً ... عَهدتُ طَرْفيَ لمْ ينظُرْ لغيرهم
طَوعاً لقاضٍ أتَى في حُكمِهِ عَجَباً ... أفتى بسفكِ دَمي في الحِلِّ والحَرَمِ
أَصمُّ لمْ يَسمعِ الشكوى وأبكَمُ لمْ ... يُحِرْ جَواباً وعَنْ حالِ المَشوقِ عَمِي

وقوله[2]: [من البحر الطويل]

---

(١) ديوانه ١٢٨ـ ١٢٩.

(٢) ديوانه ١٤٠ـ ١٤٣.

/٢٥٦/ شَربنا على ذِكْرِ الحَبيبِ مُدامةً ... سَكِرنا بها مِنْ قَبلِ أَنْ يُخْلَقَ الكَرْمُ
لها البدرُ كأسٌ وهيَ شمسٌ يُديُرها ... هِلالٌ وكمْ يَبدو إذا مُزِجَتْ نَجْمُ
ولمْ يُبقِ منها الدهرُ غيرَ حُشاشَةٍ ... كأنَّ خَفَاها في صُدُورِ النُّهى كَتْمُ
فإنْ ذُكرتْ في الحَيِّ أَصبحَ أهلُهُ ... نشَاوى ولا عارٌ عليهمْ ولا إثمُ
ومِنْ بينِ أحشاءِ الدنانِ تَصاعدتْ ... ولمْ يَبقَ منها في الحقيقةِ إلا اسم
وإنْ خَطَرتْ يوماً على خاطرِ امريءٍ ... أقامتْ بهِ الأفراحَ وارتحلَ الهَمُّ
ولوْ نظرَ النَّدمانُ خَتْمَ إنائِها ... لأَسكرَهمْ مِنْ دُونها ذلكَ الخَتْمُ
ولوْ طرحوا في فَيءِ حائطِ كَرْمِها ... عَليلاً وقدْ أشفى، لفارقهُ السُّقْمُ
ولوْ قرَّبوا مِنْ حانِها مُقعَداً مَشَى ... ويَنطِقُ مِنْ ذكرى مَذاقتِها البُكْمُ
ولوْ عبقتْ في الشرقِ أنفاسُ طِيبِها ... وفي الغربِ مَزكومٌ لعادَ لهُ الشَّمُّ
ولوْ خُضِبَتْ مِنْ كأْسِها كفُّ لامِسٍ ... لَمَا ضَلَّ في ليلٍ وفي يدِهِ النجمُ
ولوْ جُليتْ سِراً على أَكْمَهٍ غَدا ... بَصيراً ومِنْ رَاووقها تَسمعُ الصُّمّ
ولوْ أنَّ رَكْباً يَمموا تُرْبَ أَرضِها ... وفي الركبِ مَلسُوعٌ لَمَا ضَرَّه السُّمُّ
ولوْ رَسَمَ الراقي حُروفَ اسْمِها على ... جبَينِ مُصاب جُنَّ، أَبرأَهُ الرَّسْمُ
تُهذِّبُ أخلاقَ النَّدامى فيهتدي ... بها لطريقِ العَزمِ مَنْ لا لَهُ عَزمُ
ويَكْرُمُ مَنْ لمْ يَعرفِ الجُودَ كَفُّهُ ... ويَحْلُمُ عندَ الغَيظِ مَنْ لا لَهُ حِلْمُ
ولوْ نالَ فَدْمَ القومِ لثمُ مُدامِها ... لأكسبَهَ مَعْنى شَمائِلها اللثْمُ
يقولونَ لي صِفْها فأنتَ بوصفِها ... خَبيرٌ، أجلْ، عندي بأوصافِها عِلْمُ
صفاءٌ، ولا ماءٌ، ولطفٌ ولا هوًا ... ونُورٌ ولا نارٌ، ورُوحٌ ولا جِسْمُ
تقدَّم كلَّ الكائناتِ وجُودُها ... قَديماً ولا شَكْلٌ هُناكَ ولا رَسْمُ
وقامتْ بها الأشياءُ ثَمَّ لحِكمَةٍ ... بها احتجبتْ عَنْ كلِّ مَنْ لا لَهُ فَهْمُ
وهامتْ بها رُوحي بحيثُ تَمازجاً اتِّـ ... ـحاداً ولا جِرْمٌ تَخلَّلهُ جِرْمُ
فخَمرٌ ولا كَرْمٌ وآدمُ لي أبٌ ... وكَرْمٌ ولا خَمْرٌ ولي أُمَّها أُمّ
/٢٥٧/ وقدْ وقعَ التفريقُ والكلُّ واحدٌ ... فأرواحُنا خَمْرٌ وأشَباحُنا كَرْمُ
محاسنُ تَهْدِي الواصفِينَ لوصفِها ... فيحْسُنُ فيها منهمُ النثرُ والنظمُ
ويَطْرَبُ مَنْ لمْ يَدرِها عندَ ذِكرْها ... كمُشتاقِ نُعْمٍ كلما ذُكرت نُعمُ
وقالوا: شربتَ الإثمَ! كلاًّ وإنما ... شربتُ التي في تركِها عنديَ الإثمُ
هنيئاً لأهلِ الدَّيْرِ كمْ سكَنوا بها ... وما شَربوا منها ولكنَّهمْ هَمُّوا
فعنديَ منها نَشوةٌ قبلَ نَشأَتي ... مَعي أبداً تَبقى وإنْ بَلِيَ العَظْمُ

عليكَ بها صِرفاً وإنْ شئتَ مَزْجها   فعدلُكَ عَنْ ظُلِم الحبيبِ هوَ الظُّلمُ

ودُونكَها في الحانِ واستجلِها بِهِ   على نَغَمِ الألحانِ فهيَ بها غُنْمُ

فما سكنتْ والهمَّ يوماً بموضِعٍ   كذلكَ لم يسكنْ معَ النغَمِ الغَمُّ

وفي سَكْرَةٍ منها ولوْ عُمْرَ ساعةٍ   تَرَى الدهرَ عَبداً طائعاً ولكَ الحكمُ

فلا عَيشَ في الدنيا لمَنْ عاش صاحِياً   ومَنْ لمْ يَمُتْ سُكْراً بها فاتَهُ الحَزْمُ

على نفسهِ فليبكِ مَنْ ضاعَ عُمْرُهُ   وليسَ لهُ منها نَصيبٌ ولا سَهْمُ

وقوله(1) رضي الله عنه ـ: [من البسيط]

ما بينَ مُعتركِ الأحداقِ والمُهَجِ   أنا القتيلُ بلا إثمٍ ولا حَرَجِ

ودَّعتُ قبلَ الهَوى رُوحي لِما نظرَتْ   عينايَ مِنْ حُسْنِ ذاكَ المنظرِ البَهِجِ

للهِ أَجفانُ عَينٍ فيكَ ساهرةٌ   شَوقاً إليك وقلبٌ بالغَرَام سَجِيْ

وأضلعٍ نحلت كادتْ يقوِّمها   مِنَ الجَوَى كَبِدي الحَرى مِنَ العِوجِ

وأدمعٍ هَملتْ لولا التَّنفُّسُ مِنْ   نارِ الهَوَى لَمْ أكَدْ أَنجو مِنَ اللجَجِ

وحبَّذا فيكَ أَسقامٌ خَفيتَ بها   عني تَقومُ بها عندَ الهوَى حُجَجي

أَصبحتُ فيكَ كما أمسيتُ مُكتئباً   ولَمْ أَقلْ جَزَعاً: يا أزمةُ انفرجي

أَهفُو إلى كلِّ قلبٍ بالغَرامِ لهُ   شُغْلٌ وكلِّ لسانٍ بالهَوى لَهِجِ

وكلِّ سمعٍ عَنِ اللاحي بهِ صَمَمٌ   وكلِّ جَفْنٍ إلى الإغفاءِ لَمْ يَعُجِ

لا كانَ وجدٌ بهِ الآماقُ جامدةٌ   ولا غَرامٌ بهِ الأشواقُ لمْ تَهِجِ

عَذِّبْ بما شئتَ غيرَ البُعدِ عنكَ تجدْ   أَوفى مُحبٍّ بما يُرضيكَ مُبتهِجِ

/٢٥٨/ وخُذْ بقيةَ ما أبقيتَ مِنْ رَمَقٍ   لا خيرَ في الحُبِّ إنْ أَبقى على المُهَجِ

مَنْ لي بإتلافِ رُوحي في هوَى رَشَأٍ   حُلْوِ الشَّمائلِ بالأرواحِ مُمتزِجِ

مَنْ ماتَ فيهِ غَراماً عاشَ مُرتقياً   ما بينَ أهلِ الهَوى في أرفعِ الدَّرَجِ

مُحجَّبٍ لوْ سَرَى في مثلِ طُرَّتِهِ   أَغنتْهُ غُرَّتُهُ الغرَّا عَنِ السُّرُجِ

وإن ضَلَلْتُ بليلٍ مِنْ ذوائبهِ   أَهدى لِعيني الهُدى صُبحٌ مِنَ البَلَجِ

وإنْ تَنفَّس قالَ المِسْكُ مُعترفاً   لعارفي طِيبهِ: مِنْ نَشرِهِ أَرَجي

أَعوامُ إقبالِهِ كاليومِ في قِصَرٍ   ويومُ إعراضِهِ في الطولِ كالحُجَجِ

فإنْ نأى سائراً يا مُهجتي ارْتحلي   وإنْ دنا زائراً يا مُقلتي ابتهجي

قُلْ للذي لامني فيهِ وعنَّفني   دَعْني وشَأْني وعُدْ عَن نُصحِكَ السَّمِجِ

---

(١) ديوانه ١٤٤ـ ١٤٧.

فَـالـلـومُ لـؤمٌ ولـمْ يُـمـدحْ بـهِ أحـدٌ ... فَـهـلْ رأيـتَ مُـحـبـاً لـلـغَـرام هُـجِـي؟
يـا سـاكـنَ الـقـلـبِ لاتـنظرْ إلـى سَـكَـنـي ... وارْبَـحْ فُـؤادَكَ واحـذرْ فِـتـنـةَ الـدَّعَـجِ
يـا صـاحـبـيْ وأنـا الـبَـرُّ الـرؤوفُ وقـدْ ... بَـذَلْـتُ نُـصـحـي بـذاكَ الـحَـيِّ لا تَـعُـجِ
فـيـهِ خـلـعـتُ عِـذاري واطَّـرَحْـتُ بـهِ ... قَـبولَ نُـسكـيَ والـمَـقبولُ مِنْ حُـجَـجِـي
فـابـيـضَّ وجـهُ غَـرامـيْ فـي مَـحـبَّـتـه ... واسـودَّ وجْـهُ مَـلامـي فـيـهِ بـالـحُـجَـجِ
تـبـاركَ اللهُ مـا أحـلـى شَـمـائـلُـهُ ... فـكـمْ أمـاتـتْ وأَحـيـتْ فـيـهِ مِـنْ مُـهَـجِ
يَـهـوى لِـذكـر اسـمـهِ مَـنْ لَـجَّ فـي عَـذَلـي ... سَـمْـعـي وإنْ كـانَ عَـذلـي فـيـهِ لـمْ يَـلِـجِ
وأرْحَـمُ الـبـرقَ فـي مَـسْـراهُ مـنـتـسِـبـاً ... لـثـغـرهِ وهـوَ مُـسْـتَـحـي مِـنَ الـفَـلَـجِ
تَـراهُ إنْ غـابَ عـنِّـي كـلُّ جـارحـةٍ ... فـي كـلِّ مـعـنًـى لـطـيـفٍ رائـقٍ بَـهِـجِ
فـي نَـغـمـةِ الـعُـودِ والـنـاي الـرخـيـم إذا ... تَـألَّـفـا بـيـنَ ألـحـانٍ مِـنَ الـهَـزَجِ
وفـي مـسـارحِ غِـزلانِ الـخَـمـائـلِ فـي ... بَـرْدِ الأصـائـل والإصـبـاحِ فـي الـبَـلَـجِ
وفـي مَـسـاقـطِ أنـداءِ الـغَـمَـام عـلـى ... بـسـاطِ نَـوْرٍ مِـنَ الأزهـارِ مُـنْـتَـسَـجِ
وفـي مَـسـاحِـبِ أذيـالِ الـنـسـيـم إذا ... أَهْـدَى إلـيَّ سُـحَـيـراً أَطـيـبَ الأرَجِ
وفـي الـتـثـامـيَ ثـغـرَ الـكـأس مُـرتـشـفـاً ... رِيـقَ الـمُـدامـةِ فـي مُـسْـتَـنْـزهٍ فَـرِجِ
لـمْ أدرِ مـا غـربـةُ الأوطـانِ وهـيَ مَـعـي ... وخـاطـري أيـنَ كُـنَّـا غـيـرُ مُـنـزعـجِ
/٢٥٩/ فالدارُ داري، وحِبّي حاضرٌ ومتى ... بـدا فـمُـنـعـرَجُ الـجَـرعـاءِ مُـنْـعَـرجـي
لِـيـهْـنَ ركـبٌ سَـرَوا لـيـلاً وأنـتَ بـهـمْ ... بـسـيـرِهـمْ فـي صَـبـاحٍ مِـنـكَ مُـنـبـلِـجِ
فـلـيـصـنعِ الـركـبُ مـا شـاؤُوا بـأنـفـسِـهـمْ ... هـمْ أهـلُ بَـدرٍ فـلا يَـخْـشـون مِـنْ حَـرَجِ
بـحـقِّ عـصـيـانـيَ الـلاَّحـيْ عـلـيـكَ ومـا ... بـأضـلُـعـي طـاعـةٌ لـلـوجـدِ مِـنْ وَهَـجِ
انـظـرْ إلـى كـبـدٍ ذابـتْ عـلـيـكَ جَـوًى ... ومـقـلـةٍ مِـنْ نَـجـيـع الـدمـعِ فـي لُـجَـجِ
وارحـمْ تـعـثُّـرَ آمـالـي ومُـرتـجـعـي ... إلـى خُـداعٍ يُـمـنِّـي الـقـلـبَ بـالـفَـرَجِ
واعـطـفْ عـلـى ذُلِّ أطـمـاعـي بـهـلْ وعَـسـى ... وامـنـنْ عـليَّ بـشـرحِ الـصـدرِ مِـنْ حَـرَجـي
أهـلاً بـمـا لـمْ أكـنْ أهـلاً لِـمَـوقـعِـهِ ... قـولَ الـمـبـشِّـرِ بـعـدَ الـيـأسِ بـالـفَـرَجِ
لـكَ الـبـشـارةُ فـاخـلـعُ مـا عـلـيـكَ فـقـدْ ... ذُكِـرتَ ثَـمَّ عـلـى مـا فـيـكَ مِـنْ عِـوجِ

[وقوله[1]: [الطويل]

أدِرْ ذِكْـرَ مَـن أهْـوى، ولـو بـمَـلامِ ... فـإنَّ أحـاديـث الـحـبـيـبِ مُـدامـي
لِـيَـشـهَـدَ سَـمْـعـي مـن أُحـبُّ، وإن نـأى ... بـطَـيـفِ مَـلامٍ، لا بـطَـيـفِ مَـنـام

---

(١) ديوانه ١٦٢ـ ١٦٥.

أَصَلّي، فأشدو، حين أتلو، بذِكرِها   وأطْرَبُ في المحراب وهي أمامي
ولم يُبقِ منّي الحبُّ غيرَ كآبةٍ   وحزنٍ، وتبريحٍ، وفرْطِ سقام
فأمّا غرامي واصطباري وسلوتي   فلمَ يبقَ لي منهنّ غير أسامي
ولي كُلّ عُضوٍ، فيه كل صبابة   إذا ما رَنَتْ وقْعٌ لكلّ سِهام][1]

وقوله[2] رضي الله عنه: [من الكامل]

قلبي يُحدِّثني بأنَّكَ مُتلفي   رُوحي فداكَ عَرَفْتَ أمْ لم تعرفِ
لمْ أقضِ حَقَّ هَواكَ إنْ كنتُ الذي   لمْ أقضِ فيهِ أسًى ومثليَ مَنْ يَفي
ما لي سِوَى رُوحي وباذلُ نفسِهِ   في حُبِّ مَنْ يَهْواه ليسَ بمُسْرِفِ
فلئنْ رَضيتَ بها فقدْ أسَعفتَني   يا خيبةَ المَسعَى إذا لمْ تُسعِفِ
يا مانعي طِيبَ المَنام ومانحي   ثوبَ السقام بهِ ووجدي المُتلِفِ
عَطفاً على رَمَقي وما أَبقيتَ لي   مِنْ جِسميَ المُضْنى وقلبي المُدْنفِ
/٢٦٠/ فالوَجدُ باقٍ والوِصالُ مُماطلي   والصَّبرُ فانٍ واللِّقاءُ مُسَوّفي
لمْ أَخْلُ مِنْ حَسَدٍ عليكَ فلا تُضِعْ   سَهَري بتشنيعِ الخيالِ المُرجِفِ
واسألْ نجومَ الليلِ هلْ زارَ الكَرَى   جَفْني وكيفَ يَزورُ مَنْ لمْ يَعْرِفِ
لا غرْوَ أن شَحَّتْ بغُمضِ جُفُونِها   عيَني وسَحَّتْ بالدُّموعِ الذُّرَّفِ
وبما جَرَى في مَوقفِ التوديعِ مِنْ   أَلَمِ النوى شاهدتُ هَولَ المَوقفِ
إنْ لمْ يكنْ وصلٌ لديكَ فَعِدْ بِهِ   أَملي وماطِل إنْ وَعَدتَ ولا تَفِ
فالمَطْلُ منكَ لديَّ إنْ عزَّ الوَفا   يَحلو كوصْلٍ مِنْ حَبيبٍ مُسْعِفِ
أهفو لأنفاسِ النسيمِ تَعِلَّةً   ولوجْهِ مَنْ نقلتْ شَذاهُ تشوُّفي
فلعلَّ نارَ جَوانحي بهبوبِها   أَنْ تنطفي وأَودُّ أنْ لا تنطفي
يا أهلَ وُدِّي أنتمُ أَملي ومَنْ   ناداكمُ يا أهلَ وُدِّي قدْ كُفي
عُودُوا لِمَا كنتمْ عليهِ مِنَ الوَفا   كَرَماً فإنِّي ذلكَ الخِلُّ الوَفي
وحياتِكمْ، وحياتِكمْ قسماً وَفي   عُمْري بغيرِ حياتِكمْ لمْ أَحْلِفِ
لوْ أنَّ رُوحي في يَديْ ووهبتُها   لمُبشِّري بوصالكم لمْ أُنصفِ
لا تحسبَوني في الهَوَى مُتصنِّعاً   كَلَفي بكمْ خُلُقٌ بغيرِ تَكَلُّفِ
أخفيتُ حُبَّكمُ فأخفاني أَسًى   حتى لعَمَري كِدْتُ عَنّي أَختَفي

---

(١) ساقطة من نسخة الأصل واتممناها من نسخة أياصوفيا.

(٢) ديوانه ١٥١ـ ١٥٥.

وكتمتُهُ حتى ولوْ أَبديتُهُ   لوجدتُهُ أخفَى مِنَ اللُّطْفِ الخَفي
ولقدْ أقولُ لِمَنْ تَحرَّش بالهوى   عَرَّضتَ نفسَكَ للبِلى فاستهدفِ
أنتَ القتيلُ بأي مَنْ أحببتَهُ   فاخترْ لنفسكَ في الهوى مَنْ تَصطفي
قلْ للعذولِ أطَلتَ لومي طامعاً   أنَّ المَلام عَنِ الهَوى مُستوقِفي
دعْ عنكَ تَعنيفي وذُقْ طَعْمَ الهَوى   فإذا عَشِقْتَ فبعدَ ذلك عنِّفِ
بَرِحَ الخفاءُ بحبِّ من لوْ في الدُّجى   سَفَرَ اللثامَ لقلتُ يا بدرُ اختفِ
فإنِ اكتفى غَيري بطيفِ خيَاله   فأَنا الذي بوِصالهِ لا أكتفي
وَقفا عليهِ مَحبَّتي ولِمِحْنتي   بأقلَّ مِنْ تَلَفي بهِ لا أشتفي
/ ٢٦١/ وهَواهُ وهوَ أَلِيَّتي وكَفَى بِهِ   قسَماً أكادُ أُجلُّهُ كالمُصحفِ
لوْ قالَ تِيهاً قِفْ على جَمْرِ الغَضا   لوقفتُ مُمْتثلاً ولمْ أتوقَّفِ
أوْ كانَ مَنْ يَرضَى بخَدِّي مَوطِئاً   لوَضَعْتُهُ أرَضاً ولمْ أَستنكفِ
لا تُنكروا شغَفي بما يَرضَى وإنْ   هوَ بالوصالِ عليَّ لمْ يَتَعَطَّفِ
غَلَبَ الهَوى فأَطعتُ أمرَ صبابتي   مِنْ حيثُ فيهِ عصيتُ نَهْيَ مُعنِّفي
مِنِّي لهُ ذُلُّ الخُضوعِ ومنهُ لي   عِزُّ المَنُوعِ وقُوةُ المُستضعِفِ
أَلِفَ الصُّدودَ ولي فؤادٌ لمْ يَزَلْ   مُذْ كنتُ غيرَ وُدادِهِ لمْ يَأْلَفِ
يا مْا أُميلِحَ كلَّ ما يَرضَى بِهِ   ورُضابِهِ يا ما أُحَيلاهُ بِفي
لوْ أَسمَعوا يعقوبَ ذِكْرَ مَلاحَةٍ   في وجهِهِ نَسِيَ الجَمالَ اليوُسُفي
أوْ لوْ رَآه عائداً أيوبُ في   سِنَةِ الكَرَى قِدْماً مِنَ البَلوى شُفِي
كلُّ البُدورِ إذا تَجلَّى مُقبِلاً   تَصبُو إليهِ وكلُّ قَدٍّ أهيَفِ
إنْ قلتُ عندي فيكَ كلُّ صَبابةٍ   قال: الملاحةُ لي، وكلُّ الحُسْنِ فِيّ
كملتْ مَحاسنُهُ فلوْ أَهدى السَّنَى   للبدرِ عندَ تمامِهِ لمْ يُخْسَفِ
وعلى تفنُّنِ واصفيهِ لحُسنِهِ   يَفنَى الزمانُ وفيهِ ما لمْ يُوصَفِ
ولقدْ صَرفتُ لحبِّهِ كلي على   يَدِ حُسْنِهِ فَحَمِدْتُ حُسْنَ تَصَرُّفي
فالعينُ تَهوى صُورةَ الحُسنِ التي   رُوحي بها تَصبُو إلى مَعنًى خَفي
اسعدْ أُخَيَّ وغَنِّني بحديثِهِ   وانثرْ على سَمعي حُلاه وشنِّفِ
لأَرَى بعينِ السمعِ شاهدَ حُسنِهِ   مَعنًى فأَتحفني بذاكَ وشَرِّفِ
يا أختَ سعدٍ مِنْ حَبيبي جِئتِني   برسالةٍ أدَّيتِها بتلطُّفِ
فسمعتُ ما لمْ تَسمعي ونظرتُ ما   لمْ تنظري وعرفتُ ما لم تَعرِفي
إنْ زارَ يوماً يا حَشاي تَقطَّعي   كَلَفاً بهِ أوْ سارَ يا عينُ اذرِفي

مـا لـلـنـوى ذَنْـبٌ ومَـنْ أهَـوَى مَـعِـي إنْ غـابَ عَـنْ إنسانِ عَـيني فـهـوَ فِـي

وقوله رضي الله عنه(١): [من الطويل]

/٢٦٢/ هوَ الحُبُّ فاسلمْ بالحَشا ما الهَوى سَهْلُ
فـمـا اخـتـارَهُ مُـضـنًّى بـهِ، ولـهُ عَـقْـلُ

وعـشْ خـالـيـاً فـالـحُـبُّ راحـتُـهُ عَـنًـى وأوَلُـه سُـقْـمُ وآخِـرُهُ قَـتْـلُ
ولـكـنْ لـديَّ الـمـوتُ فـيـهِ صـبـابـةً حياةٌ لِمَنْ أهوَى عليَّ بها الفَضْلُ
نَصحتُك عِلماً بالهوى والذي أرى مُخالفتي فاخْتَرْ لنفسِكَ ما يَحلُو
فإنْ شئتَ أنْ تَحيا سَعيداً فَمُتْ بهِ شَهيداً وإلا فالغَرامُ لهُ أهْلُ
فَمَنْ لَمْ يَمُتْ في حُبِّهِ لَمْ يَعِشْ بهِ ودونَ اجتناءِ النَّحْلِ ما جَنَتِ النَّحْلُ
تَمسَّكْ بأذيالِ الهَوى واخلعِ الحَيا وخَلِّ سبيلَ الناسكينَ وإنْ جلُّوا
وقُلْ لقتيلِ الحُبِّ وفَّيْتَ حقَّهُ وللمُدَّعِي هيهاتَ ما الكَحَلُ الكُحْلُ
تَعرَّضَ قومٌ للغَرامِ وأعْرضُوا بجانبِهِمْ عَنْ صِحَّتي فيه واعْتلُّوا
رَضُوا بالأمانِيْ وابُتلُوا بحظوظِهمْ وخاضوا بحارَ الحُبِّ دَعوًى فما ابتلُّوا
فهمْ في السُّرَى لَمْ يَبرحوا مِنْ مكانِهم وما ظَعَنوا في السيرِ عنهُ وقدْ كَلُّوا
وعنْ مَذهبي لمَّا استحبُّوا العَمَى على الـ ـهُدَى حَسَداً مِنْ عندِ أنفسِهمْ ضَلُّوا
أحبَّةَ قلبي والمَحَبَّةُ شافعٌ لديكمْ إذا شِئتمْ بها اتَّصلَ الحَبْلُ
عَسى عَطْفَةٌ منكمْ عليَّ بنظرةٍ فقدْ تعبتْ بيني وبينَكُمُ الرُّسْلُ
أَحِبايَ أنتمْ أحسنَ الدهرُ أمْ أَسَا فكونُوا كما شِئتمْ، أنا ذلكَ الخِلُّ
إذا كانَ حَظِّيْ الهجرُ منكمْ ولمْ يكنْ بِعادٌ فذاكَ الهَجرُ عندي هوَ الوَصْلُ
وما الصدُّ إلا الودُّ ما لمْ يكنْ قِلًى وأصَعبُ شيءٍ غيرِ إعراضِكِمْ سَهْلُ
وتعذيبكمْ عَذْبٌ لَديَّ وجورُكمْ عليَّ بما يَقضي الهَوى لكمُ عَدْلُ
وصَبريَ صَبرٌ عنكمُ وعليكمُ أرى أبداً عندي مَرارَتَهُ تَحْلُو
أَخذتمْ فُؤادي وهوُ بَعْضي فما الذي يَضُرُّكمُ لوْ كانَ عندكمُ الكُلُّ
نأيتُمْ فغيرُ الدمعِ لَمْ أرَ وافياً سِوى زَفْرةٍ مِنْ حَرِّ نارِ الجَوَى تَغْلُو
فسُهْدِيَ حَيٌّ في جُفُوني مُخَلَّدٌ ونَومي بها مَيْتٌ ودَمعي لهُ غُسْلُ
هوًى طَلَّ ما بينَ الطّلولِ دَمي، فَمِنْ جُفونيْ جَرَى بالسَّفحِ مِنْ سَفْحِهِ، وَبْلُ
/٢٦٣/ تبالَهَ قَومِي إذْ رَأَوني متَيَّماً وقالوا: بمَن هذا الفَتى مَسَّه الخَبْلُ

(١) ديوانه ١٣٤ـ ١٣٩.

وماذا عَسى عنِّي يُقالُ سِوى غَدَا   بنُعْم، لهُ شُغْلٌ، نَعَمْ لي بها شُغْلُ

وقالَ نساءُ الحَيِّ: عنا بذكرِ مَنْ   جَفَانا وبعدَ العِزِّ لَذَّ لهُ الذُّلُّ

إذا أَنعمتْ نُعْمٌ عليَّ بنظرةٍ   فلا أَسعدتْ سُعْدَى ولا أَجملتْ جُمْلُ

وقدْ صَدِئتْ عِيني برؤيةِ غيرِها   ولَثْمُ جُفوني تُرْبَها للصَّدٰى يَجْلُو

حديثي قديمٌ في هَواها وما لَهُ   كما عَلِمَتْ بَعْدٌ وليسَ له قَبْلُ

وما لي مثلٌ في غَرَامي [بها] كما   غدتْ فتنةً في حُسْنِها ما لها مِثْلُ

حَرامٌ شِفَا سُقْمي لديها رَضِيتُ ما   بهِ قَسَمَتْ لي في الهَوى ودَمي حِلُّ

فَحالي وإنْ ساءتْ فقدْ حسنتْ بها   وما حَطَّ قَدْرِيْ في هَواها بهِ أعِلُو

وعُنوانُ ما فيها لقيتُ وما بهِ   شَقَيتُ وفي قَولي اختصرتُ ولمْ أَغْلُ

خَفِيتُ ضنًى، حتى لقدْ ضَلَّ عائدي   وكيفَ تَرَى العُوَّادُ مَنْ لا لهُ ظِلُّ

وما عَثَرَتْ عَينٌ على أَثَري ولمْ   تَدَعْ ليَ رَسْماً في الهَوى الأعينُ النُّجْلُ

وليْ هِمَّةٌ تَعلُو إذا ما ذَكرتُها   ورُوحٌ بذِكراها إذا رَخُصَتْ تَغْلُو

فنافسْ ببذلِ النفسِ فيها أَخا الهَوَى   فإنْ قَبِلَتْها منكَ، يا حبَّذا البَذْلُ

فَمَنْ لمْ يَجُدْ في حُبِّ نُعْم بنفسِهِ   ولوْ جادَ بالدنيا إليهِ انتهى البُخْلُ

ولولا مُراعاةُ الصِّيانةِ غَيْرَةً   وإنْ كثروا أَهلُ الصبابةِ أو قلُّوا

لقلتُ لِعشَّاقِ المَلاحةِ أقبلوا   إليها، على رأيِ، وعَنْ غيرها ولُّوا

وإنْ ذُكرتْ يوماً، فَخِرُّوا لذِكرِها   سُجوداً وإنْ لاحتْ إلى وجهِها، صَلُّوا

وفي حُبِّها بِعْتُ السَّعادةَ بالشَّقا   ضَلالاً وعقلي عَنْ هُدَايَ بهِ عَقْلُ

وقلتُ لرُشدي والتنسُّكِ والتُّقَى   تَخلَّوا وما بيني وبينَ الهوى خلُّوا

وفرَّغتُ قلبي مِنْ وُجُوديَ مُخْلصاً   لعلِّيَ في شُغْلِي بها مَعَها أَخْلُو

ومِنْ أَجلِها أَسعَى لمَنْ بيننا سَعَى   وأَغدُو ولا أغدو لمنْ دَأبُهُ العَذْلُ

فأرتاحُ للواشينَ بيني وبينَها   لتَعلمَ ما أَلقى وما عندَها جَهْلُ

/ ٢٦٤/ وأَصبُو إلى العُذَّال حُباً لذكرِها   كأنهمُ ما بيننا في الهَوى رُسْلُ

فإنْ حَدَّثوا عنها فكُلِّي مَسامِعٌ   وكلِّيَ إنْ حدَّثتُهمْ أَلسنٌ تَتْلُو

تخالفتِ الأقوالُ فينا تبايُناً   بِرَجْمِ ظُنونٍ بيننا ما لها أَصْلُ

فشنَّع قومٌ بالوصالِ ولمْ تَصِلْ   وأَرجَفَ بالسّلوانِ قَومٌ ولمْ أَسْلُ

وما صَدَقَ التشنيعُ عنها لشِقْوَتي   وقدْ كَذَبَتْ عنِّي الأراجيفُ والنقْلُ

وكيفَ أُرَجِّي وصْلَ مَنْ لوْ تَصَوَّرَتْ   حماها المُنَى وَهْماً، لضاقتْ بهِ السُّبْلُ

وإنْ وَعَدَتْ لمْ يلحقِ الفعلُ قَولَها   وإنْ أَوعَدَتْ فالقولُ يسبقُهُ الفِعْلُ

عِدِيني بِوَصْلٍ وامُطلي بنجازه ... فعندي إذا صَحَّ الهَوى حَسُنَ المَطْلُ
وحُرمةِ عَهدٍ بيننا عنهُ لمْ أَحُلْ ... وعَقْدٍ بأيدٍ بيننا ما لهُ حَلُّ
لأنتِ على غيظِ النوَى ورِضا الهَوى ... لديَّ وقلبيْ ساعةً منكِ ما يخلُو
تُرَى مُقلَتي يوماً تَرَى مَنْ أحُبهُّمْ ... ويُعتبُني دهْري ويجتمعُ الشَّمْلُ
وما بَرِحُوا معنًى أراهمْ معي، فإنْ ... نأوا صورةً، في الذهنِ قامَ لهمْ شَكلُ
فهمْ نُصْبَ عَيني ظاهراً حَيثما سَرَوا ... وهمْ في فُؤادي باطناً أيَنما حَلُّوا
لهمْ أَبداً منِّي حُنُوٌّ وإنْ جَفَوا ... وليْ أبداً مَيْلٌ إليهمْ وإنْ مَلُّوا

وقوله رضي الله عنه[1]: [من الخفيف]

تِهْ دَلالاً فأنتَ أهلٌ لِذاكا ... وتحكَّمْ فالحُسْنُ قدْ أعطاكا
ولكَ الأمرُ فاقْضِ ما أنتَ قاضٍ ... فعَلَيَّ الجَمالُ قدْ ولاّكا
وتلافي إنْ كانَ فيه تَلافيك ... وعَجِّلْ بهِ، جُعلتُ فِداكا
وبما شئتَ في هَواكَ اختبرني ... فاختباري ما كانَ فيهِ رِضاكا
فعلى كُلِّ حالةٍ أنتَ مِنِّي ... بيَ أوْلى إذْ لمْ أكُنْ لولاكا
أَبْقِ لي مُقْلَةً لعلَّيَ يَوماً ... قبلَ مَوتي أرى بها مَنْ رآكا
أينَ منِّي ما رُمْتُ، هيهاتَ بلْ أيـ ... ـنَ لعيني بالجَفْنِ لثمُ ثَراكا
فبشيري لوْ جاءَ منكَ بعَطْفٍ ... وجُودي في قَبضتي قلتُ: هاكا
/٢٦٥/ هَبْكَ أنَّ اللاَّحي لحَاهُ بجهلٍ ... [عنكَ] قُلْ لي: عَنْ وصْلِهِ ما نَهاكا؟
أتُرى مَنْ أفتاك بالصَّدِّ عَني ... ولغيري بالودِّ مَنْ أفتاكا
كنتَ تَجْفُو وكانَ لي بعضُ صَبْرٍ ... أحسنَ اللهُ في اصطباري عَزَاكا
كلُّ مَنْ في حِماكَ يَهواكَ، لكنْ ... أنا وحْدِي بكُلِّ مَنْ في حِماكا

وقوله ـ رضي الله عنه[2] ـ [من البحر البسيط]

قِفْ بالديارِ وحَيِّ الأرْبُعَ الدُّرُسا ... ونادِها فَعَساها أنْ تُجيبَ عَسَى
فإنْ أجنَّك ليلٌ مِنْ تَوحُّشِها ... فاشعِلْ مِنَ الشوقِ في ظَلمائِها قَبَسَا

ومنها:

فإنْ بَكَى في قِفارٍ خلتُها لُجَجًا ... وإنْ تنفَّس عادتْ كلُّها يَبَسَا
كمْ زارني والدجَى يَرْبدُّ مِنْ حَنَقٍ ... والزهرُ تبسِمُ عَنْ وجهِ الذي عَبَسَا
وابتزَّ قلبيَ قَسْراً قلتُ مَظْلَمَةٌ ... يا حاكمَ الحُبِّ هذا القلبُ لِمْ حُبِسا؟

---

(١) ديوانه ١٥٦ـ ١٦١.

(٢) ديوانه ١٧٧ـ ١٧٨.

زرعتُ باللحظِ ورداً فوقَ وجْنَتِهِ ... حقاً لطرفيَ أنْ يَجني الذي غَرَسا
فإنْ أبى فالأقاحي منه لي عوضٌ ... مَنْ عُوِّض الثَّغرَ عَنْ دُرٍّ فما بُخِسا
تلكَ الليالي التي أعددتُ مِنْ عُمُري ... مَعَ الأحبةِ كانتْ كلُّها عُرُسا
لَمْ يَحْلُ للعينِ شيءٌ بعدَ بُعدهمُ ... والقلبُ مُذْ أنِسَ التَّذكارَ ما أَنِسا
وأُلزِمُ الصبرَ مني النفسَ مُكرَهَةً ... لولا التأسّي بدارِ الخُلدِ مُتُّ أَسَى

وقال[١]: [من الطويل]

يميناً بما في الثغرِ مِنْ رائقِ اللَّمى ... لقدْ ذبتُ مِنْ شَوقي إلى وجهِهِ ظَمَا
ولولا النسيمُ الحاجريُّ يمرُّ بي ... يُبشِّرني بالقربِ مِنْ ساكني الحِمىَ
لهَدَّمْتُ أَركانَ الصَّبابةِ والتُّقى ... ولكنَّني عَلَّلْتُ نَفساً برُبَّما
ومُحتجبٍ مِنْ خلفِ سُمْرٍ ذَوابلٍ ... وكمْ ماتَ فيهِ مِنْ مُحِبٍّ مُتيَّما
إذا جازَ في تربٍ له بعْدَ هَجْعَةٍ ... يُريكَ الضُّحى في غَيهَبٍ قدْ تَبَسَّما
سَلِ الغُصْنَ مَنْ أعطاهُ لِينَ قَوامِهِ ... ومَنْ قدْ أعارَ الجِيْدَ واللحظَ للدُّمى
/٢٦٦/ شَكَوتُ إلى عَينيهِ وَجْدي ولَوعتي ... فقالَ: لكَ البُشرى إذا مُتَّ مُغْرَما
يَرَى أنَّ قَتلي في هَواهُ مُحَلَّلاً ... وأنَّ وصالي والسَّلامَ مُحَرَّما
يَرقُّ لِما ألقاهُ في الليلِ طيفُهُ ... فَمَا ضَرَّهُ مِنْ طَيفِهِ لوْ تَعَلَّما
تلطَّفَ بي حتى تملَّكَ مُهجتي ... وعذَّبني بالتِيهِ والصَّدِّ عِندما
بَنَى في فُؤادي مَسكناً غيرَ أنَّهُ ... لرُكنِ اصطباري بالقطيعةِ هَدَّما
بوجهٍ تعالى اللهُ أتقنَ خَلْقَهُ ... فكَمْ نَسَخَتْ آياتُهُ آيةَ السَّما

وقوله[٢]: [من الخفيف]

أَعْلَنَتْ ما تُسُرُّهُ الآماقُ ... حِينَ أَضْمَتْ مَقاتِلِي الأَحدَاقُ
وكَتمتُ الغَرامَ شَحاً وصَوناً ... فأقَرَّتْ بنَشْوَتي العُشَّاقُ
يا أُهيلَ الحِمَى شكايةَ صَبٍّ ... فَتكتْ في فُؤادِهِ الأَحْدَاقُ
وُدُّهُ قدْ عَلِمتُوهُ سَليماً ... ما اعتراهُ بَعْدَ البِعادِ مُحاقُ
وهوَ مُذْ بايعَ الغَرام قَديماً ... مُؤمنُ العِشْقِ لم يَشُبْهُ نِفاقُ
لا وعَصْرِ الصِّبا وحُرمةِ ليلٍ ... ضَمَّنا حِينَ نامتِ الطُّرَّاقُ
ما أفادَ المَلامُ فيكُمْ ... وقلَّ غَرامي ولا وهي المِيثاقُ

وقوله[٣]: [من الكامل]

(١) أخل بها ديوانه.

(٢) و(٣) أخل بها ديوانه.

حَسْبُ المُحبِّ مِنَ الصبابةِ ما لَقِيْ ... لَمَّا تَخَلَّفَ بعدَهُ في الأبْرَقِ
ساروا فَمَا واللهِ ما كَتَمَ الدُّجَى ... نُورٌ أضَاءَ مِنَ الجَبينِ المُشْرِقِ
ولقدْ رَجَوتُ الصبرَ يبقَى بعدَ ما ... بانُوا فَلَجَّ بي الغَرَامَ وما بَقِي
أمُرُوا بإطلاقِ الدموعِ لبينِهِمْ ... وأسَيرُ سِحْرِ عُيونِهِمْ لمْ يُطْلَقِ
سَعِدَتْ حُدَاتُهمُ بكُلِّ مُمتَّعٍ ... في رَكبِهِمْ والرَّبْعُ بعدَهُمُ شَقِي
حاشا فُؤاداً خَلَّصوهُ لِوِدِّهمْ ... واستوطنوهُ لذكرِهِمْ لمْ يَخْفِقِ
يا قلبُ صبراً تَحتَ أعباءِ الهَوَى ... قبلَ المماتِ لَعَلَّنا لا نَلتقي
/٢٦٧/ ولرَّبما نُهْدِي الصَّبا في طَيِّها ... مِنْ نَشْرِها رُوحاً لقلبٍ شَيِّقِ
خَلِقَ التَّصَبُّرُ عنهمُ وهَواهمُ ... بينَ الضلوعِ جديدُهُ لمْ يَخْلَقِ

وقوله ـ رضي الله عنه(١) ـ: [من الطويل]

أشاهدُ مَعنى حُسنِكمْ فيَلَذُّ لي ... خُضوعي لديكمْ في الهَوَى وتَذلُّلي
وأشتاقُ للمَعنى الذي أنتُمُ بهِ ... ولولاكمُ ما شاقَني ذِكْرُ مَنْزِلِ
فللهِ كَمْ مِنْ ليلةٍ قَدْ قطَّعتُها ... بلذَّةِ عَيْشٍ والرَّقيبُ بَمعْزَلِ
ونلتُ مُرادي فوقَ ما كنتُ رَاجياً ... فوُاحَسْرَتا لو تَمَّ هذا ودَامَ لِي

وقد ذكره أبو الصفاء الصفدي(٢) وقال: قال الشيخ شمس الدين يعني الحافظ الذهبي: أنشدنا غير واحد أنه قال عند موته لما انكشف له الغطاء: [من البسيط]

إنْ كانَ مَنزلتي في الحُبِّ عندكُمُ ... ما قَدْ لَقِيتُ فقدْ ضَيَّعتُ أيامي
أمنيةٌ ظَفِرَتْ رُوحي بها زَمناً ... واليومَ أحسبُها أضغاثُ أحلامِ

قال: ومن شعره مما ليس في ديوانه(٣): [من الخفيف]

وإذا قيلَ مَنْ تُحِبُّ؟ تَخَطَّا ... كَ لساني وأنَتَ في القلبِ ذاكا
عَمِيَتْ عَيْنُ مَنْ رأى مثلَ عَينيـ ... ـكَ وطُوبى لعَينِ مَنْ قدْ رَآكا

ولد رضي الله عنه بالقاهرة سنة ست وسبعين وخمسمائة، وتوفي بها سنة اثنتين وثلاثين وستمائة. ودفن تحت العارض ـ مكان بالقرافة ـ ورثاه الجزار، فقال: [من الكامل]

لمْ يَبْقَ صَيِّبُ مُزْنَةٍ إلا وقَدْ ... وجَبَتْ عليهِ زِيارَةُ ابنِ الفارضِ

---

(١) ديوانه ١٧٩.
(٢) تاريخ الإسلام (السنوات ٦٦١ـ ٦٧٠هـ) ص ١١١.
(٣) أخل به ديوانه.

لا غـروَ أنْ يَسقِي ثَرَاه وقَبْرَهُ ... باقٍ ليومِ العَرضِ تحتَ العارِضِ

ومنهم:

[١٠٧]

أَبُو القَاسِمِ بنُ مَنصُور بنِ يحيى المَكِّيُّ الاسكَندَرِيُّ المعروفُ بالقَبَّاريّ(١)

حطَّ رجله بالآخرة وأناخ، ولم يتخذ الدنيا غير /٢٦٨/ مناخ، فلم يأنس من أهلها بقبيل. ولا سلك في سبلها إلا عابر سبيل، لعدم اغتراره ببرقها الجهام، وفرط حذاره من رشقها بالسهام، فلم يستطب فيها الملاذ، ولم يستطل بها العود والملاذ، وأقام لا يرشف من وِرْد زلالها ريقا، ولم يقبل من برد ظلالها طريقا.

وكان أحد العباد المشهورين بكثرة الورع والتحري في المأكل والمشرب والملبس، معروفاً بالانقطاع، والتخلي، وترك الاجتماع بأبناء الدنيا، والإقبال على ما يعنيه من أمر نفسه، وطريقه الذي سلكه، قلَّ أن يقدم أحد من أهل زمانه عليه من خشونة عيشه، وما أخذ به نفسه من الوحدة، وعدم الاجتماع بالناس، والجدّ، والعمل، والاحتراز من الرياء، والسمعة، لا يعلم في وقته من وصل إليه، وكانت الملوك ومن دونهم يقصدون زيارته، ورؤيته، والتبرك به، فلا يكاد يجتمع بأحد منهم، وأخباره في الورع والعبادة مشهورة.

وكان مقيماً بجبل «الصيقل» بظاهر الاسكندرية، وبه مات، ولم يزل عمره كله على قدم واحدة في الاجتهاد والعبادة، وقلة المبالاة بعيشه كيف كانت، ودنياه كيف نقصت، متقللاً من قليلها بجهده، مقبلاً على الآخرة بكليته، يتصدَّق بفضله، ويواسي في كفافه، ويؤثر من قوته، إلى كرم عزيز، وقَنِع باليسير.

ومما حكي عنه من الورع أنه لما رأى ما ينال الناس من الظلم في كرى الخليج

---

(١) ترجمته في: ذيل الروضتين ٢٣١، وذيل مرآة الزمان ٢/ ٣١٥ـ ٣١٦، وتكملة إكمال الإكمال لابن الصابوني ٢٧٢، ٢٧٣ رقم ٢٦٥، وزبدة الفكرة ٩/ ورقة ٦٨ب، والمشتبه في أسماء الرجال ١/ ٤١٤ و٤٣١، ودول الإسلام ٢/ ١٦٨، والعبر ٥/ ٢٧١، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧٧، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٤٣، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢١٧، ومرآة الجنان ٤/ ١٦٠، والوافي بالوفيات ٥/ ٧٦ رقم ٢٠٧٠، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٤٣، ٢٤٤، وعيون التواريخ ٢٠/ ٣١٦ـ ٣١٧، وتوضيح المشتبه ٧/ ١٦٦ و٢٤٧، والسلوك ج١ ق٢/ ٥٢٣، وتاريخ الخلفاء ٤٨٣، وشذرات الذهب ٥/ ٣١٢ وفيه النسبة: «القياري»، والقاموس المحيط للفيروزأبادي (مادّة/ قبر)، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٦١ـ ٦٧٠هـ) ص ١٢٢ـ ١٤٠ رقم ٨٣.

الواصل إلى الاسكندرية من النيل، أعرض عن مائه، وحمله التدقيق في الورع على أن حفر له بئراً كان يشرب منها، وينقل الماء منها بالجرار، على دابة ليسقي بستانه، وكان إذا وجد رطبة ساقطة تحت نخلة ولم يشاهد سقوطها منه، لا يرفعها، ولا يأكلها، لاحتمال أن طائراً جناها من نخل غيره، وسقطت منه تحت نخلة. وبالجملة لم يخلف بعده مثله.

وحكى علي بن حمزة النقيب، عن أبي / ٢٦٩/ المظفر يوسف بن عبد العزيز الدمنهوري، قال: أتيت الشيخ أبا القاسم وتهيبته أن أطرق عليه الباب، فوقفت لعلي أجد من يستأذن لي عليه، فسمعته يبكي وينشد: [من الخفيف]

كيفَ بُرْئي وداءُ وجُدِي عُضالُ ونهُوضي وعَثرَتي لا تُقالُ
وعزيزٌ على أهَونُ شيءٍ في هَواهُ ما قالتِ العُذَّالُ
يا نسيمَ الشَّمالِ مِنْ أرضِ نَجْدٍ فيكَ للصَّبِّ صِحَةٌ واعتلالُ
ليَ بالجَزْعِ حاجةٌ ليسَ تُقضَى وغَريمٌ يَلَذّ منْهُ المِطالُ
يا لَقَومي كَمْ ذا تُسَلُّ سُيُوفٌ لِقتالي وكَمْ تُرَاشُ نِبالُ
أَنتِ أَحلى في القلبِ مِنْ أَمل القلـ ـبِ إذا ما تَناهَتِ الآمالِ

قال: ولم يزل يرددها وهو يبكي ويشهق، حتى خفت عليه، فطرقت عليه الباب، فقطع إنشاده وسكَّن زفراته، وغيَّض عبراته، ثم أذن لي، فدخلت عليه، فقال: لعلك سمعت شعراً كنت أنشده؟ فقلت: كان ذلك، ولقد خشيت عليك واللهمما كنت فيه. فقال: يا هذا، تذكرت عشقة منذ عهد الصبا أنا إلى الآن في سكرها، وربما كانت في وقت أشد من وقت، والعاقل يستروح بمثل ما رأيت من أرواح الأشعار، وأنفاس الأشجار، وسألتك الله إلا ما كتمت. قال: فواللهما ذكرتها حتى مات.

وتوفي ليلة الاثنين سادس شعبان سنة اثنتين وستين وستمائة، ببستانه بجبل «الصَّيقل»، بظاهر الاسكندرية، ودفن به، بوصية منه، وقبره يزار ويتبرك به. وبيع الأثاث الموجود في منزله، وقيمته دون خمسين درهماً وَرِقًا، بما يزيد عن عشرين ألف درهم نُقْرَة، تزايد الناس فيه رجاء البركة حتى بلغ الإبريق الذي كان يستعمله ويتوضأ فيه للصلاة جملة كبيرة، وقيمة مثله لا يبلغ ثلاثة فلوس!. وقد رأيت خرقة من أثره عند بعض المصريين، / ٢٧٠/ وذكر أنها بيعت في أثاثه بمائة وعشرين درهماً.

ومنهم:

[١٠٨]

ابن فضل

صميم علم أغرق في الحسب، وأغبق في كَرم الحسب، ترقى للحيرة فعرف الحقيقة، وتوقى الحيرة فوقف على الطريقة.

قال: «إذا شئت أن تصير من الأبدال، فحوِّل خُلُقَكَ إلى بعض خلق الأطفال؛ ففيهم خمس خصال لو كانت في الكبار لكانوا أبدالاً، وهي: أنهم لا يغتمون للرزق. ولا يشتكون من خالقهم إذا مرضوا. ويأكلون الطعام مجتمعين. وإذا تخاصموا لم يتحاقدوا، وتنازعوا إلى الصلح. وإذا خافوا جرت عيونهم بالدموع».

وكان يقول للمريد إذا أتاه: تصحبني على أربعة خلائق هنَّ كنوز الجنة: كتمان الفاقة، وكتمان المصيبة، وكتمان المرض، وكتمان السر.

وكان يحب الخلوة، فإذا خلا رفع عقيرته، وأنشد قول الرضي[1]: [من الكامل]

جاذبته فَضْلَ العِتابِ وبينَنا ... كِبْرُ المُلولِ ورقَّةُ المَمْلُولِ

مَنْ لي بهِ والدارُ غيرُ بعيدةٍ ... عن داره والمالُ غير قليلِ

وحكي أن رجلاً كان يصحبه، فسمعه يقول يوماً في دعائه: «اللهم وحقق أملي»، فقال: يا سيدي! أيكون المحقَّقُ أملاً؟. فقال: اعلم أن الأمل العمل. وقيل: إن الفضيل بن فضالة سأل ربه أن يرفع عنه الأمل، فاستجاب له، فترك الأكل والشرب، فلم تستقم له العبادة، فدعا ربه أن يرد عليه أمله، فأكل وشرب. وأتاه نعي بعض إخوانه وهو يأكل طعاماً، فقال للمخبر له: اقعد فكل، فقد علمت. قال له: ومن أعلمك؟ وما سبقني إليك أحد!. قال: بلى، قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾[2] والعجب ممن يده في سلة الأفاعي كيف ينكر اللسع؟!!.

ومنهم:

[١٠٩]

/٢٧١/ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ الله بنِ المجدِ المُرشِدِيُّ الدَّهْرُوطي[3]، الشيخ أبو عبد الله:

رجلٌ من أهل منية مرشد، من الوجه البحري من ديار مصر. ظهر فيها ظهور

---

(١) من قطعة قوامها ٥ أبيات في ديوان الشريف الرضي ٢/ ٢٢٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨٥.

(٣) الدهروطي نسبة إلى دَهْرُوط؛ وهي بلدة على شاطيء غربي النيل من ناحية الصعيد قرب البَهْنَسا. =

الشمس في السماء، وصدر عنه الناس صدورهم عن الماء، وترامت إليه الفجاج بالوفود، وشُدَّت إليه الركائب من أقطار الوجود، وغصت طرق البر والبحر إليه، ونصَّت ألسنة المشرق والمغرب عليه، وظهرت له كرامات لم تظهر فيها معه لبشر بارقة، ولا غدت بها لابن أدهم سابقة، ولا جاء الجنيد منها إلا جيش ليس له به قِبَل، ولا وسع ذا النون المصري البحر ولا البرُّ ولا السهل ولا الجبل.

والناس فيه على قسمين: حتى أهل بلده؛ فأناس يقولون: إن أموره كانت رحمانية. وأناس يقولون: إنها شيطانية!. وسواد الجمهور: على حسن الاعتقاد فيه، وسأحكي من أموره ما فيه غنًى للواقف عليه.

قدمت مصرَ وهذا الرجل قد طارت سمعته، وطرقت الشام، وأسمعت الخاص والعام، ولم تبق أذن إلا وفيها منه صالح، وذاكر له بذكر صالح، وكنت أتمنى لقاءه، وقصدت هذا في قدمتي الاسكندرية، فحالت دون ذلك شواغل خدمة السلطان، وتمادى عليَّ ذلك الأمد، فقدم مصر حاجّاً، وأتى إلى خدمة السلطان، واجتمع به في الميدان المجاور للاسطبل، وكان فخر الدين ناظر الجيوش الجامع بينهما، وقام السلطان له، وأكرمه، وأجلسه إلى جانبه، وأقبل عليه يحدِّثه لما قرره فخر الدين في صدره، فلم يكن للشيخ حديث يحدِّث به السلطان، ولا موعظة يعظه بها، ولا مصلحة من مصالح الدنيا والآخرة يوصيه بها، إلا الإطناب في شكر فخر الدين، وذكر دينه وزهده وصلاحه، وأنه يتعين على السلطان أن يغتبط به، ويعتمد عليه، ويمسكه بيديه، / ٢٧٢/ وجعل كل مجلسه في هذا. فنزل من عين السلطان، وقال لألجاي الداوداري: هؤلاء يتقارضون الشهادات!. ثم قال له: لو كان هذا ولياً من أولياء الله أوصاني بسائر

= «معجم البلدان ٢/ ٤٩٢ مادة (دهروط)».

ترجمته في: دول الإسلام ٢/ ٢٤٤، وذيل العبر ١٩٨، والإعلام بوفيات الأعلام ٣١٢، ونزهة الناظر ٣٨٦ـ ٣٨٨، والمختصر في أخبار البشر ٤/ ١٢٠، وتاريخ حوادث الزمان ٣/ ٩٩٧ـ ٩٩٨ رقم ١٢٧٧، وتاريخ الملك الناصر للشجاعي ١٥، ١٦، ومرآة الجنان ٤/ ٢٩٢ـ ٢٩٦، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٣١٥، وطبقات الشافعية الكبرى ٥/ ٢٣٧، ونثر الجمان ٣/ ورقة ١٥٨ب، والوفيات لابن رافع ١/ ١٧٣ـ ١٧٤ رقم ٤٤، والبداية والنهاية ١٤/ ١٧٩، والوافي بالوفيات ٣/ ٣٧٢ـ ٣٧٣، وأعيان العصر ٤/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ رقم ١٦٣٠، وعيون التواريخ ورقة ٢٥أ، وتذكرة النبيه ٢/ ٢٦٩ و٢٧٩ـ ٢٨٠، وطبقات الأولياء ٥٦٨ـ ٥٦٩ رقم ٢٢١، وتاريخ ابن قاضي شهبة، ورقة ٢٧٠أ، والسلوك ج٢ ق٢/ ٤٢٧، والدرر الكامنة ٣/ ٤٦٢ـ ٤٦٤ رقم ١٢٤٧، وعقد الجمان ١٧/ ورقة ١١١أ، ب، والنجوم الزاهرة ٩/ ٣١٣، والمنهل الصافي ٦/ ورقة ٦٩١أ، ب، وحُسن المحاضرة ١/ ٥٢٥، والبدر الطالع ٢/ ١٨٨ـ ١٩٠، وشذرات الذهب ٦/ ١١٦، وجامع الأولياء ١/ ٤٠، ذيل تاريخ الإسلام (السنوات ٧٠١ـ ٧٤٦هـ) ص ٣٣٨ رقم ١٠١٦.

عباد الله، ولم يقتصر على ذكر الفخر، وكم في الناس من رجل قدمه خير من الفخر!.

وقال لبكتمر الساقي: والله لولا الحياء من الناس كنت ضربته على فمه!. ثم خرج المرشدي إلى الحج، وخرج السلطان إلى سرياقوس، فخرجنا معه، وأتانا الخبر بأن الشيخ في البركة، فقمت أنا ووالدي رحمه الله تعالى، وركبنا لنراه، فلحق بنا الداوداري، وقال: متى رحتم إليه ما يعجب السلطان، وذكره بأمور لا أحب ذكرها، ولم يزل حتى عدنا، ثم لم يقدر لي به اجتماع حتى مات في شعبان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، إلا أنه ومنذ قدم مصر وإلى أن مات لم تزل كتبه إليَّ متواصلة، وحوائجه لديَّ مقضية.

قلت: ولقد يحكى عنه من الغرائب ما لم نسمع مثله عن أحد من أهل زمانه، ولا ممن تقدمهم بزمان سالف. وكان الناس إذا قصدوه تشهَّوا في نفوسهم أنواع المآكل والمشارب، فإذا أتوه أتاهم به. على أنه في منقطع رمل، وقرية صغيرة لا يوجد فيها مثل تلك الأنواع!، والشائع الذائع عند عامة أهل مصر أنه كان يأتيه الجماعة وكل واحد قد يشتهي شيئاً، واقترح ما لا يوجد مثله إلا أن يكون في القاهرة، أو دمشق، فإذا حضروا عنده، وسلموا عليه، غاب عنهم هنيهة، ثم حضر وأحضر لكل واحد منهم ما اقترح، ويقولون: إن أكثر ما كان يحضره للناس في كمه، أو هو حامل له بيده، من غير خدام له، ولا من يستعين بهم، حتى زعموا أنه كان يحضر من أنواع الأطبخة عدة [من] الألوان، وليس عنده من يطبخ له، ولا يعرف له قدر ولا مغرفة، ولا زبدية، ولا موقد نار، مع اشتغاله طول نهاره وليله بالناس، ويزعمون أن هذا / ٢٧٣/ المدد ما هو في وقت دون وقت، بل إنه يأتي في اليوم الواحد بعدَّة من الألوان لا يعرف من أين أتى بها، ولا من طبخها!. إلى غير ذلك مما يحكون عنه من هذا ومثله، مما أظن أكثره من باب الخراف في القول.

وحكى لي صاحبنا القاضي شمس الدين القيسراني كاتب الإنشاء، وكان قد توجَّه قصداً لزيارته، قال: كنت قد أكلت في الطريق قبل إشرافي على بلده بقليل، فاشتهيت أقسما سكرية مبردة، فحال ما وصلت، وسلمت عليه، غاب عني هنيهة، وأتى معه أقسما سكرية مبرَّدة؛ مثل الأقسما التي تعمل للسلطان، وقال لي: اشرب هذه فإنك قد جئت من حر الطريق.

وحكى لي الشيخ أحمد بن عمر الأنصاري قال: الشيخ محمد المرشدي يتوجَّه في كل سنة إلى «كوم فرح» أظنه قال: في نصف شعبان، ويأتيه من الخلائق ما لا يحصى كثرة، ومعهم دوابُّهم.

و«كوم فرح» في مكان منقطع شاسع، ويقيم الناس عند الشيخ ثلاثة أيام، وهو يقوم بهم، وبما يحتاجون إليه من طعام وشراب وعليق، كل هذا يتولاه بنفسه، ولا يعرف من أين يأتي به؟!.

وحكى لي الأمير الوزير مغلطاي الجمالي ـ رحمه الله تعالى ـ قال: توجَّهت إلى زيارة الشيخ محمد، فلما قربت منه، اشتهيت قمحية بلبن حليب، بلحم خروف رميس، فلما وصلنا، جاء ومعه زبدية كبيرة فيها قمحية بلبن حليب بلحم خروف رميس، وقال لي: كُلْ، ثم بقي يغيب ويجيب أشياء أخر، ويضعها قدام مماليكي. وكلما جاب شيئاً إلى واحد منهم يعجب منه ويقول: والله أنا كنت قد اشتهيته!. وأحضر أكثر من عشرين لوناً ما يطبخ إلا في مطبخ السلطان.

وحكى لي شهاب الدين أحمد بن مليح الاسكندري بالاسكندرية، قال: نويت زيارة الشيخ محمد في نفسي، وقلت: لعلِّي أصادف عنده هيطلية بسمن وعسل آكل منها؟. فجاء كتاب وكيل الخاص باستعمال حوائج السلطان أعاقني عن ما /٢٧٤/ عزمت عليه، فلم يمضِ غير يومين أو ثلاثة، وإذا أنا برجل قد أتاني من عند الشيخ، وقال: الشيخ يسلم عليك، وقد بعث لك هذا السمن والعسل لتعمل لك هيطلية، وتأكلها بهما، ولو كانت تحمل إليك بعث لك بها.

قال ابن مليح: والله الذي لا إله إلا هو، لم أكن قد اطلعت أحداً على ما نويت ولا على ما كنت قد اشتهيت.

وأخباره في مثل هذا كثيرة. وكان ـ على ما ذُكِرَ لي ـ رجلاً مبدناً. ربعة من الرجال، حسن الشكل، منوَّر الصورة، جميل الهيأة، حسن الخلائق، يحفظ القرآن الكريم، و«التنبيه» في مذهب الشافعي، وكان فقيه النفس، مختصراً لكثير من المسائل، يتلو في أكثر الأوقات، ويفتي من استفتاه من غير أن يكتب خطه بشيء، وكان لا يرد نفسه عن الشفاعات إلى أرباب الدولة، وحاشية السلطان، وشفاعاته مقبولة، والوسائل به لا ترد. وقد زعم قومٌ أن هذه الكرامات إنما كانت بصناعة مقررة بينه وبين قاضي فوّه، فإنهما كانا روحين في جسد، وكان قد تحصَّن بالشيخ، فلا يقدر قاضي القضاة ولا أحد غيره على عزله، وطال ذيله، وأكثر من تسجيل البلاد والتجارة.

والولاة ترعاه إما للاعتقاد في الشيخ، أو لرجاء العناية من الشيخ بهم عند الدولة، فتنمت أمواله، وصلحت حاله، واتسعت دائرة سعادته، فلم يبق له دأب إلا تلقي من يصل من ذوي الأقدار قاصداً زيارة الشيخ، لأن «فوّه» طريق «منية المرشد»، فإذا وصل الزائر أنزله وأضافه، وشرع في محادثته، ومحادثة من معه، حتى يقف ما في

خواطرهم اقتراحه على الشيخ، ثم يبعث به إلى الشيخ، على دواب مركزة في الطريق بينهما، وعدة من الأوصاف بما لعله لا يكون عنده، ثم يعطيه حلية كل رجل من المذكورين واسمه!. قالوا: فكان بهذه الصنعة تم له ما أراد، فيشهد له من أتاه بما كان في نفسه، ويقول غيره بالتقليد كعادة العوام في ذلك. وعندي في كل أمره نظر، / ٢٧٥/ ولو رأيته لكنت وقفت على بعض الخبر. وبالجملة فكان ذا فضل وبرّ، ومعروف، ومذهب غير مألوف، رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[١١٠]

عَبدُ الله [بنُ مُحَمَّدٍ بنِ سَلمَانَ] المَنُوفيُّ(١)

جمع بين العلم والصلاح، وطلع نيره المشرق فلاح. فارقت مصر وهو قطب رحاها، وشمس ضحاها، وهو ممن تفقه واعتزل. قرأ الفقه على مذهب الشافعي، وانقطع بالمدرسة الصالحية مقتصراً على خويصة نفسه، لا يكاد يخرج إلا إلى الصلاة مع الجماعة، أو الجمعة. تقلل من متاع الدنيا، ولا يستكثر من الناس، ولقد أراد السلطان الاجتماع به فلم يرد، وعيِّن لجلائل التدريس والمناصب، وكنت المتحدِّث معه في ذلك فأبى، وعقد على الامتناع. ولقد أقمت بديار مصر ما أقمت من السنين، أرى أبناءها وأسمع أنباءها، فلم أرض أحداً مثله لعلمه وعمله، وصلاحه، وانقطاعه، وإن كان ابن اللبان أشهر وأوسع علماً، وأطول باعاً في علوم الشريعة والحقيقة، إلا أنه لا يخلو من متكلم فيه، والشيخ عبد الله مجمَعٌ [عليه]، وما ذاك إلا لعظم زهده، وتخليه، وقطع علائقه من الناس، وقطعهم عنه.

ولقد يحكى عنه كرامات ظاهرة كفلق الصبح، كان يحكي لي منها، ولكنني لم أضبطها. ومنها: ما حكى الأمير سيف الدين الجابي الدوادار ـ رحمه الله ـ قال: وقع في نفسي إشكال في مسألة، وكان لي صاحب من الفقهاء الحنفية أتردد إليه زمن الاشتغال، فنزلت إليه، وليس لي مهم إلا أن أسأله عن تلك المسألة، ليحل لي

---

(١) توفي سنة ٧٤٩هـ.

ترجمته في: الوافي بالوفيات ١٧/ ٧٠٠ـ ٧٠١ رقم ٥٩٣، طبقات الأولياء ٥٥٤، النجوم الزاهرة ١٠/ ٢٠٥، ٢٣٩، الدرر الكامنة ٢/ ٤١٩ـ ٤٢٠، المنهل الصافي ٧/ ٩٠، السلوك ٢/ ٣/ ٧٨١، ٧٩٥، طبقات الصوفية للمناوي ٣/ ٣٩، حسن المحاضرة ١/ ٤٢٥ـ ٤٢٦، نيل الابتهاج ١٤٣ـ ١٤٥، جامع كرامات الأولياء ٢/ ١١٩ .

الإشكال فيها، فأتيته، فلم أجده، فأتيت المدرسة التي بها الشيخ عبد الله المنوفي لأراه. فلما دخلت عليه، وسلمت عليه، وجلست، قال لي: كأنك مشتغل بشيء من الفقه؟. فقلت: نعم. فقال: ما قولك في كذا وكذا؟ ـ لتلك المسألة بعينها! ــ؛ فقلت: / ٢٧٦/ منكم يستفاد. فأخذ يتكلم في تلك المسألة وما عليها من الإيرادات، وذكر الإشكال الذي وقع في نفسي، ثم شرع يجيب عن تلك الإيرادات، حتى جلا ذلك الإشكال، وحل المسألة. فسألته عن شيء آخر؟. فقال: لا، قم مع السلامة، والقصد قد حصل. وهذه كرامة ظاهرة لا تنكر. رحمه الله تعالى.

ومنهم:

[١١١]

أَبُو عَبْدِ اللهِ، مُحَمَّدُ بنُ اللَّبَّانِ شمس الدين الشاذلي(١)

طراز مصر المذهّب، وفرد أهلها في علم الحقيقة والمذهب، والفائز المعلى قدحه، والسيد المحلى بذائب الذهب مدحه، طاب غرسه، وأشرقت ملء المشارق والمغارب شمسه، وطال لواؤه، وحسن دواؤه، وكثرت شيعته تتوالى منه وَلْياً تروى أنواؤه، وتجود الأرض سماؤه، وتعود بالفرض والنوافل نعماؤه. صحب الشيخ ياقوت الحبشي، وغيره من مشايخ الاسكندرية، ومصر، والشام، وأخذ عنهم من علوم الطريقة والحقيقة ما تقدم، تمهيد العلوم الشرعية، لسلوكه فيه، حتى برع وبزَّ أهل زمانه، وساد على أبناء دهره، وأطلق قلمه بالإفتاء، واشتغل عليه أنواع الطلبة، وأخذت عنه طوائف المريدين، وتكلم على رؤوس الأشهاد، وحضر مجلسه الخاص والعام، ولم يزل يشار إليه بالإجلال، ويذكر بالتعظيم.

وكنت أسمع به ولا يقيض لي به لقاء، ثم أصيب بما لم يخل منه مثله، فخلى في بعض مجالسه وقد شرع في كلام ما كمَّله، وأخذ في قول ما أتمَّه، فقام ابن الكاتب المالكي، وقطع عليه الكلام، وأخذ في الإنكار عليه، وقام معه أناس قلائل، وهمَّ بهم السواد الأعظم حتى كادوا يثبون بهم، ثم حجز بين الفريقين، ورفع ابن الكاتب القضية

---

(١) محمد بن أحمد بن عبد المؤمن الأسعردي الدمشقي، أبو عبد الله الشافعي المعروف بابن اللبان. توفي سنة ٧٤٩هـ.

ترجمته في: الوافي بالوفيات ٢/ ١٦٨ رقم ٥٢٤، الدرر الكامنة ٣/ ٣٣٠ـ ٣٣١، أعيان العصر ٤/ ٢٩٩، شذرات الذهب ٨/ ٢٧٩، تحقيق الارناؤوط، ذيول العبر للحسيني ٢٧١، مرآة الجنان ٤/ ٣٣٣، حسن المحاضرة ١/ ٤٢٨، الوفيات لابن رافع ١/ ٢٧٨.

إلى الحكام، وكان كلاماً يقتضي قبل تمامه ما أوقد حميَّة بعض الحكام عليه، فتحدَّث مع البقية، /٢٧٧/ ثم حدَّثوا السلطان فيه، فاستشاط غضباً وأمرهم فيه بأمر كاد لا يستدرك، فقيض له من بلَّغ السلطان القضية وأوصل إليه الخبر على حقيقته، وعرَّفه بمكانة الشيخ، وما هو عليه من العلم، والدين، فسخَّره الله له، وقلب تلهُّبَ غيظه عليه برداً وسلاماً له، وبعث إلى الحكام بالتمهل في أمره، ثم طلبه السلطان، وادَّعى عليه لديه، وسأله عما قال؟. فاعترف، فحكم بصحة إسلامه، وقبول دولته وإبقائه على ماله وزوجته، وعدالته، ومناصبه، بعد استيفاء الشرائط الشرعية، وفعل كما يجب شرعاً.

ثم عقد له مجلس بالمدرسة الصالحية، عند قاضي القضاة جلال الدين القزويني، فطلبه؛ فنزل من القلعة إليه، والناس حوله، وقد ملأ سواد الناس ما بين القلعة والمدرسة، فلما حضر مجلس الحكم العزيز، ادَّعى عليه، فأجاب بما حكم به السلطان، وأوصل حكم السلطان بالقاضي القزويني، وحكم حكماً آخر مستقلاً للشيخ بمثل ذلك، وامتنع من الكلام في المجالس العامة، ثم تكلم، وهو رجل قد جمع الله عليه من القلوب، وجمع له من أشتات ما لا هو في ظنٍّ ظانٍّ، هذا إلى حسن الشكل، وتنوير الوجه والصورة، وجمال الذات والهيأة، وجودة الخط، وحسن اللفظ، وبراعة اللسان، وكرم النفس، وجميل السجايا، فآهاً لدهر فرَّق بيننا وبينه، وزمان أبعد المدى عنه.

وله نظر ثاقب في الأدب، ونظم بديع[1].

* * *

(١) هذا آخر ما وجد في النسختين.

مصادر ومراجع التحقيق

- آثار طرابلس الإسلامي: د. عمر عبد السلام تدمري.
- الأئمّة الاثنا عشر: شمس الدين محمد بن طولون (ت ٩٥٣هـ) ـ تحقيق د. صلاح الدين المنجد ـ طبعة ١٩٥٨م.
- أخبار العلماء بأخبار الحكماء: الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦هـ)، طبعة القاهرة ١٣٢٦هـ.
- أخبار العبّاس وولده: مؤلّف مجهول، تحقيق د. عبد العزيز الدوري ود. عبد الجبار المطلبي، طبعة بيروت.
- أخبار القُضاة: القاضي وكيع محمد بن حيّان (ت ٣٠٦هـ)، طبعة عالم الكتب، بيروت.
- أخبار النحويين البصْريين: أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي (ت ٣٦٨هـ)، تحقيق د. فريتش كرمكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٦.
- أُسْد الغابة في معرفة الصحابة: علي بن أبي الكرم محمد المعروف بابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ)، طبعة طهران.
- الأسماء والصفات: البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨هـ).
- الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، طبعة مصر ١٩٣٩.
- الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: لخير الدين الزركلي (ت ١٣٩٦هـ)، ط٤/ دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٩.
- أعيان العصر وأعوان النصر: لصلاح الدين، خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: علي أبو زيد وآخرين، ط مركز جمعة الماجد ودار الفكر بدمشق ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- الأغاني: أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني (ت ٣٥٦هـ)، طبعة مؤسسة جمّال ببيروت، المصوَّرة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٦٣.
- الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب: الأمير هبة الله بن ماكولا (ت ٤٥٧هـ)، نشره المعلمي اليماني، حيدر آباد ١٩٦٢م.

- الأمالي: أبو علي القالي إسماعيل بن القاسم البغدادي (ت ٣٥٦هـ)، تقديم محمد عبد الجواد الأصمعي، طبعة دار الكتاب العربي ببيروت المصوَّرة عن طبعة دار الكتب المصرية.
- أمالي المرتضَى (غُرر الفوائد ودُور القلائد): الشريف المرتَضَى علي بن الحسين الموسوي العلوي (ت ٤٣٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٧.
- أمراء دمشق في الإسلام: خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٥٥م.
- إنباه الرُواة على أنباه النُحاة: الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٥م.
- الانتقاء في فضل الثلاثة الأئمة الفقهاء: مالك والشافعي وأبي حنيفة، يوسف ابن عبد البر القرطبي (ت ٣٦٤هـ)، القاهرة ١٩٥٠م.
- الأنساب: الإمام أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (ت ٥٦٢هـ)، تحقيق محمد عوّامة، نشره محمد أمين دمج، بيروت.
- أنساب الأشراف: أحمد بن يحيى بن جابر البلاذُري (ت ٢٧٩هـ)، الجزء الثالث، تحقيق عبد العزيز الدوري، منشورات المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت ١٩٧٨.
- أنساب الأشراف: أحمد بن يحيى بن جابر البلاذُري (ت ٢٧٩هـ)، الجزء الخامس، نشره غويتن، طبعة القدس ١٩٣٦.
- الأنساب المتّفقة: أبو الفضل محمد بن طاهر المعروف بابن القيسراني (ت ٥٠٧هـ)، تحقيق دي غويه، طبعة المثنَّى ببغداد.
- الأوزاعي وتعاليمه الإنسانية والقانونية: د. صبحي المحمصاني، بيروت ١٩٧٨م.
- البداية والنهاية في التاريخ: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، طبعة بيروت، الرياض ١٩٦٦م.
- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضّبّي (ت ٥٩٨هـ)، نشرته دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٧م.
- بغية الوُعاة في طبقات اللُّغويين والنُّحاة: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي (ت ٩١١هـ)، طبعة مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦هـ.
- البيان المُغْرِب في أخبار الأندلس والمغرب: ابن عذارى المراكشي، نشره ج.

س. كولان، وليفي بروفنسال، طبعة دار الثقافة، بيروت.

- البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، طبعة دار الفكر للجميع بيروت ١٩٦٨م.
- تاج العروس من جواهر القاموس: السيد محمد مرتضى الحسيني الزُّبيدي، سلسلة التراث العربي، منشورات وزارة الإعلام، الكويت.
- التاج المكلَّل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول: أبو الطيّب صدّيق ابن حسن القنوجي، طبعة بمباي ١٩٦٣م.
- التاريخ: يحيى بن مَعين، أبو زكريا يحيى بن مَعين بن عون بن زياد المرّي الغَطَفَاني (ت ٢٣٣هـ)، تحقيق د. أحمد محمد نور سيف منشورات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة ١٩٧٩.
- تاريخ أبي زُرْعَة: أبو زُرْعَة عبد الرحمن بن عمرو الدمشقي، رواية أبي الميمون بن راشد، تحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٠م.
- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط دار الكتاب العربي - بيروت ط٣/ ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- تاريخ بغداد: الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، طبعة محمد أمين الخانجي، مطبعة السعادة بمصر ١٩٣١م.
- تاريخ بيروت والأمراء البُحْتُريّين: صالح بن يحيى (توفي في القرن التاسع الهجري)، تحقيق فرنسس هورس وكمال الصليبي، طبعة المشرق، الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٧م.
- تاريخ جُرْجان: أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي، طبعة حيدر أباد ١٩٥٠م.
- تاريخ الحكماء (مختصر الزَّوْزَني المسمَّى بالمنتخبات الملتَقَطات من أخبار الحكماء): جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦هـ)، نشره ليبرت، لَيْبزغ ١٩٠٣م.
- تاريخ الخلفاء: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة السعادة بمصر ١٩٥٢م.
- تاريخ خليفة بن خياط: خليفة بن خيّاط، أبو عمر شباب العصفري (ت ٢٤٠هـ)، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٧م.

- تاريخ الرسل والملوك: محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف بمصر.
- التاريخ الصغير: الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، طبعة الهند ١٣٢٥هـ.
- تاريخ علماء الأندلس: أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يونس الأزدي المعروف بابن الفَرَضي (ت ٤٠٣هـ)، طبعة القاهرة ١٩٦٦.
- التاريخ الكبير: الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، صحّحه عبد الرحمن بن يحيى اليماني، نشرته دائرة المعارف العثمانية ١٣٦٢هـ.
- تاريخ مدينة دمشق: الحافظ أبو الحسن علي بن حسن المعروف بابن عساكر الدمشقي (ت ٥٧١هـ)، نسخة خطّية بدار الكتب الظاهرية، دمشق رقم ٣٣٨٧، ونسخة خطّية بدار الكتب المصرية، رقم ١٠٤١ تاريخ، تيمور، ونسخة مصوّرة تتضمّن تراجم من اسمه «عبد الله»، نشرها مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٨م، وطبعة دار الفكر - بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- تاريخ الموصل: أبو زكريا يزيد بن محمد الأزدي (ت ٣٣٤هـ)، تحقيق د. كوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٧م.
- تاريخ اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ)، منشورات دار صادر بيروت.
- تذكرة الحُفّاظ، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، طبعة حيدر أباد ١٩٥٥ـ ١٩٥٧م.
- تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل، عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧هـ): تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى اليماني، طبعة حيدر آباد ١٩٥٢.
- تقريب التهذيب: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاّني (ت ٨٥٢هـ)، نشره عبد الوهاب بن عبد اللطيف، بيروت ١٩٧٥.
- تهذيب الأسماء واللغات: أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، طبعة بيروت.
- تهذيب التاريخ الكبير (تاريخ دمشق): الحافظ أبو الحسن علي بن حسن المعروف بابن عساكر الدمشقي (ت ٥٧١هـ)، هذّبه: عبد القادر بدران، طبعة دار المسيرة، بيروت ١٩٧٩م.
- تهذيب التهذيب: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، طبعة حيدر أباد ١٣٢٥ وما بعدها.

- الثقات: محمد بن حبّان البُسْتي (ت ٣٥٤هـ).
- الجامع الصغير: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي (ت ٩١١هـ).
- جذوة المقتبس في ذكر وُلاة الأندلس: أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتّوح بن عبد الله الأزدي الحُمَيْدي (ت ٤٨٨هـ)، طبعة مصر ١٩٦٦.
- الجرح والتعديل: عبد الرحمن بن أبي حاتم بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الرازي (ت ٣٢٧هـ)، طبعة حيدر أباد ١٩٥٣م.
- الجمع بين رجال الصحيحين: أبو الفضل محمد بن طاهر القيسراني (ت ٥٠٧هـ)، طبعة حيدر أباد ١٣٢٣هـ.
- جمهرة أنساب العرب: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٧م.
- الجواهر المُضِيَّة في طبقات الحنفية: محمد بن أبي الوفاء القرشي الحنفي (ت ٧٧٥هـ)، طبعة حيدر أباد ١٣٣٢هـ.
- حُسْن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي (ت ٩١١هـ)، طبعة القاهرة ١٢٩٩هـ.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: الحافظ أبو نُعَيْم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٧م.
- خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب: عبد القادر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، طبعة القاهرة ١٩٦٦م.
- خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال: صفيّ الدين الخزرجي الأنصاري، طبعة مصر ١٣٢٢هـ.
- دفع شبَه التشبيه: ابن الجوزي جمال الدين أبو الفرج (ت ٥٩٧هـ).
- دُول الإسلام: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق فهيم شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤م.
- ديوان أبي بكر الشبلي: جعفر بن يونس المشهور بدلف بن جحدر (ت ٣٢٤هـ)، ط مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.
- ديوان الحلاج: صنعة د. كامل مصطفى الشيبي ط٢/ بغداد ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- ديوان الحلاج: د. سعدي ضناوي، ط دار صادر ـ بيروت ١٤٢٤هـ.
- ديوان رؤبة بن العجّاج: رؤبة بن العجّاج (ت ٤٤٥هـ)، نشره وليم ابن اللورد البروسي، سنة ١٩٠٣.
- ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري: تحقيق: د. عمر موسى باشا، ط

مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

- ديوان الشريف الرضي: ط دار صادر - بيروت ٢٠٠٤.
- ديوان ابن عربي: شرح وتقديم: نواف الجرّاح، ط دار صادر - بيروت ١٩٩٩.
- ديوان ابن الفارض: دار صادر - دار بيروت ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.
- ديوان المعاني: أبو هلال العسكري، طبعة مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥٢هـ.
- ديوان ابن نباته المصري: «جمال الدين، محمد بن محمد بن محمد بن نباتة (ت ٧٦٨هـ)»، ط دار إحياء التراث العربي - بيروت [دت].
- ذِكْر أخبار أصبهان: الحافظ أبو نُعَيْم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، نشره سنن دررنج، طبعة ليدن ١٩٣١م.
- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، ط الشريف الرضي رقم - ١٤١٠هـ اوفست عن طبعة الأوقاف العراقية.
- رجال السند والهند إلى القرن السابع: القاضي أبو المعالي أطهر المباركبوري، طبعة دار الأنصار بالقاهرة ١٣٩٨هـ.
- رجال الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (تت ٤٦٠هـ)، نشره محمد صادق آل بحر العلوم، المطبعة الحيدرية بالنجف ١٩٦١م.
- الرسالة القشيرية: لعبد الكريم بن هوازن القشيري ط مصر ١٢٨٤هـ.
- رسالة محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي: أحمد بن محمد بن أحمد الموصلي المعروف بابن زيد (ت ٨٧٠هـ)، نشره شكيب أرسلان، القاهرة ١٩٣٣.
- رفع الإصْر عن قَضاء مصر: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ)، تحقيق حامد عبد المجيد، نشرته وزارة الثقافة والإرشاد بمصر ١٩٦١.
- روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات: ميرزا محمد باقر الموسوي الخُوانساري، طبعة إيران ١٣٦٧هـ.
- زهر الأداب وثمر الألباب: الحُصَري، تحقيق علي محمد البجاوي، طبعة مصر ١٩٥٣م.
- السابق واللاحق في تباعد ما بين وفاة راويين عن شيخ واحد: الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق ودراسة محمد بن مطر الزهراني، طبعة دار طيبة، الرياض ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

- سِيَر أعلام النبلاء: شمس محمد بن أحمد الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق جماعة بإشراف شعيب الأرناؤوط، طبعة مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨١م.
- شَذَرات الذَهَب في أخبار من ذهب: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ)، منشورات دار الآفاق الجديدة ببيروت، المصورَّرة عن الطبعة المصرية ١٣٥١هـ، ثم بتحقيق الأرناؤوط.
- شرح مقامات الحريري: الشريشي أحمد بن عبد المؤمن (ت ٦٣٠هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة المدني بمصر ١٩٧٣.
- الشعر والشعراء: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، دبعة دار الثقافة ببيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- صفة الصفوة: جمال الدين أبو الفرج المعروف بابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق محمود فاخوري، خرّج أحاديثه محمد روّاس قلعه جي، طبعة حلب ١٣٩٣هـ.
- الضعفاء الصغير: الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) (ملحق بالتاريخ الصغير)، تحقيق محمود إبراهيم زايد، طبعة حلب ١٣٩٦هـ.
- الضعفاء والمتروكين: الحافظ أبو عبد الرحمن بن شعيب النسائي، (ملحق بالضعفاء الصغير للبخاري)، تحقيق محمود إبراهيم زايد، طبعة حلب ١٣٩٦هـ.
- الطبقات: أبو عمر خليفة بن خياط شباب العصفري (ت ٢٤٠هـ)، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، طبعة العاني ببغداد ١٩٦٧م.
- طبقات الحُفّاظ: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي (ت ٩١١هـ)، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- طبقات الشعراء المحدثين: ابن المعتزّ، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٦م.
- طبقات الفقهاء: أبو إسحاق الشيرازي الشافعي (ت ٤٧٦هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، طبعة بيروت ١٩٧٠.
- طبقات القراء= غاية النهاية.
- الطبقات الكبرى: محمد بن سعد المعروف بكاتب الواقدي (ت ٢٣٠هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٥٧، ١٩٥٨م.
- الطبقات الكبرى، المُسَمّاة (لواقح الأنوار في طبقات الأخبار): أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري الشافعي المصري المعروف بالشعراني، طبعة البابي الحلبي، مصر ١٩٥٤.

- طبقات المدلّسين: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ).
- طبقات المعتزلة: أحمد بن يحيى بن المرتضَى، تحقيق سوسنة ديفلد، فلزر، طبعة بيروت ١٩٦١.
- طبقات المفسّرين: محمد بن علي بن أحمد الداودي (ت ٩٤٥هـ)، تحقيق علي محمد عمر، طبعة القاهرة ١٩٧٢.
- طبقات النُّحَاة واللُّغَويّين: أبو بكر محمد بن الحسن الزَّبيدي (ت ٣٧٩هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٣.
- عبد الرحمن الأوزاعي شيخ الإسلام: طه الولي، طبعة دار صادر بيروت ١٩٦٨.
- العِبَر في خبر مَن غَبَر: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق د. صلاح الدين المنجد وفؤآد السيّد، طبعة الكويت ١٩٦٠ـ ١٩٦٦م.
- العِقْد الفريد: أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ)، تحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزين، إبراهيم الأبياري، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر ١٩٥٢م.
- العِقْد الثمين في تاريخ البلد الأمين: تَقيّ الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي المالكي (ت ٨٣٢هـ)، تحقيق فؤاد سيد ومحمد طاهر الطناجي، القاهرة ١٩٥٩ـ ١٩٦٩م.
- عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب: أحمد بن علي الداودي الحسبي، تحقيق د. نزار رضا، طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت.
- عوارف المعارف: لشهاب الدين، أبي حفص، عمر السهروردي (ت٦٣٢هـ)، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، د. محمود بن الشريف، ط دار المعارف بمصر ١٩٩٣ـ ٢٠٠٠م.
- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والتّيّسيرَ: ابو الفتح محمد بن أبي عمرو محمد المعروف بابن سيّد الناس (ت ٧٣٤هـ)، طبعة مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥٦هـ.
- عيون الأخبار: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينَوَري (ت ٢٧٦هـ)، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥.
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء: موفّق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم ابن أبي أُصيْبِعة السعدي الخزرجي (ت ٦٦٨هـ)، طبعة دار الثقافة بيروت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- غاية النهاية في طبقات القراء: محمد بن محمد بن الجزري (ت ٨٣٣هـ)،

تحقيق أتو بدتزل وبرجستراسر، القاهرة ١٩٣٣ـ ١٩٣٧م.

- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: محمد بن علي بن طباطبا المعرف بابن الطقطقي (ت ٧٠٩هـ)، طبعة دار صادر، بيروت ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م.
- الفهرسْت: محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم (ت ٣٨٠هـ)، طبقة مصوَّرة عن طبعة أوربة بتحقيق فلوجل ـ مكتبة خيّاط، بيروت ١٩٦٤م.
- فهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنَّفة في ضروب العلم وأنواع المعارف: أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الإشبيلي (ت ٥٧٥هـ)، نشره فرنستسكه قداره زيدين وخليان رباره طرغوه، طبعة سرقُسْطَه ١٨٩٣ (مصوَّرة دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٩).
- فوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق د. إحسان عباس ـ طبعة دار صادر، بيروت ١٩٧٣، ١٩٧٤.
- القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي الشيرازي (ت ٨١٧هـ)، مصوَّرة دار الفكر، بيروت.
- قُضاة قرطبة وعلماء إفريقية: أبو عبد الله الخشني، طبعة القاهرة ١٣٧٢هـ.
- قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان: لكمال الدين، أبي البركات، المبارك ابن الشعّار الموصلي (ت ٦٥٤هـ)، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب السّتّة: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، نشره عزّت علي عيد عطيّة وموسى ومحمد علي الحوشي، طبعة القاهرة ١٩٧٢م.
- الكامل في التاريخ: عزّ الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ)، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٦٥.
- الكواكب السيّارة في ترتيب الزيارة: لابن الزيّات.
- اللُّبَاب في تهذيب الأنساب: عزّ الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير الجذري (ت ٦٣٠هـ)، طبعة دار صادر بيروت.
- لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفّاظ: لمحمد بن فهد المكي ط دمشق ١٣٤٧هـ، طبع مع ذيل تذكرة الحفّاظ لأبي المحاسن الحسيني الدمشقي.

- لسان الميزان: أحمد بن علي بن محمد المعروف بابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، طبعة حيدر أباد ١٣٢٩هـ.
- المجروحين من المحدّثين والضعفاء والمتروكين: محمد بن حبّان البُسْتي (ت ٣٥٤هـ)، نشره محمود إبراهيم زايد، طبعة حلب ١٣٩٦هـ.
- المحبّر: رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السُّكّري، عن أبي جعفر محمد ابن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥هـ)، صحّحته د. إيلزه ليختن شتيتر مصوَّرة دار الآفاق الجديدة ببيروت عن طبعة حيدر أباد ١٣٦١هـ.
- مراتب النَّحْويين: أبو الطيّب عبد الواحد بن علي اللُّغَوي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة القاهرة ١٩٥٥هـ.
- مِرآة الجنان وعبرة اليقظان في حوادث الزمان: أبو محمد عبد الله اليافعي (ت ٧٦٨هـ)، طبعة حيدر أباد ١٣٢٨.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر: علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٨م.
- مشاهير علماء الأمصار: محمد بن حِبّان البُسْتي (ت ٣٥٤هـ)، نشره م. فلايشهم، طبعة القاهرة ١٩٥١م.
- المشتبه في أسماء الرجال: شمس الدين محمد بن الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، طبعة القاهرة ١٩٦٢.
- المصايد والمطارد: محمود بن الحسين، أبو الفتح المعروف بكشاجم (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق د. محمد أسعد طلس، طبعة بغداد ١٩٥٤.
- المعارف: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينَوَري (ت ٢٦٧هـ)، تحقيق د. ثروت عُكاشة، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.
- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب): أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت ابن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦هـ)، نشره د. مرجليوت، القاهرة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨.
- معجم البلدان: أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، طبعة دار صادر، بيروت.
- معجم بني أميّة: د. صلاح الدين المنجد، طبعة دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧٠.
- معجم الشيوخ: لشمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق: د. محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق ـ الطائف ـ السعودية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- معرفة علوم الحديث: الإمام الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ

النيسابوري (ت ٤٠٥هـ)، تحقيق د. السيد معظّم حسين، مصوَّرة المدينة المنوَّرة ١٩٧٧ عن طبعة حيدر أباد.

- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق محمد سيّد جاد الحق، طبعة دار التأليف بمصر ١٩٦٩م.
- المعرفة والتاريخ: أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي (ت ٢٧٧هـ)، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، طبعة وزارة الأوقاف العراقية، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٤ـ ١٩٧٦م.
- المُغْني في الضعفاء: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق د. نور الدين تمر، مصوَّرة ببيروت (لا مكان للطبع ولا تاريخ).
- مقاتل الطالبيين: أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر، طبعة القاهرة ١٩٤٩.
- مقدّمة فتح الباري في شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، طبعة القاهرة.
- مناقب أبي حنيفة: الإمام الموفَّق بن أحمد المكّي الخوارزمي (ت ٥٦٨هـ)، نشره محمد حيدر الله خان الدراني الحنفي، صوّرته دار الكتاب العربي ببيروت ١٤٠١هـ عن طبعة حيدر أباد.
- مناقب أبي حنيفة: الإمام حافظ الدين بن محمد المعروف بالكردَري (ت ٨٢٧هـ) مُلْحَق بالذي قبله.
- المُنْتَخَب من كتاب ذيل المُذَيَّل: محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٧م.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: لابن الجوزي، جمال الدين، أبو الفرج، عبد الرحمن بن علي (ت٥٩٧هـ)، ط حيدر آباد ـ الدكن ١٣٥٧هـ، ثم ط دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شِعرهم: الحسن بن بِشْر الآمدي (ت ٣٧٠هـ)، نشره د. ف كرنكو، طبعة القدسي القاهرة.
- موسوعة أعلام الموصل: بسّام إدريس الجلبي، نشر كلية الحدباء الجامعة الموصل ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي: جمعها د. عمر عبد السلام تدمري، طبعة المركز الإسلامي للإعلام والإنماء، بيروت ١٩٨٤.

- ميزان الاعتدال في نقد الرجال: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي ـ القاهرة ١٩٦٣م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ)، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٦٣.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء والنُّحاة: أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري (ت ٥٧٧هـ)، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، بغداد ١٩٥٩م.
- نزهة الألباب في الألقاب: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، نسخة خطيّة بدار الكتب المصرية رقم ٣٣٦ مصطلح الحديث.
- نسب قريش: مَصْعَب بن عبد الله بن الزبير (ت ٢٣٦هـ)، تحقيق ليفي بروفنسال، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٣.
- نَكْت الهميان في نُكَت العميان: صلاح الدين، خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، نشره د. أحمد الزكي، القاهرة ١٩١١م.
- نهاية الإرب في فنون الأدب: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣هـ)، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٦٣م.
- نور القبس: للمرزباني، اختصار الحافظ أبي المحاسن يوسف بن أحمد (ت ٦٧٣هـ)، تحقيق رودلف زلهايم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٤م.
- الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، منشورات المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ببيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م ومابعدها.
- الوزراء والكُتَّاب: محمد بن عبدوس الجهشياري (ت ٣٣١هـ)، تحقيق مصطفى السَّقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، طبعة البابي الحلبي بمصر ١٩٣٨.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلّكان (ت ٦٨١هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، طبعة دار الثقافة بيروت.
- الوفيات: لمحمد بن رافع السلامي الدمشقي، تحقيق: عبد الجبار زكار، منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٨٥م.
- الولاة والقضاة: أبو عمر محمد بن يوسف الكِنْدي المصري (ت ٣٥٠هـ)، نشره رفن كَست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨.

فهرس المحتويات